يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين

2024

المجلد الحادي والعشرون وفيه كتابا ذم الجاه وذم الكبر والعجب

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب ذم الجاه والرياء

٢٨ - كتاب ذم الجاه والريـاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحًا لِذِكره، وسببًا للمزيد من فضله، ودليلاً علىٰ آلائه وعظمته. أحمدُه إلىٰ نفسه كما أستحمده إلىٰ خلقه، جعل لكل شيء قدْرًا، ولكل قدر أجلاً، ولكل أجل كتابًا. وأشهد أن لا إله إلا الله غير معدول به، ولا مشكوك فيه، ولا مكفور دينه، ولا مجحود تكوينه، شهادة مَن صدقت نيَّته وصَفَتْ دخلتُه وخلص يقينه وثقلت موازينه. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وصفيَّه وخليله، أمين وحيه، وخاتم رسله، وبشير رحمته، ونذير نقمته، بعثه بالنور المضيِّ والبرهان الجليِّ، والمِنهاج البادي والكتاب الهادي، فأظهر به الشرائع المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبيَّن به الأحكام المفصولة. صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله مصابيح الدُّجَىٰ وأصحابه ينابيع الهدىٰ وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فهذا شرح كتاب «ذم الجاه والرياء»، وهو الثامن من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، بوَّأه اللهُ في جِنانه القصورَ المشرفة العوالي، أودعتُ فيه جملاً من فوائد من صدور القوم مستفادة، وكشفت غررًا من مطاوي متونه مستجادة، مقتطِفًا من رياض

المعارف اليانعة الأزهار، ممتطيًا غارب سنام التوشيح البادي الأسفار، سالكًا مَحَجَّة الاختصار النافع المفيد، مجتنبًا طي مراحل التطويل والتعقيد. وعلىٰ الله الإعانة في حسن الإبانة، فما أسعد عبدًا وفَّقه مولاه وأعانه، إنه بكل خير ملي وبالفضل جدير، وهو علىٰ كل شيء قدير.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله علاَّم الغيوب**) جمع الغيب وهو ما غاب عن الحس ولم يكن عليه عَلَمٌ يهتدي به العقل ليحصل به العلمُ[١] (**المطَّلع علىٰ سرائر القلوب**) وفي بعض النسخ: أسرار القلوب. والسريرة والسر بمعنىٰ واحد (**المتجاوز عن كبائر الذنوب**) أي المسامح عنها بفضله، والكبائر منها سيأتي التفصيل في حدِّها (**العالِم بما تجنُّه**) أي تخفيه (**الضمائر**) جمع ضمير وهو داخل القلب (**من خفايا العيوب**) أي الباطنة منها، وبين «العيوب» و«الغيوب» جناس تصحيف (**البصير بسرائر النيَّات وخفايا الطويَّات**) جمع الطَّوية، فعيلة من الطي، والمراد بها هنا باطن القلب (**الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفىٰ وخلص من شوائب الرياء والشرك وصفا**) فشرط القبول في العمل: كماله بشروطه المعتبَرة، وتوفيته بحقوقه، وخلوصه من شائبة الرياء والسمعة وخفيِّ الشرك. وما لم يكن كذلك فهو مردود علىٰ صاحبه، وقد وردت بذلك أخبار سيأتي ذِكر بعضها (**فإنه المنفرد بالملكوت والمُلك**) وهما[٢] عالَمان: فالملكوت هو عالم الغيب المختص بأرواح النفوس، والمُلك هو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية (**وهو أغنىٰ الأغنياء عن الشرك**) روىٰ مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة: «قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه». وعند ابن جرير في التهذيب والبزار في المسند بلفظ: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: مَن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له

---

(١) نقله البقاعي في نظم الدرر ١/ ٨٤ عن أبي الحسن الحرالي.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٢٤٦. وفيه: المختص بالأرواح والنفوس.

كله، وأنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك»[١] **(والصلاة والسلام علىٰ)** سيدنا **(محمد وآله وصحبه المبرَّئين)** أي المنزَّهين **(من الخيانة)** وهي[٢] مخالفة الحق بنقض العهد في السر **(والإفك)** بالكسر، وهو[٣] كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه **(وسلم تسليمًا كثيرًا.**

أما بعد، فقد قال رسول الله ﷺ: إن أخوفَ ما أخاف علىٰ أمَّتي الرياء والشهوة الخفية) المشهور المتلقَّىٰ أن قوله «والشهوة» معطوف علىٰ ما قبله، ويمكن نصبُ «الشهوة» وجعل الواو بمعنىٰ مع، أي الرياء مع الشهوة الخفيَّة للمعاصي، فكأنه يُرائي الناس بتركه المعاصي والشهوةُ لها في قلبه مُخفاة[٤]. وهو وجه حسن. وقيل: الرياء: ما ظهر من العمل، والشهوة الخفية: حب اطِّلاع الناس علىٰ العمل[٥].

قال العراقي[٦]: رواه ابن ماجه[٧] والحاكم[٨] من حديث شداد بن أوس، وقالا: الشرك، بدل: الرياء، وفسَّراه بالرياء. قال الحاكم: صحيح الإسناد. قلت: بل ضعيفه، وهو عند ابن المبارك في الزهد - ومن طريقه البيهقي في الشعب بلفظ المصنف[٩]. انتهىٰ.

قلت: رواه ابن ماجه من طريق روَّاد بن الجَرَّاح، عن عامر بن عبد الله، عن

---

(١) سيأتي هذا الحديث في بيان ذم الرياء.

(٢) المفردات للراغب ص ١٦٣.

(٣) السابق ص ١٩.

(٤) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٣٥٥.

(٥) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٥٧١ (ط - دار الكتب العلمية).

(٦) المغني ٢/ ٩٢٣.

(٧) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٤.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٥.

(٩) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣٢٣ موقوفا علىٰ شداد، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٥٢ - ١٥٤ من عدة طرق موقوفا ومرفوعا.

الحسن بن ذَكْوان، عن عُبادة، عن شداد، ولفظه: «إن أخوف ما أخاف علىٰ أمَّتي أن تشرك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا وثنًا، ولكن أعمالاً لغير الله، وشهوة خفيَّة». وفي لفظ: أتخوَّف، بدل: أخاف. و: تعبد، بدل: يعبدون. ومن هذا الوجه رواه أبو نعيم في الحلية[(١)]. ورَوَّاد ضعَّفه الدارقطني[(٢)]. وعامر، قال المنذري[(٣)]: لا يُعرف. والحسن بن ذكوان، قال أحمد: أحاديثه بواطيل[(٤)]. وقد رواه أحمد[(٥)] وزاد فيه: قيل: وما الشهوة الخفية؟ قال: «يصبح أحدهم صائمًا فتعرِض له شهوةٌ من شهوات الدنيا فيفطر». قال[(٦)] العراقي: وهو حديث لا يصح، ففي إسناده عبد الواحد بن زيد، وهو ضعيف. قال: وبتقدير صحته فإبطاله صومه لأجل شهوته مكروه، بخلافه لأمر مشروع من زائر وعارض، فلا تعارُض بينه وبين خبر «الصائم المتطوع أمير نفسه: إن شاء صام، وإن شاء أفطر». انتهىٰ.

وروىٰ أحمد[(٧)] من حديث محمود بن لبيد: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء، يقول الله لهم يوم القيامة إذا جُزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». ورواه الطبراني في الكبير[(٨)] بنحوه، إلا أنه قال: عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٦٨.

(٢) الضعفاء والمتروكون للدارقطني ص ١٢٧.

(٣) الترغيب والترهيب ص ٧٧.

(٤) رواه عنه العقيلي في الضعفاء الكبير ١/ ٢٤٢.

(٥) مسند أحمد ٢٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧. وفيه: «والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه».

(٦) فيض القدير ٢/ ٤٢٠ - ٤٢١.

(٧) مسند أحمد ٣٩/ ٣٩.

(٨) المعجم الكبير ٤/ ٢٥٣، وفيه: «يقال لمن يفعل ذلك إذا جاء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون فاطلبوا ذلك عندهم».

(والرياء من الشهوات الخفية التي هي أخفَىٰ من دبيب) أي حركة مشي **(النملة السوداء علىٰ الصخرة الصَّمَّاء)** التي لا تجيب الصدَىٰ **(في الليلة الظَّلْماء)** وصف النملة بالسوداء لإرادة المبالغة في الخفاء؛ لأنها لا تُرَىٰ حينئذٍ، وقد ورد هكذا في الشرك الخفي، ففي حديث ابن عباس: «الشرك أخفَىٰ في أمَّتي من دبيب الذَّر علىٰ الصفا». رواه أبو نعيم في الحلية[١]. ورواه البزار[٢] من حديث عائشة بلفظ: «من دبيب النمل علىٰ الصفا». وعند هناد[٣] وأبي يعلىٰ[٤] من حديث أبي بكر: «الشرك فيكم أخفَىٰ من دبيب النمل» **(ولذلك عجز عن الوقوف علىٰ غوائله)** أي مَهالكه **(سماسرة العلماء)** أي نُقَّادهم **(فضلاً عن عامَّة العبَّاد)** جمع عابد **(والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس)** خروجًا منها **(وبواطن مكائدها)** التي لا يطَّلع عليها سوىٰ مَن خلقها **(وإنما يُبتلَىٰ به العلماء والعبَّاد المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة)** وفي نسخة: سبيل الآخرة **(فإنهم مهما قهروا أنفسهم)** بالرياضات **(وجاهدوها)** بالاختبارات **(وفطموها عن)** ثدي **(الشهوات وصانوها عن الشبهات)** أي عن الاقتحام فيها **(وحملوها بالقهر علىٰ أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة علىٰ الجوارح)** فإنها لا تكاد تخطر له ببال، وقد انسدَّ بابها عليه **(فطلبت الاستراحة)** والسكون **(إلىٰ التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم فوُجِدتْ مخلِّصة من)** ألم **(مشقَّة المجاهدة إلىٰ لذَّة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلىٰ إظهار الطاعة، وتوصَّلت إلىٰ اطِّلاع الخلق)** عليها **(ولم تَقنع باطِّلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس، ولم تَقنع بحمد الله وحده)** بل أرادت ضم حمد الناس إليه **(وعلمت**

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٦، ١١٤.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/ ٢١٧.

(٣) رواه في الزهد ٢/ ٤٣٤ عن مجاهد مرسلا قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «الشرك أخفىٰ من دبيب النمل في أهل القبلة».

(٤) مسند أبي يعلىٰ ١/ ٦٠ - ٦٢.

أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات) النفسية **(وتوقِّيه الشُّبهات)** في المعاملة **(وتحمُّله مَشاق العبادات)** من صوم في أيام الصيف، وطول قيام في الصلوات، وملازمة المساجد وغيرها **(أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ)** وهو المدح علىٰ الحي، كما أن الرثاء المدح علىٰ الميت **(والإطراء)**: المبالغة في المدح **(ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام، وتبرَّكوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا في بركة دعائه، وحرصوا علىٰ اتِّباع رأيه، وفاتحوه بالخدمة والسلام)** والمثول بين يديه **(وأكرموه في المحافل)** العامة **(غاية الإكرام)** وأشيرَ إليه بالبنان **(وسامحوه في البيع)** والشراء **(والمعاملات)** الدنيوية **(وقدَّموه)** علىٰ غيره **(في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا)** أي تذلَّلوا **(له متواضعين، وانقادوا إليه في أغراضه موقِّرين)** أي معظِّمين **(فأصابت النفس من ذلك لذَّة)** معنوية **(هي أعظم اللذات)** وأهنؤها **(وشهوة هي أغلب الشهوات)** وأقواها **(واستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات)** أي الزلاَّت **(واستلانت خشونةَ المواظبة علىٰ العبادات)** الظاهرة **(لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، وهو يظن)** في نفسه مع ذلك **(أن قيامه بالله، و)** أن قيامه **(بعباداته المرضيَّة)** عند الله **(وإنما قيامه)** في الحقيقة **(بهذه الشهوة الخفية التي يعمىٰ عن دركها)** ويُفحَم عن سبرها **(إلا العقول)** الكاملة **(النافذة)** بصيرتها **(القوية)** من نورها **(ويرىٰ أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة)** واتَّخذتها **(تزيينًا[1] للعبادة، وتصنُّعًا للخلق، وفرحًا بما نالت من المنزلة)** عندهم **(والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال)** لعدم الإخلاص فيها **([2]وأثبتت اسمه في جريدة المنافقين)** الذين يبطنون خلاف ما يُظهِرون **(وهو يظن أنه عند الله من المقرَّبين)** من حضرته الإلهية **(وهذه مكيدة للنفس لا يَسلم منها إلا الصِّدِّيقون، ومَهواة لا يرقَىٰ منها[3] إلا المقرَّبون)** ممَّن

(١) في غير الزبيدي: تزينًا للعباد.

(٢) في غير الزبيدي: وقد.

(٣) المثبت في ط الشعب. م الإمام، وفي ط المنهاج والزبيدي: عنها.

عصمهم الله تعالىٰ بتوفيقه (ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصِّدِّيقين حب الرياسة) كما نقله القشيري وصاحب القوت (وإذا كان الرياء هو الداء الدفين) أي المدفون في باطن القلب (الذي هو أعظم شبكة للشياطين) الذين يصطادون بها الرجالَ (وجب شرحُ القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه. ويتَّضح الغرض منه في ترتيب الكتاب علىٰ شطرين.

الشطر الأول:) منه (في حب الجاه والشهرة، وفيه: بيان ذم الشهرة، وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنىٰ الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوبًا حبًّا أشد من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهميٌّ وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يُحمَد من حب الجاه وما يُذَم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهة الذم، وبيان العلاج في حب الجاه، وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج حب كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في الذم والمدح. فهي اثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرياء، فلا بد من تقديمها. والله الموفِّق للصواب بلطفه ومنِّه وكرمه).

بيان ذم الشهرة وانتشار الصِّيت

(اعلمْ) هداك الله بنور اليقين **(أن أصل الجاه)** مقلوب[١] من الوجه، وقد وَجُهَ وَجاهةً فهو وجيه: إذا كان له حظ ورتبة، ومنه: وجوه القوم، أي ساداتهم، وله جاهٌ **(هو انتشار الصيت والاشتهار)** في الناس، والصِّيت بالكسر: الذِّكر الجميل **(وهو مذموم، بل المحمود الخمول)** وهو خفاء القدْر والذِّكر **(إلا مَن شهره اللهُ تعالىٰ لنشر دينه من غير تكلُّف طلبِ الشهرة منه. قال أنس** ﵁: **قال رسول الله** ﷺ: **حسب امرئ من الشر)** أي[٢] يكفيه منه في أخلاقه ومعاشه ومعاده **(إلا مَن عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه)** لأنه إنما يُشار إليه في دين لكونه أحدث بدعة عظيمة فيشار إليه بها، وفي دنيا لكونه أحدث منكرًا من الكبائر غير متعارَف بينهم، بخلاف ما تقارَبَ الناس فيه ككثرة صلاة أو صوم فليس محل إشارة ولا تعجُّب لمشاركة غيره له، فأشار في هذا الحديث بالإشارة بالأصابع إلىٰ أنه عبد هتك الله ستره، فهو في الدنيا في عار، وغدًا في النار، ومَن ستره الله في هذه الدار لم يفضحه في دار القرار.

قال العراقي[٣]: رواه البيهقي في الشعب[٤] بسند ضعيف. انتهىٰ.

قلت: رواه بإسناد فيه ابن لهيعة، وحاله معلومة. ويوسف بن يعقوب، فإن كان النيسابوري فقد قال أبو علي الحافظ: ما رأيت بنيسابور من يكذب غيره. وإن

---

(١) المصباح المنير ص ٦٤٩.
(٢) فيض القدير ٣/ ١٩٦ - ١٩٧.
(٣) المغني ٢/ ٩٢٣.
(٤) شعب الإيمان ٩/ ٢٢٥.

كان القاضي باليمن فمجهول[١]. ثم إن لفظ البيهقي: «بحسب امرئ من الشر أن يُشار إليه بالأصابع في دين أو في دنيا، إلا مَن عصمه الله»[٢]. ورواه كذلك الطبراني في الأوسط[٣] والبيهقي[٤] أيضًا من حديث أبي هريرة، وفيه عندهما عبد العزيز ابن حصين، ضعَّفه يحيىٰ والناس[٥]. وقد رواه البيهقي بسند آخر فيه كلثوم بن محمد بن أبي سدرة، قال الذهبي[٦]: قال أبو حاتم: تكلموا فيه[٧]. وقد رواه أيضًا الحكيم في النوادر[٨] عن الحسن مرسلاً.

(وقال جابر بن عبد الله) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(قال رسول الله** ﷺ: **بحسب المرء من الشر - إلا مَن عصمه الله من السوء - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وإلىٰ أعمالكم)** قال العراقي[٩]: هو غير معروف من حديث جابر، معروف من حديث أبي هريرة، رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين علىٰ أوله، ورواه مسلم[١٠] مقتصرًا علىٰ الزيادة التي في آخره. وروىٰ الطبراني[١١] والبيهقي في

---

(١) ذكرهما الذهبي في ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٤٤٩. وقال في ميزان الاعتدال ٤/ ٤٧٦: «يوسف بن يعقوب اليماني القاضي كان قاضي صنعاء ومفتيها، أخذ عن طاووس وعمر بن عبد العزيز، وحدث عنه سفيان الثوري وعبد الرزاق وغيرهم، وهو صدوق إن شاء الله».

(٢) بل بمثل ما أورده الغزالي، وكذا أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٣٠). وذكره الترمذي في السنن ممرضًا تحت الحديث رقم ٢٤٥٣. بلا إسناد.

(٣) المعجم الأوسط ٧/ ٧٢.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٥) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٣٨٠.

(٦) ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٣ - ٤١٤.

(٧) الذي في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ١٦٤ عن أبيه: «كان جنديا بخراسان، لا يصح حديثه».

(٨) نوادر الأصول ص ٣٣٦. رواه ابن المبارك في الزهد (٤٥).

(٩) المغني ٢/ ٩٢٣.

(١٠) صحيح مسلم ٢/ ١١٩٣.

(١١) المعجم الكبير ١٨/ ٢١٠، ٢٢٨.

الشعب[١] أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ: «كفىٰ بالمرء إثمًا». ورواه ابن يونس في «تاريخ الغرباء» من حديث ابن عمر بلفظ: «هلاك بالرجل»، وفسَّر دينه بالبدعة، ودنياه بالفسق. وإسنادهما ضعيف[٢].

قلت: لفظ الطبراني والبيهقي قد ذُكر قبله، وأن البيهقي رواه من طريقين كلٌّ منهما ضعيف. وأما تلك الزيادة التي رواها مسلم فقد رواها كذلك أحمد[٣] وابن ماجه[٤] من حديث أبي هريرة بزيادة «وأموالكم» بعد «وصوركم». ورواه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات[٥] وابن عساكر[٦] من حديث أبي أمامة. ورواها هناد في الزهد[٧] عن الحسن مرسلاً. ورواها الحكيم في النوادر عن يحيىٰ بن أبي كثير مرسلاً[٨]. وأما حديث عمران بن حصين فلفظه عند الطبراني في الكبير: «كفىٰ بالمرء من الشر أن يُشار إليه بالأصابع». وفي رواية له: «كفىٰ بالمرء من الإثم». وفيه زيادة: قالوا: يا رسول الله، وإن كان خيرًا [قال: «وإن كان خيرًا] فهو شر له إلا مَن رحمه الله، وإن كان شرًّا فهو شر له». وقد رواه الرافعي في تاريخ قزوين[٩] وقال: كذا في النسخة، وربما كانت اللفظة: فهو شر له إلا مَن رحمه الله. وأما حديث ابن

---

(١) شعب الإيمان ٩/ ٢٢٧.

(٢) هو عند ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٣١) من حديث جابر مثله سواء.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ٢٢٧، ١٦/ ٥٦٤.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٧٩.

(٥) الغيلانيات ص ٢٨٢.

(٦) تاريخ دمشق ١٨/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٧) الزهد ص ٢/ ٤١٧.

(٨) الحديث في نوادر الأصول ص ١١٤٦ عن أبي هريرة، وليس عن يحيىٰ بن أبي كثير. أما مرسل يحيىٰ فقد رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٢٢. وزاد في آخره: «فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم أكرمكم عند الله أتقاكم».

(٩) التدوين في أخبار قزوين ١/ ١٦٨.

عمر فرواه الديلمي[١] بلفظ: «كفىٰ بالمرء من الشر أن يُشار إليه بالأصابع في دينه بفسق أو في دنياه أن يعطيه - إلا مَن عصمه الله - مالاً ولا يصل به رحمًا ولا يعطي حقَّه». ورواه بهذا اللفظ الحاكم في تاريخه من حديث أنس.

(**وقد ذكر الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ (**للحديث تأويلاً لا بأس به؛ إذ روىٰ هذا الحديث، فقيل له: يا أبا سعيد، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع. فقال: إنه لم يعنِ هذا، وإنما عنىٰ به المبتدع في دينه**) فإنه لا يشار إليه إلا إذا أحدث في الدين بدعة عظيمة تكون سبب الإشارة، كما يقولون: خالِفْ تُعرَف (**والفاسق في دنياه**)[٢] بأن أحدث منكرًا من الكبائر. وهذا التأويل ذكره الحكيم في نوادر الأصول[٣]. وقد رُوي نحوه مرفوعًا من حديث أنس وابن عمر، كما تقدم قبله.

(**وقال علي** رضي الله عنه: **تَبَذَّلْ، ولا تشهر**) نفسك (**ولا ترفع شخصك لتُعلَم**) وفي نسخة: لتُذكَر وتُعلَم (**واكتم**) أمرك (**واصمتْ، تَسلم، تسرُّ الأبرار وتغيظ الفُجَّار**[٤]).

وقال إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ: (**ما صدق اللهَ مَن أحب الشهرة**) أخرجه أبو نعيم في الحلية[٥].

(**وقال أيوب**) بن أبي تميمة (**السِّخْتياني**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**واللهِ ما صدق اللهَ عبدٌ إلا سرَّه أن لا يُشعَر بمكانه**) رواه أبو نعيم في الحلية[٦] عن عبد الله

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٢٨٦.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١١٨.

(٣) نوادر الأصول ص ٣٣٦ - ٣٣٧، ونصه: «إنما يشار إليه في دين فإنه أحدث بدعة ومنكرا فأشير إليه فيه، وفي دنيا أحدث منكرا من الكبائر فأشير إليه، فأما ما يتفاوت الناس فيه فقد ينظر إليهم وليسوا بأهل إشارة، فإنه إن كثرت صلاة رجل أو صيامه فاشتهر بذلك أو بنوع من أنواع البر فإنه اشتهر بزيادة كانت منه، وإلا فقد شركه الجميع، فليس في هذا ما يشار إليه بالأصابع».

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١١٨.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ١٩ - ٢٠.

(٦) السابق ٣/ ٦.

ابن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنى أحمد بن كردوس، حدثنا مخلد، عن أبي بكر بن المفضَّل قال: سمعت أيوب يقول ... فساقه.

(وعن) أبي[١] عبد الله **(خالد بن مَعْدان)** الكَلاعي الحِمْصي، ثقة، عابد، وكان يسبِّح في اليوم والليلة أربعين ألف تسبيحة سوىٰ ما كان يقرأ من القرآن، مات سنة ثلاث ومائة[٢]، روىٰ له الجماعة **(أنه كان إذا كثرت حلقتُه قام مخافةَ الشهرة[٣])**.

وعن أبي العالية) رُفَيع[٤] بن مِهران الرِّياحي، ثقة، روىٰ له الجماعة **(أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام)**[٥] من مجلسه، أي مخافة الشهرة.

(ورأىٰ طلحة) بن عبيد الله التيمي القرشي أحد العشرة رضي الله عنه **(قومًا يمشون معه أكثر من عشرة)** وفي نسخة: نحوًا من عشرة **(فقال: ذباب طمع وفَراش نار)**[٦] شبَّههم بالذباب والفَراش لتهالُكهما علىٰ الطعام والنار.

(وقال سليم بن حنظلة: بينما نحن حول أبيِّ بن كعب) رضي الله عنه **(نمشي خلفه إذ رآه عمر** رضي الله عنه**، فعلاه بالدِّرَّة، فقال)** أبيٌّ: **(يا أمير المؤمنين، انظرْ ماذا تصنع. فقال:**

---

(١) تهذيب الكمال ٨/ ١٦٧ - ١٧٤. تقريب التهذيب ص ٢٩١.

(٢) ذكر المزي في سنة وفاته روايات تتراوح بين سنة ثلاث ومائة إلىٰ ثمان ومائة.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٢ عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري.

(٤) تقريب التهذيب ص ٣٢٨.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٢ عن ليث بن أبي سليم. وعند أبي نعيم في الحلية ٢/ ٢١٨ وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد ص ١٧٦ من طريق آخر: أكثر من أربعة.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في العزلة والانفراد ص ١٤٠، وفي التواضع والخمول ص ١٢٣ عن أبي رجاء العطاردي. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٥/ ١٠٩ عنه قال: رأيت طلحة بن عبيد الله غشيه الناس وهو علىٰ دابة، فجعل يقول: أيها الناس، أنصتوا. فجعلوا يركبونه ولا ينصتون، فقال: أف أف، فراش نار وذباب طمع.

إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع)[١] وقد وقع مثل ذلك لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ورد الكوفة قادمًا من صفين وتبعه حرب بن شرحبيل الشِّبامي - وكان من وجوه قومه - ماشيًا خلفه وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راكب، فقال له: ارجع، فإنَّ مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلَّة للمؤمن[٢].

(**وعن الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ (**قال: خرج ابن مسعود**) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (**يومًا من منزله، فتبعه ناسٌ، فالتفت إليهم فقال: علامَ تتبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان)**[٣] نقله صاحب القوت. وفي رواية: قال لهم: ارجعوا، فإنه ذلٌّ للتابع وفتنة للمتبوع[٤].

(**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**إنَّ خفق النعالِ حول الرجال قلَّما تثبُت معه قلوبُ الحمقىٰ)**[٥] نقله صاحب القوت.

(**وخرج الحسن**) رحمه الله تعالىٰ (**ذات يوم فاتَّبعه قوم، فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسىٰ أن يبقىٰ هذا من قلب المؤمن)**[٦] نقله صاحب القوت.

(**ورُوي أن رجلاً صحب ابنَ محيريز**) هو[٧] عبد الله بن مُحَيْرِيز بن جُنادة بن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٣.

(٢) ذكره الطبري في تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٦٢، وابن الأثير في الكامل ٢/ ٦٧٥.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٤ عن الحسن البصري. وعند الدارمي في سننه ١/ ١٤٤: «كان ابن مسعود يمشي وناس يطئون عقبه، فقال: لا تطئوا عقبي، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني رجل منكم».

(٤) هذه الرواية أخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ٥٥٣ عن حبيب بن أبي ثابت قال: تبع ابن مسعود ناس فجعلوا يمشون خلفه، فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا. قال: ارجعوا، فإنها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٤٨، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٤، والدارمي في سننه ١/ ١٤٤.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٤ - ١٢٥ عن يوسف بن عطية البصري.

(٧) تقريب التهذيب ص ٥٤٤.

وهب الجُمَحي المكي، نزل بيت المقدس، تابعي، ثقة، عابد، مات سنة تسع وتسعين، روىٰ له الجماعة (**في سفر، فلما فارقه قال: أوصني. قال: إن استطعت أن تَعرِف ولا تُعرَف وتمشي ولا يُمشَىٰ إليك**) وفي نسخة: حواليك. وفي نسخة أخرىٰ: معك وإليك (**وتسأل ولا تُسئل فافعل**)(١).

وقال الزهري: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترىٰ الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع في الرياسة حامَىٰ عليها وعادَىٰ(٢).

(**وخرج أيوب**) بن أبي تميمة السختياني (**في سفر، فشيَّعه ناس كثير**) من أهل البصرة (**فقال: لولا أني أعلم أن الله تعالىٰ يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقتَ من الله تعالىٰ**)(٣).

ورُوي عن شعبة قال: ربما ذهبت مع أيوب في الحاجة أريد أن أمشي معه فلا يَدَعني، فيخرج فيأخذ ههنا وههنا لكيلا يُفطَن له. قال شعبة: وقال أيوب: ذُكِرتُ ولا أحب أن أُذكَر(٤).

(**وقال معمر**) بن(٥) راشد الأزدي مولاهم البصري، نزيل اليمن، مات سنة أربع وخمسين [ومائة] روىٰ له الجماعة (**عاتبت أيوب**) السختياني (**في طول**

---

(١) هكذا رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٥ عن عمير بن عبد الملك الكناني. ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ص ٣١٤ - ٣١٥ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ١٤١ عنه قال: صحب ابن محيريز رجلا في الساقة في أرض الروم، فلما أردنا أن نفارقه قال له ابن محيريز: أوصني، قال: إن استطعت ... فذكره. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ٣٣٤ عن عبد الله بن المبارك قال: قال ابن محيريز لرجل وهو يوصيه ... فذكره.

(٢) لم أجد هذا الأثر عن الزهري، ولكن رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٩ عن سفيان الثوري.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٦.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٦، والبيهقي في الزهد الكبير ص ٩٨.

(٥) تقريب التهذيب ص ٩٦١.

قميصه، فقال: إن الشهرة فيما مضىٰ كانت في طوله، وهي اليوم في تشميره)[١] قال أبو نعيم في الحلية[٢]: حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: كتب إليَّ عبدُ الرزاق عن معمر قال: كان في قميص أيوب بعض التذييل، فقيل له، فقال: الشهرة اليوم في التشمير.

(**وقال بعضهم: كنت مع أبي قلابة**) عبد الله بن زيد الجَرْمي البصري (**إذ دخل عليه رجل عليه أكسية، فقال**) لمَن حوله: (**إياكم وهذا الحمار النهَّاق**)[٣] أي الكثير النهيق، وهو صوته (**يشير به إلىٰ طلب الشهرة**) نقله صاحب القوت.

(**وقال**) سفيان (**الثوري**) رحمه الله تعالىٰ: (**كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجيدة والثياب الرديئة؛ إذ الأبصار تمتد إليهما جميعًا**)[٤] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**وقال رجل لبشر بن الحارث**) الحافي رحمه الله تعالىٰ: (**أوصني. قال: اخملْ ذِكرك، وطيِّبْ مَطعمك**)[٥] نقله صاحب القوت.

(**وكان حَوْشَب**) بن[٦] عقيل، أبو دِحية البصري، ثقة، روىٰ له أبو داود والنسائي وابن ماجه (**يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع**)[٧] يعني به جامع البصرة. نقله صاحب القوت.

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٦.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٧.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٨.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٧ - ١٢٨ بلفظ: «كانوا يكرهون الشهرتين: الثياب الجياد التي يشتهر فيها ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم، والثياب الرديئة التي يُحتقر فيها ويُستذل دينه».

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الورع ص ٨٨.

(٦) تقريب التهذيب ص ٢٨١.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٣٠.

(وقال بشر) الحافي رحمه الله تعالىٰ: (ما أعرف رجلاً أحب أن يُعرَف إلا ذهب دينه وافتضح)[1] نقله صاحب القوت.

(وقال) بشر (أيضًا: لا يجد حلاوةَ الآخرة رجلٌ يحب أن يعرفه الناس) نقله صاحب القوت.

(١) هذا الأثر والذي بعده رواهما ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٣٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٤٣.

بيـان فضيـلة الخمـول

(قال رسول الله ﷺ: رُبَّ) هو[١] للتقليل هنا، قال ابن هشام[٢]: وليست هي للتقليل دائمًا، خلافًا للأكثر، ولا للتكثير دائمًا، خلافًا لابن درستويه وجمعٍ، بل للتكثير كثيرًا، وللتقليل قليلاً (**أشعث**) أي الثائر شعر الرأس، قد أخذ فيه الجهدُ حتىٰ أصابه الشعث (**أغبر**) أي غيَّر الغبار لونه لطول سفره في طاعة الله كحج وجهاد وصلة رحم وكثرة عبادة (**ذي طِمرين**) تثنية طِمْر بالكسر، وهو الثوب الخلق (**لا يؤبَه به**) أي لا يبالَىٰ به ولا يُلتفَت إليه لحقارته (**لو أقسم علىٰ الله**) أي لو حلف عليه ليفعلن شيئًا (**لأبرَّه**) أي أبرَّ قسمه وأوقع مطلوبه إكرامًا له وصونًا ليمينه عن الحِنث لعِظَم منزلته عنده، أو معنىٰ القسم: الدعاء، وإبراره: إجابته (**منهم البراء بن مالك**) أخو[٣] أنس بن مالك لأبيه؛ لأن أم أنس أم سليم، وأم البراء السحماء، وغلط مَن قال: أمهما أم سليم. وكان حسن الصوت، يرجز لرسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وشهد مع النبي ﷺ المشاهد إلا بدرًا، وله يوم اليمامة أخبار، وقُتل يوم حصن تُستَر في خلافة عمر.

قال العراقي[٤]: رواه أبو نعيم في الحلية[٥] من حديث أنس بسند ضعيف: «رُب [أشعث] ذي طِمرين لا يؤبه له لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه، منهم البراء بن مالك».

---

(١) فيض القدير ٤/ ١٤ - ١٥.

(٢) مغني اللبيب ٢/ ٣٢٠.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٤) المغني ٢/ ٩٢٤.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٣٥٠.

وللحاكم[١] نحوه بهذه الزيادة وقال: صحيح الإسناد. قلت: بل ضعيفه.

قلت: روىٰ الترمذي[٢] من طريق ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن النبي ﷺ قال: «رُب أشعث لا يؤبَه له لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه، منهم البراء بن مالك». فلما كان يوم تستر من بلاد فارس انكشف الناس، فقال الناس: يا براء، اقسمْ علىٰ ربك. فقال: أقسمُ عليك يا رب لَما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيِّك. فحمل، وحمل الناس معه، فقُتل مرزبان الزأرة من عظماء الفرس وأُخذ سلبه، فانهزم الفُرس وقُتل البراء.

ورواه الحاكم في المستدرك من طريق سلامة عن عقيل عن الزهري عن أنس نحوه.

وأما بدون هذه الزيادة فروىٰ أحمد ومسلم[٣] من حديث أبي هريرة: «رُب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبره». وفي رواية لمسلم: «رُب أشعث أغبر ذي طِمرين من أمَّتي يطوف علىٰ الأبواب تردُّه اللقمة واللقمتان لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه». وفي رواية له أيضًا: «رُب أشعث أغبر ذي طِمرين لا يؤبه له لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه»[٤]. وقد روىٰ الخطيب[٥] هذا اللفظ من حديث أنس. وروىٰ

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٣٥٨، ولفظه: «كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم علىٰ الله لأبر قسمه، منهم البراء بن مالك».

(٢) سنن الترمذي ٦/ ١٦٤. وفيه: «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ...» الخ. وقوله: فلما كان ... الخ ليس في سنن الترمذي، وإنما هو كلام ابن حجر في الإصابة في ترجمة البراء نقلا عن أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٣٦٤.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢١٣، ١٣٠٧.

(٤) هذا اللفظ والذي قبله ليس عند مسلم، واللفظ الأول أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٦٧ من حديث ابن عمر.

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ٣٣٣، ٦٦٥.

الحاكم[١] وأبو نعيم[٢] من حديث أبي هريرة: «رُب أشعث أغبر ذي طِمرين تنبو عنه أعينُ الناس لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه».

(**وقال ابن مسعود**) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**قال النبي ﷺ: رُب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة، لأعطاه الجنة ولم يعطِه من الدنيا شيئًا**) قال العراقي[٣]: رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس[٤] بسند ضعيف.

قلت: وقد رواه كذلك ابن عدي[٥] بهذه الزيادة. ورواه البزار في مسنده[٦] لكن إلىٰ قوله «لأبرَّه». قال الهيثمي[٧]: رجاله رجال الصحيح خلا جارية بن هرم، وقد وثَّقه ابن حبان[٨] علىٰ ضعفه.

(**وقال ﷺ: ألا أدلُّكم علىٰ أهل الجنة**) كذا في النسخ، والرواية[٩]: ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلىٰ. قال: (**كلٌّ**) بالرفع لا غير، أي هم كل (**ضعيف**) عن أذىٰ الناس، أو عن المعاصي، ملتزم الخشوع والخضوع بقلبه وقالبه (**مستضعَف**) بفتح العين، كما في التنقيح عن ابن الجوزي[١٠]، قال: وغلط مَن كسرها؛ فإن المراد أن الناس يستضعفونه ويحتقرونه. وفي علوم الحديث[١١] للحاكم: أن ابن خزيمة

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٣.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٧.

(٣) المغني ٢/ ٩٢٤.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٦٨.

(٥) الكامل في الضعفاء ٢/ ٦٨٩ حتىٰ قوله (لأبره) وليس فيه الزيادة المذكورة.

(٦) مسند البزار ٥/ ٤٠٤.

(٧) مجمع الزوائد ١٠/ ٤٦٦.

(٨) الثقات ٨/ ١٦٥.

(٩) فيض القدير ٣/ ١٠١ - ١٠٢.

(١٠) كشف المشكل عن أحاديث الصحيحين لابن الجوزي ١/ ٣٤٩. وفيه: (متضعَّف) من غير سين.

(١١) معرفة علوم الحديث ص ٢٨٦.

سُئل عن الضعيف، فقال: الذي يبرئ نفسَه من الحول والقوة في اليوم عشرين مرة إلىٰ خمسين (**لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه، وأهل الناس كل مستكبر**) أي صاحب كبر، والكبر: تعظيم المرء نفسه واحتقاره غيره والأَنَفة من مساواته (**جَوَّاظ**) بالتشديد، هو الجموع المنوع، وقيل: هو الكثير اللحم، المختال في مشيته. قال الشيخ الأكبر[1] في كلامه علىٰ الأوَّلين: إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم عن أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان[2] سوىٰ الله، فليس لهم جلوس إلا مع الله، ولا حديث إلا مع الله، فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإليه راحلون ومنقلبون، وعنه ناطقون، ومنه آخذون، وعليه متوكِّلون، وعنده قاطنون، فما لهم معروف سواه، ولا مشهود إلا إياه، صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم، فهم في غيابات الغيب محجوبون، وهم ضنائن الحق المستخلَصون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر كله حجاب، فهذه حالة هذه الطائفة.

قال العراقي[3]: متفق عليه[4] من حديث حارثة بن وهب.

قلت: لفظهما: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعَّف لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جعظري جَوَّاظ مستكبر». وهكذا رواه أحمد[5] والترمذي[6] والنسائي[7] وابن ماجه[8] وابن حبان[9]. و[رواه]

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٢٠٣.

(٢) الأكوان: أي أعيان الموجدات. انظر: الدرر الجوهرية للمناوي صـ١٥٩ ط الهيئة العامة المصرية للكتاب.

(٣) المغني ٢/ ٩٢٤.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ٣١٥، ٤/ ١٠٤، ٢٢٠. صحيح مسلم ٢/ ١٣٠٧.

(٥) مسند أحمد ٣١/ ٢٧، ٢٩.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٣٥٠.

(٧) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣١٠.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٦١.

(٩) صحيح ابن حبان ١٢/ ٤٩٢.

الطبراني[١] من حديث معبد بن خالد عن حارثة بن وهب الخُزاعي والمستورد ابن شداد الفِهْري معًا.

ورواه الطبراني[٢] أيضًا والضياء في المختارة عن معبد بن خالد عن أبي عبد الله الجدلي عن زيد بن ثابت.

ورویٰ الطبراني[٣] من حديث معاذ بلفظ: «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعَف ذي طِمْرين لا يؤبه له لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه».

ورویٰ أحمد[٤] من حديث حذيفة بلفظ: «ألا أخبركم بشرِّ عباد الله؟ الفَظ المستكبر. ألا أخبركم بخير عباد الله؟ الضعيف المستضعَف ذو الطِّمرين لو أقسم علىٰ الله لأبرَّ اللهُ قسمه».

ورویٰ الطبراني من حديث أبي الدرداء: «ألا أخبرك يا أبا الدرداء بأهل النار؟ كل جعظري جواظ مستكبر جمَّاع مَنُوع. ألا أخبرك بأهل الجنة؟ كل مسكين لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه»[٥].

ورویٰ ابن قانع[٦] والحاكم[٧] من حديث سُراقة بن مالك: «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون».

ورویٰ الشيرازي في الألقاب والديلمي[٨] من حديث أبي عامر الأشعري:

---

(١) المعجم الكبير ٣/ ٢٦٦.

(٢) السابق ٥/ ١٥٦.

(٣) السابق ٢٠/ ٨٤.

(٤) مسند أحمد ٣٨/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٥) مجمع الزوائد ١٠/ ٤٦٨. كنز العمال ١٦/ ١٠٣.

(٦) معجم الصحابة ١/ ٣١٧ حتىٰ قوله (مستكبر).

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٨، ٤/ ٥٣.

(٨) ورواه أيضا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٥/ ٢٧٧، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٢٩، وقوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ٥٥٦، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٥/ ٢٩٦٤.

«أهل النار كل شديد قَعْبري، وأهل الجنة كل ضعيف مزهَد».

(وقال أبو هريرة) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (قال ﷺ: **إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبَه له، الذين إذا استأذنوا علىٰ الأمراء لم يؤذَن لهم، وإذا خطبوا النساء لم يُنكَحوا، وإذا قالوا لم يُنصَت لقولهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قُسم نوره يوم القيامة علىٰ الناس لوسعَهم**) بيَّض له العراقي[(١)].

(وقال ﷺ: **إن من أمَّتي مَن لو أتىٰ أحدكم يسأله دينارًا لم يعطِه إياه، ولو سأله درهمًا لم يعطِه إياه، ولو سأله فلسًا لم يعطِه إياه، ولو سأل الله تعالىٰ الجنة أعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطِه إياها، وما منعه الدنيا لهوانه عليه، ذو طمرين لا يؤبَه له، لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه**) قال العراقي[(٢)]: رواه الطبراني في الأوسط[(٣)] من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله «ولو سأله الدنيا لم يعطِه إياها، وما منعه إياها لهوانه عليه». ورُوي مرسلاً.

قلت: هو من مرسَل سالم بن أبي الجعد، رواه هنَّاد في الزهد[(٤)]، ولفظه: «إن من أمَّتي مَن لو أتىٰ بابَ أحدكم فسأله دينارًا لم يعطِه إياه، ولو سأله درهمًا لم يعطِه إياه، ولو سأله فلسًا لم يعطِه إياه، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه، وما يمنعها إيَّاه لهوانه عليه، ذو طمرين، لا يؤبَه له، لو أقسم علىٰ الله تعالىٰ لأبرَّه». ورواه ابن صَصْرَىٰ في أماليه بلفظ: «إن من أمَّتي مَن لو جاء أحدهم إلىٰ أحدكم فسأله دينارًا أو درهمًا ما أعطاه، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه، ولو أقسم علىٰ الله لأبرَّه، ولو سأله شيئًا من الدنيا ما أعطاه تكرمةً له». ورواه

---

(١) المغني ٢/ ٩٢٤ - ٩٢٥. والحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٩٢.

(٢) المغني ٢/ ٩٢٥.

(٣) المعجم الأوسط ٧/ ٢٩٨.

(٤) الزهد ١/ ٣٢٣. هو عند ابن أبي الدنيا في التواضع (١).

الحارث بن أبي أسامة مرفوعًا من حديث ابن عباس[١] بلفظ: «إن من أمتي لمَن لو قام علىٰ باب أحدكم فسأله دينارًا ما أعطاه، أو درهمًا ما أعطاه، أو فلسًا ما أعطاه، ولو سأل الله الدنيا ما أعطاه، وما يمنعه إلا لكرامته عليه، ولو سأله الجنة لأعطاه، ولو يقسم علىٰ الله لأبرَّه».

(ورُوي أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **دخل المسجد، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله** ﷺ**، فقال)** له عمر: **(ما يبكيك)** يا معاذ؟ **(فقال)** معاذ: **(سمعت رسول الله** ﷺ **يقول: إن اليسير من الرياء شركٌ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإذا حضروا لم يُعرَفوا، قلوبهم مصابيح الهدىٰ، ينجون من كل غبراء مظلمة)** قال العراقي[٢]: رواه الطبراني[٣] والحاكم[٤] واللفظ له وقال: صحيح الإسناد. قلت: بل ضعيفه، فيه عيسىٰ بن عبد الرحمن - وهو الزرقي - متروك.

قلت: لفظهما بعد قوله «شرك»: «وإن مَن عادَىٰ أولياء الله فقد بارز اللهَ بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإن حضروا لم يُدعَوا ولم يُعرَفوا، قلوبهم مصابيح الهدىٰ، يخرجون من كل غبراء مظلمة». وعيسىٰ[٥] بن عبد الرحمن الزُّرَقي يكنىٰ أبا عُبادة، يروي عن الزهري، قال النسائي[٦] وغيره: متروك.

---

(١) الحديث في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٩٨٨ عن سالم بن أبي الجعد مرسلا، ليس فيه ابن عباس.

(٢) المغني ٢/ ٩٢٥.

(٣) المعجم الكبير ٢٠/ ١٥٤.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٢، ٣/ ٣٢٨، ٤/ ٤٧٣.

(٥) المغني في الضعفاء للذهبي ٢/ ٨٦.

(٦) الضعفاء والمتروكون ص ١٧٦.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[١] من حديث ثوبان: «طوبَىٰ للمخلصين، أولئك مصابيح الهدىٰ، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء».

(**وقال محمد بن سُوَيد**) بن[٢] كلثوم الفِهْري، صدوق، مات بعد المائة، روىٰ له النسائي (**قحط أهل المدينة، وكان بها رجل صالح لا يؤبَه له**) أي خامل لا يُذكَر ولا يُعرَف (**لازم لمسجد رسول الله ﷺ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طِمران**) أي ثوبان (**خلقان، فصلىٰ ركعتين فأوجز فيهما، ثم بسط يديه**) إلىٰ السماء (**فقال: يا رب، أقسمت عليك إلا أمطرتَ علينا الساعة. فلم يردَّ يديه ولم يقطع دعاءه حتىٰ تغشَّت السماءُ بالغمام**) وفي بعض النسخ: حتىٰ تغيَّمت السماء بالغيم (**وأُمطروا**) وفي نسخة: وأمطرت (**حتىٰ صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب، إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم. فسكن**) المطر (**وتبع الرجل صاحبه الذي استسقىٰ حتىٰ عرف منزله، ثم بكَّر إليه، فخرج إليه، فقال: إني أتيتك في حاجة. فقال: ما هي؟ قال: تخصُّني بدعوة. قال: سبحان الله! أنت أنت وتسألني أن أخصَّك بدعوة؟! قال: ما الذي بلَّغك ما رأيتُ؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني**)[٣] وهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس مع الله، وليس لغيرهم التشبُّه بهم. قال الحسن: احترقت أخصاص بالبصرة إلا خصًّا بوسطها، فقيل لصاحبه: ما بال خُصِّك لم يحترق؟ قال: أقسمت علىٰ ربي أن لا يحرقه[٤]. ورأىٰ أبو حفص رجلاً مدهوشًا، فقال: ما لك؟ قال: ضلَّ حماري، ولا أملك غيره. فوقف أبو حفص وقال: لا أخطو خطوة ما لم تردَّ حماره. فظهر حماره فورًا. وقال الجنيد: أهل الأنس بالله يقولون في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٦.

(٢) تقريب التهذيب ص ٨٥٢.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٠١، وفي مجابي الدعوة ص ٥٥.

(٤) سيأتي هذا الخبر تاما في كتاب المحبة والشوق والأنس، وكذلك حكاية أبي حفص وقول الجنيد بعده.

وقال الشعراني في المنن[١]: من الأخفياء الشُّعث من يُجاب دعاؤه كلما دعا، حتىٰ إن بعضهم أراد جماع زوجته، فقالت: الأولاد مستيقظون. فقال: أماتهم الله. وكانوا سبعة، فصلَّوا عليهم بكرة النهار، فبلغ ذلك البرهانَ المتبولي، فأحضره فقال: أماتك الله. فمات حالاً، وقال: لو بقي لأماتَ خلقًا كثيرًا.

(**وقال ابن مسعود**) رضي الله عنه يوصي أصحابه: (**كونوا ينابيع العلم**) أي بمنزلة الينابيع التي تخرج منها المياه ولا تنقطع، فتكون بواطنكم معمورة بالعلم كعمارة الينابيع بالمياه (**مصابيح الهدىٰ**) تضيئون للناس بالهدىٰ كما يُستضاء بالمصابيح (**أحلاس البيوت**) أي لازمين بيوتكم لزوم الحِلْس، وهو بالكسر: الحصير الذي يُفرَش تحت الفرش (**سُرُج الليل**) أي تُحْيُون ليلكم بالعبادة وتنوِّرونه كما يُتنوَّر بالسُّرُج (**جُرْد القلوب**) أي مجرِّدين قلوبكم عن غير الله تعالىٰ، فلا يخطر فيها ما يشغل عنه تعالىٰ. وقد تقدَّم الخبر: «القلوب ثلاثة ...»، وذكر فيه: قلب أجرد وهو قلب المؤمن. وفي بعض النسخ: جُدد القلوب. وهو المناسب لقوله: (**خلقان الثياب**) أي رثاثها (**تُعرَفون في أهل السماء وتَخْفَون في أهل الأرض**)[٢] والمراد بأهل السماء: الملأ الأعلىٰ.

(**وقال أبو أُمامة**) الباهلي رضي الله عنه: (**قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالىٰ: إن أغبط أوليائي رجل مؤمن خفيف الحاذ**) أي[٣] قليل المال، خفيف الظهر من العيال (**ذو حظ من صلاة**) أي ذو راحة في مناجاة الله فيها واستغراق في المشاهدة

---

(١) المنن الكبرىٰ المسمىٰ لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله علىٰ الإطلاق لعبد الوهاب الشعراني ص ٥٧١ (ط - دار التقوىٰ بدمشق).

(٢) رواه الدارمي في سننه ١/ ٩٢، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٠٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٠٧.ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٤٢ عن عبيد الله بن أبي العيزار قال: كان عبد الله بن مسعود إذا رأىٰ الشباب يطلبون العلم قال: مرحبا بكم ينابيع الحكمة، ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب، جدد القلوب، حلس البيوت، ريحان كل قبيلة.

(٣) فيض القدير ٢/ ١٤، ٤٢٧.

(**أحسنَ عبادةَ ربِّه**) تعميم بعد تخصيص، والمراد إجادتها علىٰ الإخلاص [وعليه] فقوله: (**وأطاعه في السر**) عطف تفسيريٌّ علىٰ «أحسن» (**وكان غامضًا في الناس**) أي مغمورًا غير مشهور فيهم (**لا يُشار إليه**) أي لا يشير الناس إليه (**بالأصابع**) بيان وتقرير لمعنىٰ الغموض (**ثم صبر علىٰ ذلك**) بيَّن به أن ملاك ذلك كلِّه الصبر، وبه يقوىٰ علىٰ الطاعة، قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥] (**قال: ثم نقر رسول الله ﷺ بيده فقال: عُجِّلت منيَّته**) أي أسرع هلاكُه لقلة تعلُّقه بالدنيا وكثرة شغفه بالآخرة (**وقلَّ تراثُه**) لأنه لم يتعلَّق بالمال فيخلفه بعده فيكون ميراثًا (**وقلَّت بواكيه**) لقلة عياله وهوانه علىٰ الناس وعدم احتفالهم به. فهؤلاء[١] هم الرجال الذين حلُّوا من الولاية أقصىٰ درجاتها، قد صانهم الله وحبسهم في خيام صون الغيرة [الإلهية]، وليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلوِّ منصبهم.

قال العراقي[٢]: رواه الترمذي[٣] وابن ماجه[٤] بإسنادين ضعيفين. انتهىٰ.

قلت: ولفظها: «إن أغبط أوليائي عندي لَمؤمنٌ خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة والصيام، أحسنَ عبادةَ ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضًا في الناس لا يُشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافًا، فصبر علىٰ ذلك، عُجِّلت مَنِيَّته وقلَّت بواكيه وقلَّ تُراثُه». وهكذا رواه الطيالسي[٥] وأحمد[٦] والطبراني[٧] وصاحب الحلية[٨]

---

(١) من هنا إلىٰ قوله (منصبهم) هو كلام ابن عربي في الفتوحات المكية ١/ ٢٠٢ باختصار.

(٢) المغني ٢/ ٩٢٥.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ١٦٨.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٦١.

(٥) مسند الطيالسي ٢/ ٤٥٣.

(٦) مسند أحمد ٣٦/ ٤٩٨، ٥٣٥.

(٧) المعجم الكبير ٨/ ٢٤٢، ٢٥٣.

(٨) حلية الأولياء ١/ ٢٥.

والحاكم[١] والبيهقي[٢]، وهو من رواية عبيد الله بن زَحْر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة، وهم ضعفاء. وقال الذهبي عقب تصحيح الحاكم له: لا، بل هو إلىٰ الضعف ما هو. وقال ابن الجوزي[٣]: حديث لا يصح، رُواته ما بين مجاهيل وضعفاء، ولا يبعُد أن يكون معمولهم. وقال ابن القَطَّان[٤]: وأخطأ مَن عزاه لأبي هريرة.

وأخرج مسلم في صحيحه أن عمر بن سعد انطلق إلىٰ أبيه سعد وهو في غنم له خارجًا من المدينة، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب. فلما أتاه قال: يا أبتِ، أرضيتَ أن تكون أعرابيًّا في غنمك والناسُ يتنازعون في المُلك بالمدينة؟! فضرب سعد صدره وقال: «اسكت، سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «إن أغبط أوليائي عندي ...» وساقه كسياق المصنف[٥].

(وقال عبد الله بن عمرو) ﷺ: (أحَبُّ عِباد الله إلىٰ الله الغرباء. قيل: ومَن الغرباء؟ قال: الفارُّون بدينهم، يجتمعون يوم القيامة إلىٰ عيسىٰ ابن مريم ﷺ)[٦].

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٢٢٨.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ١٤٣، ١٢/ ٥٥١.

(٣) العلل المتناهية ٢/ ٦٣٦، وعبارته: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، فمن وكيع إلىٰ أبي أمامة ضعفاء، ومتىٰ اجتمع ابن زحر وعلي بن يزيد والقاسم في حديث لا يبعد أن يكون معمولهم».

(٤) بيان الوهم والإيهام ٢/ ٧٤. والذي أخطأ في عزوه لأبي هريرة هو عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الوسطىٰ ٤/ ٢٧٨.

(٥) قوله (إن أغبط أوليائي عندي ...) ليس في سياق حديث سعد، وإنما فيه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ يحب العبد التقي الغني الخفي». هكذا رواه مسلم في صحيحه ٢/ ١٣٥٥ وأحمد في مسنده ٣/ ٥١.

(٦) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤١٦، وأحمد في الزهد ص ٦٦، ونعيم بن حماد في الفتن ص ٧٧، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٠٩ - ١١٠، والبخاري في التاريخ الكبير ٤/ ١٣٠ - ١٣١. ورواه أحمد في الزهد ص ١٢٣ والبيهقي في الزهد الكبير ص ١١٦ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٥ مرفوعا.

وروىٰ أحمد[١] من حديث عبد الله بن عمرو: «طوبَىٰ للغرباء، أناس صالحون في أناس سوء [كثير] مَن يعصيهم أكثر ممَّن يطيعهم». وفي رواية له: «الغرباء ناس قليلون صالحون». وفي سنده ابن لهيعة.

(وقال الفضيل بن عياض) رحمه الله تعالىٰ: **(بلغني أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول في بعض ما يمنُّ به علىٰ عبده: ألم أُنعِم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذِكرك)**[٢]؟ أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(وكان الخليل بن أحمد) الفراهيدي إمام النحو **(يقول)** في دعائه: **(اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك)**[٣] نقله صاحب القوت.

(وقال) سفيان **(الثوري)** رحمه الله تعالىٰ: **(وجدت قلبي يصلُح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب بُتوت وعباء)**[٤] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(وقال إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ: **(ما قرَّت عيني يومًا في الدنيا قط إلا مرة)** واحدة **(بت ليلةً في بعض مساجد قرىٰ الشام، وكان بي البطن)** أي داء الذَّرَب **(فجاء المؤذن وجرَّني برجلي حتىٰ أخرجني من المسجد)**[٥] أخرجه أبو نعيم في الحلية. ولفظ القشيري في الرسالة[٦]: وقال إبراهيم بن أدهم: ما سُررتُ

---

(١) مسند أحمد ١١/ ٢٣١، ٦٤٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١١٠.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١١٢.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١١/ ٣٥٢، وأبو طاهر المخلص في المخلصيات ٢/ ٣١٥، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١١٢، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٨/ ٤٩٢، والفاكهي في أخبار مكة ٢/ ٢٨٦.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١١٥.

(٦) الرسالة القشيرية ص ٢٧١.

في إسلامي إلا ثلاث مرات ... فذكر الأولىٰ، ثم قال: والأخرىٰ: كنت عليلاً في مسجد، فدخل المؤذن وقال: اخرجْ. فلم أُطِقْ، فأخذ برجلي وجرَّني إلىٰ خارج المسجد. ثم ذكر الثالثة.

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (إن قدرتَ علىٰ أن لا تُعرَف فافعلْ، وما عليك أن لا تُعرَف، وما عليك أن لا يُثنَىٰ عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت محمودًا عند الله) أخرجه أبو نعيم في الحلية[1].

(فهذه الآثار والأخبار تعرِّفك مَذَمَّة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قلتَ: فأيُّ شهرة تزيد علىٰ شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء) المشهورين؟ (فكيف فاتتهم فضيلةُ الخمول؟ فاعلمْ أن المذموم) هو (طلبُ الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلُّف من العبد) بأن يحتال علىٰ تحصيلها علىٰ أيِّ وجه كانت (فليس بمذموم. نعم، فيها فتنة علىٰ الضعفاء) منهم (دون الأقوياء، وهو كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقىٰ، فالأولىٰ به أن لا يعرفه أحد منهم فإنهم يتعلَّقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوىٰ) السابح النِّحرير (فالأولىٰ به أن يعرفه الغرقىٰ ليتعلَّقوا به فينجيهم) وينجي نفسه (ويُثاب علىٰ ذلك).

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٨٨.

بيان ذم حب الجاه

قال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] **جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبيَّن أن الدار الآخرة**) إنما جُعلت (**للخالي عن الإرادتين جميعًا**) وإرادة العلو في الأرض هو حب الجاه الذي هو مَلْك قلوب الناس واستعبادهم والترفُّع عليهم، ثم قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي حُسن العاقبة لهم، ودلَّ ذلك علىٰ أن حب الجاه والفسادَ مُجانِب للتقوىٰ.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾) أي لا ينقص حظُّهم فيها (﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ - ١٦] **وهذا أيضًا متناول بعمومه لحب الجاه**) والمال (**فإنه أعظم لذة من لذَّات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها**) كما سيأتي بيانه في الذي يليه.

(**وقال ﷺ: حب المال والجاه يُنبِتان النفاقَ في القلب كما يُنبِت الماءُ البقلَ**) قال العراقي[1]: لم أجده هكذا، وقد تقدم[2].

قلت: والذي ورد من حديث ابن مسعود: «الغناء واللهو يُنبِتان النفاقَ في القلب كما يُنبِت الماءُ العشبَ». رواه الديلمي، ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة بلفظ: «حب الغناء يُنبِت النفاقَ في القلب ...» الخ. وقد تقدم الكلام عليه في كتاب السماع.

---

(١) المغني ٢/ ٩٢٥.

(٢) في أول كتاب ذم البخل وحب المال. وكذلك الحديث الذي بعده.

(وقال ﷺ: ما ذئبان ضاريان أُرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادًا من حب الشرف والمال في دين المرء المسلم) رواه أحمد[١] والترمذي[٢] - وقال: حسن صحيح - والدارمي[٣] والطبراني في الكبير[٤] من حديث كعب بن مالك بلفظ: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه».

ورواه الطبراني في الأوسط[٥] من حديث عاصم بن عديٍّ قال: اشتريت [أنا وأخي] مائة سهم من سهام خيبر، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «ما ذئبان عاديان ظلا في غنم أضاعها ربُّها [بأفسد لها] من طلب المسلم المالَ والشرف لدينه».

ورواه الطبراني في الصغير[٦] والضياء[٧] من حديث أسامة بن زيد بلفظ: «ما ذئبان ضاريان باتا في حظيرة فيها غنم يفترسان ويأكلان بأسرع فسادًا [فيها] من طلب المال والشرف [في دين المسلم].

ورواه الطبراني في الكبير[٨] من حديث ابن عباس بلفظ: «ما ذئبان ضاريان باتا في غنم بأفسد لها من حب ابن آدم الشرف والمال».

ورواه هناد في الزهد[٩] من حديث أبي جعفر مرسلاً بلفظ: «ما ذئبان جائعان ضاريان في غنم قد أغفلها رعاؤها وتخلَّفوا عنها أحدهما في أُولاها والآخَر في أُخراها بأسرع فسادًا فيها من طلب المال والشرف في دين المرء المسلم».

---

(١) مسند أحمد ٢٥/ ٦٢، ٨٥.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ١٨٥.

(٣) سنن الدارمي ٢/ ٣٩٤.

(٤) المعجم الكبير ١٩/ ٩٦.

(٥) المعجم الأوسط ٥/ ٢٨١، ٨/ ١٢٥.

(٦) المعجم الصغير ٢/ ١٥٠.

(٧) الأحاديث المختارة ٤/ ١١٢.

(٨) المعجم الكبير ١٠/ ٣٨٨.

(٩) الزهد ٢/ ٤٢٦.

ورواه البزار[١] بسند حسن وابن عساكر[٢] من حديث ابن عمر بلفظ: «ما ذئبان ضاريان في حظيرة وثيقة يأكلان ويفترسان بأسرع فيها من حب الشرف وحب المال في دين المسلم».

وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث مختصرًا.

(وقال ﷺ لعلي رضي الله عنه: إنما هلاك الناس باتِّباع الهوىٰ وحب الثناء) قال العراقي[٣]: لم أرَه بهذا اللفظ، وقد تقدم في العلم من حديث أنس: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىٰ متَّبَع ...» الحديث. وللديلمي في مسند الفردوس[٤] من حديث ابن عباس [بسند ضعيف]: «حب الثناء من الناس يُعمِي ويُصِم». انتهىٰ.

قلت: وتمام حديث أنس: «وإعجاب المرء برأيه». هكذا رواه البزار، ورواه العسكري بلفظ «وإعجاب المرء بنفسه». وزاد البيهقي: «من الخيلاء».

(١) مسند البزار ١٢/ ٢٩٥.

(٢) تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٦٠.

(٣) المغني ٢/ ٩٢٦.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٤٢.

بيان معنى الجاه وحقيقته

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا) وعليهما قيامها ومدارها (ومعنىٰ المال: مَلْكُ الأعيان المنتفَع بها، ومعنىٰ الجاه: مَلْكُ القلوب المطلوب تعظيمُها وطاعتُها. وكما أن الغنيَّ هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليهما) ويتمكَّن منهما (ليتوصَّل بهما إلىٰ الأغراض والمقاصد) أي إلىٰ تحصيلها لنفسه (و) كذا (قضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس) من الأمور الدنيوية، فإن التوصُّل إليها متوقِّف علىٰ القدرة علىٰ الدراهم والدنانير (فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر علىٰ أن يتصرَّف فيها؛ ليستعمل بواسطتها أربابَها في) قضاء (أغراضه و) حصول (مآربه. وكما أنه يكتسب المال بأنواع من الحِرَف والصناعات، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات) فهي جارية مَجرىٰ الحِرَف والصناعات (ولا تصير القلوب مسخَّرة) أي منقادة (إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل مَن اعتقد القلبُ فيه وصفًا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخَّرَ له بحسب قوة اعتقاده وبحسب درجة ذلك الكمال عنده) فكلما قويَ الكمالُ قويَ الاعتقاد فقوي الانقيادُ (وليس يُشترَط أن يكون الوصف) القائم بذلك الشخص (كمالاً في نفسه) أي ذاته (بل يكفي أن يكون الوصف كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً ويذعن قلبه للموصوف به انقيادًا ضروريًّا بحسب اعتقاده، فإنَّ انقياد القلب حالٌ للقلب، وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيُّلاتها) فما اعتقده القلب أو تخيَّله كمالاً لزمه الانقيادُ له لا محالة. هَبْ أن ذلك الكمال نقصٌ في نفسه أو بالنسبة للغير؛ إذ الوصف الواحد قد يتَّصف بالكمال والنقص بالنسبة إلىٰ الأشخاص (وكما أن محب المال يطلب مَلْك الأرقَّاء والعبيد، فطالب الجاه يطلب أن يسترقَّ الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بمَلْك قلوبهم)

واستمالتهم (**بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم**) من رق المال (**لأن المالك يملك العبد قهرًا**) عن نفسه (**والعبد مُتَأَبٍّ**) أي ممتنع (**بطبعه**) لا يريد استرقاقه (**ولو خُلِّيَ**) أي تُرِك (**ورأيه انسلَّ من الطاعة**) وخرج عنها (**وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعًا ويبغي**) أي يطلب (**أن يكون الأحرار له عبيدًا بالطبع والطوع**) من غير قهر وإلجاء (**مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه**) هو (**فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير. فإذًا معنىٰ الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدْر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبُهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته علىٰ القلوب، وبقدر قدرته علىٰ القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنىٰ الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء**) وهو المبالغة في المدح (**فإنَّ المعتقِد للكمال لا يسكت عن ذِكر ما يعتقده فيثني عليه**) ويبالغ (**وكالخدمة**) بين يديه (**والإعانة**) في مهمَّاته الضرورية (**فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، فيكون سُخرةً له مثل العبيد في أغراضه**) بل أكثر (**وكالإيثار**) بأن يؤثره علىٰ نفسه وعلىٰ غيره (**وتركِ المنازعة**) له في الأمور (**والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام**) والمثول بين يديه حتىٰ يشير له بالجلوس (**وتسليم الصدر**) وهو أرفع المواضع (**في المحافل**) العامة والخاصة (**والتقديم في جميع المقاصد. فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلوب، ومعنىٰ قيام الجاه في القلب: اشتمال القلوب علىٰ اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو بعبادة**) أو بهما جميعًا، وهو أقوىٰ (**أو حُسن خُلُق**) في العِشرة (**أو نسب**) كأن يكون له اتصال بالبضعة الطاهرة (**أو ولاية**) وهي الصلاح المعنوي (**أو جمال في صورة**) ظاهرة (**أو قوة في بدن، أو شيء ممَّا يعتقده الناس كمالاً**) عندهم (**فإنَّ هذه الأوصاف كلَّها**) مجموعها وأفرادها (**تعظِّم محلَّه في القلوب فتكون سببًا لقيام الجاه**).

بيان سبب كون الجاه محبوبًا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلبٌ إلا بشديد المجاهدة

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن السبب الذي يقتضي كونَ الذهب والفضة وسائر أنواع المال محبوبًا هو بعينه يقتضي كونَ الجاه محبوبًا، بل يقتضي أن يكون أحب من المال، كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانها) أي ذواتها (إذ لا تصلُح) أبدًا (لمَطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصىٰ) المرميُّ في الطرق (بمثابة واحدة) أي بمنزلة واحدة (ولكنها محبوبة لأنها وسيلة إلىٰ جميع المَحابِّ، وذريعة إلىٰ قضاء الشهوات، فكذلك الجاه؛ لأن معنىٰ الجاه: مَلْك القلوب، وكما أن مَلْك الذهب والفضة يفيد قدرةً يتوصل الإنسان بها إلىٰ سائر أغراضه) ومهمَّاته (فكذلك مَلْكُ قلوب الأحرار والقدرة علىٰ استسخارها يفيد قدرةً علىٰ التوصُّل إلىٰ جميع الأغراض، فالاشتراك في السبب اقتضىٰ الاشتراكَ في المحبة، وترجيح الجاه علىٰ المال اقتضَىٰ أن يكون الجاه أحب من المال، ولمالك القلوب ترجيح علىٰ مالك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصُّل بالجاه إلىٰ المال أيسر) وأسهل (من التوصُّل بالمال إلىٰ الجاه، فالعالِم أو الزاهد الذي تقرَّرَ له جاهٌ في القلوب) وصار معتقَدًا (لو قصد اكتساب المال يتيسَّر له) بأهون سبب (فإن أحوال أرباب القلوب مسخَّرة للقلوب ومبذولة) أي مصروفة (لمَن اعتقدت فيه الكمالَ. وأما الرجل الخسيس الذي لا يتَّصف بصفة كمال إذا) كثر مالُه باكتساب أو إرث أو (وجد كنزًا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصَّل بالمال إلىٰ الجاه لم يتيسَّر له. فإذًا الجاه آلة ووسيلة إلىٰ المال، فمَن ملك الجاهَ فقد ملك

المالَ، ومَن ملك المالَ لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب) ولذلك أوصىٰ الحكماء باتخاذ الجاه دون المال.

(الثاني: هو أن المال معرَّض للبلوىٰ والتلف بأن يُسرَق) ويُنتهَب **(ويُغصَب)** ويُختلَس **(ويطمع فيه الملوك والظَّلَمة)** المتسلِّطون **(ويُحتاج فيه إلىٰ الحَفَظة والحرَّاس)** يحفظونه ويحرسونه من السُّرَّاق **(و)** يُحتاج فيه أيضًا إلىٰ **(الخزائن)** والصناديق **(وتتطرَّق إليه أخطار كثيرة)** ومصائب جمَّة **(وأما القلوب إذا ملكت لم تتعرَّض لهذه الآفات، فهي علىٰ التحقيق خزائن عتيدة)** محفوظة **(لا يقدر عليها السُّرَّاق، ولا تتناولها أيدي النُّهَّاب والغُصَّاب)** والظَّلَمة الجائرين **(وأثبتُ الأموال العقار، ولا يؤمَن فيه الغصب والظلم)** كما هو مشاهَد **(ولا يستغني عن المراقبة والحفظ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها)** لا تحتاج إلىٰ المراقبة **(وذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها. نعم، إنما تُغصَب القلوب بالتصريف)** أي بالإفساد **(وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعُه، ولا يتيسَّر علىٰ مُحاوِله فعلُه.**

الثالث: أن مَلْك القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجة إلىٰ تعب) ومشقَّة **(ومُقاساة)** أهوال **(فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كمالَه بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره، ويقتنص ذلك القلبُ أيضًا له)** وهذا معنىٰ السَّرَيان **(ولهذا المعنىٰ يحب الطبعُ الصيتَ)** والشهرة **(وانتشار الذِّكر؛ لأن ذلك إذا استطار في الأقطار)** وانتشر في الآفاق **(اقتنص القلوبَ ودعاها إلىٰ الإذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد إلىٰ واحد ويتزايد، وليس له مَرَدٌّ معيَّن)** يقف عليه **(وأما المال فمَن ملك منه شيئًا فهو مالكه فقط، ولا يقدر علىٰ استنمائه)** أي ازدياده **(إلا بتعب)** شديد **(ومقاساة)** خطوب **(والجاه أبدًا في النماء بنفسه، ولا مَرَدَّ لموقعه، والمال واقف، ولهذا إذا عظُم الجاهُ وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء)** والذِّكر الجميل **(استحقرت الأموال في مقابلته.**

فهذه مَجامع ترجيحات الجاه علىٰ المال، وإذا فُصِّلت كثرت وجوهُ الترجيح.

فإن قلتَ: فالإشكال قائم في الجاه والمال جميعًا، فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه. نعم، القدْر الذي يتوصَّل به إلىٰ جلب المَلاذِّ ودفع المَضارِّ معلوم كالمحتاج إلىٰ المطعم والملبس والمسكن) فهذا القدر لا يُستغنىٰ عنه (أو كالمبتلَىٰ بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلىٰ دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه فحبه للمال والجاه معلوم؛ إذ كل ما لا يُتوصل إلىٰ المحبوب إلا به فهو محبوب. وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع المال وكنز الكنوز) ودفن الدفائن (وادِّخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتىٰ لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغَىٰ إليهما ثالثًا) كما ورد ذلك في الخبر، وتقدم ذِكرُه قريبًا (وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلىٰ أقاصي البلاد التي يعلم قطعًا أنه) قط (لا يطؤها) ولا يراها (ولا يشاهد أصحابها؛ ليعظِّموه، أو ليبرُّوه بمالهم، أو ليعينوه علىٰ غرض من أغراضه. ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذُّ به غاية الالتذاذ، وحب ذلك ثابت في الطبع) مركوز فيه (ويكاد يظن أن ذلك جهل؛ فإنه حب لِما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة. فنقول: نعم، هذا الحب لا تنفكُّ عنه القلوب، وله سببان، أحدهما جليٌّ) ظاهر (يدركه الكافة) من الناس (والآخر خفيٌّ، وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء) النجباء (فضلاً عن الأغبياء) البُلَداء (وذلك لاستمداده من عِرق خفيٍّ) دَسَّاس (في النفس وطبيعة مستكنَّة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغوَّاصون) في بحار الحقائق (فأما السبب الأول) الجلي (فهو دفع ألم الخوف؛ لأن الشفيق) علىٰ نفسه، أي الخائف (بسوء الظن مولَع) أي أبدًا يسيء ظنه (والإنسان وإن كان مكفيًّا في الحال) عنده ما يكفيه (فإنه طويل الأمل، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلىٰ غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوفُ من قلبه، ولا يدفع ألم الخوف) من قلبه (إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا

المالَ جائحةٌ) أي آفة **(فهو أبدًا لشفقته علىٰ نفسه)** أي خوفه عليها **(وحبّه للحياة يقدِّر طول الحياة، ويقدِّر هجوم الحاجات)** أي طروقها فجأةً **(ويقدِّر إمكان تطرُّق الآفات إلىٰ الأموال، ويستشعر الخوفَ من ذلك، فيطلب ما يدفع به خوفه وهو كثرة المال، حتىٰ إذا أصيبَ بطائفة من ماله استغنىٰ بالآخَر. وهذا خوف لا موقَف له عند مقدار مخصوص من المال، ولذلك لم يكن لمثله موقف إلىٰ أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال)** رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، ورواه البزار والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس، وقد تقدم[1]. وقد رُوي هذا الكلام أيضًا لعلي رضي الله عنه، ذكره صاحب نهج البلاغة[2] **(ومثل هذه العلة تطَّرِد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه)** أي يقلقه **(عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلىٰ وطنه، ويحتاج إلىٰ الاستعانة بهم، ومهما كان ذلك ممكنًا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفْس فرحٌ ولذة بقيام الجاه في قلوبهم؛ لِما فيه من الأمن من هذا الخوف.**

وأما السبب الثاني) الخفي **(وهو الأقوىٰ: أن الروح أمر ربانيٌّ به وصفه اللهُ تعالىٰ إذ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾** [الإسراء: ٨٥] **ومعنىٰ كونه ربانيًّا: أنه من أسرار علوم المكاشَفة، ولا رخصة في إظهاره؛ إذ لم يظهره رسولُ الله ﷺ)** كما رواه البخاري من حديث ابن مسعود، وقد تقدم[3]. وحيث[4] أمسك ﷺ عن الإخبار عن الروح أو ماهيَّته بإذن الله تعالىٰ ووحيه، وهو ﷺ معدن العلم وينبوع الحكمة، كيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه؟! لا جَرَم لمَّا تقاضت النفس الإنسانية المتطلِّعة إلىٰ الفضول المتشوِّفة إلىٰ المعقول المتحركة بوضعها

---

(١) في كتاب ذم البخل وحب المال.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٣٤٥.

(٣) في كتاب قواعد العقائد، وفي كتاب عجائب القلب.

(٤) عوارف المعارف ص ٣٠٨.

إلىٰ كل ما أُمرتْ فيه بالسكوت والمثورة بحرصها إلىٰ كل تحقيق وكل تمويه تاهت في التيه، وتنوَّعت آراؤها فيه، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح، ولو لزمت النفوس حدَّها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولىٰ (**ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلاً إلىٰ صفات بهيمية كالأكل والوقاع**) فإن من شأن البهائم كذلك (**وإلىٰ صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء**) فإن من شأن السباع كذلك (**وإلىٰ صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء**) فإنَّ من شأن الشياطين كذلك (**وإلىٰ صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبُّر**) والقهر (**وطلب الاستعلاء. وذلك لأنه مركَّب من أصول مختلفة**) من ماء وطين لازب وصلصال وفخَّار (**يطول شرحها وتفصيلها، فهو لِما**) نُفخ (**فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنىٰ الربوبية: التوحُّد بالكمال والتفرُّد بالوجود علىٰ سبيل الاستقلال، فصار الكمال من نعوت الإلهية، وصار محبوبًا بالطبع للإنسان**) لا ينفكُّ عنه (**والكمال في التفرُّد بالوجود، فإنَّ المشاركة في الوجود نقصٌ لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كان معها شمس أخرىٰ لكان ذلك نقصانًا في حقها؛ إذ لم تكن منفردة بكمال معنىٰ الشمسية، والمنفرد بالوجود هو الله تعالىٰ؛ إذ ليس معه موجود سواه، فإنَّ ما سواه أثرٌ من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به**) إذ هو واجب الوجود لذاته، وما سواه ممكن الوجود، والوجود عارض له (**فلم يكن موجودًا معه؛ لأن المعيَّة توجب المساواةَ في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، بل الكمال ممَّن لا نظير له**) وفي بعض النسخ: والكامل مَن لا نظير له (**في رتبته، وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق**) وجوانبها (**ليس نقصانًا في الشمس بل هو من جملة كمالها**) إذ هو راجع إليه (**وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرىٰ تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها، فكذلك وجود كل ما في العالَم يرجع إلىٰ إشراق أنوار القدرة**) الباهرة (**فيكون تابعًا ولا يكون متبعًا. فإذًا معنىٰ الربوبية: التفرُّد بالوجود، وهو الكمال، وكل إنسان فإنه**

بطبعه محب لأنْ يكون هو المتفرِّد بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرَّح به فرعون من قوله: أنا ربكم الأعلىٰ، ولكنه ليس يجد له مجالاً) وربما يُستأنس لهذا القول بما[١] رواه ابن لال في مكارم الأخلاق[٢] من حديث جابر: «الجبروت في القلب». وما اشتهر علىٰ الألسنة من كلامهم: الظلم كمين في النفس، العجز يخفيه، والقدرة تبديه (وهو كما قال، فإن العبودية قهرٌ علىٰ النفس، والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك للنسبة الربانية التي أومأ) أي أشار (إليها قولُه تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهَىٰ الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهيٰ مُحِبَّة للكمال) أبدًا (ومشتهية له وملتذَّة به لذاته لا لمعنىٰ آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته، وإنما الكلام بعد أن يَسْلَم التفرُّد بالوجود في الاستيلاء) والغلبة (علىٰ كل الموجودات، فإنَّ أكمل الكمال) أي غاية درجاته (أن يكون وجود غيرك منك، فإن لم يكن منك فأن تكون مستوليًا عليه، فصار الاستيلاء علىٰ الكل محبوبًا بالطبع؛ لأنه نوع كمال) بالإضافة إلىٰ الأول (وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذُّ به، إلا أن الاستيلاء علىٰ الشيء يكون بالقدرة علىٰ التأثير فيه وعلىٰ تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخَّرًا لك) أي مذلَّلاً منقادًا (تردِّده كيف تشاء، فأحب الإنسانُ أن يكون له الاستيلاء علىٰ الأشياء الموجودة معه، إلا أن الموجودات منقسمة إلىٰ ما لا يقبل التغييرَ في نفسه) أي ذاته (كذات الله تعالىٰ وصفاته) فإنها لا تقبل تغييرًا أصلاً (وإلىٰ ما يقبل التغييرَ) في نفسه (ولكن لا تستولي عليه قدرة الخلق كالأفلاك والكواكب) المركوزة فيها (وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار وما تحت الجبال والبحار) فإنها قابلة للتغيير، ولكن لا استيلاء لقدرة الخلق علىٰ تغييرها عن هيئاتها الموجودة فيها (وإلىٰ ما يقبل التغييرَ بقدرة

---

(١) المقاصد الحسنة ص ١٧١.

(٢) وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٢٥.

العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الناس، فإنها تقبل التأثيرَ والتغيير كأجسادهم وأجساد سائر الحيوانات. فإذا انقسمت الموجودات إلىٰ ما يقدر الإنسان علىٰ التصرُّف فيه كالأرضيات وإلىٰ ما لا يقدر عليه كذات الله والملائكة والسموات، أحب الإنسانُ أن يستولي علىٰ السموات بالعلم والإحاطة والاطِّلاع علىٰ أسرارها، فإنَّ ذلك نوع استيلاء؛ إذ المعلوم المُحاط به كالداخل تحت العلم، والعالِم كالمستولي عليه، فلذلك أحب أن يعرف الله والملائكة والأفلاك والكواكب وجميع عجائب السموات وعجائب البحار والجبال وغيرها؛ لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال، وهذا يضاهي اشتياقَ مَن عجز عن صنعة عجيبة إلىٰ معرفة طريق الصنعة فيها، كمَن يعجز عن وضع الشِّطرنج) وهي اللعبة المعروفة، فارسي معرَّب، وأصله: صدرنك، أي مائة حيلة. وواضعها صمصمة بن دامر حكيم من حكماء الهند لملك من ملوكهم (فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وُضع) ولماذا وُضع (وكمَن يرىٰ صنعة عجيبة في الهندسة): علم معروف، وأصله: آب أنداز، ومعناه: تقدير مجاري القُنِيِّ (أو الشعبذة) وهي الحِيَل (أو جر الثقيل) وهو علم معروف من الهندسة (أو غيره، وهو مستشعر في نفسه نقص العجز والقصور عنه، ولكنه يشتاق إلىٰ معرفة كيفيَّته، فهو متألِّم بنقص العجز، وملتذٌّ بكمال العلم إن علمه. وأما القسم الثاني وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها فإنه يحب بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة علىٰ التصرف فيها كيف يريد، وهي قسمان: أجساد وأرواح، أما الأجساد فهي الدراهم والدنانير والأمتعة، فيحب أن يكون قادرًا عليها يفعل فيها ما يشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإنَّ ذلك) نوع تصرفٍ فيها وهو (قدرة، والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع، فلذلك أحب الأموالَ وإن كان لا يحتاج إليها في مَطعمه وملبسه وفي شهوات نفسه، وكذلك طالب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتىٰ يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتىٰ يصير محبوبًا لها، ويقوم القهر منزلته بها، فإن الحشمة القهرية أيضًا لذيذة؛ لِما فيها

من القدرة) والتمكُّن كيف شاء (القسم الثاني: نفوس الآدميين وقلوبهم، وهي أنفَس ما علىٰ وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخَّرة له، متصرِّفة) جارية (تحت إشارته وإرادته؛ لِما فيه من كمال الاستيلاء والتشبُّه بصفات الربوبية، والقلوب إنما تتسخَّر بالحب، ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمالٍ محبوبٌ) ومرغوب إليه (لأن الكمال من الصفات الإلهية، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنىٰ الرباني من جملة معاني الإنسان وهو الذي لا يبليه الموتُ فيعدمه، ولا يتسلَّط عليه التراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة، وهو الواصل إلىٰ لقاء الله عَزَّوَجَلَّ والساعي إليه. فإذًا معنىٰ الجاه: تسخُّر[1] القلوب) وتذلُّلها وانقيادها (ومَن تسخَّرت القلوب له كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والاستيلاء كمالٌ، وهو من أوصاف الربوبية.

فإذًا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات، ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقىٰ معلومٌ أو مقدور فالشوق لا يسكن، والنقصان لا يزول، ولذلك قال ﷺ: منهومان لا يشبعان): منهوم المال ومنهوم العلم. وقد تقدم قريبًا (فإذًا مطلوب القلب الكمال، والكمال) إنما يتم (بالعلم والقدرة، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذَّته بقدر ما يدركه من الكمال. فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبًا، وهو أمر وراء كونه محبوبًا لأجل التوصل إلىٰ قضاء الشهوات، فإنَّ هذه العلة قد تبقَىٰ مع سقوط الشهوات، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلُح للتوصل به إلىٰ الأغراض، بل ربما تفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضَىٰ طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات؛ لأن في العلم استيلاءً علىٰ المعلوم) وهو الإحاطة بجزئيَّاته (وهو نوع من الكمال الذي هو نوع من صفات الربوبية، فكان محبوبًا بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط) جمع أُغلوطة وهي ما توقع الإنسانَ في غلط (لا بد من بيانها إن شاء الله).

---

(١) في م الإمام وط المنهاج ٦/ ٢٨٤: تسخير.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

(قد عرفتَ أنه لا كمال بعد فوات التفرُّد بالوجود إلا في العلم والقدرة، لكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي.

وبيانه: أن كمال العلم لله تعالىٰ. وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات) كلِّياتها وجزئياتها، لا ساحل لبحر معلوماته، بل تنفد البحار لو كانت مدادًا لكلمات ربي (فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر) وأوسع (كان أقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ) أعني قربًا بالمرتبة والدرجة لا بالمكان.

(والثاني: من حيث تعلُّق العلم بالمعلوم علىٰ ما هو به) أي علىٰ حقيقته (وكون المعلوم مكشوفًا به كشفًا تامًّا، فإن المعلومات) مع سعتها (مكشوفات لله تعالىٰ بأتم أنواع الكشف علىٰ ما هي عليه، فلذلك مهما كان علمُ العبد أوضح وأيقن) بالأدلة والبراهين ثم بالكشف الإلهي (وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب إلىٰ الله تعالىٰ) بالمرتبة والدرجة.

(والثالث: من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغيَّر ولا يزول، فإنَّ علم الله تعالىٰ باقٍ، ولا يُتصوَّر) فيه (أن يتغير) ولا يزول (فلذلك مهما كان علمُ العبد بمعلومات لا يقبل التغيُّر والانقلاب كان أقرب إلىٰ الله تعالىٰ) بالمرتبة والدرجة. وقد[1] عُرف حظ العبد من وصف العلم في هذه الوجوه الثلاثة، ولكن يفارق علمُه علم الله تعالىٰ في خواص ثلاثة، إحداها: في المعلومات في كثرتها، فإن معلومات العبد وإن كثرت واتَّسعت فهي محصورة في قلبه، فأنَّىٰ تناسب ما لا نهاية

---

(١) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٩٢ - ٩٣.

له. والثانية: إن كُشفت فلا تبلغ[١] الغايةَ التي لا ممكن وراءها. والثالثة: أن علم الله بالأشياء غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه، وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها (والمعلومات) بأسرها (قسمان: متغيِّرات وأزليات. أما المتغيرات فمثالها العلم بكون زيد في الدار) مثلاً (فإنه علمٌ له معلوم، ولكن يُتصوَّر) في الذهن (أن يخرج زيد من الدار، ويبقىٰ اعتقاد كونه في الدار كما كان) أولاً (فينقلب جهلاً) إذ خالف المعلومَ (فيكون نقصانًا لا كمالاً، فكلما اعتقدت اعتقادًا موافقًا له وتُصُوِّر أن ينقلب المعتقَد فيه عمَّا اعتقدتَه كنتَ بصدد أن ينقلب كمالك نقصًا، ويعود علمك جهلاً.

ويلتحق بهذا المثال جميعُ متغيرات العالَم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبل) من الجبال (ومساحة أرض) أي ذرعها (وتعدُّد البلاد وتباعُد ما بينها من الأميال والفراسخ، وسائر ما يُذكَر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات) ومواضعات (تتغير بتغيُّر الأعصار والأمم والعادات. فهذه علومٌ معلوماتها مثل الزِّئبق) وهو الذي يشبه الفضة، لكنه يترجرج، يُستخرَج من المعادن ومن حجاراتها بالنار (يتغير من حال إلىٰ حال) ولا يثبُت علىٰ حالة واحدة (فليس فيه كمال إلا في الحال، ولا يبقىٰ كمالاً في القلب.

والقسم الثاني هو المعلومات الأزلية، وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإنَّ هذه معلومات أبدية أزلية؛ إذ لا يستحيل الواجب قط جائزًا، ولا الجائز محالاً، ولا المحال واجبًا. وكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله تعالىٰ وما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله وبصفاته وأفعاله وحكمته) الكائنة (في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به) أي بهذا العلم (هو الكمال الحقيقي الذي يقرُب من يتَّصف به من الله تعالىٰ) قرب مرتبة ودرجة (ويبقىٰ كمالاً للنفس بعد الموت) أي

---

(١) في المقصد: أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ.

بعد مفارقة الروح البدن (**فتكون هذه المعرفة نورًا للعارفين بعد الموت يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون: ربنا أتمِمْ لنا نورنا. أي تكون هذه المعارف رأس مال يوصل إلىٰ كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن مَن معه سراج خفيٌّ فإنه يجوز أن يصير ذلك سببًا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفي علىٰ سبيل الاستتمام**) فذلك السراج الخفي هو المعرفة المشار إليها (**ومَن ليس معه أصل السراج فلا مَطمع له في ذلك**) أي في الاقتباس وزيادة الانكشاف (**فمَن ليس له أصل معرفة الله تعالىٰ لم يكن له مَطمع في هذا النور، فيبقىٰ**) في يوم القيامة (**كمَن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**) لشدة رسوخه فيها، كلما خرج من ظلمة وقع في أخرىٰ (**بل كظلمات في بحر لجّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض**) والمراد[1] بها قلوب الكفار، فإن النور يُراد للهداية، فالمصروف عن طريق الهدىٰ باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة؛ لأن الظلمة لا تهدي إلىٰ الباطل كما لا تهدي إلىٰ الحق، وعقول الكفار انتكست، وكذلك سائر إدراكاتهم، وتعاونت علىٰ الضلال [في حقهم] فمثالهم هذا، والبحر اللجِّيُّ هو الدنيا، والموج الأول موج الشهوات، والثاني موج الصفات السبعية، والسحاب الاعتقادات الخبيثة، فكل ذلك حاجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلاً عن البعيدة فضلاً عن معرفة الله تعالىٰ (**فإذًا لا سعادة**) ولا كمال (**إلا في معرفة الله تعالىٰ**) ولها[2] سبيلان، أحدهما: السبيل الحقيقي، وذلك مسدود إلا في حق الله تعالىٰ، فلا يشرئب أحدٌ لملاحظته إلا اندهش. والثاني: معرفة الأسماء والصفات، وفيه تتفاوت مراتب العارفين (**وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب**) جاهليتها وإسلامها (**وغيرهما**) أما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح فلا تترتَّب عليه فائدة دينية، وأما الأنساب فالعلم بها علم لا ينفع وجهالة لا تضر، ويُتصوَّر ترتُّب الفوائد في كلٍّ من العِلمينِ في الدين

---

(١) مشكاة الأنوار للغزالي ص ٨٧ – ٨٨.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٥٥.

لكن بوسائط بعيدة (ومنها ما له فائدة تؤدي إلىٰ معرفة الله تعالىٰ كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار) النبوية (فإن معرفة لغة العرب تعين علىٰ معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين علىٰ معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكيةَ النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد في استعداد النفس) وتهيئتها (لقبول) أنوار (الهداية إلىٰ معرفة الله) كما هي (كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾) [الشمس: ٩] أي طهَّرها من شوائب الشرك (وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾) أي جاهدوا أنفسهم بإماتتها عن الرذائل لأجلنا (﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾) [العنكبوت: ٦٩] أي طريق معرفتنا بالهداية ثمرة المجاهدة، كما تقدم (فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلىٰ تحقيق معرفة الله، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميعُ المعارف المحيطة بالموجودات؛ إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمَن عرفها من حيث هي فعلُ الله تعالىٰ ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالىٰ) وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كبير شرف. وأيضًا، فإن شرف كل علم بشرف معلومه، وأشرف المعلومات هو الله تعالىٰ، فلذلك كانت معرفته أشرف المعارف، ويليه ما هو تكملة لها[(١)] (هذا حكم كمال العلم، ذكرناه وإن لم يكن لائقًا بأحكام الجاه والرياء، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأما القدرة: فليس فيها كمال حقيقي للعبد، بل للعبد علم حقيقي) بالنسبة إلىٰ غيره من أوصاف الكمال (وليس له قدرة حقيقية، وإنما القدرة الحقيقية لله تعالىٰ) وهو[(٢)] القادر المطلق الذي يخترع كل موجود اختراعًا يتفرَّد به ويستغني

---

(١) عبارة الغزالي في المقصد الأسنىٰ ص ٩٣: «شرف العبد بسبب العلم من حيث إنه من صفات الله عز وجل، ولكن العلم الأشرف ما معلومه أشرف، وأشرف المعلومات هو الله تعالىٰ، فلذلك كانت معرفة الله تعالىٰ أفضل المعارف، بل معرفة سائر الأشياء أيضا إنما تشرف لأنها معرفة لأفعال الله عز وجل أو معرفة للطريق الذي يقرب العبد من الله عز وجل أو الأمر الذي يسهل به الوصول إلىٰ معرفة الله تعالىٰ والقرب منه، وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كثير شرف».

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ١٤٥.

فيه عن معاونة غيره، وأما العبد فله قدرة على الجملة ولكنها ناقصة؛ إذ لا تتناول إلا بعض الممكنات، ولا تصلُح للاختراع (وما يحدث من الأشياء عقيب قدرة العبد وإرادته وحركته فهي حادثة بإحداث الله تعالىٰ، كما ذكرناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتىٰ من ربع المنجيات) كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالىٰ (فكمال العلم يبقىٰ معه بعد الموت ويوصله إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فأما كمال القدرة فلا) أي ليس كذلك (نعم، له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلىٰ الحال، وهي وسيلة له إلىٰ كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش و) قوة (رجليه للمشي و) قوة (حواسِّه للإدراك، فإن هذه القوَىٰ آلة له يتوصل بها إلىٰ حقيقة كمال العلم) فيكون كماله بهذه الإضافة (وقد يحتاج في استبقاء هذه القوىٰ إلىٰ القدرة بالمال وبالجاه للتوصُّل به إلىٰ المطعم والمشرب والملبس والمسكن، وذلك إلىٰ قدر معلوم) وحدٍّ محدود (فإن لم يستعمله في الوصول به إلىٰ معرفة جلال الله فلا خير فيه البتَّة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي علىٰ القرب) ويُمحَىٰ أثرها (ومَن ظن ذلك كمالاً فقد جهلَ) وأخطأ طريق الصواب (والخلق كلهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة علىٰ الأجساد بقهر الحشمة، وعلىٰ أعيان الأموال بسعة الغنىٰ، وعلىٰ تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال) وقد وطَّنوا أنفسهم علىٰ ذلك الظن (فلما اعتقدوا ذلك أحبوه) ومالوا إليه (ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شُغلوا به وتهالكوا عليه، فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القُربَ من الله تعالىٰ ومن ملائكته) المقرَّبين عنده (وهو العلم والحرية، أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالىٰ) وأنها أشرف المعلومات مطلقًا (وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوة وغموم الدنيا) وأحزانها (والاستيلاء عليها بالقهر تشبُّهًا بالملائكة الذين لا تستفزُّهم الشهوةُ ولا يستهويهم الغضبُ، فإنَّ دفع آثار الغضب والشهوة عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة، ومن صفات الكمال لله سبحانه: استحالة التغيُّر والتأثُّر عليه، فمَن كان عن التأثر والتغير بالعوارض أبعد كان إلىٰ الله أقرب

وبالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم) وبيانه: أن[1] الموجودات كاملة وناقصة، والكامل أشرف من الناقص، ومهما تفاوتت درجات الكمال واقتصر منتهَىٰ الكمال علىٰ واحد حتىٰ لم يكن الكمال المطلق إلا له، ولم يكن للموجودات الأُخَر كمال مطلق، بل كانت لها كمالات متفاوتة بالإضافة، فأكملُها أقرب لا محالة إلىٰ الذي له الكمال المطلق. ثم إن الموجودات إما حية أو ميتة، والحي أشرف وأكمل من الميت، ودرجات الأحياء ثلاث درجات: درجة الملائكة، ودرجة الإنس، ودرجة البهائم. فأما درجة البهائم فهي أسفل في نفس الحياة التي بها شرفها، وفي إدراكها نقصٌ. وأما درجة الملائكة فهي أعلىٰ الدرجات؛ لأنهم مقدَّسون عن الشهوة والغضب، وداعيتهم إلىٰ [الأفعال] أمر أجَلُّ من ذلك وهو طلب القرب إلىٰ الله تعالىٰ. وأما الإنسان فدرجته متوسطة بينهما، والأغلب عليه في بداية أمره البهيمية إلىٰ أن يشرق عليه بالآخِر نورُ العقل المتصرِّف في ملكوت السموات والأرض، وتظهر فيه الرغبة في طلب الكمال فيعصي مقتضَىٰ الغضب والشهوة حتىٰ يضعفا عن تحريكه وتسكينه فيأخذ بذلك شبهًا من الملائكة، وكذلك إن فطم نفسه عن الجمود علىٰ الخيالات وأنسَ بالإدراك[2] أخذ شبهًا آخر من الملائكة، فإنَّ خاصية الحياة الإدراك والفعل، وإليهما يتطرَّق النقص والتوسُّط والكمال، ومهما اقتدىٰ بالملائكة في هاتين الخاصَّتين كان أبعد عن البهيمية وأقرب من الملائكة، والملَك قريب من الله تعالىٰ، والقريب من القريب قريبٌ **(وهذا)** أي كونه أبعد عن التغير والتأثُّر **(كمال ثالث سوىٰ كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلىٰ عدم ونقصان، فإن التغير نقصان؛ إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقصٌ في الذات ونقص في صفات الكمال)** للذات **(فإذًا الكمالات ثلاثة إن عددنا عدمَ التغير بالشهوات)** وعدم التأثر بها **(وعدم الانقياد لها كمالاً ككمال العلم وكمال الحرية، ونعني به عدمَ العبودية للشهوات والإرادة**

---

(١) السابق ص ٤٤ - ٤٦.

(٢) في المقصد: «وأنس بإدراك أمور تجل عن أن ينالها حس أو خيال».

للأسباب الدنيوية، وكمال القدرة للعبد طريق إلىٰ اكتساب كمال العلم وكمال الحرية، ولا طريق له إلىٰ اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته؛ إذ قدرته علىٰ أعيان الأموال) بالمِلك والتصرف **(وعلىٰ استسخار القلوب)** بحسن الاعتقاد **(والأبدان)** بالقهر أو بالإحسان **(تنقطع بالموت، ومعرفته وحريته لا تنعدمان بالموت، بل تبقيان كمالاً فيه ووسيلة إلىٰ القرب من الله تعالىٰ. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبُّوا علىٰ وجوههم انكباب العميان)** الذين سُلِبوا أبصارهم **(فأقبلوا علىٰ طلب كمال القدرة بالجاه والمال، وهو الكمال الذي لا يَسلم، وإن سَلِمَ فلا بقاء له)** بل ينعدم قريبًا **(وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبديًّا)** ثابتًا **(لا انقطاع له، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جَرَم لا يخفَّف عنهم العذاب ولا هم يُنظَرون)** أي لا ينظر إليهم نظر رحمة، أو لا ينظر إليهم أصلاً لحقارتهم **(وهم الذين لم يفقهوا)** وفي نسخة: لم يفهموا **(قولَ الله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾** [الكهف: ٤٦] **فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقىٰ كمالاً في النفس)** تهيِّئها للقرب من الملأ الأعلىٰ **(والمال والجاه هو الذي ينقضي علىٰ القرب، وهو كما مثَّله الله تعالىٰ حيث قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية** [يونس: ٢٤] **وقال تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾)** أي يابسًا متحطِّمًا **(﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾** [الكهف: ٤٥] **فكل ما تذروه رياحُ الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات.**

فقد عرفتَ بهذا أن كمال القدرة بالمال كمال ظنيٌّ) وهميٌّ **(لا أصل له، وأن مَن قصر الوقت علىٰ طلبه وظنه مقصودًا فهو جاهل، وإليه أشار أبو الطيب)** أحمد بن الحسين المتنبِّي[1] **(بقوله:**

---

(١) البيت في ديوانه ص ١٨٩.

ومَن ينفق الساعات في جمع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

إلا قدر البلغة منهما إلىٰ الكمال الحقيقي) فإنه مقصود لكن بالذات. والله أعلم.

بيان ما يُحمَد من حب الجاه وما يُذَم

(مهما عرفتَ أن معنىٰ الجاه مَلْك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم مَلْك الأموال، فإنه غرض من) جملة (أغراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة للآخرة) أي بمنزلة المزرعة التي يُحصَد منها للتزوُّد للآخرة (فكل ما خلق الله في الدنيا فيمكن أن يُتزوَّد منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنىٰ مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس فلا بد من أدنىٰ جاه لضرورة المعيشة مع الخَلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله) لقوام بدنه (فيجوز أن يحب الطعام) ضرورةً (و) كذا (المال الذي يُبتاع) أي يُشترَىٰ (به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلىٰ خادم يخدمه) في حاجاته الضرورية (ورفيق يعينه) علىٰ أموره (وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه) بمنعته (ويدفع عنه ظلم الأشرار) وكيد الفجَّار (فحبه لأنْ يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلىٰ الخدمة) ويبعثه عليها (ليس بمذموم، و) كذا (حبه لأنْ يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسِّن به مرافقتَه ومعاونته ليس بمذموم) أيضًا (و) يلتحق بذلك (حبه لأنْ يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسِّن به إرشاده) إلىٰ طريق الحق (وتعليمه والعناية به ليس بمذموم) أيضًا (و) كذا (حبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه) المتولِّي أمور السياسة (ما يحثُّه ذلك علىٰ دفع الشر عنه) من خارج (ليس بمذموم) أيضًا (فإن الجاه وسيلة إلىٰ الأغراض كالمال، فلا فرق بينهما. إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلىٰ أن لا يكون المال والجاه في أعيانهما محبوبينِ، بل ينزَّل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء) وهو موضع قضاء الحاجة (لأنه مضطر إليه) لا محالة (لقضاء حاجته) ولا يستغني عنه (ويود أنه لو استغنىٰ عن قضاء الحاجة حتىٰ يستغني عن بيت الماء، وهذا علىٰ التحقيق ليس بحب بيت الماء، فكل ما يُراد للتوصُّل

به إلىٰ محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصَّل إليه. وتُدرَك التفرقة) في ذلك (بمثال آخر، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة) المتحصلة من آثار الطعام (كما يدفع ببيت الماء فضلةَ الطعام) وهو الكيموس (ولو كُفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته) ولا يحبها أصلاً (كما أنه لو كُفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به) أصلاً (و) لكنه (قد يحب الإنسان زوجته لذاتها) لجمالها وحُسن أخلاقها (حب العُشَّاق) ولا يُتصور في ذهنه قضاء وطر الشهوة منها (ولو كُفي الشهوة) من أصلها (لبقي مستصحِبًا لنكاحها. فهذا الحب دون الأول. فكذلك الجاه والمال قد يُحَب كل واحد منهما علىٰ هذين الوجهين، فحبهما لأجل التوصل بهما إلىٰ مهمَّات البدن) الضرورية (غير مذموم، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورات البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصَف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب علىٰ مباشرة معصية) من المعاصي (وما لم يتوصَّل إلىٰ اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور) شرعي (وما لم يتوصل إلىٰ اكتسابه بعبادة) دينية (فإنَّ التوصل إلىٰ الجاه والمال بالعبادة جناية علىٰ الدين، وهو حرام، وإليه يرجع معنىٰ الرياء المحظور، كما سيأتي) قريبًا.

(فإن قلتَ: طلبُ[1] الجاه والمنزلة في قلوب) كلٍّ من (أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمرُه) هل هو (مباح علىٰ الإطلاق كيفما كان أو يباح إلىٰ حد مخصوص علىٰ وجه مخصوص؟ فأقول: يُطلَب ذلك علىٰ ثلاثة أوجُه، وجهان منها مباحان، ووجه منها محظور. أما الوجه المحظور فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفكٌّ عنها) أي غير متَّصف بها (مثل العلم والورع والنسب، فيُظهِر لهم أنه عَلَوي) أي من أولاد علي، أو حَسَنيٌّ، أو حُسينيٌّ، أو فاطمي، أو عباسي، أو غير ذلك من الأنساب المشهورة (أو عالِم أو ورِع وهو لا يكون) في نفس الأمر (كذلك، فهذا حرام؛ لأنه تلبيس وكذب إما بالقول) بأن

(١) في غير الزبيدي: طلبه.

ينطق بلسانه ويصرِّح به (**وإما بالمعاملة**) فيتزيًّا بهيئة العلماء الجارية عوائدهم بها في كل عصر وبلاد، أو بهيئة الزهَّاد، أو يجعل على رأسه من الخضرة ما يشير للناس أنه علوي، وكذا كل مَن زعم فيه أنه عالِم أو ورع أو عَلَوىٰ وهو يعرف أنه ليس كذلك فسكت علىٰ زعمه فيه فهو كالمُقِرِّ له علىٰ ذلك، وهو أيضًا حرام، بل يجب عليه أن يقول: لستُ بعالِم، لست بورع، لست بعلويٍّ (**وأما أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متَّصف بها**) لغرض صحيح (**كقول يوسف** عليه السلام) لعزيز مصر (**فيما أخبر عنه الرب تعالىٰ**: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾) أي[1] وَلِّني أمرها، والأرض أرض مصر (﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾) لها عمَّن لا يستحقها (﴿عَلِيمٌ ۝﴾) [يوسف: ٥٥] بوجوه التصرُّف فيها (**فإنه**) عليه السلام (**طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظًا عليمًا، فكان محتاجًا إليه**) إذ رأىٰ أنه يستعمله في أمره لا محالة، فآثَرَ ما تعمُّ فوائدُه فقال ما قال (**وكان صادقًا فيه**) متَّصفًا بالحفظ والعلم. وقيل: حفيظ علىٰ ما استُودِعتُ عليهم، كاتب، حاسِب (**والثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتىٰ لا يُعلَم ولا تزول منزلته به، فهذا أيضًا مباح؛ لأن حفظ الستر علىٰ القبائح جائز، ولا يجوز هتكُ الستر وإظهار القبيح**) علىٰ نفسه، كما لا يجوز علىٰ غيره (**وهذا ليس فيه تلبيس**) علىٰ باطل (**بل هو سدٌّ لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يُخفِي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يُلقِي إليه أنه ورع، فإن قوله «إني ورعٌ» تلبيس**) بلا شك (**وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقادَه الورع بل يمنع العلمَ بالشرب**) فقط.

(**ومن جملة المحظورات: تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده**) ويراه بعين الكمال لكونه خاشعًا (**فإنَّ ذلك رياء، وهو مُلبِس؛ إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله**) عز وجل (**وهو مُراءٍ بما يفعله، فكيف يكون مخلصًا**) أو خاشعًا؟! (**فطلبُ الجاه بهذا الطريق حرام، وكذا بكل معصية، وذلك يجري**

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ١٦٨.

مَجرىٰ اكتساب المال الحرام من غير فرق) بينهما **(وكما لا يجوز له أن يتملَّك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره فلا يجوز له أن يتملَّك قلبه بتزوير)** وتلبيس (وخداع) وحِيَل **(فإنَّ مَلْك القلوب أعظم من مَلْك الأموال)** ويؤثِّر فيها الخداع أكثر منها في الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطباع إليه وبغضها للذم ونفرتها عنه

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأول) منها (وهو الأقوىٰ) وفي نسخة: وهو أقواها (شعور النفس بالكمال) أي تشعر بأنها كاملة (فإنَّا) قد (بيَّنَّا) آنفًا (أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ، فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزَّت) طربًا (وتلذَّذت، والمدح يُشعِر نفسَ الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مُدح لا يخلو إما أن يكون جليًّا ظاهرًا أو يكون مشكوكًا فيه، فإن كان جليًّا ظاهرًا محسوسًا كانت اللذة فيه أقل، ولكنه لا يخلو عن لذةٍ) ما (كثنائه عليه بأنه طويل القامة) تام القَد (أبيض اللون، فإنَّ هذا نوع كمال، ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرتْه لم يَخْلُ حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف ممَّا يتطرَّق إليه الشك فاللذة فيه أعظم) وأقوىٰ (كالثناء عليه بكمال العلم وكمال الورع أو بالحُسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكًّا في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه، ويكون مشتاقًا إلىٰ زوال هذا الشك بأن يكون مستيقنًا بكونه عديم النظير في هذه الأمور) المذكورة (إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورثه ذلك طمأنينةً وثقة باستشعار ذلك الكمال) له (فتعظُم لذتُه) وارتياحه (وإنما تعظُم اللذةُ لهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات، خبير بها) عارف بأنواعها، مميِّز لجيدها من رديئها (لا يجزف في القول إلا عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة) الفهم ووفور (الفضل، فإنه في غاية اللذة) والارتياح (وإن صدر ممَّن يجزف) وفي نسخة: يجازف (في الكلام أو لا

يكون بصيرًا في ذلك الوصف ضعفت اللذة) وقلَّ الارتياح (وبهذه العلة يبغض الذم أيضًا ويكرهه؛ لأنه يُشعِره بنقصان نفسه، والنقصان ضد الكمال المحبوب، فهو ممقوت، والشعور به مؤلم) للطبع (ولذلك يعظُم الألم إذا صدر الذمُّ من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: أن المدح يدل علىٰ أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقِد فيه ومسخَّر تحت مشيئته) مطيع له في سائر أحواله (ومَلْكُ القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلة تعظُم اللذةُ مهما صدر الثناء ممَّن تتسع قدرته) ويطول باعُه (ويُنتفَع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر) وأرباب الأموال (ويضعُف مهما كان المادح ممَّن لا يؤبَه له) ولا يُشار إليه (ولا يقدر علىٰ شيء، فإن القدرة عليه بمَلْك قلبه قدرة علىٰ أمر حقير) ليس له قدْر (فلا يدل المدح إلا علىٰ قدرة قاصرة، وبهذه العلة أيضًا يُكره الذم ويتألَّم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم؛ لأن الفائت به أعظم.

السبب الثالث: إن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لا سيَّما إذا كان ذلك ممَّن يُلتفَت إلىٰ قوله ويُعتَدُّ بثنائه) وتُعقَد عليه الخناصر (وهذا مختصٌّ بثناء يقع علىٰ الملأ) أي الجماعة من أشراف القوم (فلا جَرَم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يُلتفَت إلىٰ قوله كان المدح ألذ، والذم أشد علىٰ النفس.

السبب الرابع: أن المدح يدل علىٰ حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلىٰ إطلاق اللسان بالثناء علىٰ الممدوح إما عن طوع) أي من عند نفسه، غير مقهور عليه (وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضًا لذيذة؛ لِما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطرًّا إلىٰ ذِكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جَرَم تكون لذته بقدْر تمنُّع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع في مدح مادح واحد فيعظُم بها الالتذاذ، وقد تفترق) فلا يوجد إلا بعضها (فتنقص اللذةُ بها.

فأما العلة الأولىٰ - وهي استشعار الكمال - فتندفع بأن يعلم الممدوح) المثنَىٰ عليه (أنه) أي المادح (غير صادق في قوله) وفي مدحه (كما إذا مُدح بأنه نسيب) أي ذو نسب عالٍ (أو سخي) أي كريم يجود بالأموال (أو عالِم بعلم أو متورِّع عن المحظورات) الشرعية (وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال، وتبقىٰ لذة الاستيلاء علىٰ قلبه وعلىٰ لسانه وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس بمعتقد ما يقوله ويعلم خلوَّه عن هذه الصفة بطلت اللذةُ الثانية وهي استيلاؤه علىٰ قلبه، وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة علىٰ اضطرار لسانه إلىٰ النطق بالثناء، فإن لم يكن ذلك عن خوف) وقهر (بل كان بطريق اللعب) والمزاح (بطلت اللذات كلُّها فلم تكن فيها أصلاً لذة؛ لفوات الأسباب الثلاثة) المذكورة (فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألُّمها بسبب الذم، وإنما ذكرنا ذلك) بالتفصيل المتقدم (ليُعرَف طريق العلاج لحب الجاه وحب المَحمدة) والثناء (وخوف المَذَمَّة) وكراهتها (فإنَّ ما لا يُعرَف سببه لا تمكن معالجته) ولا تتيسَّر (إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض) وكشف ما خفيَ منها (والله الموفِّق بكرمه).

بيان علاج حب الجاه

(اعلمْ أن مَن غلب علىٰ قلبه حبُّ الجاه صار مقصور الهم علىٰ مراعاة الخَلق) في أحوالهم **(مشغوفًا بالتودُّد إليهم والمراءاة لأجلهم)** أي إظهار الرياء **(ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتًا إلىٰ ما يعظِّم منزلتَه عندهم)** ويرفع مقامَه وقدْره لديهم **(وذلك بذرُ النفاق)** الذي يتولَّد منه **(وأصل الفساد)** الذي ينشأ عليه **(ويجر ذلك لا محالة إلىٰ التساهل في العبادات والمراءاة بها وإلىٰ اقتحام المحظورات)** وارتكابها **(للتوصل إلىٰ اقتناص القلوب)** وتسخيرها **(ولذلك شبَّهَ رسولُ الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين)** كما في حديث أسامة بن زيد عند الطبراني في الصغير، وفي الكبير من حديث ابن عباس. وفي بعض الروايات وصفهما بعاديين كما في حديث عاصم بن عديٍّ عند الطبراني في الأوسط، وفي أخرىٰ وصفهما بجائعين كما في حديث كعب بن مالك عند أحمد والترمذي. وقد تقدم قريبًا **(وقال)** أيضًا: **(إنه يُنبت النفاقَ)** في القلب **(كما يُنبِت الماءُ البقلَ)** أي العشب، كما رواه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ: «حب الغنىٰ يُنبِت النفاقَ في القلب كما يُنبِت الماءُ العشبَ». وقد تقدم أيضًا **(إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل مَن طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلىٰ النفاق معهم)** لا محالة **(وإلىٰ التظاهر بخصال حميدة)** أي يُظهِرها من نفسه بتكلُّف **(هو خالٍ عنها، وذلك هو عين النفاق. فحب الجاه إذًا من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته من القلب، فإنه طبع جُبل القلب عليه كما جُبل علىٰ حب المال، وعلاجه مركَّب من علم وعمل. أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحَبَّ الجاهَ وهو كمال القدرة علىٰ أشخاص الناس وعلىٰ قلوبهم)** بمَلْكها **(وقد بيَّنَّا)** أيضًا **(أن ذلك)** لا يصفو، و**(إن صفا وسَلِمَ)** من الكدر **(فآخره الموت، فليس هو من**

الباقيات الصالحات) التي تستمر إلىٰ ما بعد الموت **(بل لو)** فُرِض أنه **(سجد لك كل مَن علىٰ بسيط الأرض من المشرق إلىٰ المغرب)** ودانوا لك **(فإلىٰ خمسين سنة لا يبقىٰ الساجد ولا المسجود له)** غالبًا **(ويكون حالك كحال مَن مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يُترَك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها)** بعد الموت **(ومَن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق)** ذِكرُه قريبًا **(صغُر الجاهُ في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلىٰ الآخرة كأنَّه يشاهدها)** من وراء ستر رقيق **(ويستحقر العاجلة)** ويستهون أمرَها **(ويكون الموت كالحاصل عنده)** حالاً **(ويكون حاله كحال الحسن البصري)** رحمه الله تعالىٰ **(حيث كتب إلىٰ عمر بن عبد العزيز)** ابن أخي عبد الملك، وهو يومئذٍ خليفة: **(أما بعد، فكأنك بآخر مَن كُتب عليه الموت قد مات. فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدَّره كائنًا، وكذلك حال عمر بن عبد العزيز، حيث كتب في جوابه: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل)** وهذا الكتاب وجوابه أخرجهما أبو نعيم في الحلية، وقد تقدم ذِكرُهما في كتاب ذم الدنيا **(فهؤلاء كان التفاتهم إلىٰ العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوىٰ؛ إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا المال والجاهَ في الدنيا)** وإليه أشار القائل[1]:

إن لله عِبادًا فُطَنَا ... طلَّقوا الدنيا وخافوا الفِتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لُجَّة واتخذوا ... صالحَ الأعمال فيها سُفُنا

(وأبصار أكثر الخلق ضعيفة، مقصورة علىٰ العاجلة، لا يمتد نورها إلىٰ مشاهدة العواقب) لقصورها **(ولذلك قال تعالىٰ:** ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلىٰ: ١٦ - ١٧] **وقال تعالىٰ:** ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾

(١) هو الإمام الشافعي، والأبيات في ديوانه ص ١٠١ (ط - دار الكتب العلمية).

وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾) [القيامة: ٢٠ - ٢١] إلىٰ غيرها من الآيات (فمَن هذا حدُّه فينبغي أن يعالج قلبه من[1] حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكَّر في الأخطار) أي الأمور العظيمة (التي تُستهدَف لها أرباب الجاه في الدنيا) أي يُصابون بها (فإن كل ذي جاهٍ محسودٌ) بين الناس (ومقصود بالإيذاء، وخائف علىٰ الدوام علىٰ جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشد تغيُّرًا) وانقلابًا (من القِدر في غليانها) كما ورد ذلك في الخبر وتقدم في كتاب عجائب القلب (وهي متردِّدة بين الإقبال والإعراض) إما أن تُقبِل وإما أن تُعرِض (فكل ما ينبني علىٰ قلوب الخَلق يضاهي) أي يشابه (ما ينبني علىٰ أمواج البحر فإنه لا ثبات له) فكذلك ما ينبني علىٰ قلوب الخلق لا ثبات له (والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحُسَّاد ومنعِ أذىٰ الأعداء كل ذلك غموم عاجلة) وكدورات متواصلة لا ينفكُّ عنها (و) هي (مكدِّرة للذة الحياة) وفي بعض النسخ: الجاه (فلا يفي في الدنيا مرجوُّها بمخوفها) إذ مخوفها أكثر من مرجوِّها (فضلاً عمَّا يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغي أن تعالَج البصيرة الضعيفة، وأما مَن نفذت بصيرته) واستنارت (وقويَ إيمانُه لم يلتفت إلىٰ الدنيا) لكمال علمه بأحوالها (فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل، فإسقاط الجاه من قلوب الخلق بمباشرة أفعال يُلام عليها) ويُطعَن فيها (حتىٰ يسقط من أعين الخَلق، وتفارقه لذةُ القبول، ويأنس بالخمول، ويردَّ الخلقَ) وما يأتي عنهم (ويَقنع بالقبول من الخالق، وهذا هو منهج المَلامتيَّة)[2] وهم طائفة من الفقراء، وأساس طريقهم علىٰ تحقيق كمال الإخلاص (إذا اقتحموا الفواحش في صورتها؛ ليُسقِطوا أنفسَهم من أعين الخلق فيَسلموا من آفة الجاه) لأن[3] من شأنهم أنهم لا يظهر ما في باطنهم علىٰ ظاهرهم، ويضعون الأمور

---

(١) في الزبيدي وط المنهاج وم الإمام: في حب. والمثبت في ط الشعب ١٠/ ١٨٥٠.

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ١٧٧ ط الفقي.

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٢٤٨.

مواضعها، لا تخالف إرادتهم وعلمهم إرادة الحق وعلمه، ولا ينفون الأسباب إلا في محل يقتضي نفيَها، وعكسه، فإنَّ مَن رفع السبب من موضع أثبته واضعُه فقد سفهَ وجهل قدره، ومَن اعتمد عليه في موضع نفاه فقد أشرك وألحد، وهؤلاء هم الذين جاء في حقِّهم: أوليائي تحت قبابي، لا يعرفهم غيري (وهذا) المسلك (غير جائز لمَن يُقتدَىٰ به، فإنه يوهن الدينَ) أي يضعفه (في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يُقتدَىٰ به فلا يجوز له أن يُقدِم علىٰ محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يُسقِط قدْرَه عند الناس، كما رُوي أن بعض الملوك قصد بعضَ الزهاد) ليزوره (فلما علم بقربه منه استدعىٰ طعامًا وبقلاً وأخذ يأكل بشَرَهٍ) أي بحرص (ويعظم اللقمةَ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه) إذ كان بلغه صلاحه وأنه صائم الدهر (وانصرف) عنه (فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني) وفي بعض النسخ زيادة: وأنت لي ذامٌّ. أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمة وهب بن منبه، وفيه: فأقبل علىٰ طعامه يأكله، فقال الملك: فأين الرجل؟ قيل له: هو هذا. قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم. قال: ما عند هذا من خير. فأدبر، فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به. وسيأتي ذلك قريبًا للمصنف (ومنهم من يشرب شرابًا حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتىٰ يُظَن به أنه يشرب الخمر فيسقط) مقامه (من أعيُن الناس. وهذا في جوازه نظرٌ من حيث الفقه) فإن الفقيه لا يرىٰ ذلك جائزًا ويفتي بحرمة فعله لأجل التشبيه بالمحرَّمات (إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يُفتَىٰ به في الفقه) ولا يجوِّزه الفقيهُ (مهما رأوا فيه إصلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير، كما فعل بعضهم، فإنه عُرف بالزهد وإقبال الناس عليه) فأراد أن يخلع نفسه من ذلك (فدخل حمَّامًا و) لما خرج (لبس ثوب غيره وخرج ووقف في الطريق حتىٰ عرفوه فأخذوه وضربوه واستردُّوا منه الثياب وقالوا: إنه طرَّار) وهو الذي يقطع النفقات

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٤٨.

علىٰ غفلة من أهلها (وهجروه) فاستراح من الناس. وقد سبق ذِكرُ هذه الحكايات في المقدمة، وذكرنا هناك اعتراض ابن الجوزي وابن القيم في اعتراضهما علىٰ المصنِّف في تقرير مثل هذه وأمثالها، وذكرنا الجواب عنه.

(وأقوىٰ الطرق في قطع الجاه: الاعتزال عن الناس) جملةً (والهجرة إلىٰ موضع الخمول) أي موضع يصح له فيه خمولُ ذِكرِه (فإنَّ المعتزل في بيته في البلدة التي هو بها مشهور) ومعروف ومذكور (لا يخلو من حب المنزلة التي تترسَّخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محبًّا لذلك الجاه، وهو مغرور) قد غرَّه الشيطان بذلك، بل ربما تكون فتنة هذا أعظم من فتنة الذي هو مخالط للناس (وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها) ولذا كان بعض الشيوخ يقول: لا أعرف لانكباب الناس عليَّ وجهًا إلا لكوني اعتزلتُهم في بيتي، وإلا فالذي عندي موجود عند غيري (ولو تغيَّر الناس عمَّا اعتقدوه فيه) من الصلاح والورع والزهد (فذمُّوه أو نسبوه إلىٰ أمر غير لائق به جزعت نفسُه) لا محالة (وتألَّمت، وربما توصَّلت إلىٰ الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلىٰ كذب وتلبيس) وتزوير (ولا يبالي به) وهذا هو الفارق (وبه يتبيَّن بعدُ أنه محب للجاه والمنزلة) وأنه لم يخرج ذلك من قلبه (ومَن أحب الجاه والمنزلةَ فهو كمَن أحب المال، بل هو شر منه، فإن فتنة الجاه أعظم) من فتنة المال (ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس) وهذا هو الجاه (فإذا أحرز قوته من كسبه) بيده (أو من جهة أخرىٰ وقطع طمعه عن الناس رأسًا أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال) أي الأسقاط (فلا يبالي أكانت له منزلة في قلوبهم أم لم تكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه) متباعدون (في أقصىٰ الشرق) أو الغرب (لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمَن قنع) عزَّ و(استغنىٰ عن الناس، وإذا استغنىٰ) عنهم (لم يشغل قلبه بالناس، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن) أي مقدار (ولا يقطع ذلك

الجاه إلا بالقناعة) باليسير من الرزق **(وقطع الطمع)** عمَّا في أيديهم **(ويستعين علىٰ جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه و)** في (**مدح الخمول والذل، مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة)** أي من المال (**أو علة)** وهو قول مشهور علىٰ ألسنة الناس، ويُستأنَس له بما[1] رواه ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبان عن أنس مرفوعًا: «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، ونفس تنازعه، وشيطان يضلُّه». وممَّا يستعين عليه من الأخبار ما رواه الديلمي[2] عن أبان عن أنس رفعه: «المؤمن بيته قصب، وطعامه كُسَر، وثيابه خَلَقٌ، ورأسه شعث، وقلبه خاشع، ولا يعدل بالسلامة شيئًا» **(وينظر)** مع ذلك **(في أحوال السلف)** في الكتب المتضمِّنة لها كالحلية لأبي نعيم **(وإيثارهم الذل علىٰ العز، ورغبتهم في ثواب الآخرة)** وتركهم حظوظ الدنيا العاجلة، ثم ينظر أنها بأجمعها ستفنَىٰ ولا تبقىٰ معه إلىٰ ما بعد الموت، فما تأمل الناظر في ذلك إلا وقنع بالدون ورضي باليسير وقطع أثر حب الجاه من قلبه. والله الموفِّق.

---

(١) كنز العمال ١/ ١٦١.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ١٨٢ - ١٨٣.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهية الذم

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن أكثر الخلق إنما هلكوا بخوف مَذَمَّة الناس) لهم (وحب مدحهم) من كل لسان (فصارت حركاتهم كلُّها موقوفة علىٰ ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح) منهم (وخوفًا من الذم) الذي يلحق بهم (وذلك) في الحقيقة (من المهلكات، فتجب معالجته، وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم، فأما السبب الأول فهو استشعار الكمال) أي يستشعر كمالاً في نفسه (بسبب قول المادح) فيه (فطريقك فيه أن ترجع إلىٰ عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها هل أنت متَّصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفًا بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع) مثلاً (وإما صفة لا تستحق المدح بها كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية. فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير علىٰ القرب هشيمًا) أي متحطِّمًا متكسِّرًا (تذروه الرياح) أي تطيِّره (وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال) أبو الحسن[1] أحمد بن الحسين (المتنبِّي) رحمه الله تعالىٰ:

(أشد الغمِّ عندي في سرور   تيقُّن عنه صاحبُه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعَرَض الدنيا) فإنه متاع زائل (وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها؛ لأن الخاتمة غير معلومة) بل هي مجهولة في علم الله تعالىٰ (وهذا إنما يقتضي الفرحَ؛ لأنه يقرِّب عند الله زُلفىٰ، وخطر الخاتمة باقٍ) لم يزل (ففي الخوف من سوء الخاتمة شغلٌ

(١) كذا كناه الشارح، ولا تعرف للمتنبي كنية غير أبي الطيب. والبيت في ديوانه ص ١٤٠. وانظر: بغية الطلب لابن العديم، وغيره.

عن الفرح بكل ما في الدنيا) يشغله عنه (بل الدنيا) كما تقدَّم (دار أحزان وغموم) وأنكاد تتوالىٰ (لا دار فرح وسرور. ثم إن كنت تفرح بها علىٰ رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوىٰ لا بمدح المادح)[1] لك به (فإن اللذة) إنما هي (في استشعار الكمال، والكمال موجود من فضل الله تعالىٰ لا من مدح المادح، والمدح تابع له، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً) هذا كله إذا كنت متَّصفًا بما مُدحتَ به (وإن كانت الصفة التي مُدحتَ بها أنت خالٍ عنها ففرحك بالمدح غاية الجهل) ونهاية الجنون (ومثالك مثال مَن يهزأ به إنسان ويقول: سبحان الله! ما أكثر العطر الذي في أحشائه)! أي مطاوي بطنه (وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضىٰ حاجته! وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه) في الباطن (من الأقذار والأنتان ثم يفرح بها) ولا يدرك الذي يستهزئ به (وكذلك) أنت (إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحتَ به، والله مطَّلع علىٰ خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك) ممَّا يجانب الصلاحَ والتقوىٰ (كان ذلك من غاية الجهل. فإذًا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك) ولا يكن فرحك بالمدح (وإن كذب) في مدحه (فينبغي أن يغمَّك ذلك ولا تفرح به.

وأما السبب الثاني وهو دلالة المدح علىٰ تسخير قلب المادح وكونه سببًا لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلىٰ حب الجاه والمنزلة في القلوب، وقد سبق وجه معالجته) قريبًا (وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلبِ المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك بها يُسقِط منزلتَك عند الله، فكيف تفرح به؟!

وأما السبب الثالث وهو الحشمة التي اضطرت المادحَ إلىٰ المدح، فهي أيضًا ترجع إلىٰ قدرة عارضة لا ثبات لها، ولا تستحق الفرح بها، بل ينبغي أن يغمَّك مدحُ

(١) قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾. يونس ٥٨.

المادح وتكرهه وتغضب به، كما نُقل ذلك عن السلف) الصالحين، وذلك **(لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة، كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان. قال بعض السلف: مَن فرح بمدح فقد أمكن الشيطانَ من أن يدخل في بطنه)**(١) هذا إذا فرح بمدح ما ليس فيه، وأما إذا فرح بما هو فيه فإن اغترَّ بأنَّ ما مُدح به هو من فعل نفسه ونسي أنه من فضل الله عليه وجد الشيطان أيضًا سبيلاً لتغريره وتسويله.

(وقال بعضهم: إذا قيل لك: نِعم الرجل أنت، وكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت، فأنت واللهِ بئس الرجل) وهذا مثل قولهم: إذا قال الرجل: أنا خير من الكلب، فالكلب خير منه(٢).

(ورُوي في بعض الأخبار فإن صح) ورودُه **(فهو قاصم لظهورنا: أن رجلاً أثنىٰ علىٰ رجل خيرًا عند رسول الله ﷺ، فقال: لو كان صاحبك حاضرًا فرضي بالذي قلتَ فمات علىٰ ذلك دخل النار)**(٣) قال العراقي(٤): لم أجد له أصلاً.

(وقال ﷺ مرةً للمادح: ويحك! قطعتَ ظهره، ولو سمعك ما أفلح إلىٰ يوم القيامة) رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي بكرة بلفظ: «ويحك! قطعتَ عنق

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٦٤، ٦/ ٢٨٧ عن مالك بن دينار بلفظ: من فرح بمدح الباطل فقد أمكن الشيطان من دخول قلبه.

(٢) نقله ابن الحاج في المدخل ٢/ ٩٧، قال: «وقد قال بعض أهل التحقيق: من رأىٰ أنه خير من الكلب فالكلب خير منه. وقوله هذا واضح، ألا ترىٰ أن الكلب مقطوع له بأنه لا يدخل النار، وغيره من المكلفين محتمل لدخولها إلا من استثني». وقال في موضع آخر ٣/ ٢٨: «قال بعض الشيوخ: من رأىٰ أنه خير من الكلب فالكلب خير منه. وما قاله بيِّن، ألا ترىٰ أن الكلب مقطوع له بأنه لا يدخل النار، بخلاف من لم يُقطع له من الآدميين فإنه محتمل لإحدىٰ الدارين، فإن كان هذا الآدمي من أهل النار فالكلب خير منه، وإن كان من أهل الجنة فلا شك أنه خير من الكلب».

(٣) ذكره الحارث المحاسبي كما في الوصايا صـ١٧٥، ١٧٦. وقال: بلغني حديث لم أتقن إسناده. لذا قال الغزالي: إن صح.

(٤) المغني ٢/ ٩٢٦.

أخيك، واللهِ لو سمعها ما أفلح أبدًا، إذا أثنىٰ أحدكم علىٰ أخيه فليقل: إن فلانًا ولا أزكِّي علىٰ الله أحدًا». وقد رواه الشيخان بنحوه، وكذا أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن أبي الدنيا في الصمت. وقد تقدم في آفات اللسان.

(وقال ﷺ: ألا لا تَمادحوا، وإذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب[1]**.**

فلهذا كانت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين علىٰ وَجَل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل علىٰ القلب من السرور العظيم به، حتىٰ) رُوِيَ **(أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء، فقال: يا أمير المؤمنين، أنت خير مني وأعلم. فغضب وقال: إني لم آمرك أن تزكِّيني)**[2] وقد روىٰ ابن أبي الدنيا[3] عن إبراهيم التيمي رفعه: «ذبحُ الرجل أن تزكِّيه في وجهه». وروىٰ عن عمر بن الخطاب قال: المدح ذبحٌ. وعن خالد بن مَعْدان قال: مَن مدح إمامًا أو أحدًا بما ليس فيه علىٰ رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثَّر بلسانه.

(وقيل لبعض الصحابة: لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله. فغضب وقال: إني لأحسبك عراقيًّا)[4] أي لأن أهل العراق منهم المجازفة في المدح.

---

(١) لم يذكر الشارح هذا الحديث، وذكره العراقي في المغني ٢/ ٩٢٧، وقد تقدم بنحوه في كتاب آفات اللسان دون قوله (ألا لا تمادحوا) من حديث المقداد بن الأسود. وهي عن المحاسبي في الوصايا ومنه ينقل الغزالي.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٥/ ٢٩٦ عن طارق بن شهاب قال: خرجنا حجاجا، فأوطأ رجل منا يقال له أربد ضبا ففزر ظهره، فقدمنا علىٰ عمر، فسأله أربد، فقال عمر: احكم يا أربد. فقال: أنت خير مني يا أمير المؤمنين وأعلم. فقال عمر: إنما أمرتك أن تحكم فيه، ولم آمرك أن تزكيني. فقال أربد: أرىٰ فيه جديا قد جمع الماء والشجر. فقال عمر: فذاك فيه.

(٣) الصمت وآداب اللسان ص ٢٧٢ - ٢٧٤.

(٤) رواه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٣/ ١٩١ والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٩١ عن أبي الوازع زهير بن مالك النهدي قال: قلت لابن عمر: لا يزال الناس بخير ما أبقاك =

(وقال بعضهم لما مُدح: اللهم إن عبدك تقرَّب إليَّ بمقتك، فأُشهِدك علىٰ مقته) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت[1] عن أحمد بن بحر، حدثنا قُبَيصة، حدثنا سفيان، عن أبي سِنان، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل قال: أثنىٰ رجل علىٰ رجل من المصلِّين في وجهه، فقال: اللهم إنَّ عبدك ... فساقه.

(و) هؤلاء **(إنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بأحوالهم عند الله يبغِّض إليهم مدح الخلق؛ لأن الممدوح هو المقرَّب عند الله، والمذموم بالحقيقة هو المبعَد عن الله)** أي عن رحمته **(الملقَىٰ في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله وثنائه عليه؛ إذ ليس أمره بيد الخلق)** بل المتفضِّل هو الله تعالىٰ **(ومهما علم أن الآجال والأرزاق بيد الله قلَّ التفاته إلىٰ مدح الخلق وذمِّهم)** فإنهم لا يقلبون حاصلاً، ولا يقطعون واصلاً **(وسقط من قلبه حبُّ المدح)** والثناء **(واشتغل بما يهمُّه من أمر دينه. والله الموفِّق للصواب بكرمه)**.

= الله لهم. فغضب وقال: إني لأحسبك عراقيا، وما يدريك علام يغلق عليه ابن أمك بابه. وعند ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٤٩ وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٨٣ عن أبي الوازع قال: سمعت ابن عمر وقال له رجل ... فذكره.

(١) الصمت وآداب اللسان ص ٢٧٣.

بيان علاج كراهية الذم

(قد سبق) قريبًا (أن العلة في كراهية الذم هي ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضًا يُفهَم منه، والقول الوجيز) أي المختصر الخالي عن التطويل (فيه أن مَن ذمك) في شيء من أمورك (لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون صادقًا فيما قال و) قد (قصد) في قوله (النصحَ) لك (والشفقة) عليك (وإما أن يكون صادقًا) فيما قال (ولكنه قصد الإيذاء) لك (والتعنُّت) أي إيقاعك في العَنَت وهو المشقة (أو يكون كاذبًا) فيما قال (فإن كان صادقًا وقصدُه النصح) والشفقة (فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلَّد منه منَّةً[١]، فإنَّ مَن أهدىٰ إليك عيوبك فقد أرشدك إلىٰ) ما هو (المُهلِك) لك (حتىٰ تتَّقيه) وتتحفَّظ منه (فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة) التي هي عابتك (عن نفسك إن قدرتَ عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمُّك إياه فإنه غاية الجهل) ونهاية الحمق (وإن كان قصده التعنُّت فإنك قد انتفعت بقوله؛ إذ أرشدك إلىٰ عيبك إن كنت جاهلاً به، أو ذكَّرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبَّحه في عينك لينبعث حرصُك علىٰ إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك) ونجاتك (وقد استفدتَه منه) مجانًا (فاشتغِلْ بطلب السعادة) والنجاة (فقد أتيحت لك أسبابها بسبب ما سمعتَه من المَذَمَّة، فمهما قصدت الدخول علىٰ) حضرة (ملك) أو أمير (وثوبك ملوَّث) أي ملطَّخ (بالعَذِرة) أي النجاسة (وأنت لا تدري، فلو دخلتَ عليه كذلك لخفتَ أن يحزَّ) أي يقطع (رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة) الكائنة في ثوبك (فقال لك قائل: أيها الملوَّث بالعذرة طهِّرْ نفسك) أي ثوبك (فينبغي أن تفرح به؛ لأن تنبُّهك بقوله غنيمةٌ) ومَن نبَّه فما قصَّر (وجميع مساوئ الأخلاق) ممَّا تقدم ذِكرُها

---

(١) في غير الزبيدي: منَّه.

في كتاب رياضة النفس (مهلكة في الآخرة، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه) وحُسَّاده (فينبغي أن يغتنمه، فإذا[1] قصد العدو التعنُّتَ) معك (فجناية منه علىٰ دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلِمَ تغضب عليه) أيها الإنسان (بقول[2] انتفعتَ به أنت وتضرَّرَ هو به)؟ فهاتان الحالتان فيما إذا كان صادقًا (والحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله) وإنما نسبك إليه كذبًا وزورًا (فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمِّه، بل تتفكَّر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إذا خلوت عن ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر) مما ظهر عليك (فاشكر الله إذ لم يطلعه علىٰ عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء منه.

والثاني: أن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه، وطهَّرك من ذنوب أنت ملوَّث بها، وكل مَن اغتابك فقد أهدىٰ إليك حسناته) كما تقدم في آفات اللسان (وكل مَن مدحك فقد قطع ظهرك) كما تقدم في الحديث في الذي أثنىٰ علىٰ آخَر فقال ﷺ: «ويحك! قد قطعتَ عنقه» (فما بالك تفرح بقطع الظهر) والعنق (وتحزن لهدايا الحسنات التي تقرِّبك إلىٰ الله؟ وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما الثالث فهو: أن المسكين قد جنىٰ علىٰ دينه حتىٰ سقط من عين الله عَزَّوَجَلَّ، وأهلك نفسه بافترائه) وكذبه (وتعرَّض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطانَ وتقول: اللهم أهلِكْه) اللهم أَمِتْه (بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلِحْه، اللهم تب عليه) اللهم وفِّقْه، اللهم اغفر له (اللهم ارحمه) وأمثال ذلك (كما قال رسول الله ﷺ) إذ قال: (اللهم اغفر لقومي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون. لمَّا أنْ كسروا ثنيَّته وشجُّوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد) كما

---

(١) في غير الزبيدي: وأما. وهو الأصوب.

(٢) في م الإمام وط المنهاج ٦/ ٣١٣: بفعل.

رواه البيهقي في دلائل النبوة، وقد تقدم. قال العراقي[١]: والحديث في الصحيح أنه ﷺ قاله حكايةً عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه.

(**ودعا إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالىٰ (**لمَن**) سأله عن العمران فأشار به إلىٰ المقبرة، فغضب عليه وقال: أسألك عن العمران وأنت تشير بي إلىٰ المقبرة؟! فضربه و(**شجَّ رأسه**) فدعا له (**بالمغفرة، فقيل له في ذلك، فقال: أعلم أني مأجور بسببه، وما نالني منه إلا خير، فلا أرضىٰ أن يكون هو معاقَبًا بسببي**) والقصة أخرجها أبو نعيم في الحلية، وقد تقدمت[٢].

(**ومما يهوِّن عليك كراهيةَ المَذَمَّة قطعُ الطمع**) عن الناس (**فإنَّ مَن استغنيتَ عنه مهما ذمَّك لم يعظُم أثرُ ذلك في قلبك**) بل ولم تشعر به (**وأصل الدين القناعة، وبها ينقطع الطمع عن الجاه والمال، وما دام الطمع قائمًا كان حب الجاه والمدح في قلب مَن طمعتَ فيه غالبًا، وكانت همَّتك إلىٰ تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا يُنال ذلك إلا بهدم الدين**) وتركِ طريق المتقين (**فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه، فإنَّ ذلك بعيد جدًّا**) والله الموفِّق بكرمه.

---

(١) المغني ٢/ ٩٢٧.

(٢) في كتاب رياضة النفس.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلىٰ الذام والمادح:

الحالة الأولىٰ: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد علىٰ الذامِّ ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق) في سائر الأزمان؛ لأن الطباع قد جُبلت علىٰ ذلك (وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطن) أي يلتوي باطنه بوجع (علىٰ الذامِّ ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح) في الباطن (ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور. وهذا من النقصان) عن رتبة الكمال (إلا أنه بالإضافة إلىٰ ما قبله كمالٌ.

الحالة الثالثة، وهي أول درجات الكمال: أن يستوي عنده ذامُّه ومادحه) أي يكونان علىٰ حد سواء (فلا تغمُّه المَذَمَّة، ولا تسرُّه المدحة، وهذا قد يظنه بعض العُبَّاد بنفسه) ويقول: أنا قد استوىٰ عندي الذامُّ والمادح (ويكون مغرورًا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته، وعلاماته) كثيرة، منها: (أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح. و) منها: (أن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام. و) منها: (أن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح. و) منها: (أن لا يكون موت المادح المُطْرِي) أي المُبالِغ (له أشد نكايةً في قلبه من موت الذام. و) منها: (أن لا يكون غمُّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام. و) منها: (أن لا تكون زلَّة المادح أخف علىٰ قلبه وفي عينه من زلَّة الذام) فهذه العلامات التي يمتحن بها نفسه، وهي الأصول، وما عدا ذلك يرجع

إليها (فمهما خف الذامُّ علىٰ قلبه كما خف المادحُ واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبةَ، وما أبعد ذلك وما أشده علىٰ القلوب! وأكثر العِباد فرحُهم بمدح الناس لهم) والثناء عليهم (مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون، حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات) وهو غرور عظيم (وربما يشعر العابد بميل قلبه إلىٰ المادح دون الذام، والشيطان يحسِّن له ذلك ويقول له: الذام قد عصىٰ الله بمَذَمَّتك، والمادح قد أطاع الله بمدحتك، فكيف تسوِّي بينهما؟! وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. فهذا) الذي يغرُّه الشيطانُ (محض التلبيس) منه عليه (فإن العابد لو تفكَّرَ علم أن في الناس مَن ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكبه الذامُّ في مذمَّته) له (ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدحه لا يخلو من مَذمَّة غيره) عند غيره أو عنده (ولا يجد في نفسه نفرة عنه) ولا استنكارًا (لمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره، فإذًا العابد المغرور لنفسه يغضب، ولهواه يمتعض) ويتوجَّع (ثم إن الشيطان يخيِّل إليه أنه من الدين حتىٰ يعتلَّ[1] علىٰ الله بهواه فيزيده ذلك بعدًا من الله، ومَن لم يطَّلع علىٰ مكائد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع) لا يفيد شيئًا (يفوِّت عليه الدنيا) لتركه إياها (ويخسِّره في الآخرة) لاغتراره بتلبيس الشيطان (وفيهم قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾) [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤] فهؤلاء قد خسروا أعمالهم، وكثر تعبُهم، وضلَّ سعيُهم، فلم يمتِّعوا نفوسَهم بالدنيا لزهدهم عنها، ولا أخلصوا في أعمالهم ليتمتَّعوا بها في الآخرة، فهم ممَّن خسر الدنيا والآخرة معًا.

(الحالة الرابعة، وهي الصدق في العبادة: أن يكره المدح ويمقت المادح؛ إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر) داقَّة للعنق (مُضِرَّة له في الدين، ويحب الذامَّ؛ إذ يعلم أنه مُهْدٍ إليه عيوبه، ومرشد له إلىٰ مهمِّه، ومُهْدٍ إليه حسناته، وقد قال ﷺ:

---

(١) في م الإمام وط المنهاج: يعتدَّ

رأس التواضع أن تكره أن تُذكَر بالبر والتقوىٰ)[١] قال العراقي[٢]: لم أجد له أصلاً.

(وقد رُوي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح) وورودُه (إذ رُوي أنه ﷺ قال: ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا مَن. فقيل: يا رسول الله، إلا مَن؟ فقال: إلا مَن تنزَّهت نفسه عن الدنيا، وأبغض المدحةَ، واستحبَّ المَذَمَّة)[٣] قال العراقي[٤]: لم أجده هكذا، وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس[٥]: «ويل لمَن لبس الصوف فخالف فعله قوله»، ولم يخرجه ولدُه في مسنده.

(وهذا شديد جدًّا، وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية وهو أن يضمر الفرح والكراهية علىٰ الذام والمادح ولا يُظهِر ذلك بالقول والعمل، وأما الحالة الثالثة - وهي التسوية بين المادح والذام - فلسنا نطمع فيها، ثم إن طالبنا أنفسَنا بعلامة الحالة الثانية فما وفتْ لنا وإلا ولا بد) وفي بعض النسخ: فإنَّا لا نفي بها فإنَّا ولا بد (أن نتسارع إلىٰ إكرام المادح وقضاء حاجاته، ونتثاقل عن إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه، ولا نقدر علىٰ أن نسوِّي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومَن قدر علىٰ التسوية بين الذام والمادح في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يُتخَذ قدوة) أي شيخًا يُقتدَىٰ به (في هذا الزمان إن وُجد، فإنه) عزيز جدًّا مثل (الكبريت الأحمر يُتحدَّث به ولا يُرَىٰ) فهو رابع الغول والعنقاء والخِل الوفي (فكيف بما بعده من الرتبتين،

وكل واحدة من هذه الرتب فيها درجات) متفاوتة (أما الدرجات في المدح

---

(١) ذكره المحاسبي في الوصايا صـ١٩١، ومادة الغزالي منه غالباً.

(٢) المغني ٢/ ٩٢٧.

(٣) السابق صـ١٩٣ دون قوله: واستحب المذمة.

(٤) السابق ٢/ ٩٢٧.

(٥) الحديث في الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٤٠١ عن ابن عباس، وليس أنس.

فهو أن من الناس من يتمني المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصَّل إلىٰ نيل ذلك بكل ممكن) وفي نسخة: بكل ما أمكنَ (حتىٰ يرائي بالعبادات، ولا يبالي بمقارفة المحظورات) أي ارتكابها (لاستمالة قلوب الناس) إليه (واستنطاق ألسنتهم بالمدح) له (وهذا من الهالكين) في هوَّة الضلال (ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات، ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا علىٰ شفا) أي طرف (جُرُف هارٍ) أي هائر بمعنىٰ ساقط (فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوبَ وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جدًّا) فمَن حام حول الحِمَىٰ أوشك أن يقع فيه (ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعىٰ لطلبها ولكن إذا مُدح سبق السرور إلىٰ قلبه) من غير علاج منه (فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة) والرياضة (ولم يتكلَّف الكراهية فهو قريب من أن يستجرَّه فرطُ السرور إلىٰ الرتبة التي قبلها، وإن جاهد نفسَه في ذلك وكلَّف قلبه الكراهة وبغَّض السرورَ إليه بالتفكُّر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة، فتارةً تكون اليد له) فيغلبه (وتارةً تكون عليه) فيغلب عليه (ومنهم مَن إذا سمع المدح لم يُسَرَّ به ولم يغتمَّ به ولكن لا يؤثِّر فيه، وهذا علىٰ خير وإن كان قد بقيت عليه بقيةٌ من الإخلاص) بسبب عدم اغتمامه (ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلىٰ أن يغضب علىٰ المادح وينكر عليه، وأقصىٰ درجاته أن يكره) المدح (ويغضب) علىٰ المادح (ويُظهِر) من نفسه (الغضبَ) عليه (وهو صادق فيه لا لمَن يُظهِر الغضبَ وقلبه محبٌّ له، فإن ذلك عين النفاق؛ لأنه يريد أن يُظهِر من نفسه الإخلاصَ والصدق وهو مفلس منه) مُجانِب له (وكذلك بالضد) بأن يُظهِر السرور عند سماع مَذَمَّته وقلبه مبغض له (ومن هذا تتفاوت الأحوال في حق الذامِّ، وأول درجاته إظهار الغضب، وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممَّن في قلبه حَنَقٌ) محرَّكة، أي غيرة (وحقد علىٰ نفسه لتمرُّدها عليه) أي عصيانها (ولكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة) وتخديعاتها

(فيبغضها بغض العدوِّ) ويمقتها مقت البغيض (والإنسان يفرح بمَن يذم عدوَّه، وهذا شخص عدوه نفسه، فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام علىٰ ذلك) وفي نسخة: عليها (ويعتقد فطنته وذكاءه لمَّا وقف علىٰ عيوبها، فيكون ذلك كالتشفِّي له من نفسه، ويكون غنيمة له عنده؛ إذ صار بالمذمة أوضع) أي أحقر (في أعين الناس) ساقطًا لا يؤبه له (حتىٰ لا يُبتلَىٰ بفتنة الجاه، وإذا سيقتْ إليه حسنات لم يَنصب) أي لم يتعب (فيها فعساه يكون خيرًا لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها) أي إزالتها (ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة - وهو أن يستوي عنده ذامُّه ومادحه - لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرَّغ معه لغيره) من مهمَّات السلوك (وبينه وبين السعادة) أي الوصول إليها (عقبات كثيرة) صعبة المرتقَىٰ ودونهن حُتوفٌ (وهذه إحدىٰ تلك العقبات، ولا يُقطَع شيء منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل) ولكن مَن لاحظته العناية الإلهية تيسَّرت له أسباب قطعِها في الحال، وسهل عليه الوصولُ إلىٰ السعادة، ولكل عملٍ رجالٌ. والله الموفِّق بمَنِّه.

الشطر الثاني من الكتاب:
في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات، وهو الرياء

(وفيه بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يراءَىٰ به، وبيان درجات الرياء، وبيان الرياء الخفي، وبيان ما يحبط العملَ من الرياء وما لا يحبط، وبيان دواء الرياء وعلاجه، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وبيان تركِ الطاعات خوفًا من الرياء والآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح، وبيان ما يجب علىٰ المريد أن يلزم قلبه قبل الطاعات وبعدها. وهي عشرة فصول)[1] علىٰ الترتيب المذكور.

(١) المذكور أحد عشر فصلًا، فلعل ذم الريا وحقيقته فصل واحد، والله أعلم.

بيان ذم الرياء

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الرياء حرام، والمُرائي) وهو المتَّصف به (عند الله ممقوت) أي مبغوض أشد البغض (**وقد شهدت بذلك الآيات والأخبار والآثار، أما الآيات: فقوله تعالىٰ**: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾) أي[1] غافلون، غير مبالين بها (﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝﴾) [الماعون: ٤ - ٦] أي يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليهم، والفاء جزائية أو سببية.

(**وقوله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝﴾ [فاطر: ١٠] **قال مجاهد: هم أهل الرياء**[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾) علىٰ إرادة القول بلسان الحال أو المقال (﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾) [الإنسان: ٩] أي شكرًا (**فمدح المخلِصين**) من عباده (**بنفي كل إرادة سوىٰ وجه الله تعالىٰ، والرياء هو ضده**.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾) أي[3] يأمل حسن لقائه وثوابه (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾) يرتضيه اللهُ (﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝﴾) [الكهف: ١١٠] بأن يرائيه أو يطلب منه أجرًا (**أُنزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله**) قال العراقي[4]: رواه الحاكم من حديث طاووس: قال رجل: إني أقف الموقف

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣٤١.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٦٦. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١٢/ ٢٦١ إلىٰ سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر في تفاسيرهم. وذكر مثله عن سعيد بن جبير وشهر بن حوشب.

(٣) أنوار التنزيل ٣/ ٢٩٥.

(٤) المغني ٢/ ٩٢٨.

أبتغي وجهَ الله وأحب أن يُرَىٰ موطني. فلم يردَّ عليه حتىٰ نزلت هذه الآية. هكذا في نسختي من المستدرك، ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة. انتهىٰ.

ووُجد بخط الحافظ ابن حجر بإزائه: هو ابن عباس. وبخط الكمال الدميري: الساقط من نسخة المصنف أبو هريرة، وهو ثابت في غيرها من النسخ. انتهىٰ ما وجدته.

قلت: رواه[١] عبد الرزاق[٢] وابن أبي الدنيا في الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم[٣] عن طاووس هكذا، ولم يذكروا فيه ابن عباس ولا أبا هريرة، ورواه الحاكم[٤] أيضًا وصحَّحه والبيهقي[٥] عن طاووس عن ابن عباس، كما ذكره الحافظ ابن حجر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان من المسلمين مَن يقاتل وهو يحب أن يُرَىٰ مكانه، فأنزل الله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مجاهد قال: قال رجل: يا رسول الله، أُعتقُ وأحب أن يُرَىٰ، وأتصدَّق وأحب أن يُرَىٰ. فنزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ الآية.

وأخرج ابن منده وأبو نعيم في الصحابة[٦] وابن عساكر[٧] من طريق السُّدِّي

(١) الدر المنثور ٩/ ٦٩٦ - ٦٩٧.
(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤١٤.
(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٥.
(٤) السابق ٢/ ١٣٤.
(٥) شعب الإيمان ٩/ ١٧١.
(٦) معرفة الصحابة ٢/ ٥٨١.
(٧) تاريخ دمشق ١١/ ٣٠٤.

الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلىٰ أو صام أو تصدَّق فذُكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لمقالة الناس، فنزل في ذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية.

ثم قال العراقي: وللبزار[1] من حديث معاذ بسند ضعيف: «مَن صام رياءً فقد أشرك ...» الحديث، وفيه أنه ﷺ تلا هذه الآية. انتهىٰ.

قلت: رواه من حديث عبد الرحمن بن غُنْم الأشعري -وهو مختلَف في صحبته- أنه قال لمعاذ: أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «مَن صام رياءً فقد أشرك، ومن صلىٰ رياء فقد أشرك، ومن تصدَّق رياء فقد أشرك»؟ قال: بلىٰ، ولكن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فشقَّ ذلك علىٰ القوم واشتد عليهم، فقال: «ألا أفرجها عنكم»؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله[2]. فقال: «هي مثل الآية التي في الروم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩] فمَن عمل [عملًا] رياءً لم يُكتَب له ولا عليه»[3].

(وأما الأخبار، فقد قال ﷺ حين سأله رجل فقال: يا رسول الله، فيِمَ النجاة؟ فقال: أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس)[4] أغفله العراقي. وقرأت في كتاب الفقيه أبي الليث السمرقندي[5] قال: أخبرنا [الثقة] بإسناده عن جَبَلَة اليَحْصُبي قال: كنا في غزاة مع عبد الملك بن مروان، فصحبنا رجلٌ مِسْهار لا ينام من الليل إلا أقله، فمكثنا أيامًا لا نعرفه، ثم عرفناه بعد ذلك فإذا هو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ،

(١) مسند البزار ٧/ ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) في مسند البزار: بلىٰ فرج الله عنك الهم والأذىٰ.

(٣) هو موضوع، فيه الكلبي وهو كذاب. وانظر: مجمع الزوائد ٧/ ٥٤، والجرح والتعديل ٧/ ٢٧٠، ٢٧١.

(٤) ذكره الحارث المحاسبي في الرعاية صـ١٥٩، وجل ما عند الغزالي مما سيأتي منه.

(٥) تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٧.

وكان فيما حدثنا أن قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله، فِيمَ النجاة غدًا؟ قال: «أن لا تخادع الله». قال: كيف نخادع الله؟ قال: «أن تعمل بما أمرك الله وتريد به غيرَ وجه الله ...» الحديث. وسيأتي تمامه فيما بعد.

(ورُوي عن أبي هريرة) رَضِوَاللَّهُعَنهُ (في حديث الثلاثة: المقتول في سبيل الله، والمتصدِّق بماله، والقارئ لكتاب الله، كما أوردناه) بتمامه (في كتاب الإخلاص) وفيه: (فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لكل واحد منهم: كذبتَ بل أردت أن يقال فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ. فأخبر النبي ﷺ أنهم لم يُثابوا) بما عملوا (وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم) رواه مسلم، وسيأتي في كتاب الإخلاص.

(وقال ابن عمر) رَضِوَاللَّهُعَنهُ: (قال النبي ﷺ: مَن راءىٰ راءىٰ الله به، ومَن سمَّع سمَّع الله به) قال العراقي[(١)]: متفق عليه[(٢)] من حديث جندب بن عبد الله، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير[(٣)] والبيهقي في الشعب[(٤)] من رواية شيخ يكنىٰ أبا يزيد عنه بلفظ: «مَن سمَّع الناسَ بعمله سمَّع الله به سامع خلقه وحقَّره وصغَّره». وفي الزهد لابن المبارك[(٥)] ومسندي أحمد[(٦)] وابن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو[(٧)]. انتهىٰ.

---

(١) المغني ٢/ ٩٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩١. صحيح مسلم ٢/ ١٣٦١.

(٣) المعجم الكبير ١٣/ ٣٧٠، ٥٢٦، ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ١٤٩.

(٥) الزهد والرقائق ص ٨٢.

(٦) مسند أحمد ١١/ ٥٦، ٤٣٠، ٥٦٦، ٦٥٧ - ٦٥٨.

(٧) الحديث في جميع المصادر عن عبد الله بن عمرو، وليس ابن عمر. وفي غالب الطرق أن عبد الله بن عمرو حدث بهذا الحديث وابن عمر حاضر، وأن ابن عمر بكىٰ بعد سماعه الحديث.

قلت: حديث جندب أخرجه كذلك ابن أبي شيبة[١] وأحمد[٢] وابن ماجه[٣] وأبو عوانة وابن حبان[٤] والبغوي[٥] بلفظ: «مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن راءىٰ راءىٰ الله به، ومن شق شقَّ الله عليه يوم القيامة». ورواه بدون الجملة الأخيرة أحمد ومسلم[٦] من حديث ابن عباس. ومسلم وابن ماجه والبيهقي في الأسماء والصفات[٧] من حديث جندب. وأحمد[٨] والطبراني وأبو الشيخ من حديث أبي بكرة. وأما حديث ابن عمر فأخرجه كذلك ابن أبي شيبة[٩] وهناد في الزهد[١٠] وأبو نعيم في الحلية[١١]. ورواه أحمد[١٢] وابن أبي شيبة[١٣] والترمذي[١٤] - وقال: حسن غريب - وابن ماجه[١٥] وأبو يعلىٰ[١٦] من حديث أبي سعيد بلفظ: «مَن يُرائي يرائي الله به، ومن يسمِّع يسمع الله به».

(وفي حديث آخر طويل: إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لملائكته: إن هذا لم يُرِدْني بعمله،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢١٦.

(٢) مسند أحمد ٣١/ ١٠٧.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٥.

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ١٣٣.

(٥) معجم الصحابة ١/ ٥٤٠.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١٣٦١. والحديث ليس في مسند أحمد.

(٧) الأسماء والصفات ٢/ ٤٤٠.

(٨) مسند أحمد ٣٤/ ١٠٨.

(٩) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢١٦.

(١٠) الزهد ٢/ ٤٤١.

(١١) حلية الأولياء ٤/ ١٢٤، ٥/ ٩٩.

(١٢) مسند أحمد ١٧/ ٤٥٣.

(١٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢١٦.

(١٤) سنن الترمذي ٤/ ١٨٨.

(١٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٥.

(١٦) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٣٢٣.

فاجعلوه في سِجِّين) وهي دركة من دركات جهنم. قال مجاهد: هي تحت الأرض السفلىٰ، فيها أرواح الكفار وأعمالهم أعمال السوء[١].

قال العراقي[٢]: رواه ابن المبارك في الزهد[٣] ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص[٤] وأبو الشيخ في كتاب العظمة[٥] من رواية ضمرة بن حبيب مرسلاً. ورواه ابن الجوزي في الموضوعات[٦]. انتهىٰ.

قلت: رواه ابن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال: قال ﷺ: «إن الملائكة يرفعون عمل عبد من عِباد الله فيستكثرونه ويزكُّونه حتىٰ ينتهوا به إلىٰ حيث يشاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم: إنكم حَفَظة علىٰ عمل عبدي، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله، فاكتبوه في سِجِّين. ويصعدون بعمل عبد فيستقلُّونه ويحتقرونه حتىٰ ينتهوا به إلىٰ حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم: إنكم حَفَظة علىٰ عمل عبدي، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه، إن عبدي هذا قد أخلص لي عمله، فاكتبوه في عِلِّيين».

فهذا هو الذي أشار إليه المصنف بقوله: وفي حديث آخر طويل.

وأخرج ابن مردويه في التفسير من حديث جابر بن عبد الله قال: حدثني رسول الله ﷺ أن «الملَك يرفع العمل للعبد يرىٰ أن في يديه منه سرورًا، حتىٰ ينتهي إلىٰ الميقات الذي وضعه الله له، فيضع العمل فيه، فيناديه الجبَّار من فوقه: ارْمِ بما

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ١٥/ ٢٩٤ لعبد بن حميد في تفسيره. وروىٰ الطبري في جامع البيان ٢٤/ ١٩٤ مثله عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) المغني ٢/ ٩٢٩.

(٣) الزهد والرقائق ص ١٥٨.

(٤) الإخلاص والنية ص ٤٦.

(٥) العظمة ٣/ ١٠٠١.

(٦) لم أقف علىٰ الحديث في كتاب الموضوعات.

معك في سجِّين. فيقول الملَك: ما رفعتُ إليك إلا حقًّا. فيقول: صدقتَ، ارْمِ بما معك في سجين»[١].

وأخرج البزار[٢] والبيهقي[٣] من حديث أنس رفعه قال: «تُعرَض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختَّمة، فيقول الله عز وجل: ألقوا هذا، واقبلوا هذا. فتقول الملائكة: يا رب، واللهِ ما رأينا منه إلا خيرًا. فيقول: إنَّ عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريدَ به وجهي.

(**وقال ﷺ: إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازَىٰ العِباد بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تُراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**) قال العراقي[٤]: رواه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد، وله رواية، ورجاله ثقات. ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. انتهىٰ.

قلت: سياق المصنِّف هو سياق أحمد والبيهقي، وأما سياق حديث الطبراني فلفظه: «يقال لمَن يفعل ذلك إذا جاء الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون فاطلبوا ذلك عندهم».

ورواه ابن مردويه في التفسير[٥] من حديث أبي هريرة بنحوه.

(**وقال ﷺ: استعيذوا بالله من جُبِّ الحَزَن. قيل: وما هو يا رسول الله. قال:**

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٥/ ٢٩٥.

(٢) مسند البزار ١٤/ ٨.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ١٥٩.

(٤) المغني ٢/ ٩٢٩. وقد تقدم هذا الحديث في أول كتاب ذم الجاه والرياء. وزاد الشارح هنا عزوه للبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٥٥.

(٥) ومن طريقه رواه قوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ١٢٤.

وادٍ في جهنم أُعِدَّ للقرَّاء المُرائين) قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] – وقال: غريب – وابن ماجه[٣] من حديث أبي هريرة، وضعَّفه ابن عدي[٤]. انتهىٰ.

قلت: وكذلك رواه البخاري في التاريخ[٥]، ولفظهم جميعًا: «تعوَّذوا بالله من جُب الحَزَن». قالوا: يا رسول الله، وما جب الحزن؟ قال: «وادٍ في جهنم تتعوَّذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة، يدخله القرَّاء المُراءون، وإن من أبغضِ القرَّاء إلىٰ الله الذين يزورون الأمراء». ورواه البيهقي في الشعب[٦] مختصرًا، وفيه: قيل: ومَن يسكنه؟ قال: «المُراءون بأعمالهم». وقد تقدم في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما سياق ابن عدي الذي ضعَّفه: «إن في جهنم واديًا تستعيذ منه [جهنم كل يوم] سبعين مرة أعدَّه الله للقرَّاء المُرائين بأعمالهم، وإن أبغض الخَلق إلىٰ الله عالِم [يزور] السلطان [أو العمال]».

(وقال ﷺ: يقول الله ﷻ: مَن عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء، وأنا أغنىٰ الأغنياء عن الشرك) قال العراقي[٧]: رواه مالك في الموطأ[٨] – واللفظ له – من حديث أبي هريرة دون قوله «وأنا منه بريء»، ومسلم[٩] مع تقديم وتأخير دونها أيضًا، وهو عند ابن ماجه[١٠] بسند صحيح.

---

(١) المغني ٢/ ٩٢٩.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ١٩١.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٦.

(٤) الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٦٨، ٥/ ١٧٢٧.

(٥) التاريخ الكبير ٢/ ١٧٠ مختصرا.

(٦) شعب الإيمان ٩/ ١٦٩.

(٧) المغني ٢/ ٩٢٩ – ٩٣٠.

(٨) الموطأ رواية ابن القاسم وتلخيص القابسي صـ ١٤٥ ط المجمع الثقافي، دبي، وابن عفير أيضًا، قاله الدارقطني في «أحاديث الموطأ» صـ ٢٦.

(٩) صحيح مسلم ٢/ ١٣٦١.

(١٠) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٢ – ٦١٣.

قلت: لفظ مسلم وابن ماجه: «قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه». ورواه ابن جرير في تهذيبه[١] والبزار[٢] بلفظ: «قال الله عزوجل: مَن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو كله له، وأنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك». وعند أحمد[٣] ومسلم في رواية وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي[٤] بلفظ: «قال عزوجل: أنا خير الشركاء، فمَن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك».

وأخرج البيهقي[٥] من حديث جابر رفعه: «يقول الله تعالىٰ: كل مَن عمل عملاً أراد به غيري فأنا منه بريء».

وأخرج الطيالسي[٦] وأحمد[٧] وابن مردويه من حديث شداد بن أوس رفعه: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمَن أشرك بي، مَن أشرك بي شيئًا فإنَّ عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني».

وأخرج البزار[٨] وابن مردويه والبيهقي[٩] من حديث الضحَّاك بن قيس رفعه: «يقول الله تعالىٰ: أنا خير شريك، فمَن أشرك معي أحدًا فهو لشريكي ...» الحديث.

(وقال عيسىٰ المسيح عليه السلام: إذا كان يوم صومكم فليدهن أحدكم رأسه

---

(١) تهذيب الآثار - مسند عمر ص ٧٩٠ - ٧٩١.
(٢) مسند البزار ١٥/ ٧١.
(٣) مسند أحمد ١٣/ ٣٧٧ - ٣٧٨، ١٥/ ٣٨٢.
(٤) شعب الإيمان ٩/ ١٤٤.
(٥) السابق ٩/ ٢٠٢.
(٦) مسند الطيالسي ٢/ ٤٤٤.
(٧) مسند أحمد ٢٨/ ٣٦٤.
(٨) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/ ٢١٨.
(٩) شعب الإيمان ٩/ ١٥٩.

ولحيته ويمسح شفتيه لئلاً يرىٰ الناس أنه صائم، وإذا أعطىٰ بيمينه فليُخْفِ عن شِماله، وإذا صلىٰ فليُرْخِ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء) أي الصيت الحسن (كما يقسم الرزق) أخرجه أحمد في الزهد[١] من طريق هلال بن يسار. وسيأتي مثل ذلك من قول عبد الله بن مسعود.

(وقال نبيُّنا ﷺ: لا يقبل الله عملاً فيه مِثْقال ذرَّة من رياء)[٢] قال العراقي[٣]: لم أجده هكذا.

قلت: هو من كلام يوسف بن أسباط، أخرجه أبو نعيم في الحلية[٤] من طريق عبد الله بن خبيق قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول ... فذكره، إلا أنه قال: مثقال حبة، بدل: ذرَّة.

(وقال عمر لمعاذ بن جبل) ﵄ (حين رآه يبكي) عند القبر: (ما يبكيك؟ قال: حديث سمعتُه من صاحب هذا القبر - يعني النبي ﷺ - يقول: إن أدنىٰ الرياء شركٌ) قال العراقي[٥]: رواه الطبراني هكذا، ورواه الحاكم بلفظ: «إن اليسير من الرياء شرك». وقد تقدم قريبًا. انتهىٰ.

قلت: وتمامه: «وأحبُّ العبيدِ إلىٰ الله الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإذا شهدوا لم يُعرَفوا، أولئك أئمة الهدىٰ ومصابيح العلم». هكذا رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية والحاكم من حديث ابن عمر ومعاذ معًا، والرواية الثانية التي تقدم ذِكرُها في فضيلة الخمول: «إن اليسير من الرياء شرك،

---

(١) الزهد ص ٤٩.

(٢) قال الحارث في الرعاية صـ١٦٥: وروىٰ القاسم من مخيمرة أن النبي ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالىٰ: إنه لا يقبل عملاً فيه مثقال فردلة من الرياء. وهو مرسل.

(٣) المغني ٢/ ٩٣٠.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٢٤٠.

(٥) المغني ٢/ ٩٣٠.

وإن مَن عادَىٰ أولياءَ الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإن حضروا لم يُدعَوا ولم يُعرَفوا، قلوبهم مصابيح الهدىٰ، يخرجون من كل غبراء مظلمة». وهكذا رواه الطبراني والحاكم من حديث معاذ.

(وقال ﷺ: **إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية**) رواه ابن المبارك في الزهد من حديث شداد بن أوس، وقد تقدَّم الكلام عليه في أول أحاديث هذا الكتاب.

(**وهي أيضًا**) أي الشهوة الخفيَّة (**ترجع إلىٰ خفايا الرياء ودقائقه**) وقد روىٰ أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصحَّحه والبيهقي في الحديث المذكور: قلت: يا رسول الله، فما الشهوة الخفية؟ فقال: «يصبح أحدكم صائمًا فتَعرِض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوتَه».

(وقال ﷺ: **إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدَّق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شِماله**) هو متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث «سبعة يظلُّهم الله في ظله». وقد تقدم في كتاب الزكاة وفي كتاب آداب الصحبة.

(**ولذلك ورد: يفضل عملُ السر علىٰ عمل الجهر سبعين ضِعفًا**) قال العراقي[١]: رواه البيهقي في الشعب[٢] من حديث أبي الدرداء: «إن الرجل لَيعملُ العمل فيُكتَب له عمل صالح معمول به في السر يضعَّف أجره سبعين ضِعفًا». قال البيهقي: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين. وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف: «يفضل الذِّكر الخفيُّ الذي لا تسمعه الحفظة علىٰ الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة». انتهىٰ.

---

(١) السابق ٢/ ٩٣٠ - ٩٣١.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ١٤٢، ١٧٩.

قلت: ورواه كذلك البيهقي في الشعب[١] من طريقه وضعَّفه، ولفظه: «سبعين ضِعفًا». وأما حديث أبي الدرداء فتمامه عند البيهقي والديلمي: «فلا يزال به الشيطان حتىٰ يذكره للناس ويعلنه فيُكتَب له علانية ويُمحَىٰ تضعيف أجره كله، ثم لا يزال به حتىٰ يذكره للناس الثانية ويحب أن يُذكَر للناس ويُحمَد عليه فيُمحَىٰ من العلانية ويُكتَب رياء».

(**وقال ﷺ: إن المرائي ينادَىٰ عليه يوم القيامة: يا فاجر، يا غادر، يا مرائي، ضلَّ عملُك وحبط أجرُك، اذهب فخذ أجرك ممَّن كنت تعمل له**) قال العراقي[٢]: رواه ابن أبي الدنيا من رواية جَبَلة اليحصبي عن صحابي لم يسمَّ[٣]، وزاد: «يا كافر، يا خاسر»، ولم يقل: يا مرائي. وإسناده ضعيف.

قلت هو في الحديث الطويل الذي تقدم ذِكر أوله أورده أبو الليث السمرقندي بإسناده إلىٰ جَبَلة اليحصبي قال: كنا في غزاة مع عبد الملك بن مروان، فصحبنا رجلٌ ... الحديث، وفيه: «واتقوا الرياء، فإنه الشرك بالله، وإن المرائي ينادَىٰ يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، ضلَّ عملك وبطل أجرُك، فلا خَلاق لك اليوم، فالتمِسْ أجرك ممَّن كنت تعمل له يا مخادع». قال: فقلت له: بالله الذي لا إله إلا هو أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال: والذي لا إله إلا هو إني لقد سمعته من رسول الله ﷺ، إلا أن أكون قد أخطأت شيئًا لم أكن أتعمَّده. ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢].

(**وقال شداد بن أوس**) بن[٤] ثابت بن المنذر الخزرجي، ابن أخي حسان بن

---

(١) السابق ٢/ ٨٤ – ٨٥.

(٢) المغني ٢/ ٩٣١.

(٣) وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢٠٣.

(٤) تقريب التهذيب ص ٤٣٢. تجريد أسماء الصحابة للذهبي ١/ ٢٥٣.

ثابت، كنيته أبو يعلىٰ، صحابي، مات بالشام، روىٰ له الجماعة **(رأيت النبي ﷺ يبكي، فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: إني تخوَّفت علىٰ أمَّتي الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنمًا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا، ولكنهم يراؤون بأعمالهم)** رواه أحمد وابن ماجه وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصحَّحه والبيهقي بنحوه، وقد تقدم في أول هذا الكتاب.

(وقال ﷺ: لمَّا خلق الله الأرض مادت) أي تحركت واضطربت **(بأهلها، فخلق الجبال فصيَّرها أوتاد الأرض)** أي سكَّنها بها فكانت شِبه الأوتاد **(فقالت الملائكة: ما خلق ربُّنا خلقًا هو أشد من الجبال. فخلق الله الحديد فقطع الجبال، ثم خلق النار فأذابت الحديد، ثم أمر الله الماء فأطفأ النار، وأمر الريح فكدَّرت الماء، فاختلفت الملائكة فقالت: نسأل الله تعالىٰ، قالوا: يا رب، ما أشد ما خلقتَ من خلقك)**؟ أي أقواه **(فقال تعالىٰ: لم أخلق خلقًا هو أشد من ابن آدم حين يتصدَّق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شِماله، فهو أشد خلقِ خلقتُه)** قال العراقي[1]: رواه الترمذي[2] من حديث أنس مع اختلاف، وقال: غريب. انتهىٰ.

قلت: ولفظه: «لمَّا خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرَّت، فعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدَّق [بصدقة] بيمينه ويخفيها عن شِماله». وهكذا رواه أيضًا أحمد[3] وعبد بن

(١) المغني ٢/ ٩٣١.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٨٣.

(٣) مسند أحمد ١٩/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

حميد[١] وأبو يعلىٰ[٢] والبيهقي[٣] وأبو الشيخ في العظمة[٤] والضياء في المختارة[٥].

(وروىٰ عبد الله بن المبارك) المروزي، تقدمت ترجمته في كتاب العلم (بإسناده عن رجل) لم يُسمَّ (أنه قال لمعاذ بن جبل) رضي الله عنه: (حدِّثنا حديثًا سمعتَه من رسول الله ﷺ. قال: فبكىٰ معاذ حتىٰ ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ قال لي: يا معاذ. قلت: لبَّيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: إني محدِّثك حديثًا إن أنت حفظتَه نفعك، وإن أنت ضيَّعتَه ولم تحفظه انقطعت حجتُك عند الله يوم القيامة. يا معاذ، إن الله عز وجل خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم خلق السموات، فجعل لكل سماء من السبعة ملَكًا بوَّابًا عليها قد جلَّلها عِظَمًا، فتصعد الحفظة) وهم الكرام الكاتبون (بعمل العبد من حين يصبح إلىٰ أن يمسي له نور كنور الشمس، حتىٰ إذا طلعت به إلىٰ السماء الدنيا زكَّتْه فكثَّرته، فيقول الملَك) الموكَّل بتلك السماء (للحفظة) الصاعدين بذلك العمل: (اضربوا بهذا العمل وجهَ صاحبه، أنا صاحب الغِيبة، أمرني ربي أن لا أدع عمل مَن اغتاب الناس يجاوزني إلىٰ غيري. قال: ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكِّيه وتكثِّره حتىٰ تبلغ به إلىٰ السماء الثانية، فيقول لهم الملك الموكَّل بالسماء الثانية: قِفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، فإنه أراد بعمله هذا عَرَض الدنيا) أي متاعها (أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، إنه كان يفتخر به علىٰ الناس في مجالسهم. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورًا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظةَ، فيجاوزون به إلىٰ السماء الثالثة، فيقول لهم الملَك الموكَّل بها: قِفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملَك الكبر، أمرني

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٤٠.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٢٨٦.

(٣) شعب الإيمان ٥/ ١١٥.

(٤) العظمة ٤/ ١٣٥٣، ١٣٧٩.

(٥) الأحاديث المختارة ٦/ ١٥٢ - ١٥٤.

ربي أن لا أدَع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، إنه كان يتكبَّر علىٰ الناس في مجالسهم. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر) أي يضيء (كما يزهر الكوكب الدُّرِّي، له دويٌّ من تسبيح وصلاة وحج وعمرة، حتىٰ يجاوزوا به إلىٰ السماء الرابعة، فيقول لهم الملَك الموكَّل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، اضربوا به ظهره وبطنه، أنا صاحب العُجب، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، إنه كان إذا عمل عملاً أدخل فيه العُجبَ. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد حتىٰ يجاوزوا به إلىٰ السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلىٰ أهلها، فيقول لهم الملَك الموكَّل بها: قِفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه علىٰ عاتقه، أنا ملَك الحسد، إنه كان يحسد الناس من يتعلَّم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة ويحسدهم ويقع فيهم، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام، فيجاوزون به إلىٰ السماء السادسة، فيقول لهم الملَك الموكَّل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه كان لا يرحم إنسانًا قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضرٌّ أضرَّ به، بل كان يشمت به، أنا ملَك الرحمة، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد إلىٰ السماء السابعة من صيام وصدقة وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، له دويٌّ كدويِّ الرعد، وضوء كضوء الشمس، معه ثلاثة آلاف ملَك، فيجاوزون به إلىٰ السماء السابعة، فيقول لهم الملَك الموكَّل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا به جوارحه، واقفلوا به علىٰ قلبه، أنا أحجب عن ربي كلَّ عمل لم يُرِدْ به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله، إنه أراد به رفعة عند الفقهاء، وذِكرًا عند العلماء، وصيتًا في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلىٰ غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصًا فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائي. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وخُلق حسن وصمت وذكر لله تعالىٰ وتشيِّعه ملائكة السموات حتىٰ

يقطعوا به الحُجُب كلَّها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله تعالىٰ. قال: فيقول الله تعالىٰ لهم: أنتم الحفظة علىٰ عمل عبدي، وأنا الرقيب علىٰ نفسه، إنه لم يُرِدْني بهذا العمل وأراد به غيري، فعليه لعنتي. فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك ولعنتنا. وتقول السموات كلها: عليه لعنة الله ولعنتنا. وتلعنه السموات السبع والأرض ومن فيهنَّ. قال معاذ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قلت: يا رسول الله، أنت رسول الله، وأنا معاذ. قال: اقتدِ بي وإن كان في عملك نقصٌ. يا معاذ، حافِظْ علىٰ لسانك من الوقيعة في إخوانك من حَمَلة القرآن، واحملْ ذنوبك عليك، ولا تحملها عليهم، ولا تزكِّ نفسَك بذمِّهم، ولا ترفع نفسك عليهم، ولا تُدخِل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبَّر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خُلقك، ولا تُناجِ رجلاً وعندك آخَر، ولا تتعظَّم علىٰ الناس فينقطع عنك خيرُ الدنيا، ولا تمزق الناسَ فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾ [النازعات: ٢] أتدري ما هن يا معاذ؟ قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: كلاب في النار تنشِّط اللحمَ والعظم. قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمَن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: يا معاذ، إنه لَيسيرٌ علىٰ من يسَّره الله عليه. قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر ممَّا في هذا الحديث) قال العراقي[١]: هو كما قال المصنف، رواه ابن المبارك بطوله في الزهد[٢] له، وفي إسناده كما ذكر رجل[٣]، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات[٤]. انتهىٰ.

وبخط الكمال الدميري: قال الشيخ تقي الدين القشيري: الرجل المذكور هو خالد بن مَعْدان. انتهىٰ. وخالد بن معدان هو أبو عبد الله الكَلاعي الشامي، ثقة، عابد، يرسل كثيرًا عن معاذ، وربما كان بينهما اثنان، كما ذكره الحافظ ابن حجر

---

(١) المغني ٢/ ٩٣٢.

(٢) لم أقف علىٰ الحديث في كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك.

(٣) في المغني: وفي إسناده كما ذكر من لم يسم.

(٤) الموضوعات ٣/ ١٥٤ - ١٥٩.

في التهذيب[١]. وقال ابن عراق[٢]: ذكر هذا الحديث الحافظ المنذريُّ في ترغيبه[٣] مخرَّجًا من الزهد لابن المبارك، وأشار إلىٰ بعض الطرق المذكورة وغيرها، ثم قال: وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه وألفاظه. والله أعلم.

(وأما الآثــار:

فيُروَىٰ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه رأىٰ رجلاً يطأطئ رقبته في الصلاة، فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، وإنما الخشوع في القلوب) أورده الإسماعيلي في مناقبه.

(ورأىٰ أبو أمامة الباهلي) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **(رجلاً في المسجد يبكي في سجوده، فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك)**[٤] أشار بذلك إلىٰ أنه يخاف عليه من الرياء، فأما إذا كان في جوف بيته فلا يطَّلع عليه أحد إلا الله.

(وقال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: للمُرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه ويُنقِص إذا ذُمَّ)** نقله أبو الليث السمرقندي[٥].

(وقال رجل لعُبادة بن الصامت) الأوسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله ومَحمدة الناس. قال: لا شيء لك. فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا شيء لك. ثم قال في الثالثة: إن الله تبارك وتعالىٰ يقول: أنا أغنىٰ الأغنياء**

---

(١) تهذيب التهذيب ١/ ٥٣٢ - ٥٣٣، نقلا عن كتاب المراسيل لابن أبي حاتم ص ٥٢ (ط - مؤسسة الرسالة).

(٢) تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٢٨٩.

(٣) الترغيب والترهيب ص ٧٨ - ٨٠.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٨٥، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ٦٧.

(٥) تنبيه الغافلين ص ٦. وهو في حلية الأولياء ٤/ ٤٧ عن وهب بن منبه بلفظ: «للمنافق ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان أحد عنده، ويحرص في كل أموره علىٰ المحمدة».

عن الشرك ... الحديث)[١] وقد رُوي نحوه مرفوعًا من حديث أبي أمامة قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يلتمس الأجر والذِّكر، ما له؟ فقال ﷺ: «لا شيء له». فأعادها ثلاث مرات، يقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له». ثم قال: «إن الله لا يقبل [من العمل] إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه». رواه أبو داود والنسائي[٢] والطبراني[٣] بسند جيد. وكذلك يُروَىٰ عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عَرَضًا من الدنيا. قال: «لا أجر له». فأعظمَ الناسُ هذا، فعاد الرجل، فقال: «لا أجر له». رواه الحاكم[٤] وصحَّحه والبيهقي[٥].

(**وسأل رجلٌ سعيد بن المسيب**) رحمه الله تعالىٰ (**فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يُحمَد ويؤجَر. فقال له: أتحب أن تُمقَت؟ قال: لا. قال: فإذا عملتَ عملاً لله فأخلِصْه**[٦]).

وقال الضحَّاك) بن[٧] قيس بن خالد بن وهب الفِهْري، أبو أنيس، الأمير المشهور، صحابي صغير، قُتل في [وقعة] مرج راهط سنة أربع وستين، روىٰ له النسائي (**لا يقولن أحدكم: هذا لوجه الله ولوجهك، ولا يقولن: هذا لله وللرحم،**

---

(١) رواه هناد في الزهد ٢/ ٤٣٤ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٣٥ عن شهر بن حوشب قال: جاء رجل إلىٰ عبادة بن الصامت فقال: رجل يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق ويبتغي وجه الله ويحب أن يحمد. قال: ليس بشيء، إن الله يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه.

(٢) سنن النسائي ص ٤٨٤.

(٣) المعجم الكبير ٨/ ١٦٥.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٠٥، ٤٣٨.

(٥) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٨٤.

(٦) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٥٧ حتىٰ قوله (تمقت) ولم يذكر ما بعده.

(٧) تقريب التهذيب ص ٤٥٨.

فإنَّ الله تعالىٰ لا شريك له)[١] وقد رُوي ذلك عنه مرفوعًا بلفظ: «يقول الله: أنا خير شريك، فمَن أشركَ معي أحدًا فهو لشريكي. يا أيها الناس، أخلِصوا الأعمال لله، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خَلَص له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم، فإنه للرحم وليس لله منه شيء»[٢].

(**وضرب عمر**) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (**رجلاً بالدِّرَّة ثم قال له**) عمر: (**اقتصَّها مني. قال: لا، بل أَدَعها لله ولك. فقال له عمر: ما صنعتَ شيئًا، إما أن تَدَعها لي فأعرف ذلك لك أو تَدَعها لله وحده. قال: ودعتها لله وحده. قال: فنعم إذًا**) أخرجه الذهبي في «نِعم السمر» من طريق داود بن عمرو الضَّبِّي، حدثنا ابن أبي غنية، حدثنا سلامة بن صبيح التميمي قال: قال الأحنف بن قيس قال: وفدنا علىٰ عمر بفتح عظيم، فقال: أين نزلتم؟ قلت: في مكان كذا وكذا. فقام معنا إلىٰ مناخ رِكابنا، فجعل يتخلَّلها ببصره ويقول: ألا اتَّقيتم الله في ركابكم؟ أما علمتم أن لها عليكم حقًّا؟ ألا خلَّيتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين، إنَّا قَدِمنا بفتح عظيم. فرجع ونحن معه، فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، انطلِقْ معي فأعْدِني علىٰ فلان، فإنه ظلمني. فخفق رأسه بالدِّرَّة وقال: تَدَعون عمر وهو مُعرِض لكم، حتىٰ إذا شُغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني. فانصرف الرجل وهو يتذمَّر، فقال عمر: عليَّ به. فألقىٰ إليه المخفقة فقال: امتثِلْ. قال: لا، ولكن أدعها لله ولك. قال: إما أن تَدَعها لله أو لي. قال: أدعُها لله. قال: انصرِفْ. ثم جاء يمشي حتىٰ دخل منزله

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٣٠ بلفظ: «يا أيها الناس، اعملوا أعمالكم لله، فإن الله لا يقبل إلا عملا خالصا، لا يعفو أحد منكم عن مظلمة فيقول: هذا لله ولوجوهكم، فليس لله وإنما هي لوجوههم، ولا يصل أحد منكم رحمه فيقول: هذا لله وللرحم، إنما هو للرحم، ومن عمل عملا فيجعله لله ولا يشرك فيه شيئا، فإن الله يقول يوم القيامة: من أشرك بي شيئا في عملٍ عمله فهو لشريكه ليس لي منه شيء». ورواه هناد في الزهد ٢/ ٤٣٤ بنحوه.

(٢) رواه الدارقطني في سننه ١/ ٧٧ - ٧٨، وزاد في آخره: «ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منه شيء».

ونحن معه، فافتتح الصلاة فصلىٰ ركعتين وجلس، فقال: يا ابن الخطاب، ألست كنتَ وضيعًا فرفعك الله تعالىٰ، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزَّك الله، ثم حملك علىٰ رقاب المسلمين، فجاءك رجل يستعديك فضربتَه، ما تقول لربك غدًا إذا أتيتَه؟ فجعل يعاتب نفسه معاتبةً ظننت أنه من خير أهل الأرض[١].

(**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**لقد صحبتُ أقوامًا إن كان أحدهم لَتعرِضُ له الحكمةُ لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم لَيمرُّ فيرىٰ الأذىٰ علىٰ الطريق فلا يمنعه أن ينحِّيه إلا مخافة الشهرة**)[٢] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**ويقال: إن المرائي ينادَىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي، يا غادر، يا خاسر، يا فاجر، اذهب فخذْ أجرك ممَّن عملتَ له ولا أجر لك عندنا**) وهذا قد رُوي مرفوعًا من رواية جَبَلَة اليحصبي عن صحابي لم يُسمَّ بلفظ: «يا فاجر، يا غادر، يا كافر، يا خاسر»، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص بسند ضعيف، وقد تقدم قريبًا.

(**وقال الفضيل بن عياض**) رحمه الله تعالىٰ: (**كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون**) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**وقال عكرمة**) مولىٰ ابن عباس: (**إن الله يعطي العبد علىٰ قدر نيَّته ما لا يعطيه علىٰ قدر عمله؛ لأن النية لا رياء فيها**)[٣] نقله صاحب القوت.

(**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**المرائي يريد أن يغلب قَدَر الله**

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٩١ - ٢٩٢، وابن الأثير في أسد الغابة ٤/ ١٤٨.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٨١.

(٣) لم أجده عن عكرمة، وإنما أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢٨٦ مرفوعا من حديث أبي موسىٰ الأشعري، وزاد في أوله: «نية المؤمن خير من عمله». وزاد في آخره: «والعمل يخالطه الرياء».

تعالىٰ، وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس: هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حلَّ من ربه محلَّ الأرداياء) جمع رديء **(فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(وقال قتادة) بن دعامة السدوسي البصري العابد الثقة: **(إذا راءىٰ العبد يقول الله تبارك وتعالىٰ: انظروا إلىٰ عبدي يستهزئ بي)**[1] أخرجه البيهقي في الشعب.

(وقال مالك بن دينار) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(القرَّاء ثلاثة: قراء الدنيا، وقراء الملوك، وقراء الرحمن، وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن)** قال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا أبو عمرو عثمان بن محمد العثماني، حدثنا إسماعيل ابن علي، حدثنا هارون بن حميد، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك ابن دينار يقول: إن من القراء قراء ذا وجهين، إذا لقوا الملوك دخلوا معهم فيما هم فيه، وإذا لقوا أهل الآخرة دخلوا معهم فيما هم فيه، وقراء يكونون من قراء الرحمن، وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن. حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا هارون، حدثنا سيَّار ، حدثنا جعفر قال : سمعت مالك ابن دينار يقول: القراء ثلاثة: فقارئ للرحمن، وقارئ للدنيا، وقارئ للملوك، فيا هؤلاء محمد بن واسع عندي من قراء الرحمن. حدثنا مخلد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن محمد بن ناجية، حدثنا نصر بن علي قال: سمعت سفيان يقول: قال مالك بن دينار: للأمراء قراء، وللأغنياء قراء، وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن.

(وقال الفضيل: مَن أراد أن ينظر إلىٰ مُراءٍ فلينظر إليَّ.

وقال محمد بن المبارك) بن[3] يعلَىٰ القرشي، أبو عبد الله **(الصوري)**

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٤٧٤، ٨/ ١٢٠.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٥.

(٣) تهذيب الكمال ٢٦/ ٣٥٢ - ٣٥٥.

القلانسي، العابد، نزيل دمشق، وشيخ الشام بعد أبي مُسْهِر، ذكره ابن حبان في كتاب الثقات[١] وقال: وكان مولده سنة ١٥٣، ووفاته سنة ٢١٥. روىٰ له الجماعة (**أظهِر السَّمْتَ بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار؛ لأن السمت بالنهار للمخلوقين، وسمتك بالليل لرب العالمين.**

وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (**التوقِّي علىٰ العمل أشد من العمل**) وهذا قد رُوي مرفوعًا من حديث أبي الدرداء بلفظ: «إن الاتِّقاء علىٰ العمل أشد من العمل». رواه البيهقي[٢] بسند ضعيف.

ونُقل نحوه عن أبي بكر الواسطي قال: حفظُ الطاعة أشد من فعلها؛ لأن مثلها مثل الزجاج [سريع الكسر و] لا يقبل الجبر[٣].

(**وقال ابن المبارك**) عبد الله رحمه الله تعالىٰ: (**إن الرجل لَيطوفُ بالبيت وهو بخُراسان**) أي قلبه متعلق بخراسان (**قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يحب أن يُذكَر أنه مجاور بمكة**) وهذا بخلاف قول بعضهم: قوم بخراسان وقلوبهم بمكة.

(**وقال إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالىٰ: (**ما صدق اللهَ مَن أراد أن يشتهر**) أخرجه أبو نعيم في الحلية[٤].

ومن الآثار: قال محمد ابن الحنفية: كل ما لا يُبتغَىٰ به وجه الله مضمحل. أخرجه أبو نعيم في الحلية[٥].

وقال الربيع بن خُثَيم: ما لم يُرَدْ به وجه الله يضمحل. أخرجه ابن أبي شيبة[٦].

---

(١) الثقات ٩/ ٧١.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ١٤٢، ١٧٩.

(٣) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين ص ٧.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٩ - ٢٠.

(٥) السابق ٣/ ١٧٦.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٦٢.

وعن أبي العالية قال: قال لي أصحاب محمد ﷺ: يا أبا العالية، لا تعمل لغير الله فيَكِلك الله إلىٰ مَن عملتَ له[1].

وقال ابن مسعود: مَن صلىٰ صلاة والناس يرونه فليصلِّ إذا خلا مثلَها وإلا فإنما هي استهانة يستهين بها ربَّه. أخرجه ابن أبي شيبة[2].

ويأتي ذلك للمصنف في فصل الرياء بأوصاف العبادات.

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ٣٩، وهناد في الزهد ٢/ ٤٣٦. ورواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية ص ٧١ بلفظ: اجتمع إليَّ أصحاب محمد ﷺ فقالوا: يا أبا العالية، لا تعمل عملا تريد به غير الله فيجعل الله ثوابك علىٰ من أردت. ويا أبا العالية، لا تتكل علىٰ غير الله فيكلك الله إلىٰ من توكلت عليه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٤٧٩.

بيـان حقيقـة الريـاء وما يُراءَى به

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الرِّياء) بالكسر ممدودًا (مشتقٌّ من الرؤية) وهي النظر بحاسَّة البصر، وقد راءىٰ الشخصُ رؤية (والسُّمعة) بالضم (مشتقَّة من السماع) وقد سمعه وسمع له سمعًا وسماعًا. والعمل إن كان إظهاره للناس قصدًا لأنْ يروه فيظنوا به خيرًا أو يسمعوا به خيرًا فسمعة، فالمقصود في كلٍّ منهما رؤية الخلق وسماعهم غفلةً عن الخالق وعماية عنه. هذا ما تقتضيه اللغةُ، وقد أشار إليه بقوله: (وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير) فيظنوا به خيرًا ويكرموه (إلا أن الجاه والمنزلة تُطلَب في القلب بأعمال سوىٰ العبادات، و) تارةً (تُطلَب بالعبادات. واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها) للناس (فحدُّ الرياء هو إرادة المنزلة بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فالمُرائِي) علىٰ صيغة اسم الفاعل (هو العابد) يرائي الناسَ بعبادته (والمراءَىٰ له) علىٰ صيغة اسم المفعول (هم الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءَىٰ به هو) اسم (الخصال التي قصد المرائي إظهارها) لهم (والرياء هو قصده إظهار ذلك) ولا يقع غالبًا إلا عن غفلته عن الخالق وعمايته عنه (والمراءَىٰ به كثير، وتجمعه خمسة أقسام هي مَجامِع ما يتزيَّن به العبد للناس وهو البدن والزي والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة، إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال) هي (ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات) إذ لا يُظَن به خيرًا إلا لأجلها:

(الأول: الرياء في الدين من جهة البدن، وذلك بإظهار النحول) وهو[1] السقم، وقد نَحَلَ البدنُ يَنْحَل نحولاً، ونَحِلَ كتعب لغة فيه (والاصفرار) أي في لون الجسم

(١) المصباح المنير ص ٥٩٥.

(ليوهم بذلك شدةَ الاجتهاد) في العبادة (وعِظَم الحزن علىٰ أمر الدين وغلبة خوف الآخرة) فإنَّ مَن غلب عليه خوفُها اصفر لونه ونحل جسمُه (وليدل بالنحول علىٰ قلة الأكل، وبالاصفرار علىٰ سهر الليل وكثرة الاجتهاد، وبعِظَم الحزن علىٰ الدين، وكذا يرائي بتشعيث الشعر) وانتشاره (ليدل به علىٰ استغراق الهمِّ بالدين) أي أموره (وعدم الفراغ لتسريح الشعر) ودهنه، كما قيل لبشر الحافي: ألا تسرِّح لحيتك؟ فقال: إني إذًا لَفارغٌ[١] (فهذه الأسباب متىٰ ظهرت استدلَّ الناس بها علىٰ هذه الأمور وارتاحت النفس لمعرفتهم بها، ولذلك تدعو النفسُ إلىٰ إظهارها لنيل تلك الراحة. ويقرُب من هذا خفضُ الصوت) إذا تكلم (وإغارة العينين وذبول الشفتين) أي يبسهما (ليُستدَل بذلك علىٰ أنه) صائم (مواظب علىٰ الصوم وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته، وضعف الجوع هو الذي أضعف قوته) أي أوهنَها (وعن هذا قال عيسىٰ عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويرجل شعرَه ويكحل عينيه) لئلا يرىٰ الناس أنه صائم. وقد تقدم قريبًا بأتم منه (وكذلك رُوي عن أبي هريرة) رضي الله عنه من قوله (وذلك كله لِما يُخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء، ولذلك قال ابن مسعود) رضي الله عنه لأصحابه: (اصبحوا صيامًا) جمع صائم (مدهنينَ) أي لئلاَّ يُرَىٰ عليكم الصوم. وقال أبو نعيم في الحلية[٢]: حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا محمد بن جعفر الوركاني، أخبرنا شريك، عن أبي حصين، عن يحيىٰ بن وَثَّاب، عن مسروق، عن عبد الله قال: إذا أصبح أحدكم صائمًا - أو قال: إذا كان أحدكم صائمًا - فليترجَّل، وإذا تصدَّق بصدقة بيمينه فليُخْفِها عن شِماله، وإذا صلىٰ صلاة أو صلىٰ تطوُّعًا فليصلِّ في داخله (فهذه مُراعاة أهل الدين بالبدن، وأما أهل الدنيا فيراؤون بإظهار السِّمَن) في البدن (وصفاء اللون) وذلك بكثرة المآكل والتأنُّق بأنواعها، فإنه يوجب ذلك (واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن، وقوة الأعضاء وتناسُبها) فكل ذلك يراؤون به.

---

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب الطهارة عن داود الطائي.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٣٦.

(الثاني: الرياء بالزي والهيئة، أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس، وحلق الشارب) بتمامه أو إحفائه (وإطراق الرأس) علىٰ الأرض (في المشي، والهدء في الحركة، وإبقاء أثر السجود علىٰ الوجه) مما يلحقه من غبار أو غيره (وغِلظ الثياب، ولبس الصوف) الخشن (وتشميرها) أي الثياب (إلىٰ قريب من نصف الساق، وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب، وتركه مخرَّقًا) أو يرقعه بما ليس من جنسه (كل ذلك يرائي به ليُظهِر من نفسه أنه متَّبع للسنَّة فيه ومقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين) في هيئاتهم (ومن ذلك لبس المرقَّعة) وهي ثوب يقطَّع قِطَعًا ثم يرقع رُقَعًا ثم يُخاط بالصوف، ويسمَّىٰ أيضًا بالخِرقة، وهي من لبس الصوفية (والصلاة علىٰ السجَّادة، ولبس الثياب الزُّرْق) المصبوغة بالنيل، أو الصُّفْر المصبوغة بالطين الأحمر، كل ذلك (تشبُّهًا بالصوفية، مع الإفلاس عن حقائق التصوف في الباطن) وعدم السلوك علىٰ طريقتهم (ومنه التقنُّع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرِّداء علىٰ العينين؛ ليُرَىٰ به أنه قد انتهىٰ تقشُّفه إلىٰ الحذر من غبار الطريق، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميُّزه بتلك العلامات) فيُكرَم لذلك (ومنه الدَّرَّاعة) وهي المسمَّاة بالطَّرْحة (والطيلسان) وهو كساء أسود مربَّع، وكلٌّ منهما من زِي العلماء (يلبسه مَن هو خالٍ من العلم) وإنما يفعل ذلك (ليوهم) الناسَ (أنه من أهل العلم.

والمراؤون بالزي علىٰ طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد، فيلبس الثياب المخرَّقة الوسخة القصيرة) الذيل والأكمام (الغليظة) الخشنة (ليرائي بغِلظها وقِصَرها ووسخها وتخرُّقها) بأنه من الزاهدين في الدنيا (ولو كُلِّف) هذا (أن يلبس ثوبًا نظيفًا وسطًا مما كان يلبسه السلف لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له رأيٌ من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرىٰ يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردَّهم القراءُ، ولو لبسوا الثياب المخرَّقة البذلة) وفي نسخة: الخلقة (ازدرتهم) أي احتقرتهم

(أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الرقيقة) من المرعزي **(والأكسية الرفيعة)** الثمن **(والمرقَّعات المصبوغة)** بأنواع الألوان **(والفُوَط الرفيعة)** وفي نسخة: الرقيقة **(فيلبسونها، ولعل قيمة ثيابهم)** وفي نسخة: قيمة ثوب أحدهم **(قيمة ثياب أحد الأغنياء وهيئته ولونه هيئة ثياب الصلحاء، فيلتمسون)** بذلك **(القبولَ عند الفريقين، وهؤلاء لو كُلِّفوا لبس ثوب خشن)** من الكِرْباس الغليظ أو من الصوف **(أو)** ثوب **(وسخ)** أو مخرَّق **(لكان عندهم كالذبح)** في الحلق **(خوفًا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كُلِّفوا لبس ثوب الدبيقي)** منسوب إلىٰ دبيق، وهي من قرىٰ دمياط، قد خربت منذ زمان(١)، كانت تُعمَل فيها هذه الثياب المنسوجة بالحرير **(والكتان الرقيق الأبيض أو)** ثوب **(القصب المعلَّم وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم؛ لعِظَم ذلك عليهم خوفًا من أن يقول أهل الصلاح: قد رغب في زي أهل الدنيا. وكل طبقة منهم رأىٰ منزلته في زي مخصوص، فيثقل عليه الانتقالُ إلىٰ ما دونه أو إلىٰ ما فوقه وإن كان مباحًا خوفًا من)** لحوق **(المَذَمَّة)** إليه **(وأما أهل الدنيا فمُراءاتهم بالثياب النفيسة)** الناعمة **(والمراكب الرفيعة وأنواع التوسُّع والتجمُّل في الملبس والمسكن وأثاث البيت)** من الفُرُش المفتخَرة **(وفره الخيل)** أي السمينة الموسومة **(وبالثياب المصبَغة)** بأنواع الألوان **(والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس، فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة)** البذلة **(ويشتد عليهم لو برزوا للناس في تلك الثياب ما لم يبالغوا في الزينة)** والإصلاح والتسوية.

(الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير) علىٰ رؤوس الناس **(والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار)** النبوية **(والآثار)** والقصص **(لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهارًا لغزارة العلم)** وسعته **(ودلالة علىٰ شدة العناية**

---

(١) قامت محلها اليوم قرية تعرف بـ «تل دقو» مركز فاقوس محافظة الشرقية، وانظر: معجم البلدان ٢/ ٤٣٧.

بأحوال السلف الصالح، وتحريك الشفتين بالذِّكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخَلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف) والحزن (علىٰ مقارفة الناس) أي ارتكابهم (للمعاصي) والبدع (وإضعاف الصوت) وخفضه (في الكلام، وترقيق الصوت بقراءة القرآن؛ ليدلَّ بذلك علىٰ الحزن والخوف، وادِّعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ، والرد علىٰ من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه) من جهة الإعراب أو لخطأ في المعنىٰ (ليُعرَف أنه بصير بالأحاديث) خبير بها (والمبادرة إلىٰ أن الحديث صحيح أو غير صحيح) أو موضوع أو باطل (لإظهار الفضل فيه، والمجادلة علىٰ قصد إفحام الخصم) وتسجيله وتسكينه (ليُظهِر للناس قوتَه) ومعرفته (في علم الدين. والرياء بالقول كثير، وأنواعه[1] لا تنحصر. وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار) المناسبة للمجالس من دواوين شعر العرب (و) حفظ (الأمثال) والنوادر والوقائع (والتفاصُح في العبارات) والتفنُّن فيها عند المحاورات (وحفظ) مسائل (النحو الغريب للإغراب علىٰ أهل الفضل) والتميُّز عليهم (وإظهار التودُّد إلىٰ الناس لاستمالة القلوب) إليهم.

(الرابع: الرياء بالعمل، كمراءاة المصلِّي بطول القيام ومدِّ الظهر) زيادة عن العادة (وتطويل السجود والركوع، وإطراق الرأس، وترك الالتفات) يمينًا وشمالاً (وإظهار الهدوء والسكون) والطمأنينة (وتسوية القدمين واليدين) واصطفافهما (وكذلك) المراءاة (بالصوم والغزو والحج والصدقة وإطعام الطعام و) المراءاة (بالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتىٰ إن المرائي قد يسرع في المشي إلىٰ حاجته فإذا اطَّلع عليه واحد من أهل الدين رجع إلىٰ الوقار وإطراق الرأس خوفًا من أن ينسبه إلىٰ العجلة) والخفة (وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلىٰ عجلته، فإذا رآه عاد إلىٰ خشوعه، ولم يحضره ذِكرُ الله حتىٰ

---

(١) في م وط المنهاج: وأبوابه.

يكون يجدِّد الخشوعَ له، بل هو لاطِّلاع إنسان عليه يخشىٰ أن لا يعتقد فيه أنه من العُبَّاد والصلحاء) فتقوم عليه القيامة بسبب ذلك (ومنهم مَن إذا سمع هذا استحيا أن تخالف مشيتُه في الخلوة مشيتَه بمرأىٰ من الناس، فيكلِّف نفسه المشية الحسنةَ في الخلوة، حتىٰ إذا رآه الناس لم يفتقر إلىٰ التغيير ويظن أنه يتخلَّص به من) وصمة (الرياء، و) لا يدري أنه (قد تَضاعَفَ به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضًا مرائيًا، فإنه إنما يحسِّن مشيتَه في خلوته ليكون كذلك في الملأ) من الناس (لا لخوف من الله وحياء منه. وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختُر) في المشي (والاختيال، وتحريك اليدين) قصدًا (وتقريب الخُطا، والأخذ بأطراف الذيل) من اليمين والشمال (وإدارة العِطفين؛ ليدلُّوا بذلك علىٰ الجاه والحشمة) وعلو المنصب.

(الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين) والمخالطين (كالذي يتكلَّف أن يستزير عالمًا من العلماء) مشهورًا (ليقال إن فلانًا قد زار فلانًا، أو) يستزير (عابدًا من العُبَّاد) معروفًا (ليقال إن أهل الدين يتبرَّكون بزيارته ويتردَّدون إليه، أو) يستزير (ملَكًا من الملوك) أو أميرًا من الأمراء (أو عاملاً من عمال السلطان ليقال إنهم يتبرَّكون به لعِظَم رتبته في الدين) فيروج بذلك حاله (وكذلك الذي يُكثِر ذِكر الشيوخ) في مجالسهم (ليُرِي أنه) قد (لقي شيوخًا كثيرة واستفاد منهم، فيباهي بشيوخه) ويقول كما قال الفرزدق[1]:

أولئك آبائي فجِئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المَجامِعُ

(فمُباهاته ومُراءاته تترشَّح منه عند مخاصمته فيقول لغيره: ومَن لقيتَ من الشيوخ؟ وأنا قد لقيتُ فلانًا وفلانًا، ودُرْتُ البلادَ) وقطعت الوِهادَ (وخدمتُ الشيوخ) وتلقَّيت عنهم كذا وكذا (وما يجري مَجراه) من الدعاوىٰ (فهذه مَجامِع ما يرائي به المراؤون، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم

---

(١) البيت في ديوانه ص ٣٦٠.

من يَقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من راهب انزوَىٰ إلىٰ دير سنين كثيرة، وكم من عابد اعتزل) الناس (إلىٰ قُلَّة جبل) شاهق (مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلىٰ جريمة في ديره أو صومعته لتشوَّش قلبُه) من تلك النسبة (ولم يَقنع بعلم الله ببراءة ساحته) من تلك الجريمة (بل يشتد بذلك غمُّه، ويسعىٰ بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه في أموالهم) فلا تخطر له ببال (ولكنه يحب مجرد الجاه، فإنه لذيذ، كما ذكرناه في) بيان (أسبابه، فإنه نوع قدرة) واستيلاء (وكمال في الحال، وإن كان سريع الزوال، لا يغترُّ به إلا الجُهَّال، ولكن أكثر الناس جُهَّال) غلب عليهم الجهل والغرور (ومن المرائين مَن لا يَقنع بقيام منزلته) في القلوب (بل يلتمس مع ذلك إطلاقَ اللسان بالثناء والحمد، ومنهم مَن يريد انتشار الصيت في البلاد) البعيدة (لتكثُر الرحلةُ إليه) للأخذ والتلقِّي (ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك) والوزراء (لتُقبَل شفاعته عندهم وتُنجَز الحوائج) للناس (علىٰ يديه فيقوم له بذلك جاهٌ عند العامة. ومنهم من يقصد التوصلَ بذلك إلىٰ جمع حُطام وكسب مال) من أيِّ وجه كان (ولو من الأوقاف وأموال اليتامىٰ وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤون بالأسباب التي ذكرناها.

فهذه حقيقة الرياء وما يقع به الرياء.

فإن قلتَ: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح) كل ذلك علىٰ الإطلاق (أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل، فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال، فلا يحرُم من حيث إنه طلبُ منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسبُ المال بتلبيسات وأسباب محظورات) شرعًا (فكذلك الجاه) يمكن تحصيله بمثل تلك الأسباب (وكما أن كسب قليل من المال - وهو ما يحتاج إليه الإنسان - محمود، فكذلك كسبُ قليل من الجاه - وهو ما يَسلم به من الآفات - محمود) ولكن من غير حرص علىٰ

طلبه، ومن غير اغتمام علىٰ زواله إن زال بلا ضرر فيه (وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام) من عزيز مصر (حيث قال) له: اجعلني علىٰ خزائن الأرض (إني حفيظ عليم) كما تقدم قريبًا (وكما أن المال فيه) من وجه (سم ناقع و) من وجه (ترياق نافع، فكذلك الجاه، وكما أن كثير المال يلهي) عن الطاعات (ويُطغِي ويُنسِي ذِكر الله تعالىٰ والدار الآخرة، فكذلك كثير الجاه، بل أشد؛ لأن فتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنَّا لا نقول تملُّكُ المال الكثير حرام، فلا نقول أيضًا تملُّك القلوب الكثيرة حرام، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه علىٰ مباشرة ما لا يجوز) شرعًا (نعم، انصراف الهم إلىٰ سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلىٰ كثرة المال، ولا يقدر محب المال والجاه علىٰ ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، فأما سعة الجاه من غير حرص منك علىٰ طلبه ومن غير اغتمام) منك (بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين) من بعده (ومَن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلىٰ طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصَف بالتحريم، فعلىٰ هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلىٰ الناس مراءاة) لغةً (وهو ليس بحرام؛ لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقِسْ علىٰ هذا كلَّ تجمُّل للناس وتزيُّن لهم) في المسكن والمركب (والدليل عليه ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يومًا علىٰ أصحابه، فكان ينظر في حُب الماء) أي الدن الذي فيه الماء (ويسوِّي عمامته وشعره، فقالت: أوَ تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، إن الله يحب من العبد أن يتزيَّن إذا خرج لإخوانه) رواه ابن عدي في الكامل، وقد تقدم في كتاب أسرار الطهارة (نعم، هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة؛ لأنه كان مأمورًا بدعوة الخلق) إلىٰ الله تعالىٰ (وترغيبهم في الاتِّباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتِّباعه، فكان يجب عليه أن يُظهِر محاسنَ أحواله لكيلا تزدريه) أي تحتقره (أعينهم؛ لأن أعين عوامِّ الخَلق تمتد إلىٰ الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ) وهي مصلحة شرعية (ولكن لو قصد قاصد به أن يحسِّن نفسَه في أعينهم حذرًا من

ذمِّهم ولومهم واستروا‌حًا إلىٰ توقيرهم واحترامهم كان قصدًا مباحًا؛ إذ للإنسان الحذر من ألم المَذَمَّة وطلبُ راحة الأنس بالإخوان، ومهما استقذروه واستثقلوه لم يأنس بهم. فإذًا المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها، ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله علىٰ جماعة من الأغنياء) إطعامًا لهم وإغداقًا عليهم (لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخيٌّ) كريم بَذُول (فهذه مراءاة ليست بحرام، وكذلك أمثاله، وأما) الرياء (بالعبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان، إحداهما: أن لا يكون له قصدٌ إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادتَه؛ لأن الأعمال بالنيَّات) والقُصود (وهذا ليس يقصد العبادة، ثم لا يقتصر علىٰ إحباط عبادته حتىٰ نقول: صار كما كان قبل العبادة، بل يعصي بذلك ويأثم، كما دلَّت عليه الأخبار والآيات، والمعنىٰ فيه أمران، أحدهما يتعلق بالعِباد وهو التلبيس والمكر؛ لأنه خيَّل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضًا، حتىٰ لو قضىٰ دَين جماعة وخيَّل للناس أنه متبرِّع عليهم) أي لوجه الله (ليعتقدوا سخاوته) وكرمه (أثمَ به؛ لِما فيه من التلبيس وتملُّك القلوب بالخداع والمكر. والثاني يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله النَاسَ) وفي نسخة: الخلق (فهو مستهزئ بالله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك قال قتادة) بن دعامة البصري رحمه الله: (إذا راءىٰ العبدُ) بعمله (قال الله تبارك وتعالىٰ للملائكة: انظروا إلىٰ عبدي كيف يستهزئ بي) كما تقدم قريبًا (ومثاله) في الظاهر (أن يتمثَّل) الرجل (بين يدي ملك من الملوك طول النهار) أي يقف (كما جرت) به (عادة الخدم) في وقوفهم (وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه، فإنَّ هذا استهزاء بالملك؛ إذ لم يقصد التقرُّب إلىٰ الملك بخدمته، بل قصد بذلك عبدًا من عبيده، فأيُّ استحقار يزيد علىٰ أن يقصد العبد بطاعة الله مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا، وهل ذلك إلا لأنه ظن أن ذلك العبد أقدر علىٰ تحصيل أغراضه من الله تعالىٰ، وأنه أَولىٰ بالتقرُّب إليه من الله تعالىٰ؛ إذ آثره)

أي اختاره (**علىٰ ملك الملوك**) جلَّ جلاله (**فجعله مقصودَ عبادته، وأيُّ استهزاء يزيد علىٰ رفع العبد فوق المولىٰ**) السيد المالك (**فهذا من كبائر المهلكات، ولذلك سمَّاه رسول الله ﷺ الشرك الأصغر**) قال العراقي[١]: رواه أحمد من حديث محمود بن لبيد، وقد تقدم، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، فجعله من مسند رافع، وقد تقدم قريبًا، وللحاكم[٢] وصحَّح إسناده من حديث شداد بن أوس: كنا نعدُّ علىٰ عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر.

قلت: حديث شداد بن أوس هذا رواه كذلك ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب[٣]، ولفظهم: كنا نعدُّ الرياءَ علىٰ عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر.

وأما لفظ حديث محمود بن لبيد ورافع بن خديج: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ...» الحديث، وقد تقدم.

وأخرج ابن أبي شيبة[٤] من حديث محمود بن لبيد: «إياكم وشرك السرائر». قالوا: وما شرك السرائر؟ قال: «أن يقوم أحدكم يزيِّن صلاته جاهدًا لينظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر».

ولابن مردويه من حديث أبي هريرة: «اتقوا الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء ...» الحديث. ورواه أيضًا كذلك الأصفهاني في الترغيب والترهيب[٥].

---

(١) المغني ٢/ ٩٣٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٥.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ١٦٥.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٤٧٩.

(٥) الترغيب والترهيب ١/ ١٢٤. من طريق ابن مردويه، وانظر: تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي ٢/ ٣١٥، والفتح السماوي للمنادي ٢/ ٨٠٣.

(نعم، بعض درجات الرياء أشد من بعض، كما سيأتي بيانه) قريبًا بعد هذا الفصل (في درجات الرياء إن شاء الله تعالىٰ، ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة، ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يركع ويسجد لغير الله لكان فيه كفاية؛ لأنه وإن لم يقصد التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ فقد قصد غير الله، ولعَمْري لو عظَّم غيرَ الله بالسجود لكفر كفرًا جليًّا، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي؛ لأن المرائي عظَّم في قلبه الناسَ، فاقتضت تلك العظمةُ أن يركع ويسجد لهم، فكان الناس هم المعظَّمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصدُ تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبًا من الشرك، إلا أنه إن قصد تعظيم نفسه في قلب مَن عظُم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعن هذا كان شركًا خفيًّا لا شركًا جليًّا، وذلك غاية الجهل، ولا يقدُم عليه إلا مَن خدعه الشيطان) بغروره (وأوهمَ عنده أن العِباد يملكون من نفعه وضرِّه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالىٰ، فلذلك عدل) أي صرف (بوجهه عن الله تعالىٰ إليهم، وأقبل بقلبه عليهم؛ ليستميل بذلك قلوبَهم، ولو وكله الله تعالىٰ إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له علىٰ صنيعه) ذلك (فإن العِباد كلَّهم عاجزون عن أنفسهم، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فكيف يملكون لغيرهم؟! هذا في الدنيا، فكيف في) الآخرة (يوم لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، بل يقول الأنبياء) عليهم السلام مع جلالة قدْرهم (فيه: نفسي نفسي) كما جاء في حديث الشفاعة الطويل (فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القُرب عند الله تعالىٰ ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس) فإذا عرفتَ ذلك (فلا ينبغي أن تشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعًا. هذا إذا لم يقصد الأجر، فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعًا في صدقته أو صلاته فهذا الشرك الذي يناقض الإخلاصَ، وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص) علىٰ ما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ (ويدل علىٰ ما نقلناه من الآثار) فيما تقدم قريبًا من (قول سعيد بن

المسيب) رحمه الله تعالىٰ (و) من قول (**عُبادة بن الصامت**) رضي الله عنه وغيرهما (**أنه لا أجر له فيه أصلاً**) ومثله في الحديث المرفوع عن أبي أمامة وغيره، كما قدمنا ذِكره قريبًا. والله الموفِّق.

بيـان درجـات الريـاء

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن بعض درجات الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه، وأركانه ثلاثة: المراءَىٰ به، والمراءَىٰ لأجله، ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء) ذكره في السياق آخرًا وقدَّمه في البيان لشدة الاهتمام به فقال: (وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرَّدًا دون إرادة عبادة الله والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب. فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوىٰ وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة، فتكون الدرجات أربعًا):

الدرجة (الأولىٰ، وهي أغلظها: أن لا يكون مراده الثواب أصلاً) وهذا (كالذي يصلي بين أظهُر الناس) أي في مشهد منهم (ولو انفرد) بنفسه (لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرَّد قصده إلىٰ الرياء، فهو الممقوت عند الله تعالىٰ، وكذلك من يُخرِج الصدقةَ خوفًا من مَذَمَّة الناس وهو لا يقصد الثواب، ولو خلا بنفسه لَما أدَّاها. فهذه الدرجة العليا).

الدرجة (الثانية: أن يكون له قصدُ الثواب أيضًا ولكن قصدًا ضعيفًا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصدُ علىٰ العمل، ولو لم يكن قصد الثوابَ لكان قصدُ الرياء يحمله علىٰ ذلك العمل، فهذا قريب ممَّا قبله، وما فيه من شائبة قصدِ ثوابٍ لا يستقلُّ بحمله علىٰ العمل لا ينفي عنه المقتَ والإثم) عند الله تعالىٰ.

الدرجة (الثالثة: أن يكون قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خاليًا عن الآخَر لم يبعثه علىٰ العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة،

أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقلَّ بحمله على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، فنرجو أن يَسلم رأسًا برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب، وظواهر الأخبار) الماضية (تدل على أنه لا يَسلم، وقد تكلَّمنا عليه في كتاب الإخلاص) فيما سيأتي.

الدرجة (الرابعة: أن يكون اطِّلاع الناس عليه مرجِّحًا ومقوِّيًا لنشاطه) وفي نسخة: وهو الذي يبعث بالنشاط (ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة، ولو كان قصد الرياءَ وحده لَما أقدم عليه، فالذي نظنه - والعلم عند الله - أنه لا يحبط أصل الثواب، ولكنه ينقص منه، أو يعاقَب على مقدار ما قصد من الرياء ويُثاب على مقدار قصدِ الثواب) فيه (وأما قوله ﷺ: يقول الله تعالى) فيما رُوي عنه في حديث قدسيّ: (أنا أغنى الأغنياء عن الشرك) مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى تركتُه وشركه. رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: «أغنى الشركاء»، وقد تقدم قريبًا (فهو محمول على ما إذا تساوَى فيه القصدان): قصدُ الرياء، وقصد الثواب (أو كان قصدُ الرياء أرجح)(١) والله أعلم.

(الركن الثاني: المراءَى به وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات، وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول، وهو الأغلظ: الرياء بالأصول، وهو على ثلاث درجات):

الدرجة (الأولى: الرياء بأصل الإيمان، وهو أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه مخلَّد في النار، وهو الذي يُظهِر كلمتَي الشهادة) بلسانه (وباطنه مشحون بالتكذيب، ولكنه مُراءٍ بظاهر الإسلام) وقايةً لحاله (وهو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في

---

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام الحجة رحمه الله، وذهب غيره إلى أن أقل الرياء محبط الأعمال، منهم الحارث المحاسبي والقرطبي وابن القيم وغيرهم، انظر: الرعاية صـ١٦٤، تفسير القرطبي ٥/ ١٨١، الداء والدواء صـ١٦٩ ط إحياء التراث والأشباه والنظائر، لابن نجيم صـ٣٧، ومقاصد المكلفين للأشقر صـ٤٤٣ وما بعدها.

كتابه في مواضع شتىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشهادة(١): إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والاطِّلاع، ولذلك صدَّق المشهودَ به وكذَّبهم في الشهادة بقوله: (﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ **أي في دلالتهم بقولهم علىٰ ضمائرهم)** لأنهم لم يعتقدوا ذلك. ثم قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أي ظاهرًا ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ أي سرًّا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي حتىٰ تمرَّنوا علىٰ الكفر واستحكموا فيه ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٣﴾ [المنافقون: ١ - ٣] أي حقِّية الإيمان ولا يعرفون صحته.

(وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ٢٠٤﴾) أي أشدهم عنادًا ولجاجة وخصومة (﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۚ﴾ **الآية)** إلىٰ آخرها [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥].

(وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾) أي بألستهم (﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾) أي انفردوا بأنفسهم (﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

والآيات فيهم كثيرة، وكان النفاق يكثُر في ابتداء الإسلام ممَّن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لغرض) من الأغراض كحماية النفس والمال والعِرض، وكالطمع في الدنيا، وغير ذلك **(وذلك مما يقلُّ في زماننا)** بل وقبل زمانه **(ولكن يكثُر نفاقُ من ينسلُّ عن الدين باطنًا)** انسلالاً خفيًّا **(فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة)** من أصلها **(ميلاً إلىٰ قوله الملحدة)** وهم(٢) في زمن المصنِّف عُرفوا بالباطنية، يدَّعون

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢١٤.

(٢) المصباح المنير ص ٥٥٠.

أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وأنه مخالف للظاهر، وأنهم يعلمون الباطن، فأحالوا بذلك الشريعة؛ لأنهم تأوَّلوا بما يخالف العربيةَ التي نزل بها القرآن (**أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلاً إلىٰ أهل الإباحة**) القائلين بسقوط التكليف عن العبد إذا بلغ مقام اليقين (**أو يعتقد كفرًا أو بدعة وهو يُظهِر خلافه. فهؤلاء من المنافقين المُرائين المخلَّدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياء**) إذ هو آخر درجاته (**وحال هؤلاء أشد من حال الكفار المجاهرين**) بالكفر (**لأنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر**) أعاذنا الله منه بمَنِّه.

الدرجة (**الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضًا عظيم عند الله، ولكنه دون الأول بكثير، ومثاله أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفًا من ذمِّه**) أي أن يلحقه ذمٌّ من الناس (**والله تعالىٰ يعلم منه أنه لو كان في يديه**) ومتمكِّنًا منه (**لَما أخرجها**) بخلاً منه (**أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع**) من الناس (**فيصلي معهم وعادته تركُ الصلاة في الخلوة**) إذا كان منفردًا بنفسه (**وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة**) مع الناس (**ولولا خوفه المَذَمَّة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفًا من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك**) دفعًا لشَين العار والذم عنه فقط (**فهذا مُراءٍ معه أصل الإيمان بالله، يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كُلِّف أن يعبد غير الله أو يسجد لغير الله لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشط عند اطِّلاع الناس**) وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان مع الناس. كما تقدم في الآثار. وروىٰ صاحب الحلية[1] من طريق عقيل بن معقل قال: سمعت عمي وهب بن منبه يقول: إن لكل شيء علامة يُعرَف بها وتشهد له أو عليه ... فذكر الحديث، وفيه: وللمنافق ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان أحد عنده،

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٤٧.

ويحرص في كل أموره علىٰ المَحمدة (فتكون منزلته عند الخلق) في قلوبهم (أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في مَحمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله تعالىٰ. وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت) من الله تعالىٰ (وإن كان غير منسلٍّ من أصل الإيمان من حيث الاعتقاد).

الدرجة (الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي) الله تعالىٰ بتركها (ولكنه يكسل عنها في الخلوة؛ لفتور رغبته في ثوابها، ولإيثاره لذة الكسل علىٰ ما يُرجَىٰ من الثواب، ثم يبعثه الرياء علىٰ فعله، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة، وعيادة المريض، واتِّباع الجنائز، وغسل الميت، وكالتهجُّد بالليل، وصيام يومَي عرفة وعاشوراء، و) صوم (يوم الاثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفًا من المذمة وطلبًا للمَحمدة) من الناس (ويعلم الله تعالىٰ منه أنه لو خلا بنفسه لَما زاد علىٰ أداء الفرائض. فهذا أيضًا عظيم) عند الله تعالىٰ (ولكن هو دون ما قبله، فإنَّ الذي قبله آثرَ حمد الخلق علىٰ حمد الخالق، وهذا أيضًا قد فعل ذلك واتَّقىٰ ذم الخلق دون ذم الخالق، فكان ذم الخلق عنده أعظم من عقاب الله تعالىٰ، وأما هذا فلم يفعل ذلك؛ لأنه لم يَخَفْ عقابًا علىٰ ترك النافلة لو تركها، وكأنَّه علىٰ الشطر من الأول، وعقابه نصف عقابه.

فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضًا علىٰ ثلاث درجات):

الدرجة (الأولىٰ: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفِّف الركوع والسجود ولا يطوِّل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوعَ والسجود، وترك الالتفات) يمينًا وشمالاً (وتمَّم القعود بين السجدتين. وقد قال

ابن مسعود: مَن فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربَّه) أخرجه ابن أبي شيبة[١] في المصنف بلفظ: مَن صلىٰ صلاة والناس يرونه فليصلِّ إذا خلا مثلها، وإلا فإنما هي استهانة يستهين بها ربَّه. وأخرج أيضًا عن حذيفة مثله (أي إنه ليس يبالي باطِّلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطَّلع آدميٌّ عليه أحسن الصلاةَ) وأتمَّها ركوعًا وسجودًا وقراءةً (ومَن جلس بين يدي إنسان متربِّعًا أو متَّكئًا فدخل غلامه فاستوىٰ وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديمًا للغلام علىٰ السيد واستهانة بالسيد لا محالة، وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة، وكذلك الذي يعتاد إخراجَ الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء، فإذا اطَّلع عليه غيرُه أخرجها من الجيد خوفًا من مذمَّته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغِيبة والرَّفَث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم بل خوفًا من المذمة، فهذا أيضًا من الرياء المحظور؛ لأن فيه تقديمًا للمخلوقين علىٰ الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوُّعات. فإن قال المرائي: إنما فعلتُ ذلك صيانةً لألسنتهم عن) الوقوع في (الغِيبة، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا ألسنتهم بالذم والغيبة، وإنما قصدتُ صيانتهم عن هذه المعصية. فيقال له: هذه مكيدة من الشيطان عندك وتلبيس) وتغرير وخِداعات (وليس الأمر كذلك، فإنَّ ضررك من نقصان صلاتك - وهي خدمة منك لمولاك - أعظم من ضررك من غيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك علىٰ نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمَن يهدي وصيفة) أي جارية (إلىٰ ملك) من الملوك (لينال منه فضلاً وولاية يتقلَّدها، فيهديها إليه وهي عوراء) أي مَعيبة (قبيحة) الصورة (مقطوعة الأطراف، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض عبيده امتنع خوفًا من مذمَّة غلامه، وذلك مُحال، بل مَن يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر. نعم، للمرائي فيه حالتان، إحداهما: أن يطلب بذلك المنزلةَ) في القلوب (والمَحمدة عند الناس، وذلك حرام قطعًا. الثانية: أن يقول: ليس يحضرني الإخلاصُ في تحسين الركوع

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٤٧٩.

والسجود، ولو خفَّفتُ كانت صلاتي عند الله ناقصة، وآذاني الناس بغيبتهم وذمِّهم، فأستفيدُ بتحسين الهيئة دفع مذمَّتهم) عني (ولا أرجو عليه ثوابًا) في الآخرة (فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة، فيفوت الثواب وتحصل المذمةُ. فهذا فيه أدنىٰ نظر، والصحيح أن الواجب عليه أن يُحسِن ويُخلِص) في صلاته (فإن لم تحضره النيةُ فينبغي أن يستمر علىٰ عادته في الخلوة، فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله تعالىٰ، فإنَّ ذلك استهزاء، كما سبق) من قول قتادة.

الدرجة (الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكنَّ فِعله في حكم التكملة والتتمَّة للعبادة، كالتطويل في الركوع والسجود، ومدِّ القيام) بتطويل القراءة فيه (وتحسين الهيئة في رفع اليدين، والمبادرة إلىٰ التكبيرة الأولىٰ) مع الإمام (وتحسين الاعتدال، والزيادة في القراءة علىٰ السورة المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان، وطول الصمت، وكاختيار الأجود علىٰ الجيد في) إخراج (الزكاة، وإعتاق الرقبة الغالية) الثمن (في الكفَّارة، وكل ذلك ممَّا لو خلا بنفسة لكان لا يُقدِم عليه).

الدرجة (الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضًا، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصدُه الصف الأول، وتوجُّهه إلىٰ يمين الإمام، وما يجري مَجراه، وكل ذلك ممَّا يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتىٰ يُحرِم بالصلاة.

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلىٰ ما يراءَىٰ به، وبعضه أشد من بعض، والكل مذموم) وصاحبه ممقوت عند الله تعالىٰ. والله الموفِّق.

(الركن الثالث: المراءَىٰ لأجله، فإنَّ للمرائي مقصودًا لا محالة، فإنه لا يرائي إلا) وفي نسخة: فإنما يرائي (لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضًا ثلاث درجات):

الدرجة (الأولىٰ، وهي أشدها وأعظمها: أن يكون مقصده التمكُّن من معصية) الله[١] (كالذي يرائي بعبادته، ويُظهِر التقوىٰ والورعَ بكثرة النوافل، والامتناع عن أكل الشُّبهات، وغرضه أن يُعرَف بالأمانة) عندهم (فيولَّىٰ) منصب (القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها، أو تسلَّم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها، أو تودَع) عنده (الودائع فيأخذها أو يجحدها، أو تسلَّم إليه الأموال التي تُنفَق في طريق الحج، فيختزل) أي يقتطع (بعضها أو كلها، أو يتوصَّل بها إلىٰ استتباع الحجيج، ويتوصل بقوتهم إلىٰ مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يُظهِر بعضُهم زيَّ التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة علىٰ سبيل الوعظ والتذكير، وإنما قصده التحبُّب إلىٰ امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يُظهِرون الرغبةَ في سماع العلم والقرآن وغرضُهم ملاحظة النسوان والصبيان، أو يخرج إلىٰ الحج ومقصده الظفر بمَن في الرفقة من غلام أو امرأة، وهؤلاء أبغض المرائين إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنهم جعلوا طاعة الله سلَّمًا لمعصيته، واتخذوها آلة وبضاعة ومتجرًا لهم في فسقهم) وخبيث صنعهم (ويقرُب من هؤلاء وإن كان دونهم مَن هو مقترف جريمة اتُّهِم بها وهو مصرٌّ عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيُظهِر التقوىٰ لنفي التهمة، كالذي جحد وديعة) لإنسان (فاتهمه الناس بها فتصدَّق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحلُّ مال غيره؟! وكذلك مَن يُنسَب إلىٰ فجور بامرأة أو غلام فيدفع عنه التهمة بالخشوع وإظهار التقوىٰ) حتىٰ لا يُظَن به ذلك.

الدرجة (الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة) الصورة (أو شريفة، كالذي يُظهِر الحزنَ والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتُبذَل له الأموال وترغب في نكاحه النساءُ، فيقصد إما امرأة بعينها

---

(١) في الزبيدي وط المنهاج لفظ الجلالة من كلام الغزالي، والمثبت من م الإمام وط الشعب ١٠/ ١٨٧٧.

لينكحها أو امرأة شريفة) في قومها (علىٰ الجملة، وكذلك يرغب في أن يتزوج بنت عالِم عابد فيُظهِر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور؛ لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه).

الدرجة (الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يُظهِر عبادتَه خيفةً من أن يُنظَر إليه بعين النقص ولا يُعَدُّ من الخاصة والعُبَّاد) وفي نسخة بدله: والزهاد (ويُعتقَد أنه من جملة العامة) ومن آحاد الناس (كالذي يمشي) في طريق (مستعجلاً فيطَّلع عليه الناس فيُحسِن المشيَ) بهيئته (ويترك العجلة) والإسراع (كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار) والخشوع (وكذلك إن سبق إلىٰ الضحك أو بدر منه المزاحُ فيخاف أن يُنظَر إليه بعين الاحتقار فيُتبِع ذلك بالاستغفار) والحوقلة (وتنفُّس الصعداء وإظهار الحزن) وتغيُّر اللون (ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه! والله تعالىٰ يعلم منه أنه لو كان في خلوة لَما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن يُنظَر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير) والتعظيم (وكالذي يرىٰ جماعة يصلون التراويح أو يتهجَّدون أو يصومون الاثنين والخميس أو يتصدقون فيوافقهم) في فعلهم (خيفةً أن يُنسَب إلىٰ الكسل ويُلحَق بالعوامِّ، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئًا من ذلك. وكالذي يعطش في يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحُرُم فلا يشرب خوفًا من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجلهم، أو يُدعَىٰ إلىٰ الطعام فيمتنع) من الأكل (ليُظَن أنه صائم، وقد لا يصرِّح بأنه صائم ولكن يقول: لي عذر. وهو جمعٌ بين خبيثين، فإنه يرائي أنه صائم، ثم يرائي أنه مخلص ليس بمُراءٍ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيًا، فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته. ثم) إنه (إن اضطرَّ إلىٰ شرب) ماء (لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرًا تصريحًا أو تعريضًا بأن يتعلَّل بمرض اقتضَىٰ فرط العطش) ولو لم يشرب لتضرَّر (ويمتنع) لأجل ذلك (عن الصوم،

أو يقول: أفطرتُ تطييبًا لقلب فلان) ويسمِّيه **(ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كيلا يُظَن به أنه يعتذر رياءً، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية)** يسوقها **(عَرَضًا، مثل أن يقول: إن فلانًا)** ويسمِّيه باسمه **(محب للإخوان، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألحَّ عليَّ اليوم، ولم أجد بُدًّا من تطييب قلبه)** فوافقتُه **(ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب، مشفقة عليَّ، تظن أني لو صمتُ يومًا مرضتُ، فلا تَدَعُني أن أصوم)** رعايةً لخاطرها **(فهذا وما يجري مَجراه من علامات الرياء، ولا يسبق إلىٰ اللسان إلا لرسوخ عِرق الرياء في الباطن)** وتمكُّنه منه **(أما المخلص فلا يبالي كيف نظر الخلق إليه، فإن لم تكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسًا. وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيرَه، وقد يخطر له)** بباله **(أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه، وفيه مكيدة وغرور، وسيأتي شرح ذلك وشروطه)** في الفصل الذي بعده.

(فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفَىٰ من دبيب النمل، كما ورد به الخبر) قال العراقي[1]: رواه أحمد والطبراني من حديث أبي موسىٰ الأشعري: «اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفَىٰ من دبيب النمل». ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وضعَّفه هو والدارقطني.

قلت: حديث أبي موسىٰ أخرجه أيضًا ابن أبي شيبة في المصنَّف، ولفظه: خطبنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا أيها الناس، اتقوا [هذا] الشرك فإنه أخفىٰ من دبيب النمل». فقالوا: كيف نتَّقيه وهو أخفَىٰ من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنَّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لِما لا نعلمه». ورواه كذلك أحمد والطبراني.

---

(١) المغني ٢/ ٩٣٢.

وأما حديث أبي بكر فلفظه: «الشرك فيكم أخفَىٰ من دبيب النمل، وسأدلُّك علىٰ شيء إذا فعلتَه أذهبَ عنك صغارَ الشرك وكباره، تقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِما لا أعلم. تقولها ثلاث مرات كل يوم». هكذا رواه هناد في الزهد والحكيم في النوادر وأبو يعلىٰ وابن المنذر وابن السني في عمل يوم وليلة، وهو حديث حسن.

وروىٰ الحكيم من حديث ابن عباس: «الشرك في أمَّتي أخفَىٰ من دبيب النمل علىٰ الصفا». وهو في الحلية بلفظ: «من دبيب الذَّر»[1].

(يزلُّ فيه فحول العلماء) العارفين **(فضلاً عن العُبَّاد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب)** المستكنة. والله الموفِّق.

(١) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب قواعد العقائد، وفي كتاب ذم البخل وحب المال، وفي أول كتاب ذم الجاه والرياء.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفَى من دبيب النمل

(اعلمْ) هداكَ الله تعالىٰ (أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث علىٰ العمل) وينشِّط عليه (ويحمل عليه) أولاً لقصد المَحمدة (دون قصدِ الثواب) والأجر (وهو أجلاه، وأخفَىٰ منه قليلاً وهو ما لا يحمل علىٰ العمل بمجرَّده، إلا أنه يخفِّف العملَ الذي يريد به وجه الله تعالىٰ، كالذي يعتاد التهجُّدَ كل ليلة ويثقل عليه، فإذا دخل عليه الضِّيفان) وفي نسخة: فإذا نزل عليه ضيفٌ (نشط له) وفي نسخة: تنشَّطَ له (وخفَّ عليه، وعلم أنه لولا رجاء ثواب الله لكان لا يصلي لمجرد الرياء للضيفان. وأخفىٰ من ذلك ما لا يؤثِّر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضًا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب) أي مستقر في باطنه (ومهما لم يؤثِّر في الدعاء إلىٰ العمل لم يمكن أن يُعرَف إلا بالعلامات) الدالَّة عليه (وأجلىٰ علاماته أن يُسَرَّ) أي يفرح (باطِّلاع الناس علىٰ طاعته، فرُب عبدٍ يخلص في عمله ولا يعتقد الرياءَ بل يكرهه ويردُّه ويتمِّم العملَ كذلك ولكن إذا اطَّلع عليه الناس سرَّه ذلك وارتاح له) وانبسط (وروَّح ذلك عن قلبه شدةَ العبادة) وخفَّف عنه ثقلَها (وهذا السرور يدل علىٰ رياء خفي منه يترشَّح السرورُ، ولولا التفات القلب إلىٰ الناس لَما ظهر سروره عند اطِّلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكنًّا في القلب استكنان النار في) قلب (الحجر) الصلد (فأظهر منه اطِّلاعُ الخلق أثرَ الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطِّلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتًا وغذاء للعِرق الخفي) المدسوس (من الرياء حتىٰ يتحرك علىٰ نفسه حركة خفيَّة فيتقاضَىٰ) أي يطلب (تقاضيًا) [أي] طلبًا (خفيًّا، أي يتكلَّف سببًا يُطَّلَع عليه بالتعريض) والتلويح (وإلقاء الكلام عَرَضًا، وإن كان لا يدعو إلىٰ التصريح، وقد يخفىٰ فلا يدعو إلىٰ

الإظهار بالنطق) باللسان (لا تعريضًا ولا تصريحًا[١]، ولكن بالشمائل) الدالَّة عليه (كإظهار النحول) أي السقم (والاصفرار، وخفض الصوت، ويبس الشفتين، وجفاف الريق، وغلبة النعاس الدالِّ علىٰ طول التهجُّد، وآثار الدموع) في العينين.

(وأخفىٰ من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطِّلاع ولا يُسَرُّ) أي لا يفرح (بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأىٰ الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام) عليه والمصافحة (وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه) ويمدحوه (وأن ينشطوا) أي يخفُّوا (في قضاء حوائجه) مهما كانت (وأن يسامحوه في البيع والشراء) ما لا يسامَح غيرهم (وأن يوسعوا له في المكان) مهما قَدِم عليهم (فإن قصَّر فيه مقصِّرٌ ثقلَ ذلك علىٰ قلبه، ووجد لذلك استبعادًا في نفسه كأنَّ نفسه تتقاضَىٰ الاحترامَ علىٰ الطاعة التي أخفاها) عن الناس (مع أنه لم يُطَّلَع عليه، ولو لم يكن قد سبقت منه تلك الطاعةُ لَما كان يستبعد تقصيرَ الناس في حقه) فيما ذكر (ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله) تعالىٰ وحده (ولم يكن خاليًا عن شوب خفيٍّ من الرياء أخفىٰ من دبيب النمل) علىٰ الصفا (فكل ذلك يوشك أن يحبط الأجرَ، ولا يَسلم منه إلا الصدِّيقون) ولذلك قال ﷺ لحضرة الصدِّيق رضي الله عنه: «ألا أعلِّمك شيئًا إذا قلتَه أذهبَ عنك صغار الشرك وكباره»، في خبر تقدم ذِكرُه قريبًا (وقد رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن الله عز وجل يقول للقرَّاء) أي العلماء (يوم القيامة: ألم يكن يرخَّص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تُبتَدؤن بالسلام؟ ألم تكونوا تُقضَىٰ لكم الحوائج؟

وفي الحديث الآخَر: لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم)[٢] أغفله العراقي. وروىٰ البيهقي[٣] من حديث أبي هريرة: «يقول الله تعالىٰ لعبده يوم القيامة: يا ابن

---

(١) حرف «لا» ليس إلا في الزبيدي.

(٢) هو والذي قبله أوردهما الحارث المحاسبي في الرعاية صـ١٦٨ ط المعارف ت عبد الحليم محمود.

(٣) شعب الإيمان ٦/ ٣٣٦.

آدم، ألم أحملك علىٰ الخيل والإبل وأزوِّجك النساء وأجعلك تربع وترأس؟ فيقول: بلىٰ أيْ رب. فيقول: أين شكر ذلك»؟

وروىٰ[١] أيضًا وكذا أبو الشيخ من حديث عبد الله بن سلام: «يقول الله للعبد يوم القيامة: ألم تَدْعُني لمرض كذا وكذا فعافيتك؟ ألم تَدْعُني أن أزوِّجك كريمة قومها فزوَّجتك؟ ألم ألم».

(**وقال عبد الله بن المبارك**) رحمه الله تعالىٰ في كتاب الزهد والرقائق[٢]: (**رُوي عن وهب بن منبه**) اليماني رحمه الله تعالىٰ، تقدمت ترجمته في كتاب العلم (**أنه قال: إن رجلاً من السيَّاح قال لأصحابه: إنَّا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر ممَّا دخل علىٰ أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لُقيَ أحب أن يعظَّم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تُقضَىٰ له لمكان دينه، وإن اشترىٰ أحب أن يرخَّص عليه لمكان دينه. فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا؟ فقيل: هذا الملك قد أظلَّك. فقال للغلام: ائتني بطعام. فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفًا، فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هذا. قال: كيف أنت؟ قال: كالناس. وفي حديث آخر: بخير. فقال الملك: ما عند هذا من خير. فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذامٌّ**)[٣] هكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية[٤] من طريق ابن المبارك فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا حسين بن الحسن المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا بكَّار بن عبد الله أنه

---

(١) السابق ٦/ ٣٣٧.

(٢) الزهد والرقائق ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) الرعاية للحارث ص١٦٨.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ٤٨.

سمع وهب بن منبه يقول: كان رجل من أفضل أهل زمانه، وكان يُزار فيعظهم، فاجتمعوا إليه ذات يوم، فقال: إنَّا قد خرجنا من الدنيا وفارقنا الأهلَ [والأولاد والأوطان] والأموال مخافة الطغيان، وقد خِفتُ أن يكون قد دخل علينا في حالنا هذه من الطغيان أكثر ممَّا يدخل علىٰ أهل الأموال في أموالهم، أرانا يحب أحدنا أن تُقضَىٰ له حاجته، وإن اشترىٰ بيعًا أن يقارَب لمكان دينه، وإن لُقيَ وُقِّرَ لمكان دينه. فشاع ذلك الكلامُ حتىٰ بلغ الملكَ، فعجب به الملك فركب إليه ليسلِّم عليه وينظر إليه، فلما رآه الرجل قيل له: هذا الملك قد أتاك ليسلِّم عليك. فقال: وما يصنع بي؟ قيل: للكلام الذي وعظتَ به. فسأل ردءه: هل عندك من طعام؟ فقال: شيء من ثمر الشجر ممَّا كنت تفطر به. فأمر به فأُتي علىٰ مسح فوُضع بين يديه، فأخذ يأكل منه، وكان يصوم النهار لا يفطر، فوقف عليه الملك فسلَّم عليه، فأجابه بإجابة خفية، وأقبل علىٰ طعامه يأكله. فقال الملك: فأين الرجل؟ قيل له: هو هذا. قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم. قال: ما عند هذا من خير. فأدبر، فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به.

وقد رواه أيضًا من طريقه بلفظ آخر فقال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا علىٰ بن إسحاق، حدثنا حسين المروزي، حدثنا ابن المبارك، حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب أنه سمع وهب بن منبه يقول: إن الملك سمع باجتهاده، فقال: لآتينَّه يوم كذا وكذا ولأسلِّمن عليه. فأسرعت البشرىٰ إلىٰ هذا الراهب، فلما كان ذلك اليوم وظن أنه يأتيه خرج إلىٰ مضحَىٰ له قُدَّام مصلاَّه، وخرج بمنسف فيه بقل وزيت وحمص، فوضعه قريبًا منه، فلما أشرف إذا هو بالملك مقبل ومعه سواد من الناس قد أحاطوا به، فأوضعوا قريبًا منه، فلا يُرَىٰ سهل ولا جبل إلا وقد مُلئ من الناس، فجعل الراهب يجمع من تلك البقول والطعام ويعظم اللقمة ويغمسها في الزيت فيأكل أكلاً عنيفًا، وهو واضع رأسه لا ينظر إلىٰ مَن أتاه، فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هو هذا. قال الملك: كيف أنت يا فلان؟ فقال الراهب وهو يأكل

ذلك الأكل: كالناس. فردَّ الملك عنان دابّته وقال: ما في هذا من خير. فلما ذهب قال الراهب: الحمد لله الذي أذهبه عني وهو لي لائم.

(**فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، يحرصون علىٰ إخفائها**) وكتمِها مهما أمكن (**أعظم ممَّا يحرص الناس علىٰ إخفاء فواحشهم**) عن الناس (**كل ذلك رجاءَ أن يخلص عملُهم الصالح فيجازيهم الله يوم القيامة بإخلاصهم علىٰ ملأ من الخلق؛ إذ علموا أن الله لا يقبل يوم القيامة إلا الخالص**) فقد روىٰ النسائي[١] والطبراني[٢] من حديث أبي أمامة: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه». وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق[٣] من حديث الضحَّاك بن قيس الفِهري: «يا أيها الناس، أخلِصوا أعمالكم لله، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلصَ له» (**وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة، وأنه**) يوم عظيم، كما قال الله تعالىٰ: (﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] خالص من شوائب الرياء (و﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: ٣٣] **ويشتغل الصدِّيقون**) والصالحون (**بأنفسهم، فيقول كل واحد: نفسي نفسي، فضلًا عن غيرهم**) ممَّن لم يدانوا مقاماتهم (**فكانوا**) في سلوكهم (**كزوَّار بيت الله**) الحرام (**إذا توجَّهوا إلىٰ مكة**) شرَّفها الله تعالىٰ (**فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهبَ المصري**[٤] **الخالص**) عن الغش والخلط (**لعلمهم بأن أرباب**

---

(١) سنن النسائي ص ٤٨٤.

(٢) المعجم الكبير ٨/ ١٦٥. مسند البزار كما في كشف ٤/ ٢١٧، وهو في معجم الصحابة للبغوي ٣/ ٢٠٢، وسنن الدارقطني ١/ ٧٧، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٢١: رواه البزار وابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) المتفق والمفترق ٢/ ١٢٢٨.

(٤) كذا في الزبيدي، وفي ط الشعب والمنهاج ٦/ ٣٦٥: المغربي. وفي م الإمام: المعدني. والله أعلم.

البوادي) وهم العربان (لا يروج عندهم الزيفُ والنَّبهرج) وهو الرديء المغشوش[١] (والحاجة تشتد في البادية ولا وطن) هناك (يُفزَع إليه) في تغيير الذهب (ولا حميم يُتمسَّك به) في المعاونة (فلا ينجي إلا الخالص من النقد) ولا يقضي الحاجةَ إلا هو (فهكذا يشاهَد أرباب القلوب يوم القيامة) والسفر إليه كالسفر إلىٰ مكة (والزاد الذي يتزوَّدونه له من التقوىٰ) وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧] (فإذًا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقةً بين أن يطَّلع علىٰ عبادته إنسانٌ أو بهيمة ففيه شُعبة من الرياء، فإنه لمَّا قطع طمعه عن البهائم لم يبالِ حضرته البهائمُ أم الصبيان الرُّضَّع أو غابوا) وسواء (اطَّلعوا علىٰ حركته أو لم يطَّلعوا، فلو كان مخلصًا قانعًا بعلم الله لاستحقر عقلاءَ العِباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له علىٰ رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا تقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك) أي إدراك التفرقة من نفسه (ففيه شوب رياء خفيٍّ، ولكن ليس كل شوب محبطًا للأجر مفسدًا للعمل، بل فيه تفصيل) سيأتي ذِكرُه في الفصل الذي يليه.

(فإن قلتَ: فما يُرَىٰ أحد ينفكُّ عن السرور إذا عُرف بطاعته، فالسرور مذموم كله، أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول أولاً: كل سرور فليس بمذموم) كله (بل السرور منقسم إلىٰ محمود وإلىٰ مذموم، فأما المحمود فأربعة أقسام:

الأول: أن يكون قصدُه إخفاء الطاعات والإخلاص لله تعالىٰ) فيها (ولكن لما اطَّلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم) عليه (وأظهر الجميلَ من أحواله، فيستدل به علىٰ حُسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية، ثم الله يستر عليه المعصية ويُظهِر الطاعة، فلا لطف أعظم من ستر القبيح) عليه (وإظهار الجميل) وقد ورد في بعض الأدعية: يا مَن أظهر الجميلَ، وستر القبيح، ولم يؤاخِذ

(١) انظر: التاج ٥/ ٤٣٢، ٤٣٣.

بالجريرة. وقد تقدم في الدعوات[1] **(فيكون فرحه بجميل نظر الله له)** وحسن عنايته به ورعايته له **(لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾** [يونس: ٥٨] **فكأنَّه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به)** ولكن ليس لكل أحد لم يختبر نفسه وعلمَ دسائسها أن يقول إنه مقبول عند الله، ففيه خطر عظيم زلَّت بسببه أقدامُ خلق كثير.

(الثاني: أن يستدل بإظهار الله تعالىٰ الجميلَ وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة؛ إذ قال رسول الله ﷺ: ما ستر الله علىٰ عبدٍ ذنبًا) من ذنوبه **(في الدنيا)** بأن لم يفضحه به **(إلا ستره عليه في الآخرة)** فلا يفضحه به علىٰ رؤوس الأشهاد. قال العراقي[2]: رواه مسلم[3] من حديث أبي هريرة.

قلت: ورواه ابن النجار[4] عن علقمة المزني عن أبيه واسمه عبد الله بن سنان المزني، له صحبة. وعلقمة هذا أخو بكر المزني في قول البخاري[5]، وخالفه غيره[6].

وروىٰ الطبراني[7] والخطيب[8] من حديث أبي موسىٰ: «ما ستر الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ عبد في الدنيا فيعيِّره به يوم القيامة».

(فيكون الأول فرحًا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات إلىٰ المستقبل) وقد يجتمعان معًا في مؤمن فيكون سببًا لمزيد فرحه، ولكن

---

(١) بل في كتاب آداب الصحبة [الحق الثالث من حقوق المسلم].

(٢) المغني ٢/ ٩٣٣.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢٠٢.

(٤) وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ٢٤٤.

(٥) التاريخ الكبير ٧/ ٤١.

(٦) قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٩٢: فيه من لم أعرفهم. ونحوه عن الحاكم من حديث عائشة ﵂ ١/ ١٩.

(٧) المعجم الصغير ١/ ١٣٠.

(٨) تاريخ بغداد ٦/ ١٣٩.

بشرط أنه إذا صدر منه القبيح فرطًا من غير تصميم العزم عليه ثم ستره الله تعالىٰ عليه ندم وأحسن توبتَه، فهذا الذي يُرجَىٰ له الستر في الآخرة، وأما مَن ستر الله عليه ذلك وهو مصمِّم علىٰ الوقوع فيه أو العود إليه فليس له في الآخرة نصيب، وربما يفضحه الله في جوف بيته، فليحذر السالك من ذلك.

(الثالث: أن يظن رغبة المطَّلعين علىٰ الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرًا وأجر السرور بما قصده أولاً، ومَن اقتُدي به في طاعة فله مثل أجر عمل المقتدينَ به من غير أن ينقُص من أجورهم شيءٌ) ويشهد لذلك ما رواه أحمد[١] من حديث أبي هريرة: «مَن سنَّ خيرًا فاستُنَّ به كان له أجره كاملاً ومن أجور مَن استَنَّ به، ولا ينقُص من أجورهم شيئًا ...» الحديث. ورواه السِّجْزي في الإبانة بلفظ: «مَن سَنَّ سُنَّة هدًىٰ فاتُّبع عليها كان له أجرها وأجرُ مَن عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ...» الحديث[٢]. وروىٰ مسلم[٣] والترمذي[٤] وابن ماجه[٥] من حديث جرير: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَن عملَ بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ...» الحديث **(وتوقُّع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجِب للسرور لا محالة.**

الرابع: أن يحمده المطَّلعون علىٰ طاعته، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم، وبحبهم للمطيع، وبميل قلوبهم إلىٰ الطاعة) ويغتنم ذلك منهم، ويسرُّه ذلك **(إذ)** كم **(من أهل الإيمان مَن يرىٰ أهل الطاعة فيمقته)** بقلبه **(أو يحسده)** علىٰ ما أوتيه

---

(١) مسند أحمد ١٦/ ٤٣٧.

(٢) كنز العمال ١٥/ ٧٨٩.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٤٥٢، ٢/ ١٢٣٤.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٤٠٧.

(٥) سنن ابن ماجه ١/ ١٩٩.

(أو يذمه) تبرُّعًا **(ويهزأ به)** ويسبُّه في المجالس **(أو ينسبه إلىٰ الرياء ولا يحمده عليه. فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله)** ولكن للشيطان في هذا الاسم تغريرات وتلبيسات، لذلك قلَّما يوجد معه الإخلاص **(وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه)** ومهما رأىٰ نفسه تستثقل حمدهم غيره في مجلسه فاعلمْ أنه لا إخلاص حينئذٍ.

(وأما المذموم - وهو الخامس - فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتىٰ يمدحوه ويعظِّموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويعاملوه بالإكرام في مصادره) حين يصدر **(وموارده)** حين يَرِدُ **(فهذا مكروه)** مذموم.

بيان ما يحبط العملَ من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه

(فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة علىٰ الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون ورد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل فراغه) منه (فإن ورد) عليه (بعد الفراغ سرورٌ مجردٌ بالظهور من غير إظهار) منه (فهذا لا يحبط العمل؛ إذ العمل قد تمَّ علىٰ نعت الإخلاص سالمًا عن) شوب (الرياء، فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثرُه) هكذا ذهب إليه جماعة من العارفين (لا سيَّما إذا لم يتكلَّف هو إظهاره والتحدُّث به) للناس (ولم يتمَنَّ إظهارَه وذِكره) بين الناس (ولكنه اتفق ظهوره بإظهار الله إياه، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح علىٰ قلبه. نعم، لو تم العمل علىٰ الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدَّث به وأظهره فهذا مخوف، وفي الأخبار والآثار) بظواهرها (ما يدل علىٰ أنه محبط) لذلك العمل (فقد رُوي عن ابن مسعود) رضي الله عنه (أنه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة سورة البقرة. قال: ذلك حظك منها[1].

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمتُ الدهر يا رسول الله. فقال له: ما صمتَ ولا أفطرت)[2] قال العراقي[3]: روىٰ مسلم[4] من حديث أبي قتادة: قال عمر: يا رسول الله، كيف بمَن يصوم الدهر؟ قال: «لا صام ولا أفطر». وللطبراني[5] من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه: فقال رجل: إني صائم.

---

(١) الرعاية صـ١٦٧.

(٢) السابق.

(٣) المغني ٢/ ٩٣٣.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥١٨ - ٥١٩.

(٥) المعجم الكبير ٢٤/ ١٧٩.

قال بعض القوم: إنه لا يفطر، إنه يصوم كل يوم. قال النبي ﷺ: «لا صام ولا أفطر مَن صام الدهر[١]». ولم أجده بلفظ الخطاب.

قلت: بل رواه ابن وهب في مسنده[٢] عن سليمان بن بلال، عن موسىٰ بن عبيدة، عن عمران بن أبي أنس، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما أفطرتُ منذ أربع سنين. فقال: «ما صمت ولا أفطرت». وكذلك رواه ابن المبارك في الزهد[٣]، وفي إسناده إرسال وضعف.

(**فقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه أظهره**) وهكذا رُوي عن موسىٰ بن عبيدة أحد رُواة هذا الحديث قال: وذلك لأنه حدَّث به فيما نرىٰ. كذا في مسند ابن وهب. وعند ابن المبارك: قال أبو سلمة: لأنه تحدَّث به (**وقيل: هو إشارة إلىٰ كراهية صوم الدهر[٤]. وكيفما كان، فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ**) في هذا القول (**ومن ابن مسعود**) رضي الله عنه في قوله السابق (**استدلالاً علىٰ أن قلبه عند العبادة لم يَخْلُ عن الرياء وقصدِه له؛ لِما أن ظهر منه التحدُّث به؛ إذ يبعُد أن يكون ما يطرأ علىٰ العمل مبطلاً لثواب العمل، فالأقيس**) من القولين (**أن يقال: إنه يُثاب علىٰ عمله الذي قد مضىٰ، ومعاتَب علىٰ مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغيَّر عقدُه إلىٰ الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإنَّ ذلك قد يُبطِل الصلاةَ ويحبط العمل، وأما إذا ورد واردُ الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد علىٰ الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثِّر في العمل، وإما أن يكون رياء باعثًا علىٰ العمل، فإن كان باعثًا علىٰ العمل وختم العبادة به حبط أجرُه**) لأنه قد تخلَّل عقدٌ ما أثَّر فيه، فهو أحرىٰ أن يوصَف بالانحلال (**ومثاله**

---

(١) في المغني والمعجم الكبير: الأبد.

(٢) الجامع لابن وهب ص ١٩١ (ط - دار الوفاء بالمنصورة).

(٣) الزهد والرقائق ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) كلام صاحب الرعاية.

أن يكون في تطوع فتجدَّدت له نَظَّارة)[١] بالتشديد: كلمة يستعملها العجم بمعنىٰ التنزُّه في الرياض والبساتين. كذا في المصباح[٢] **(أو حضر ملك من الملوك)** بموكبه وحشمه **(وهو يشتهي أن ينظر إليه)** أو إلىٰ موكبه **(أو تذكَّر شيئًا نسيه من ماله)** في موضع أو عند أحد **(وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمَّها خوفًا من مَذَمَّة الناس فقد حبط أجرُه وعليه الإعادة إن كان في فريضة، وقد قال** ﷺ**: العمل كالوعاء، إذا طاب آخرُه طاب أوله)** قال العراقي[٣]: رواه ابن ماجه[٤] من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ: «إذا طاب أسفله طاب أعلاه»، وقد تقدم[٥].

قلت: ولفظه: «إنما الأعمال كالوعاء، إذا طاب أسفله طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه». وهكذا رواه أحمد[٦] أيضًا، وعند ابن المبارك في الزهد[٧] بلفظ: «إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبثَ أعلاه خبث أسفله». ورواه أبو نعيم في الحلية[٨]. وقد تقدم الكلام عليه.

(أي النظر إلىٰ خاتمته.

ورُوي) أيضًا **(أنه: مَن راءىٰ بعمله ساعةً حبط عملُه الذي كان قبله)**[٩] قال

---

(١) أي قوم ينظرون إليه. وانظر اللسان مادة (نظر) والتاج ١٤/ ٢٥٢.

(٢) المصباح المنير ص ٦١٢.

(٣) المغني ٢/ ٩٣٣.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٠١، ٦١٠.

(٥) في كتاب ذم الدنيا.

(٦) مسند أحمد ٢٨/ ٦٦.

(٧) الزهد والرقائق ص ١٩٩.

(٨) حلية الأولياء ٥/ ١٦٢.

(٩) روىٰ عن عبد الله بن أبي زكريا كما عند ابي شيبة ١٣/ ٥٢٥، وأبي نعيم في الحلية ٥/ ١٥٠، والشجري في الإماني ٢/ ٣٠٦ ط العلمية.

العراقي[١]: لم أجده بهذا اللفظ.

قلت: روى الطبراني[٢] وأبو الشيخ وابن عساكر[٣] من حديث أبي هند الداري: «مَن راءى بالله لغير الله فقد برئَ من الله».

(وهو منزَّل على الصلاة في هذه الصورة، لا على الصدقة ولا على القراءة، فإن كل جزء من ذلك) وفي نسخة: منها **(منفرد)** بذاته **(فما يطرأ)** بعدُ **(يُفسِد الباقي دون الماضي، والصوم والحج من قبيل الصلاة)** لاتصال العمل فيهما كالصلاة **(فأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاستتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء صلاته ففرح بحضورهم)** باطنًا **(واعتقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم)** إليه **(وكان لولا حضورهم لكان يتمُّها أيضًا، فهذا رياء قد أثَّر في العمل وانتهض باعثًا على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساسُ بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورًا)** قد غمره قصدُ الرياء **(فهذا أيضًا ينبغي أن يفسد العبادةَ مهما مضى ركنٌ من أركانها على هذا الوجه؛ لأنَّا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بها بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها)** وقد طرأ عليها ما يغمرها ففات الشرطُ **(ويحتمل أن يقال: لا تفسد العبادةُ نظرًا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعُف بهجوم قصدٍ هو أغلب منه)** وبعض الفقهاء قد قوَّى هذا الاحتمالَ، وبه كان يفتي شيخنا الفقيه الشريف أبو الحسن المقدسي رحمه الله تعالى **(ولقد ذهب)** الإمام العارف **(الحارث)** بن أسد **(المحاسبي)** رحمه الله تعالى في كتابه الرعاية[٤] **(إلى الإحباط في أمر هو أهون من ذلك فقال: إذا لم يُرِدْ إلا مجرد السرور باطِّلاع الناس يعني)** به **(سرورًا هو كحب**

---

(١) المغني ٢/ ٩٣٣.

(٢) المعجم الكبير ٢٢/ ٣٢٠.

(٣) تاريخ دمشق ٢١/ ٥٩ - ٦٠.

(٤) الرعاية ١٨٣-١٨٥ ط المعارف.

المنزلة والجاه قال: قد اختلف الناس في هذا، فصارت فرقة إلىٰ أنه يحبط؛ لأنه قد نقض العزم الأول، وركن إلىٰ حمد المخلوقين، ولم يختم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العملُ بخاتمته) كما دلَّ عليه الخبر: «إنما الأعمال بالخواتيم» **(ثم قال: ولا أقطع عليه بالإحباط وإن لم يتزيَّد في العمل، ولا آمَنُ عليه، وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس، والأغلب علىٰ قلبي أنه يحبط إذا ختم عليه بالرياء. ثم قال: فإن قيل: قد قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ: **(إنهما حالتان)** وفي نسخة: صورتان **(فإذا كانت الأولىٰ لله لم تضرَّه الثانية**[1]. **وقد رُوي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني أُسِرُّ العملَ)** أي أخفيه **(لا أحب أن يُطلَع عليه فيُطَّلَع عليه فيسرُّني. قال: لك أجران: أجر السر وأجر العلانية)** قال العراقي[2]: رواه البيهقي في الشعب[3] من رواية ذكوان عن أبي مسعود. ورواه الترمذي[4] وابن حبان[5] من رواية ذكوان عن أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيُسِرُّه، فإذا اطُّلِعَ عليه أعجبه. قال: «له أجر السر وأجر العلانية». قال الترمذي: غريب. وقال: إنه رُوي عن أبي صالح – وهو ذكوان – مرسلاً.

قلت: وقد رُوي في أفراد مسلم[6] من حديث أبي ذر قال: قيل: يا رسول الله، أرأيتَ الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه. فقال: «تلك عاجل بشرىٰ المؤمن».

---

(١) نقل أبو طالب المكي في قوت القلوب ٣/ ١٣٥٩ عن الحسن البصري أنه قال: ابن آدم لا يهم بخير إلا ثار في قلبه منه نوران، فإن كانت الأولىٰ لله عز وجل فلا تضره الآخرة. قال أبو طالب: يعني إن كان عنده الإخلاص في الخير في الهَمة الأولىٰ فلا تضره الوسوسة التي تخالجه بعد ذلك فإنها ضعيفة لا تحل قوة العقد، ولا تحل محكم مبرمه.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٤.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ٢٣٩.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ١٩٢.

(٥) صحيح ابن حبان ٢/ ٩٩.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٠.

(ثم تكلم علىٰ الأثر) المرويِّ عن الحسن **(والخبر)** المذكور **(فقال: أما الحسن)** البصري **(فإنه أراد بقوله «لا تضره» أي لا يَدَع العمل)** أي لا يتركه **(ولا تضرُّه الخطرةُ وهو يريد الله عَزَّوَجَلَّ)** فجعل الحالة الطارئة بمنزلة الخطرة **(ولم يقل: إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضرَّه. وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلىٰ ثلاثة أوجه:**

أحدها: أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ، وليس في الحديث أنه قبل الفراغ) أي يُخبَر باطِّلاعهم علىٰ عمله بعد أن فرغ منه فيفرح به، وهو ظاهر، فالعمل علىٰ هذا باقٍ علىٰ عقد الإخلاص لم يتخلَّله شيءٌ.

(والثاني: أنه أراد أنه يُسَرُّ به لاقتداء الناس به أو لسرور آخر محمود ممَّا ذكرناه قبلُ لا سرورًا بسبب حب المنزلة والمحمدة، بدليل أنه جعل له به أجرين، ولا ذاهب من) علماء **(الأمَّة إلىٰ أن المسرور بالمحمدة له أجر، وغايته أن يُعفَىٰ عنه)** ويسامَح له **(فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران.**

والثالث: أنه قال: أكثر مَن يروي الحديث يرويه غير متصل إلىٰ أبي هريرة، بل أكثرهم أوقفه علىٰ أبي صالح، ومنهم من يرفعه، فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء) في الأخبار المتقدمة **(أَولىٰ)** وأبو[1] صالح المذكور هو المعروف بالسَّمَّان والزَّيَّات، واسمه ذكوان، مولىٰ جويرية بنت الأحمَس الغَطَفاني، كان يجلب السمن والزيت إلىٰ الكوفة، وهو والد سُهَيل وصالح وعبد الله أبناء أبي صالح. سأل سعد بن أبي وقاص مسألة في الزكاة، وشهد الدارَ زمن عثمان، وروىٰ عن أبي هريرة. قال أحمد: ثقة، من أجلِّ الناس وأوثقهم. وقال ابن معين: ثقة. وزاد أبو زُرعة: صالح الحديث، محتجٌّ بحديثه. وقال أبو حاتم: ثقة، مستقيم الحديث[2].

---

(١) تهذيب الكمال للمزي ٨/ ٥١٣ - ٥١٧. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٤٥٠ - ٤٥١. الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٧/ ٢٩٦ - ٢٩٧، ٨/ ٣٤٦.

(٢) الذي في التهذيب والجرح والتعديل: «قال أبو حاتم: ثقة صالح الحديث، يحتج بحديثه. وقال أبو زرعة: ثقة، مستقيم الحديث».

وقال ابن سعد: ثقة، كثير الحديث. مات بالمدينة سنة إحدىٰ ومائة. روىٰ له الجماعة.

وأما قول المحاسبي: بل أكثرهم أوقفه ... الخ، أي فيكون مرسلاً، وقد أشار إليه الترمذي، والذي رواه مرفوعًا، فقيل: عن أبي هريرة، وهو عند الترمذي وابن حبان. وقيل: عن أبي مسعود، وهو عند البيهقي في الشعب، كما تقدم. والاستدلال بالعمومات مع وجود المرسَل هو مذهب الشافعي رضي الله عنه وجماعة؛ إذ المراسيل غير مقبولة عندهم في الاحتجاج، سوىٰ مراسيل ابن المسيب فإنها في حكم الرفع. ومذهب غيرهم العمل بها، فإذا وُجد خبر مرسل فإنه يقدَّم علىٰ العمومات.

(هذا ما ذكره) المحاسبي رحمه الله تعالىٰ **(ولم يقطع به، بل أظهر ميلاً إلىٰ الإحباط)** حيث قال: والأغلب علىٰ قلبي ... الخ

(والأقيس عندنا أن هذا القدْر إذا لم يظهر أثرُه في العمل بل بقي العمل صادرًا من باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطِّلاع فلا يفسد العملَ؛ لأنه لم ينعدم به أصلُ نيَّته، وبقيت تلك النية باعثة علىٰ العمل وحاملة علىٰ الإتمام، وأما الأخبار التي وردت في) ذم **(الرياء فهي محمولة علىٰ ما إذا لم يُرِدْ به إلا الخلق)** دون الخالق **(وأما ما ورد في الشركة)** في قوله: «أنا أغنىٰ الأغنياء عن الشرك، مَن أشرك في عمل فهو له» **(فهو محمول علىٰ ما إذا كان قصد الرياء مساويًا لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفًا بالإضافة إليه فلا يُحبَط بالكلية ثوابُ الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاةَ)** لضعف قصد الرياء في الكل.

(ولا يبعُد أيضًا أن يقال: إن الذي أُوجِبَ عليه صلاةٌ خالصة لوجه الله - والخالص ما لا يشوبه شيء - فلا يكون مؤدِّيًا للواجب مع هذا الشوب. والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص) فيما سيأتي **(كلامًا أوفَىٰ ممَّا أوردناه الآن)** هنا **(فليُرجَع إليه. فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ)** والله الموفِّق.

(القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة علىٰ قصد الرياء، فإن استمر عليه حتىٰ يسلِّم فلا خلاف في أنه يعصي)[١] الله عَزَّوَجَلَّ (ولا يُعتَدُّ بصلاته، فإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه، قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصده الرياء، فليستأنف) صلاته (وقالت فرقة) أخرىٰ: (تلزمه إعادةُ الأفعال كالركوع والسجود، وتفسد أفعالُه) كلُّها (دون تحريمة الصلاة؛ لأن تحريمه عقدٌ، والرياء خاطرٌ في قلبه لا يُخرِج التحريمَ عن كونه عقدًا. وقالت فرقة) أخرىٰ: (لا تلزمه إعادةُ شيء، بل يستغفر الله تعالىٰ بقلبه ويُتِم العبادةَ علىٰ الإخلاص، والنظر إلىٰ خاتمة العبادة) فإن صلحت صلُح أولها (كما لو بدأها بالإخلاص وختمها بالرياء لكان يفسد عملُه، وشبَّهوا ذلك بثوب أبيض لُطِّخ بنجاسة عارضة، فإذا أُزيلَ العارض عاد) الثوب (إلىٰ الأصل، فقالوا: إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله) عَزَّوَجَلَّ (ولو سجد لغير الله) تعالىٰ (لكان كافرًا، ولكن) قد (اقترن به عارضُ الرياء، ثم زال بالندم والتوبة) والاستغفار (وصار إلىٰ حالة لا يبالي بحمد الناس وذمِّهم، فتصح صلاته) فهذا اختلاف القول في المسألة (ومذهب الفريقين الأخيرين خارج عن قياس الفقه جدًّا خصوصًا مَن قال: تلزمه إعادةُ الركوع والسجود دون الافتتاح؛ لأن الركوع والسجود إن لم يصحَّ صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتبطل الصلاة. وكذلك قول مَن يقول: لو ختم بالإخلاص صح نظرًا إلىٰ الآخِر، فهو أيضًا ضعيف؛ لأن الرياء يقدح في النية، وأَولىٰ الأوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح، فالذي يستقيم علىٰ قياس) قانون (الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحُه، ولم يصحَّ ما بعده) لاتصاله بما قبله، فيسري وصفُ عدم الانعقاد (وذلك فيمَن إذا خلا بنفسه لم يصلِّ ولما رأىٰ الناس تحرَّمَ بالصلاة، وكان بحيث لو كان) علىٰ غير وضوء أو كان (ثوبه نجسًا أيضًا كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها؛ إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين،

---

(١) في ط الشعب والمنهاج: يقضي.

وههنا لا باعث ولا إجابة) فقد بطلت صلاته (فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضًا لكان يصلي، إلا أنه ظهرت له الرغبة في المَحمدة أيضًا، فاجتمع) فيه (الباعثان): باعث الثواب، وباعث المحمدة (فهذا إما أن يكون في صدقة أو قراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم وما ليس في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصىٰ بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب) قال الله تعالىٰ: (﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] فله) بمقتضىٰ هذه الآية (ثواب بقدْر قصده الصحيح، وعقاب بقدر عقده الفاسد، ولا يحبط أحدهما الآخَرَ، فإن كان في صلاة تقبل الفسادَ بتطرُّق خلل إلىٰ النية فلا يخلو إما أن تكون) تلك الصلاة (نفلًا أو فرضًا، فإن كانت نفلًا فحكمها أيضًا حكم الصدقة، فقد عصىٰ من وجه وأطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل، حتىٰ إن مَن يصلي التراويح وتبيَّنَ من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا) بنفسه (في البيت وحده لَما صلىٰ لا يصح الاقتداء به، فإن المصير إلىٰ هذا بعيد جدًّا، بل يُظَن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضًا بتطوُّعه، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاتُه، ويصح الاقتداء به وإن اقترن به قصدٌ آخر) يخالفه (وهو به عاصٍ) هذا حكم صلاة التطوع (فأما إذا كان في فرض فاجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقلُّ) بنفسه إذا انفرد (وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يُسقِط الواجبَ عنه؛ لأن الإيجاب لم ينتهض باعثًا في حقه بمجرده واستقلاله.

وإن كان كلٌّ باعثًا مستقلاً) بانفراده (حتىٰ لو لم يكن باعث الرياء لأدَّىٰ الفرض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاةَ تطوعٍ) وفي نسخة: صلاةَ تطوعًا (لأجل الرياء، فهذا محل النظر، وهو محتمل جدًّا، فيحتمل أن يقال: إن الواجب) علىٰ العبد (صلاة خالصة) عن شوب الرياء (لوجه الله تعالىٰ، ولم يؤدِّ الواجب الخالص. ويحتمل أن يقال: إن الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه، وقد

وُجد، فاقتران غيره به لا يمنع من سقوط الفرض عنه، كما لو صلىٰ في دار مغصوبة) علىٰ أهلها ظلمًا (فإنه وإن كان عاصيًا) من وجه وهو (بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع) من وجه وهو (بأصل الصلاة، وسقط الفرض عن نفسه، وتعارض الاحتمالُ في تعارُض البواعث في أصل الصلاة.

أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة) وذلك (مثل مَن بادر بالصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا) بنفسه (لأَخَّرَ إلىٰ وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاةً لأجل الرياء فهذا مما يُقطَع بصحة صلاته وسقوط الفرض به؛ لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيرُه بل من حيث تغيير الوقت، فهذا أبعد عن القدح في النية. هذا) الذي ذكرنا (في رياء يكون باعثًا علىٰ العمل وحاملاً عليه، فأما مجرد السرور باطِّلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثرُه إلىٰ حيث يؤثِّر في العمل) تأثيرًا بيِّنًا (فبعيد أن يفسد الصلاةَ. فهذا ما نراه لائقًا بقانون الفقه) العملي (والمسألة) من أصلها (غامضة) خفيَّة المَدرك (من حيث إن الفقهاء لم يتعرَّضوا لها في فن الفقه) غير نُتَف إشارات تكلموا عليها في مبحث النية (والذين خاضوا فيها وتصرَّفوا) مثل الحارث المحاسبي وصاحب القوت وغيرهما (لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضَىٰ فتاوىٰ الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص علىٰ تصفية القلوب) من الشوائب (وطلب الإخلاص علىٰ إفساد العبادات بأدنىٰ الخواطر) الطارئة (وما ذكرناه) من التفصيل (هو الأقصد) أي الأعدل (فيما نراه. والعلم عند الله تعالىٰ فيه، وهو عالِم الغيب والشهادة، وهو الرحمن الرحيم) والله الموفِّق.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

(قد عرفتَ ممَّا سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله، وأنه من كبار المهلكات، وما هذا وصفُه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة) والرياضة وتهذيب النفس (وتحمُّل المشاق) فيها (فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرَّة البشعة) الكريهة الطعم (وهذه مجاهدة يضطر إليها العِباد كلُّهم؛ إذ الصبي يُخلَق ضعيف العقل، و) فاقد (التمييز، ممتد العين إلىٰ الخلق، كثير الطمع فيهم، فيرىٰ الناسَ يتصنَّع بعضهم لبعض فيغلب عليه حبُّ التصنع بالضرورة، ويرسخ ذلك في نفسه) ويثبُت (وإنما يشعر بكون ذلك مهلكًا بعد كمال عقله) وقد ذُكر [ذلك] في كتاب رياضة النفس (وقد انغرس الرياء في قلبه وترسَّخ فيه، فلا يقدر علىٰ قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة) مديدة (لقوة الشهوات) لكونها تولَد معه (فلا ينفكُّ أحد عن هذه الحاجة إلىٰ هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولاً وتخفُّ آخرًا) كما هو شأن كل مجاهَدة (وفي علاجه مقامان، أحدهما: قطعُ عروقه وأصوله التي منها انشعابه) وتولُّده (والثاني: دفعُ ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قطع عروقه واستئصال أصوله) أي قلعها من أصلها (وأصله) المتفق عليه (حب المنزلة والجاه) في قلوب الناس (وإذا فُصِّل رجع إلىٰ ثلاثة أصول وهي: حب لذة المَحمدة، والفرار من ألم المَذَمَّة، والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روىٰ أبو موسىٰ) الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن أعرابيًّا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية. ومعناه أنه يأنف أن يُقهَر أو يُذَم بأنه مقهور مغلوب. والرجل يقاتل ليُرَىٰ مكانه) أي

من الشجاعة (وهذا هو طلب لذة الجاه والقدْر) والمنزلة (في القلوب. والرجل يقاتل للذِّكر. وهذا هو الحمد باللسان. فقال ﷺ: مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) رواه أحمد[1] والشيخان[2] والأربعة[3].

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: (إذا التقىٰ الصفَّان نزلت الملائكة فكتبوا الناس علىٰ مراتبهم: فلان يقاتل للذِّكر، وفلان يقاتل للمُلك[4]. والقتال للمُلك إشارة إلىٰ الطمع في الدنيا.

وقال عمر) رضي الله عنه: (يقولون فلان شهيد، ولعله يكون قد ملأ دفَّتَي راحلته ورِقًا)[5] بكسر الراء، أي فضة.

(وقال ﷺ: مَن غزا) وهو (لا يبغي) في غزواته (إلا عِقالاً) بالكسر: الحبل الذي يُربَط به البعير (فله ما نوىٰ) رواه أحمد[6] والدارمي[7] والنسائي[8] والروياني

---

(١) مسند أحمد ٣٢/ ٢٤٣، ٣١٤، ٣٦٨، ٤٠٤، ٥١٦ - ٥١٧.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٦١، ٢/ ٣٠٩، ٣٩٥، ٤/ ٣٩٦. صحيح مسلم ٢/ ٩١٩.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٢٢١. سنن الترمذي ٣/ ٢٨٢. سنن النسائي ص ٤٨٣. سنن ابن ماجه ٤/ ٣٢٨.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٨٢ عن مرة بن شراحيل قال: ذُكر عند عبد الله قوم قُتلوا في سبيل الله عز وجل، فقال: إنه ليس علىٰ ما تذهبون وترون، إنه إذا التقىٰ الرجفان نزلت الملائكة فكتبت الناس علىٰ منازلهم: فلان يقاتل للدنيا، وفلان يقاتل للملك، وفلان يقاتل للذكر، ونحو هذا، وفلان يقاتل يريد وجه الله، فمن قُتل يريد وجه الله فذلك في الجنة.

(٥) رواه النسائي في سننه ص ٥١٨، وابن حبان في صحيحه ١٠/ ٤٨١، وعبد الرزاق في مصنفه ٦/ ١٧٥، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٦/ ٥٣٩. ولفظ النسائي: «وأخرىٰ تقولونها لمن قتل في مغازيكم أو مات: قتل فلان شهيدا أو مات فلان شهيدا، ولعله أن يكون قد أوقر عجز دابته أو دف راحلته ذهبا أو ورقا يطلب التجارة، فلا تقولوا ذاكم، ولكن قولوا كما قال النبي ﷺ: من قُتل في سبيل الله أو مات فهو في الجنة».

(٦) مسند أحمد ٣٧/ ٣٦٥، ٣٩٨، ٤٥١.

(٧) سنن الدارمي ٢/ ٢٧٤.

(٨) سنن النسائي ص ٤٨٤.

وابن حبان[١] والطبراني والحاكم[٢] وصحَّحه والبيهقي[٣] والضياء[٤] من طريق يحيىٰ بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن عبادة بن الصامت، وقد تقدم.

وأخرج الحاكم[٥] من حديث يعلَىٰ ابن مُنْية قال: كان النبي ﷺ يبعثني في سراياه، فبعثني ذات يوم، وكان رجل يركب، فقلت له: ارحلْ. قال: ما أنا بخارج معك. قلت: لِمَ؟ قال: حتىٰ تجعل لي ثلاثة دنانير. قلت: الآن حين ودَّعت النبيَّ ﷺ؟! ما أنا براجع إليه، ارحل ولك ثلاثة دنانير. فلما رجعتُ من غزاتي ذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أعطِها إياه، فإنها حظه من غزاته».

(فهذا إشارة إلىٰ الطمع. وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم، كالبخيل بين الأسخياء) يراهم **(وهم يتصدَّقون بالمال الكثير، فإنه يتصدق بالقليل كي لا يُبخَّل، وهو ليس بطامع في الحمد وقد سبقه)** في الحمد **(غيرُه. وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفًا من الذم، وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره علىٰ صف القتال، ولكن إذا أيسَ من الحمد كره الذمَّ. وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة كيلا يُذَم بالكسل، وهو لا يطمع في الحمد. وقد يقدر الإنسان علىٰ الصبر عن لذَّة الحمد، ولا يقدر علىٰ الصبر علىٰ ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم ما هو محتاج إليه خيفةً من أن يُذَم بالجهل، ويفتي بغير علم، وقد يدَّعي العلم بالحديث وهو به جاهل)** لا يدري من فنونه شيئًا **(كل ذلك حذرًا من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المُرائي إلىٰ الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب علىٰ الجملة، ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء، وليس يخفَىٰ)** علىٰ البصير **(أن الإنسان إنما يقصد**

(١) صحيح ابن حبان ١٠/ ٤٩٥.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٣٢.

(٣) السنن الكبرىٰ ٦/ ٥٣٩.

(٤) الأحاديث المختارة ٨/ ٣٥٦ - ٣٥٨.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٣٢.

الشيء ويرغب فيه لظنِّه أنه خير له ونافع ولذيذ إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضارٌّ في المآل يسهل عليه قطعُ الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكنه إذا بان له أن فيه سمًّا) قاتلاً (أعرض عنه) وتركه (وكذلك طريق قطعِ هذه الرغبة أن يعلم ما فيها من المَضرَّة، ومهما عرف العبد مَضرَّة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يُحرَم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرَّض له من العقاب العظيم) عند الله (والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث ينادَىٰ علىٰ رؤوس العِباد) يوم القيامة (يا فاجر، يا غادر، يا مرائي) كما رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص من رواية جَبَلة اليحصبي عن رجل من الصحابة لم يُسَمَّ بزيادة «يا خاسر، يا كافر» بدون قوله «يا مرائي» وقد تقدم قريبًا (أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عَرَضِ الدنيا، وراقبت قلوب العباد، واستهزأت بطاعة الله تعالىٰ، وتحبَّبت إلىٰ العِباد بالتبغُّض إلىٰ الله، وتزيَّنت لهم بالشَّين عند الله، وتقرَّبت إليهم بالبعد عن الله، وتحمَّدت إليهم بالتذمُّم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرُّض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله)؟ كل ذلك من مخاطبة الرب لعبده (فمهما كان تفكُّرُ العبد في هذا الخزيٰ وقابَلَ ما يحصل له من العِباد و) من (التزيُّن لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يُحبَط عليه من ثواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجَّح به ميزانُ حسناته لو أخلص، فإذا أفسده بالرياء حُوِّل إلىٰ كفة السيئات فيرجح به ويهوَىٰ) أي يسقط (إلىٰ النار، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيًا في معرفة ضرره، وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علوَّ الرتبة عند الله في زُمرة النبيين والصدِّيقين، وقد حُطَّ عنهم بسبب الرياء ورُدَّ إلىٰ صف النعال) أي في آخر الصف حيث تُخلَع النعال (من مراتب الأولياء. هذا مع ما يَعرِض له في الدنيا من تشتيت الهم) أي تفريقه (بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضا الناس غاية لا تُدرَك) روىٰ الخطَّابي في العزلة[1] من حديث أكثم بن صيفي أنه قال: رضا الناس غاية لا

(١) العزلة ص ١٩٧.

تُدرَك، ولا يُكرَه سخط مَن رضاه الجَوْرُ. ومن طريق الشافعي أنه قال ليونس بن عبد الأعلىٰ: يا أبا إسحاق[١]، رضا الناس غاية لا تُدرَك، ليس إلىٰ السلامة من الناس سبيلٌ، فانظر ما فيه صلاح نفسك [فالزمْه] ودع الناسَ وما هم فيه **(وكل ما يرضىٰ به فريقٌ يسخط به فريقٌ)** آخر **(ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومَن طلب رضاهم في سخط الله سخط اللهُ عليه وأسخطهم أيضًا عليه)** روىٰ الطبراني[٢] من حديث ابن عباس: «مَن أسخط اللهَ في رضا الناس سخط اللهُ عليه وأسخط عليه مَن أرضاه في سخطه، ومَن أرضىٰ اللهَ في سخط الناس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضىٰ عنه مَن أسخطه في رضاه حتىٰ يزينه ويزين قوله وعمله في عينه».

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[٣] من حديث عائشة: «مَن أرضىٰ الناس بسخط الله وكله اللهُ إلىٰ الناس، ومَن أسخط الناس برضا الله كفاه الله».

وروىٰ الخليلي[٤] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «مَن أرضىٰ الله بسخط المخلوقين كفاه الله مؤنة المخلوقين، ومَن أرضىٰ المخلوقين بسخط الله سلَّط الله عليه المخلوقينَ».

(ثم أيُّ غرض له في مدحهم وإيثار ذمِّ الله تعالىٰ لأجل حمدهم ولا يزيده حمدُهم رزقًا ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة؟!.

وأما الطمع فيما في أيدي الناس فبأنْ تعلم بأن الله تبارك وتعالىٰ هو المسخِّر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرُّون فيه) غاية الاضطرار **(ولا رازق إلا الله، ومَن طمع في الخلق لم يَخْلُ عن الذل والخيبة، وإن وصل إلىٰ المراد لم يَخْلُ عن المنَّة والمهانة)** أي الذل **(فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد وقد**

---

(١) في العزلة: (يا أبا موسىٰ). وهو الصواب.

(٢) المعجم الكبير ١١/ ٢٦٨.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٨٨.

(٤) ومن طريقه رواه الرافعي في التدوين ٣/ ١٠٨.

يصيب وقد يخطئ، فإذا أصاب) يومًا (فلا تَفِي لذتُه بألم منَّته ومذلَّته، وأما ذمُّهم فلم يحذر منه، ولا يزيده ذمُّهم شيئًا مما لم يكتبه الله عليه، ولا يعجِّل أجلَه، ولا يؤخِّر رزقَه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغِّضه عند الله إن كان محمودًا عند الله، ولا يزيده مقتًا إن كان ممقوتًا عند الله. فالعِباد كلهم عَجَزة) أي عاجزون في أنفسهم (لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فإذا قرَّر في قلبه آفةَ هذه الأسباب وضررها فترت رغبتُه) أي ضعفت (وأقبل علىٰ الله بقلبه)[1] بكلِّيته (فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضررُه ويقلُّ نفعُه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه) أي أبغضوه (وسيكشف الله عن سرِّه) وما في باطنه (حتىٰ يبغِّضه إلىٰ الناس ويعرِّفهم أنه مُراءٍ ممقوت عند الله تعالىٰ، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصَه، وحبَّبه إليهم، وسخَّرهم له) وكفاه المؤنةَ (وأطلق ألسنتهم بالحمد والثناء عليه، مع أنه لا كمال في حمدهم ولا نقصان في ذمِّهم، كما قال شاعر من بني تميم) هو الأقرع بن حابس: (إن مدحي زين، وإنَّ ذمِّي شَين. فقال له ﷺ: كذبتَ، ذلك الله) رب العالمين (الذي لا إله إلا هو) قال العراقي[2]: رواه أحمد[3] من حديث الأقرع بن حابس، وهو قائل ذلك، دون قوله «كذبت»، ورجاله ثقات، إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماعًا من الأقرع. ورواه الترمذي[4] من حديث البراء وحسَّنه بلفظ: جاء رجل فقال: إن حمدي.

قلت: قال الحافظ في الإصابة[5] في ترجمة الأقرع بن حابس: روىٰ ابن

---

(١) في ط الشعب ١٠/ ١٨٩٠، وط المنهاج ٦/ ٣٨٢: قلبه.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٤.

(٣) مسند أحمد ٢٥/ ٣٦٩، ٤٥/ ١٨٢.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٩١.

جرير[١] وابن أبي عاصم[٢] والبغوي[٣] من طريق وهيب، عن موسىٰ بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس أنه نادىٰ النبيَّ ﷺ من وراء الحجرات، فلم يجبْه، فقال: يا محمد، إن حمدىٰ لَزينٌ، وإن ذمِّي لَشَيْنٌ. فقال رسول الله ﷺ: «ذلكم الله». قال ابن منده: رُوي عن أبي سلمة أن الأقرع نادىٰ ... فذكره مرسلاً، وهو الأصح، وكذلك رواه الروياني من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال: نادىٰ الأقرع ... فذكره مرسلاً. وأخرجه أحمد علىٰ الوجهين. ووقع في رواية ابن جرير التصريح بسماع أبي سلمة من الأقرع، فهذا يدل علىٰ أنه تأخَّر.

وقال السيوطي في الدر المنثور[٤]: أخرج أحمد وابن جرير والبغوي وابن مردويه والطبراني[٥] بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس أنه أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا محمد، اخرج إلينا. فلم يجبْه، فقال: يا محمد، إن حمدي زين، وإن ذمي شَين. فقال: «ذلك الله». فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤] قال البغوي: لا أعلم روىٰ الأقرع مسندًا غير هذا.

وأخرج الترمذي وحسَّنه وابن جرير[٦] وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا محمد، إن حمدي زين، وإن ذمي شَين. فقال النبي ﷺ: «ذلك الله».

وأخرج عبد الرزاق[٧] وعبد بن حميد وابن جرير[٨] عن قتادة أن رجلاً جاء

---

(١) جامع البيان ٢١/ ٣٤٦.

(٢) الآحاد والمثاني ٢/ ٣٨٨.

(٣) معجم الصحابة ١/ ١٩٤.

(٤) الدر المنثور ١٣/ ٥٣٩ - ٥٤٣.

(٥) المعجم الكبير ١/ ٣٠٠.

(٦) جامع البيان ٢١/ ٣٤٥.

(٧) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٣١.

(٨) جامع البيان ٢١/ ٣٤٧.

إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شَين. فقال: «ذلك هو الله». فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق[١] وابن مردويه عن ابن عباس قال: قَدِم وفدُ بني تميم - وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً، منهم الزِّبْرِقان بن بدر وعطارد بن معبد وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث وعمرو بن أهتم - المدينةَ علىٰ رسول الله ﷺ، فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفَزاري، وكان يكون في كل سوءة، حتىٰ أتوا منزلَ رسول الله ﷺ، فنادوه من وراء الحجرات فقالوا: يا محمد، إنَّ مدحنا زين، وإنَّ شتمنا شَين، نحن أكرم العرب. فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، بل مدحة الله الزين، وشتمُه الشَّين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم». فقالوا: إنَّا أتيناك لنفاخرك ... فذكره بطوله، وقال في آخره: فقام التميميُّون فقالوا: واللهِ إن هذا الرجل لَمصنوعٌ له، لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا، وقام شاعره فكان أشعر من شاعرنا. قال: ففيهم أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ الآية.

(إذ لا زين إلا في مدحه، ولا شين إلا في ذمِّه، فأيُّ خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار، وأيُّ شر لك في ذم الناس وأنت عند الله محمود وفي زُمرة المقرَّبين، فمَن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبَّد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة الدنيا مع ما فيها من الكدورات) والغمومات **(والمنغِّصات)** التي لا تكاد تفارق الأحوال **(واجتمع همُّه وانصرف إلىٰ الله قلبُه وتخلَّص من مذلَّة[٢] الرياء ومقاساة قلوب الخلق)** بأنواع التعب **(وانعطفت من إخلاصه أنوارٌ)** تشرق **(علىٰ قلبه ينشرح بها صدره، وينفتح بها له من لطيف المكاشَفات)** الإلهية **(ما يزيد به أنسُه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا**

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٠٤ - ٢١٠.

(٢) في م الإمام، وط المنهاج/ مذمة.

واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه، وانحلَّت عنه داعية الرياء، وتذلَّل له منهج الإخلاص) أي سهُل له طريقُه **(فهذا وما قدَّمناه في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء)** المزيلة أصوله ومنابته.

(وأما الدواء العملي فهو أن يعوِّد نفسه إخفاء العبادات) عن الناس **(وإغلاق الأبواب دونها كما تُغلَق الأبواب دون الفواحش حتىٰ يَقنع قلبُه بعلم الله واطِّلاعه علىٰ عبادته ولا تنازعه النفس إلىٰ طلب علم غير الله به، وقد رُوي أن بعض أصحاب أبي حفص)** عمر[1] بن مسلمة **(الحدَّاد)** المتوفي سنة نيِّف وستين ومائتين، كان أحد الأئمة والسادة **(ذم الدنيا وأهلَها، فقال)** له أبو حفص: **(أظهرتَ ما كان سبيلك أن تخفيه، لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخِّص)** أبو حفص له **(في إظهار هذا القدْر؛ لأن في ضمن ذم الدنيا دعوىٰ الزهد فيها)** وهو غير لائق بأحوال المخلصين **(فلا دواء للرياء)** نافع **(مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهَدة)** وأوائلها **(وإذا صبر عليه مدةً بالتكلُّف)** ومرن نفسَه عليه **(سقط عنه ثقلُه وهان عليه ذلك بتواصُل ألطاف الله)** وتَواليها **(وما يمدُّ به عِباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد، ولكن ﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾)** [الرعد: ١١] كما هو في الكتاب العزيز **(فمن العبد المجاهدة، ومن الله الهداية، ومن العبد قرعُ الباب، ومن الله فتح الباب)** فمَن لجَّ بالباب ولجَ **(والله لا يضيع أجر المحسنين ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾**[2] [النساء: ٤٠].

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلُّمه أيضًا، فإنَّ مَن جاهد نفسَه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطعِ الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمِّهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاته) وتسويلاته

(١) الرسالة القشيرية ص ٧٣.

(٢) هذا تضمين.

(وهوىٰ النفس وميلها لا ينمحي بالكلية) بل يبقىٰ أثرها (فلا بد وأن يشمِّر لدفع ما يَعرِض من خاطر الرياء، وخواطره ثلاثة، قد تخطر دفعةً واحدة كالخاطر الواحد، وقد تترادف علىٰ التدريج) واحدًا بعد واحد (فالأول العلم باطِّلاع الخلق) حالاً (أو رجاء اطِّلاعهم) فيما بعد (ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم له وحصول المنزلة عندهم) في قلوبهم، وهو الثاني (ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير علىٰ تحقيقه) وهو الثالث (فالأول معرفة، والثاني حالة تسمَّىٰ: الشهوة والرغبة، والثالث فعل يسمَّىٰ العزم وتصميم العقد. وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول وردِّه قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطرت له معرفة اطِّلاع الخلق أو رجاء اطِّلاعهم دفع ذلك بأنْ قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا؟ إن الله عالم بحالك، وأيُّ فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلىٰ لذة الحمد بذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرُّضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلىٰ أعماله فكما أن معرفة اطِّلاع الناس تفتح[1]) وفي نسخة: تفيد (شهوةً ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهةً له تقابل تلك الشهوةَ؛ إذ يتفكَّر في تعرُّضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه إلىٰ القبول، والكراهة تدعوه إلىٰ الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما. فإذًا لا بد في ردِّ الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والإباء. وقد يَشرع العبد في العبادة علىٰ عزم الإخلاص ثم يَرِدُ خاطر الرياء فيغلبه ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويًا عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقىٰ في القلب متسَع لغيره، فتعزب) أي تغيب (علىٰ القلب) وفي نسخة: عن القلب (المعرفةُ السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته؛ إذ لم يبقَ موضع في القلب خالٍ عن شهوة الحمد) وفي نسخة: عن الشهوة التي للحمد ([2]وخوف الذم، وهو كالذي يحدِّث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم

---

(١) في غير الزبيدي: تثير.

(٢) في غير الزبيدي: أو.

علىٰ التحلُّم عند جريان سبب الغضب، ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبُه فينسىٰ سابقَ عزمه ويمتلئ قلبه غيظًا يمنع من تذكُّر آفة الغضب، ويشتغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتمنع) وفي نسخة: تدفع **(نور المعرفة مثل مرارة الغضب، وإليه أشار جابر)** بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه **(بقوله: بايعنا رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة)** بالحديبية، وهو بئر بقرب مكة علىٰ طريق جُدَّة دون مرحلة **(علىٰ أن لا نفر)** إذا لاقينا العدوَّ **(ولم نبايعه علىٰ الموت، فأُنسيناها)** وفي نسخة: فأُنسيتُها **(يوم حنين، حتىٰ نودي: يا أصحاب الشجرة، فرجعوا)**[1] قال العراقي[2]: رواه مسلم مختصرًا دون ذِكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس.

قلت: ولفظ[3] مسلم[4] من حديث جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة، فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة. وقال: بايعناه علىٰ أن لا نفرَّ، ولم نبايعه علىٰ الموت. ورواه كذلك ابن جرير[5] وابن مردويه.

وروىٰ عبد بن حميد ومسلم[6] وابن مردويه من حديث معقل بن يسار قال: لقد رأيتُني يوم الشجرة والنبيُّ ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن [رأس] رسول الله ﷺ، ونحن أربع عشرة مائة، ولم نبايعه علىٰ الموت، ولكن بايعناه علىٰ أن لا نفرَّ.

وروىٰ عبد بن حميد وابن جرير[7] عن قتادة: فبايعوه علىٰ أن لا يفرُّوا، ولم يبايعوه علىٰ الموت.

---

(١) الرعاية صـ١٥٠ ط المعارف.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٥.

(٣) الدر المنثور ١٣/ ٤٨٢، ٤٨٤.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٩٠٠.

(٥) جامع البيان ٢١/ ٢٧٦.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ٩٠١.

(٧) جامع البيان ٢١/ ٢٧٧.

وأما حديث العباس في قصة حنين فعند مسلم[1] من طريق كثير بن العباس ابن عبد المطلب عن أبيه، وفيه: فطفق النبيُّ ﷺ يركض بغلتَه نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها، وأبو سفيان بن الحارث آخِذ بركابه، فقال: «يا عباس، نادِ: يا أصحاب السمرة ...» الحديث. وأخرجه الدولابي[2] من حديث أبي سفيان بن الحارث بسند منقطع.

وقصة حنين قد تقدم الكلام عليها في المعجزات، وحاصله: أنه[3] لمَّا انكشفت خيل بني سليم مولِّية وتبعهم أهل مكة والناس، ولم يثبُت معه إلا عمِّه العباس [وعلي بن أبي طالب والفضل بن العباس] وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر [وعمر] وأسامة في أناس من أهل بيته وأصحابه، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلته أكفُّها مخافةَ أن تصل إلىٰ العدو، وأبو سفيان آخِذ بركابه، وجعل ﷺ يأمر العباس بمناداة الأنصار وأصحاب الشجرة، فناداهم، وكان صيِّتًا، فلما سمعوه أقبلوا كأنَّهم الإبل إذا حنَّت علىٰ أولادها يقولون: يا لبَّيك، يا لبيك. فتراجعوا [إلىٰ رسول الله ﷺ] حتىٰ إن مَن لم يطاوعه بعيره نزل عنه ورجع ماشيًا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يصدُقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار، فنصرهم الله.

(وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتىٰ ذكروا) بمناداة العباس فرجعوا **(وأكثر الشهوات التي تهجم فجأةً)** أي مرة واحدة من غير انتظار **(هكذا تكون؛ إذ تُنسَىٰ معرفة مَضَرَّته الداخلة في عقد الإيمان، ومهما**

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٨٥٢ - ٨٥٣.

(٢) الكنىٰ والأسماء ١/ ٩٦. ولفظه: «خرجت مع رسول الله ﷺ إلىٰ هوازن وقد جمعت له العرب كلها، فلما لقوه حملوا عليه حملة واحدة، قال الله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝﴾ وثبت رسول الله ﷺ علىٰ بغلته الشهباء، وبيده السيف صلتا، ثم أخذت بلجام بغلة رسول الله ﷺ، وعباس بن عبد المطلب ينادي: يا أصحاب سورة البقرة. فثاب إليه الناس حتىٰ توافىٰ حول بغلته نحو من مائة».

(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني ١/ ٣٢٩ - ٣٣٠.

نُسيت المعرفة لم تظهر الكراهة، فإنَّ الكراهة ثمرة المعرفة، وقد يتذكَّر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر رياء، وهو الذي يعرِّضه لسخط الله) أي غضبه (ولكنه يستمر عليه) بعد علمه به (لشدة شهوته، فيغلب هواه عقلَه، ولا يقدر علىٰ ترك لذَّة الحال) ويؤثِرها علىٰ لذة المآل فيستلذ بالشهوة (ويسوِّف بالتوبة) أي يؤخِّرها (أو يتشاغل عن التفكُّر في ذلك لشدة الشهوة) لأنها تعمي حاسةَ الفكر (فكم من عالِم يحضره كلامٌ لا يدعوه إلىٰ فعله إلا رياء الخلق، وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمر عليه) متشاغلاً أو متعاميًا (فتكون الحُجة عليه أوكدُ) أي أثبَتُ (إذ قَبِلَ داعي الرياء مع علمه بغائلته) ووخامة عاقبته (وكونه مذمومًا عند الله، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفةُ عن الكراهة، وقد تحضر المعرفةُ والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعيَ الرياء ويعمل به؛ لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلىٰ قوة الشهوة، وهذا أيضًا لا ينتفع بكراهته؛ إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل) وتمنع منه (فإذًا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والإباء، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم) فكلما كان نور العلم زائدًا قويَ الإيمانُ، وبقوته تقوَىٰ المعرفةُ، وبقوتها تظهر ثمرتُها وهي كراهة الرياء (وضعفُ المعرفة بحسب) وفي نسخة: بسبب ضعف الإيمان الناشئ عن (الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكُّر فيما عند الله) من الأجر والنعيم (وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا) ومنغِّصاتها (و) قلة التأمل في (عظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضًا ويثمره) ويفيده (وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات) إلىٰ متاعها (فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب) كما رُوي من مرسَل الحسن البصري: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». رواه البيهقي في الشعب بسند حسن. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول عيسىٰ عليه السلام. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب مكائد الشيطان من قول مالك بن دينار. ورواه ابن يونس في تاريخ مصر من قول سعد بن مسعود التجيبي. وقد تقدم ذلك (لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة

ونعيم الدنيا هي التي تُغضِب[١] القلبَ وتسلبه وتحول بينه وبين التفكُّر في العاقبة والاستبصار بنور الكتاب والسنَّة وأنوار العلم) ومعرفة طريق الهداية والتوفيق.

(فإن قلتَ: فمَن صادف من نفسه كراهةَ الرياء وحملته الكراهةُ علىٰ الإباء ولكنه مع ذلك غير خالٍ عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير مجيب إليه فهل يكون في زمرة المرائين) نظرًا إلىٰ ذلك الميل أو لا يُعَدُّ في زمرتهم نظرًا إلىٰ كراهته ونفرته منه؟ (فاعلمْ أن الله تعالىٰ لم يكلِّف العبد إلا ما يطيق) ويقدر عليه (وليس في طاقة العبد منع الشيطان من نزغاته) بالكلية (ولا قمع الطبع حتىٰ لا يميل إلىٰ الشهوات) أصلاً (ولا ينزع إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية فيما كُلِّفه) وفي نسخة: في أداء ما كُلِّف (ويدل علىٰ ذلك من الأخبار ما رُوي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تَعرِض لقلوبنا أشياء لأنْ نخرَّ من السماء) أي نسقط (فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الريحُ في مكان سحيق) أي بعيد الغور (أحب إلينا من أن نتكلم بها. فقال ﷺ: أوَ قد وجدتموه؟ قالوا: نعم) وجدناه (قال: ذلك صريح الإيمان) قال العراقي[٢]: رواه مسلم[٣] من حديث ابن مسعود مختصرًا: سُئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال: «ذلك محض الإيمان». ورواه النسائي في اليوم والليلة[٤] وابن حبان في صحيحه[٥]، ورواه النسائي فيه[٦] من حديث عائشة.

---

(١) أي تكرره. وفي المنهاج: تغمر.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٥.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٧١.

(٤) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٤٨.

(٥) صحيح ابن حبان ١/ ٣٦١ - ٣٦٢.

(٦) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٥١. وفيه: «عن عائشة أن رجلا ذكر لها الوسوسة يجدها». هكذا اقتصر علىٰ هذا القدر من الحديث.

قلت: لفظ المصنف أخرجه البزار[١] من حديث عمارة بن أبي حسن المازني عن عمّه عبد الله بن زيد بن عاصم أن الناس سألوا رسول الله ﷺ عن الوسوسة التي يجدها أحدهم لأنْ يسقط من عند الثريَّا أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «ذاك صريح الإيمان، إن الشيطان يأتي العبدَ فيما دون ذلك، فإذا عُصم منه وقع فيما هنالك». وإسناده صحيح. وقد رواه أيضًا لكنه مختصر مسلم[٢] وأبو داود[٣] والنسائي[٤] من حديث أبي هريرة. والطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود. وأما حديث عائشة فلفظه: شكوا إلىٰ رسول الله ﷺ ما يجدون من الوسوسة، قال: «ذاك محض الإيمان». هكذا رواه أحمد[٥]. ورواه أبو يعلىٰ[٦] من حديث أنس. ورواه الطبراني في الكبير[٧] من حديث ابن مسعود.

(ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له، ولا يمكن أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسةَ، فلم يبقَ إلا حمله علىٰ الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء، فإنه وإن كان عظيمًا) في حدِّ نفسه **(فهو دون الوسوسة في حق الله تعالىٰ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأنْ يندفع بها ضرر الأصغر أَولىٰ.**

وكذلك يُروَىٰ عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس) ﵄ **(أنه قال: الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلىٰ الوسوسة)** قال العراقي[٨]: رواه أبو داود[٩] والنسائي في

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٣٣ - ٣٤.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٧١.

(٣) سنن أبي داود ٥/ ٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٥) مسند أحمد ٤١/ ٢٧٢.

(٦) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ١٥٦.

(٧) المعجم الكبير ١٠/ ١٠١.

(٨) المغني ٢/ ٩٣٥.

(٩) سنن أبي داود ٥/ ٤٠٢.

اليوم والليلة[١] بلفظ «كيده» بإسناد جيد. انتهىٰ.

قلت: لفظ المصنف أخرجه أحمد[٢] والطيالسي[٣] أنه قال لرجل قال: إني لأتحدَّث بشيء لأنْ أخِرَّ من السماء أحب إليَّ من أن أتكلم به. فكبَّر النبيُّ ﷺ مرتين وقال: الحمد لله ... فذكره. ورواه الطيالسي أيضًا وأبو داود والترمذي وضعَّفه والطبراني[٤] والبيهقي[٥] بلفظ: «الحمد لله الذي لم يقدر منكم إلا علىٰ الوسوسة».

وعند الطبراني[٦] من حديث معاذ قال: قلت: يا رسول الله، إنه لَيَعرِضُ في نفسي الشيء لأنْ أكون حممة أحب إليَّ من أن أتكلم به. فقال: «الحمد لله، إن الشيطان قد أيسَ من أن يُعبَد بأرضي هذه، ولكنه قد رضي بالمحقَّرات من أعمالكم».

(وقال أبو حازم) سلمة بن دينار الأعرج المدني رحمه الله تعالىٰ: **(ما كان من نفسك فكرهتْه نفسُك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوِّك، وما كان من نفسك فرضيتْه نفسُك لنفسك فعاتِبْها عليه)**[٧] أخرجه أبو نعيم في الحلية بنحوه[٨].

---

(١) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٤٩.

(٢) مسند أحمد ٤/ ١٠، ٥/ ٢٤٨.

(٣) مسند الطيالسي ٤/ ٤٢١ - ٤٢٢.

(٤) المعجم الكبير ١٠/ ٤١١.

(٥) شعب الإيمان ١/ ٥٢٠ - ٥٢١.

(٦) المعجم الكبير ٢٠/ ١٧٢.

(٧) الرعاية صـ١٥١. وذكر المحاسبي بعده أن زيد بن أسلم قال مثله.

(٨) هذا الأثر رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٢٥١ من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه كان يصف الرياء، يقول: ما كان من نفسك فرضيته نفسك لها فإنه من نفسك فعاتبها، وما كان من نفسك فكرهته نفسك لها فإنه من الشيطان، فتعوذ بالله منه. وكان أبو حازم يقول ذلك. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٢١ من طريق ابن المبارك، لكنه لم يذكر قوله (وكان أبو حازم يقول ذلك).

(فإذًا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرُّك مهما رددتَ مرادَهما بالإباء والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكُّرات والتخيُّلات للأسباب المهيِّجة) وفي نسخة: المنتجة (للرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس) فالشيطان يوسوس بتلك الخواطر، والنفس ترغب إليها (والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل) فإنه مَن قويَ إيمانُه واستنار عقله لا يرغب إلىٰ تلك الخواطر بل يكرهها (إلا أن للشيطان ههنا مكيدة، وهي أنه إذا عجز عن حمله علىٰ قبول الرياء خيَّل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان) ومجاولته (ومطاولته في الرد والجدال حتىٰ يسلبه ثوابَ الإخلاص) في العبادة (وحضور القلب) مع الله (لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته) عنه (انصراف عن سر المناجاة مع الله) لكون ذلك شغلاً بالسوىٰ (فيوجب ذلك نقصانًا في منزلته عند الله تعالىٰ، والمتخلِّصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء علىٰ أربع مراتب):

المرتبة (الأولىٰ: أن يردَّ علىٰ الشيطان فيكذِّبه، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته) بكل ممكن (ويطول جداله معه؛ لظنِّه أن ذلك أسلم لقلبه) وأخلص له (وهو علىٰ التحقيق نقصانٌ) وليس بكمال (لأنه اشتغل عن مُناجاة الله تعالىٰ وعن الخير الذي هو بصدده) وهو الوصول إلىٰ مرتبة القُرب (وانصرف إلىٰ قتال قُطَّاع الطريق، والتعريج علىٰ قتال) وفي نسخة: والتفرُّغ إلىٰ قتال (قُطَّاع الطريق نقصان في السلوك) عند أهل السلوك.

المرتبة (الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر علىٰ تكذيبه ودفعه) فقط (ولا يشتغل بمجادلته) ولا يصرف وقته في ذلك.

المرتبة (الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضًا؛ لأن ذلك وقفة) في السلوك (وإن قلَّتْ، بل يكون قد قرَّر في عقدِ ضميره كراهةَ الرياء وكذَّب الشيطان فيستمر علىٰ ما كان عليه مستصحبًا للكراهة، غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة).

المرتبة (الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان سيصيده) وفي بعض النسخ:

سيحسده (**عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم علىٰ أنه مهما نزغ الشيطانُ زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظًا للشيطان**) وإرغامًا له (**وذلك**) أي عدم الالتفات إليه في نزغاته والاستمرار علىٰ الإخلاص (**هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه**) ويدفعه (**ويوجب يأسَه**) عنه (**وقنوطَه**) منه (**حتىٰ لا يرجع**) إليه ثانيًا (**يُروَىٰ عن**) أبي[1] الفضل (**فُضَيل**) مصغَّرًا (**بن غَزْوان**[2]) بفتح الغين المعجمة وسكون الزاي، ابن جرير الضَّبِّي مولاهم الكوفي، ثقة، مات [بعد] سنة أربعين [ومائة] روىٰ له الجماعة (**أنه قيل له: إن فلانًا ذكرك**) أي سبَّك (**قال: واللهِ لأغيظنَّ مَن أمره. قيل**) له: (**ومَن أمره؟ قال: الشيطان**) ثم قال: (**اللهم اغفر له**[3]. **أي لأغيظنَّه بأن أطيع اللهَ فيه**) وفي نسخة بعد قوله «اللهم اغفر له»: أي لأطيعنَّ الله فيه.

(**ومهما عرف الشيطان من عبدٍ هذه العادةَ كفَّ عنه خيفةً من أن يزيد في حسناته.**

وقال إبراهيم) بن يزيد (**التيمي**) رحمه الله تعالىٰ: (**إن الشيطان لَيدعو العبد إلىٰ الباب من الإثم فلا يطيعه ويُحدِث عند ذلك خيرًا، فإذا رآه كذلك تركه**) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**وقال أيضًا: إذا رآك الشيطان متردِّدًا طمع فيك، وإذا رآك مداومًا ملَّكَ وقَلاك**)[4]

---

(١) تقريب التهذيب ص ٧٨٦.

(٢) الصواب: بن بَذْوان، بالباء، وهو تابعي قتله الحجاج. انظر: التاريخ الكبير ٧/ ١١٩، الجرح والتعديل ٧/ ٧١، سؤالات ليحيىٰ بن معين صـ٣٩٣، والإمال لابن ماكولا ١/ ٢٦١.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٢١٥، والدارقطني في المزكيات ص ٢٤٩، وابن أبي الدنيا في الإشراف علىٰ منازل الأشراف ص ٢٧٦، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصفهان ٢/ ١٣.

(٤) هذا الأثر رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٥٤ عن الحسن البصري بلفظ: «إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوما في طاعة الله بغاك وبغاك، وإذا رآك مداوما ملَّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك».

أي أبغضك. وفي نسخة: خَلاَّك.

(وضرب الحارث) بن أسد (المحاسبي) رحمه الله تعالىٰ (لهذه الأربعة مثالاً) في كتاب الرعاية (أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة) أشخاص (قصدوا مجلسًا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشدًا، فحسدهم علىٰ ذلك ضالٌّ مبتدع) يضل الناسَ ببدعته (وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدَّم إلىٰ واحد فمنعه[1] وصرفه عنه، ودعاه إلىٰ مجلس ضلال فأبىٰ) عليه ولم يطعه (فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة معه، فاشتغل معه ليردَّ ضلالته وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال) ومقصوده الأعظم (ليفوِّت عليه) فائدةَ المجلس (بقدر تأخُّره) في جداله (فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه) أي طلب أن يقف معه (فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدْر توقُّفه للدفع فيه، ومر به الثالث فلم يلتفت إليه، ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمر علىٰ ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية، فمر به الرابع فلم يتوقَّف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأنِّي في المشي، فيوشك إن عادوا ومرُّوا عليه مرة أخرىٰ أن يعاود الجميعَ إلا هذا الأخير فإنه لا يعود إليه خيفةً من أن يزداد فائدةً باستعجاله)[2] فهذا المثال يفهمك أن الاشتغال بمجادلة الشيطان والوقوف له لاستماع زخرفته ولو لحظة والتأنِّي لسماع ما يلقيه من التسويلات ولو غير ملتفت إليه - كما هو حال هؤلاء الثلاثة - محض خسران.

(فإن قلتَ: فإذا كان الشيطان لا تؤمَن نزغاته) وفي نسخة: مراوغاته (فهل يجب الترصُّد له قبل حضوره للحذر منه انتظارًا لوروده، أم يجب التوكل علىٰ الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه) وعدم الالتفات إليه بالكلية؟ (قلنا: اختلف الناس فيه علىٰ ثلاثة أوجه: فذهبت فِرقة من) عُبَّاد (أهل

---

(١) في م الإمام: لمنعه.

(٢) الرعاية صـ١٥٦.

البصرة إلىٰ أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان؛ لأنهم انقطعوا إلىٰ الله واشتغلوا بحبِّه) فلم يكن في قلوبهم سعة لغير الله (فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم) أي تأخَّر (كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلىٰ) شرب (الخمر و) مقارفة (الزنا، فصارت ملاذُّ الدنيا عندهم وإن كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية ولم يبقَ للشيطان إليهم سبيل) يوسوس لهم به (فلا حاجة بهم إلىٰ الحذر) منه (وذهبت فرقة من) عُبَّاد (أهل الشام إلىٰ أن الترصُّد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قلَّ يقينُه ونقص توكلُه، فمَن أيقن أنه لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيرَه ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق وليس له) في عباد الله (أمر، ولا يكون إلا ما أراده الله تعالىٰ فهو الضارُّ النافع) وهو الفاعل المختار في خلقه (والعارف يستحي منه أن يحذر غيرَه، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر. وقالت فرقة) وفي نسخة: طائفة (من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان، وما ذكره البصريون من أن الأقوياء استغنوا عن الحذر) منه (إن خلت[١] قلوبُهم من حب الدنيا) وفي نسخة: إن خلا من قلوبهم حبُّ الدنيا (بالكلية فهو[٢] وسيلة الشيطان، يكاد يكون غرورًا؛ إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلَّصوا من وسواس الشيطان ونزغاته، فكيف يتخلَّص غيرهم؟! وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا) كما ظنوا (بل في صفات الله تعالىٰ وأسمائه وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾) وقد تقدم الكلام علىٰ الرسول والنبي في كتاب قواعد العقائد (﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾) أي زوَّر في نفسه ما يهواه (﴿ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾) في تَشَهِّيه ما يوجب اشتغالَه بالدنيا، كما في الخبر: «وإنه لَيُغانُ علىٰ قلبي» (﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾) أي فيبطله ويذهبه بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلىٰ ما يزيحه (﴿ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ

---

(١) في غية الزبيدي: وخلت.

(٢) في م الإمام والمنهاج: وهي وسيلة الشيطان. أي الدنيا. ولعل ما في الزبيدي: وهو أي حب الدنيا، والله أعلم.

ﵟءَايَٰتِهِۦۗﵞ) أي ثم يُثبِت آياته الداعية إلىٰ الاستغراق في أمر الآخرة (ﵟوَٱللَّهُ عَلِيمٌﵞ) بأحوال الناس (ﵟحَكِيمٞ ٥٢ﵞ) [الحج: ٥٢] فيما يفعل بهم. قيل: حدَّث نفسَه بزوال المسكنة، فنزلت. وقيل: تمنىٰ لحرصه علىٰ إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقرِّبهم إليه، فاستمر به ذلك حتىٰ كان في ناديهم فنزلت عليه سورة النجم، فأخذ يقرؤها، فلما بلغ ﵟوَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ﵞ [النجم: ٢٠] وسوس إليه الشيطان حتىٰ سبق لسانه [سهوًا] إلىٰ أن قال: تلك الغرانيق العُلَىٰ، وإن شفاعتهن لتُرتجَىٰ. ففرح به المشركون حتىٰ تابعوه في السجود لمَّا سجد في آخرها بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبَّهه جبريل، فاغتمَّ به، فعزَّاه الله بهذه الآية. وهو مردود عند المحقِّقين، وإن صح فابتلاء يتميَّز به الثابت علىٰ الإيمان عن المتزلزل فيه. وقيل: تمنىٰ: قرأ، كقوله:

تمنَّىٰ كتابَ الله أول مرة[1] تمنِّي داود الزبورَ علىٰ رِسْلِ[2]

وأمنيته: قراءته، وإلقاء الشيطان فيها أنْ تكلم بذلك رافعًا صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ. وقد رُدَّ أيضًا بأنه يخلُّ بالوثوق علىٰ القرآن، ولا يندفع بقوله: ﵟفَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗﵞ لأنه أيضًا يحتمله، والآية تدل علىٰ جواز السهو علىٰ الأنبياء وتطرُّق الوسوسة إليهم.

كل هذا سياق البيضاوي[3].

والمسألة مختلَف فيها قديمًا، وقد تكلم عليها القاضي عياض في الشفاء[4]، وردَّ ما ذكروه في توجيه الآية، وأوسع عليه الكلام شارحه الشهاب الخفاجي[5].

---

(١) في تفسير البيضاوي: أول ليله.
(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.
(٣) أنوار التنزيل ٤/ ٧٥.
(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ٢/ ١٢٤ - ١٣٤.
(٥) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض ٥/ ٢٥٨ - ٢٨٧.

والصحيح ورود القضية، فقد رُويت من طرق كثيرة لا تحتمل الخطأ، كما أشار إليه الحافظ في فتح الباري[١]. فقد[٢] أخرجه عبد بن حميد من طريق السُّدِّي عن أبي صالح عن ابن عباس. والبزار والطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن سعيد بن جبير. وابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس. وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ومن طريق أبي بكر الهُذَلي وأيوب عن عكرمة عن ابن عباس. وعبد بن حميد وابن جرير من طريق يونس عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث. وابن أبي حاتم من طريق موسىٰ ابن عقبة عن ابن شهاب. والبيهقي في الدلائل عن موسىٰ بن عقبة، ولم يذكر ابنَ شهاب. والطبراني عن عروة مثله. وسعيد بن منصور وابن جرير عن محمد بن كعب القُرَظي ومحمد بن قيس. وابن جرير عن الضحَّاك. وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية. وعبد بن حميد عن مجاهد وعن عكرمة. وابن أبي حاتم عن السُّدِّي. وألفاظ الكل متقاربة، وفي سَوق كلٍّ منها تطويل، ومع ثبوت القصة من هذه الطرق لا يسع العالِمَ ردُّها فضلاً عن المحقِّق.

(**وقال النبي ﷺ: إنه لَيُغانُ علىٰ قلبي**) وإني لأستغفرُ الله في اليوم مائة مرة. رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان والبغوي وابن قانع والباوردي والطبراني، كلهم من حديث الأغر بن يسار المزني. وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث[٣].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ١٠/ ٥٢٤ - ٥٣٢. جامع البيان للطبري ١٦/ ٦٠٢ - ٦١٢. مسند البزار ١١/ ٢٩٦ - ٢٩٧. المعجم الكبير للطبراني ٩/ ٢١ - ٢٤، ١٢/ ٥٣. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧. الأحاديث المختارة للضياء ١٠/ ٨٩، ٢٣٤.

(٣) في كتاب الأذكار والدعوات، واقتصر الشارح هناك علىٰ عزوه لمسلم وأحمد والنسائي وابن =

(مع أن شيطانه) ﷺ (قد أسلم فلا يأمره إلا بخير) رواه الطبراني[١] من حديث المغيرة بلفظ: «ما من أحد إلا جُعل معه قرين من الجن». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

وروىٰ أحمد[٢] وأبو يعلىٰ والطبراني[٣] والضياء[٤] من حديث ابن عباس: «ليس منكم من أحد إلا وقد وُكِلَ به قرينه من الشياطين». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن الله أعانني عليه فأسلم». وقد تقدم الكلام عليه أيضًا[٥].

(فمَن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان، ولذلك لم يَسلم منه) أي من كيده **(آدم وحوَّاء)** عليهما السلام وهما **(في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾)** يعني الشيطان **(﴿ عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾)** أي[٦] لا يكون سببًا لإخراجكما **(﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾)** والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبَّب الشيطان إلىٰ إخراجهما **(﴿ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧ ﴾)** أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد اشتراكهما في الخروج اكتفاءً باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيِّم عليها، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجال، والشقاء بمعنىٰ التعب شائع في كلام العرب، يقولون: أشقىٰ من رائض المُهْر، وسيد القوم أشقاهم. ويؤيِّده قوله: **(﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ**

= ماجه. وزاد هنا عزوه إلىٰ: عبد بن حميد في مسنده ١/ ٢٩٣، وأبي داود في سننه ٢/ ٢٩٤، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢١١، والبغوي في معجم الصحابة ١/ ١٢٤ - ١٢٧، وابن قانع في معجم الصحابة ١/ ٥١، والطبراني في المعجم الكبير ١/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(١) المعجم الكبير ٢٠/ ٤٢٢.

(٢) مسند أحمد ٤/ ١٦٦.

(٣) المعجم الكبير ١٢/ ١١٠.

(٤) الأحاديث المختارة ٩/ ٥٤٧ - ٥٤٨.

(٥) في كتاب النكاح، وفي كتاب عجائب القلب.

(٦) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ٢٢، ٤٠ - ٤١.

لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾) [طه: ١١٧ - ١١٩] فإنه بيان وتذكير لِما له في الجنة من أسباب الكفاية، وأقطاب الكفاية هي الشبع والري والكسوة والسكن مستغنيًا عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسىٰ ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذَّر منها (**مع أنه لم ينهَه إلا عن شجرة واحدة**) قيل: هي الحنطة، وقيل: الكرم، وقيل: التين، وقيل غير ذلك (**وأطلق له وراء ذلك ما أراد**) وفيه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢٠ - ١٢١] (**فإذا لم يأمن نبيٌّ من الأنبياء وهو**) مستقِرٌّ (**في الجنة**) التي هي (**دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان**) ووسوسته (**فكيف يجوز لغيره أن يأمن**) من وسوسته وهو (**في دار الدنيا وهي منبع الفتن والمحن ومعدن المَلاذِّ والشهوات المنهيِّ عنها.**

وقال موسىٰ عليه السلام **فيما حكىٰ الله عنه**) في كتابه العزيز: (﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[1] لأنه[2] لم يؤمَر بقتل الكفار، أو لأنه كان مؤمنًا فيهم فلم يكن له اغتياله، ولا يقدح ذلك في عصمته؛ لكونه خطأ، وإنما عدَّه من عمل الشيطان وسمَّاه ظلمًا واستغفر منه علىٰ عادتهم في استعظام محقَّرات فرطت منهم (﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾) [القصص: ١٥] ظاهر العداوة (**ولذلك حذَّر الله منه جميع الخلق فقال:** ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾) آدم وحواء (﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾) [الأعراف: ٢٧] أي حُلَل الجنة، قيل: إنهما لما تناولا من الشجرة سقطت عنهما الحُلَل (**وقال** عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾) أي جماعته وجنوده (﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ **والقرآن من أوله إلىٰ آخره تحذير من الشيطان**)

---

(١) الذي في غير الزبيدي استشهاد الغزالي بقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. فقط.

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ١٧٣ - ١٧٤.

وتنبيه علىٰ غوايته وإرشاد إلىٰ مخالفته (فكيف يُدَّعَىٰ الأمن منه؟! وأخذُ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغالَ بحب الله تعالىٰ، فإنَّ من الحب له امتثال أمره، وقد أُمِرنا بالحذر من العدو كما أُمِرنا بالحذر من الكفار فقال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢] أي ليأخذوا ما فيه الحِذْر - بالكسر - وهو التحرُّز. والأسلحة جمع سلاح، وهو كل عُدَّة للحرب (وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فإذا لزمك بأمر الله الحذرُ من العدو والكافر وأنت تراه) وتشاهده بعينك (فبأنْ يلزمك الحذرُ من عدو يراك) هو وقبيله (ولا تراه) ولا ترىٰ قبيله (أَولىٰ) وآكد (ولذلك قال) عبد[1] الله (بن مُحَيْرِيز) بمهملة وراء آخره زاي مصغَّر، ابن جُنادة بن وهب الجُمَحي المكي، نزل بيت المقدس، ثقة، عابد، مات سنة تسع وتسعين، روىٰ له الجماعة (عدو[2] صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وعدو صيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. وأشار به) أي بهذا الكلام (إلىٰ الشيطان) فإنه عدوك، وقصدُه أن يصيدك، وهو يراك ويخيَّل لك ويرمي عليك الفخ وأنت لا تراه، فما أقرب أن تقع في قبضته (كيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتلٌ هو شهادة) إن تيسَّرَ القتل (وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرُّضُ للنار والعقاب الأليم، فليس من الاشتغال بالله الإعراضُ عمَّا حذَّر اللهُ، وبه يبطُل مذهبُ الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإنَّ أخذ الترس والسلاح وجمع الجند) وحشد العساكر (وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ فكيف يقدح في التوكل الخوفُ ممَّا خوَّف اللهُ تعالىٰ به والحذر مما أمر الله بالحذر منه، وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط مَن ظن أن معنىٰ التوكل النزوع من الأسباب بالكلية) أي الخروج عنها (وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ لا يناقض امتثالَ التوكل مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله) عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) تقريب التهذيب ص ٥٤٤.

(٢) كذا في الزبيدي، وفي م الإمام: عدو بدال.. الخ.

لا غيره (فكذلك يحذر الشيطانَ) ويحترز منه (ويعتقد أن المضِل والهادي هو الله) عَزَّوَجَلَّ لا غيره (ويرىٰ الأسباب وسائط مسخَّرة) بلطف الحكمة الإلهية (كما ذكرناه في) كتاب (التوكل) وسيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالىٰ (وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله تعالىٰ، وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم، وما قبله) ممَّا ذُكر (يشبه أن يكون من كلام العُبَّاد الذين لا يغزر) أي لا يكثُر (علمُهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من) نتيجة (الاستغراق بالله يستمر علىٰ الدوام، وهو بعيد) لأن الأحوال لا تثبُت.

(ثم اختلفت هذه الفرقة علىٰ ثلاثة أوجه في كيفية الحذر) أي الاحتراز (فقال قوم: إذا حذَّرنا اللهُ العدوَّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب علىٰ قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصُّد له، فإنَّا إذا غفلنا عنه لحظةً) واحدة (يوشك أن يهلكنا) بكيده ومكره (وقال قوم: إنَّ ذلك) أي كونه أغلب شيء علىٰ القلب (يؤدي إلىٰ خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كلِّه بالشيطان، وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله، ولا ننسىٰ الشيطان وعداوته والحاجة) الداعية (إلىٰ الحذر منه، فنجمع بين الأمرين، فإنَّا إن نسيناه ربما عرضَ من حيث لا نحتسب) فيهلكنا (وإن تجرَّدنا لذكره) والترصُّد له (كنا قد أهملنا ذكر الله، فالجمع أَولىٰ. وقال العلماء المحققون) من الصوفية: (غلطت الفرقتان، أما الأولىٰ فقد تجرَّدت لذكر الشيطان ونسيت ذِكر الله، ولا يخفَىٰ غلطُها) علىٰ مَن تأمل كلامها (وإنما أُمِرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدَّنا عن الذكر، فكيف نجعل ذِكره أغلب الأشياء علىٰ قلوبنا؟! وهو منتهَىٰ ضرر العدو، ثم يؤدي ذلك إلىٰ خلو القلب عن نور ذِكر الله) فإن القلب إنما إضاءته بسبب ما يَرِدُ عليه من أنوار الذكر (فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذِكر الله وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به) ويستولي عليه (ولا يقوَىٰ علىٰ دفعه، فلم يؤمَر) العبد. وفي نسخة: فلم يأمرنا (بانتظار الشيطان، ولا بإدمان ذِكره.

وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولىٰ؛ إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان) وهما نقيضان (وبقدْر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله) ويشتغل عنه (وقد أمر الله تبارك وتعالىٰ الخلق بذكره ونسيان ما عداه) أي ما سواه (إبليس وغيره) بل سائر ما في الكون الاشتغالُ به شغلٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ (فالحق) الذي أحق أن يُتَّبَع، وهو الوجه الثالث (أن يُلزِم العبدُ قلبَه الحذرَ من الشيطان، ويقرِّر علىٰ نفسه عداوتَه) علىٰ طريق التأكُّد (فإذا اعتقد ذلك وصدَّق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله) حينئذٍ (ويكب عليه بكل الهمة) أي يُقبِل عليه مع الملازمة (ولا يخطر بباله أمرُ الشيطان، فإنه إن اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبَّهَ له) في الحال (وعند التنبُّه يشتغل بدفعه) علىٰ قدر الإمكان (والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقُّظ عند نزغة الشيطان) والتنبُّه له (بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهمٌّ) أي أمرٌ مقصود لذاته (عند طلوع الصبح، فيُلزِم نفسَه الحذرَ) أي التحرُّز (وينام علىٰ أن يتنبَّه في ذلك الوقت، فينتبه من الليل) أي في أثنائه (مرَّات قبل أوانه؛ لِما سكن في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنعه تنبُّهه) لا يحذر منه (ومثل هذا القلب هو الذي يقوَىٰ علىٰ دفع العدو) إذا هجم عليه (وإذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله قد أمات منه الهوىٰ وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط) أي أزال (عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة) التامة (أشعروا قلوبهم عداوةَ الشيطان وترصُّده) وانتظاره (وألزموها الحذرَ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله، ودفعوا بالذكر شرَّ العدو، واستضاؤوا بنور ذكر الله حتىٰ أبصروا خواطر العدو) من أين تهجم، فاستعدُّوا لدفعها بقوة نور الذكر (فمثال القلب مثال بئر أريدَ تطهيرها من الماء القذر) المنتن (ليتفجَّر منها الماء الصافي، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله تعالىٰ قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه قد تركه جاريًا إليها من جانب آخر فيطول تعبُه ولا يخفُّ من البئر الماءُ القذر، والبصير) العارف (هو الذي يجعل

لمجرى الماء القذر سدًّا) فيسده عليه **(ويملأه بالماء الصافي)** الذي لا كدر فيه **(فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسِّكْر والسد)** يقال[1]: سَكَرْتُ النهرَ سَكْرًا: إذا سددته، والسِّكْر بالكسر: ما يُسَد به النهر **(من غير كلفة)** أي مشقة **(ومؤنة وزيادة تعب)** والله الموفِّق.

---

(١) المصباح المنير ص ٢٨١.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

(اعلمْ) هداك الله بتوفيقه (أن في الإسرار للأعمال) أي في إخفائها (فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار) لها (فائدة الاقتداء) فيها (وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء. قال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: (قد علم المسلمون أن السر أحرزُ العملينِ[1]. ولكن في الإظهار أيضًا فائدة، ولذلك أثنىٰ الله علىٰ السر والعلانية فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾) أي فنِعم شيء تبدوها (﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾) أي تعطوها مع الإخفاء (﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾) وتمام الآية: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١] (والإظهار قسمان، أحدهما في نفس العمل، والآخَر بالتحدُّث بما عملَ.

القسم الأول: إظهار نفس العمل، كالصدقة في الملأ) أي بين أظهُر الناس (لترغيب الناس فيها، كما رُوي عن الأنصاري الذي جاء بالصَّرَّة) فيها دراهم، وذلك لمَّا رغَّب النبيُّ ﷺ في أمر الصدقة (فتتابع الناس بالعطية لمَّا رأوه، فقال النبي ﷺ: مَن سنَّ سنَّة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر مَن اتَّبعه) قال العراقي[2]: رواه مسلم[3] من حديث جرير بن عبد الله البجلي، وفي أوله قصة.

قلت: لفظ مسلم: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَن

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ٢١٢ بلفظ: «أدركت أقواما ما كان أحدهم يستطيع أن يُسِر عملا فيعلنه، قد علموا أن أحرز العملين من الشيطان عمل السر، وإن أحدهم ليكون عنده الزور وإنه ليصلي خلف الوجه ما يعلم به زوره».

(٢) المغني ٢/ ٩٣٦.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٤٥١ - ٤٥٢.

عمل بها بعده من غير أن ينقُص من أجورهم شيء، ومَن سن في الإسلام سنَّة سيئة فعليه وزرها ووِزر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وهكذا رواه أيضًا الطيالسي(١) وأحمد(٢) والترمذي(٣) والنسائي(٤) وابن ماجه(٥) والدارمي(٦) وأبو عوانة وابن حبان(٧).

وفي الباب: حذيفة بن اليمان، وأبو هريرة، وأبو جحيفة، وواثلة بن الأسقع. فلفظ حديث حذيفة: «مَن سنَّ في الإسلام خيرًا فاستُنَّ به كان له أجره ومن أجور مَن تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومَن سنَّ شرًّا فاستُنَّ به كان عليه وزره ومَن أوزار مَن تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا». هكذا رواه أحمد(٨) والبزار(٩) والطبراني في الأوسط(١٠) والحاكم(١١) والضياء من رواية أبي عبيدة بن حذيفة عن أبيه.

ولفظ حديث أبي هريرة: «مَن سنَّ خيرًا فاستُنَّ به كان له أجره كاملاً ومن أجور مَن استنَّ به من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومَن سنَّ شرًّا فاستُنَّ به كان عليه وزره كاملاً ومن أوزار الذي استنَّ به لا ينقص من أوزارهم شيئًا». هكذا رواه

---

(١) مسند الطيالسي ٢/ ٥٥ - ٥٦.
(٢) مسند أحمد ٣١/ ٤٩٤، ٥٠٩ - ٥١٠، ٥١٩، ٥٣٦ - ٥٣٨، ٥٤١ - ٥٤٢.
(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤٠٧.
(٤) سنن النسائي ص ٢٩٨.
(٥) سنن ابن ماجه ١/ ١٩٩.
(٦) سنن الدارمي ١/ ١٤٠، ١٤١.
(٧) صحيح ابن حبان ٨/ ١٠١ - ١٠٢.
(٨) مسند أحمد ٣٨/ ٣٢٥.
(٩) مسند البزار ٧/ ٣٦٦.
(١٠) المعجم الأوسط ٤/ ٩٤.
(١١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٦٠٧.

أحمد[١]. وفي رواية: «مَن سنَّ سنَّة هدىٰ فاتُّبع عليها كان له أجرها وأجر مَن عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومَن سنَّ سنَّة ضلالة فاتُّبع عليها كان عليه مثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا». هكذا رواه السِّجْزي في الإبانة.

ولفظ حديث أبي جُحَيفة: «مَن سنَّ سنَّة حسنة فعُمل بها بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينتقص من أجورهم شيئًا، ومَن سنَّ سنَّة سيئة فعُمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير أن ينتقص من أوزارهم شيئًا». هكذا رواه ابن ماجه[٢] والطبراني في الأوسط[٣].

ولفظ حديث واثلة: «مَن سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها ما عُمل بها في حياته وبعد مماته حتىٰ يترك، ومَن سنَّ سنَّة سيئة فعليه إثمها حتىٰ يترك، ومَن مات مرابطًا في سبيل الله جرىٰ له أجر المرابط حتىٰ يُبعَث يوم القيامة». هكذا رواه الطبراني في الكبير[٤] والسجزي في الإبانة.

(ويجري سائر الأعمال هذا المجرىٰ من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها، ولكن الاقتداء في الصدقة علىٰ الطباع أغلب) كما وقع للأنصاري المتقدم ذِكره **(نعم، الغازي)** في سبيل الله **(إذا همَّ بالخروج)** من محله بنيَّة الغزو **(فاستعدَّ)** وتهيأ **(وشد الرَّحْل)** والركائب **(قبل القوم تحريضًا لهم علىٰ الحركة)** والنهوض **(فذلك أفضل له؛ لأن الغزو في نفسه من أعمال العلانية لا يمكن إسراره)** أي إخفاؤه **(والمبادرة إليه ليست من الإعلان، بل هو تحريض مجرد. وكذلك الرجل قد يرفع صوته في صلاة الليل)** أي التي يصلِّيها بعد هجعه **(لينبِّه جيرانه وأهله فيُقتدَىٰ به)** في فعله **(فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة**

---

(١) مسند أحمد ١٦/ ٣٢٦، ٤٣٦.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٢٠٢.

(٣) المعجم الأوسط ٤/ ٣٤٣.

(٤) المعجم الكبير ٢٢/ ٧٥.

إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض) على الانتفاع به، فمَن[1] كان ممَّن يُستَنُّ به عالمًا بما الله عليه قاهرًا لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده جاز له الإظهار والمبادرة. وإليه الإشارة بقوله: **(بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء)** وإلا فالأفضل الإخفاء مطلقًا؛ صرَّح به العز ابن عبد السلام في قواعده[2] **(وأما ما يمكن إسراره)** أي إخفاؤه **(كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدَّق عليه ويرغِّب الناسَ في الصدقة فالسر أفضل؛ لأن الإيذاء حرام)** فيُغلَّب جانبه على جانب الترغيب عند التعارُض **(فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل، فقال قوم: السر أفضل من العلانية)** ومعه يكون تكفير السيئات **(وإن كان في العلانية قدوة)** لأمثاله **(وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة)** أي لأجل أن يُقتدَى به ويستشرف له أمثاله **(فأفضل من السر، ويدل على ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر أنبياءه)** عليهم السلام **(بالإظهار للعمل للاقتداء)** بهم **(وخصَّهم بمنصب النبوة)** واجتباهم به **(ولا يجوز أن يُظَن بهم أنهم حُرموا أفضل العملين، ويدل عليه قوله ﷺ)** في الحديث السابق: «مَن سنَّ سنَّة حسنة **(فله أجرها وأجر مَن عمل بها)** من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا» **(وقد رُوي في بعض الحديث: أن عمل السر يضاعَف على عمل العلانية بسبعين ضِعفًا، ويضاعَف عمل العلانية إذا استُنَّ بعامله على عمل السر بسبعين ضِعفًا)** قال العراقي[3]: رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصرًا على الشطر الأول بنحوه، وقال: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين. وقد تقدم قبل هذا قريبًا. وله[4] من حديث ابن عمر: «عملُ السر أفضل من عمل العلانية، والعلانية أفضل لمَن أراد الاقتداء». وقال: تفرَّد به بقية عن عبد الملك بن مهران. وله من حديث عائشة: «يفضُل - أو

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٣٤٥.

(٢) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام ١/ ٢١٥.

(٣) المغني ٢/ ٩٣٦.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ٢٤٢.

يضاعَف - الذكر الخفيُّ الذي لا تسمعه الحَفَظة علىٰ ما تسمعه بسبعين ضِعفًا». وقال: تفرَّد به معاوية بن يحيىٰ الصدفي، وهو ضعيف.

قلت: أما حديث أبي الدرداء فلفظه عند الديلمي في مسند الفردوس: «إن الرجل لَيعملُ عملاً سرًّا فيكتبه الله عنده سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتىٰ يتكلم به فيُمحَىٰ من السر ويُكتَب علانية، فإن عاد فتكلم الثانية مُحيَ من السر والعلانية وكُتب رياءً». ولفظه عند البيهقي: «إن الرجل لَيعملُ العمل فيُكتَب له عمل صالح معمول به في السر يضعَّف أجره سبعين ضِعفًا». هذا أوله، والباقي كسياق الديلمي، وقد تقدمت الإشارة إليه في بيان فهم الرياء في أول الشطر الثاني من هذا الكتاب.

وأما حديث عائشة فرواه كذلك ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وتقدمت الإشارة إليه.

وأما حديث ابن عمر فقد رواه كذلك الديلمي في مسند الفردوس[١]، ولفظه: «السر أفضل من العلانية، ولمن أراد الاقتداء العلانية أفضل من السر». وفيه محمد بن الحسين السلمي، قال الذهبي[٢]: قال الخطيب[٣]: قال لي محمد بن [يوسف] القَطَّان: كان يضع للصوفية الحديثَ. وبقية، قال الذهبي: صدوق، ولكنه يروي عمَّن دب ودرج فكثرت العجائب والمناكير في حديثه[٤]. وعثمان بن زائدة أورده الذهبي في الضعفاء[٥] وقال: له حديث منكر. وفي اللسان[٦]: عثمان

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٤٧.

(٢) المغني في الضعفاء ٢/ ١٨٤.

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ٤٣.

(٤) عبارة الذهبي في المغني ١/ ١٧٢: «بقية بن الوليد، أحد الأئمة الحفاظ، يروي عمن دب ودرج، وله غرائب تستنكر أيضا عن الثقات لكثرة حديثه».

(٥) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٧٠، وفيه: «له حديث منكر تفرد به».

(٦) لسان الميزان ٥/ ٣٨٩.

ابن زائدة، عن نافع عن ابن عمر، حديثه غير محفوظ؛ قاله العقيلي[١]، وساق له هذا الخبر.

(وهذا لا وجه للخلاف فيه، فإنه مهما انفكَّ القلب عن شوائب الرياء) وسَلِمَ منه (وتم الإخلاص علىٰ وجه واحد في الحالتين فما يُقتدَىٰ به أفضل لا محالة، وإنما يُخاف من ظهور الرياء[٢]، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداءُ غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه. ولكن علىٰ من يُظهِر العملَ وظيفتان:

إحداهما: أن يُظهِره حيث يعلم أنه يُقتدَىٰ به) علمًا حاصلاً له به في الحال (أو يظن ذلك ظنًّا) ففي الحالتين له الإظهار (ورُب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته) فقط (وإنما العالِم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة) في بلده ومن الواردين عليه (فغير العالِم إذا أظهر بعضَ الطاعات ربما نُسب إلىٰ الرياء والنفاق وذمُّوه ولم يقتدوا به، فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممَّن هو في محل القدوة علىٰ مَن هو في محل الاقتداء به.

الثانية: أن يراقب قلبَه، فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي) المستكن في الضمير (فيدعوه إلىٰ الإظهار بعذر الاقتداء) أي يقول: إنما أُظهِره ليقتدي بي الناس، وهذا عذري (وإنما شهوته التجمُّل بالعمل وبكونه مقتدًىٰ به) فيحتاج إلىٰ المراقبة في ذلك، فإن وجد في نفسه شيئًا من ذلك لم يجُزْ له الإظهار أصلاً (وهذا حال كل من يُظهِر أعماله) فإنه لا يخلو من حب الرياء الخفي (إلا الأقوياء المخلصين) الذين يتوقَّون من ذلك (وقليل ما هم، فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر) بهلاكه (فإنَّ الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يُحسِن سباحة ضعيفة فنظر إلىٰ جماعة غرقىٰ) مثله (فرحمهم) وأشفق لهم (فأقبل

(١) الضعفاء الكبير ٣/ ٩٣٨.

(٢) في م الإمام وط المنهاج: من الظهور الرياءُ وهو الأصوب.

عليهم حتىٰ تشبَّثوا به فهلكوا وهلك) معهم (والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة) ثم يرتاح (وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم) مقيم (مدة مديدة) أي طويلة (وهذه مزلَّة أقدام العُبَّاد والعلماء، فإنهم يتشبَّهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوَىٰ قلوبُهم علىٰ الإخلاص فتُحبَط أجورهم بالرياء) فيهلكون (والتفطُّن لذلك غامض) أي خفي المَدرك (ومحكُّ ذلك أن يَعرض علىٰ نفسه أنه لو قيل له: أَخْفِ العملَ حتىٰ يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك) وأمثالك (ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان. فإن مال قلبه إلىٰ أن يكون هو المقتدَىٰ به) دون غيره (وهو المُظهِر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلىٰ غيره، وأجره قد توفَّر عليه مع إسراره) أي إخفائه (فما بال قلبه يميل إلىٰ الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومُراءاتهم، فليحذر العبد خِدَع النفس) ومَكْريَّاتها (فإنَّ النفس خَدُوع، والشيطان) طَلاَّع (مترصِّد) لأنْ يوقعك (وحب الجاه علىٰ القلب غالبٌ، وقلَّما تَسلم الأعمال الظاهرة من الآفات، فلا ينبغي أن يُعدَل بالسلامة شيئًا) فإنها غنيمة الأكياس (والسلامة في الإخفاء) محقَّقة (وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوَىٰ عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أَولىٰ بنا وبجميع الضعفاء) أمثالنا.

(القسم الثاني: أن يتحدَّث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشد؛ لأن مؤنة النطق خفيفة علىٰ اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة، وللنفس لذة في إظهار الدعاوىٰ) الكاذبة (عظيمة، إلا أنه لو تطرَّق إليه الرياء لم يؤثِّر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن مَن قويَ قلبُه) بنور الذكر (وتم إخلاصُه وصغُر الناسُ في عينه واستوىٰ عنده مدحُهم) له (وذمُّهم) كذلك (وذكر ذلك عند مَن يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صَفَت النيةُ وسَلِمت من جميع الآفات؛ لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خيرٌ، وقد

نُقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال) أبو[1] عمرو **(سعد بن معاذ)** بن النعمان الأنصاري الأشهلي، سيد الأوس، شهد بدرًا، واستشهد بسهم أصابه في الخندق، روىٰ له البخاري **(ما صلَّيت صلاة منذ أسلمت فحدَّثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدَّثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق**[2].

وقال عمر رضي الله عنه**: ما أبالي أصبحت علىٰ يسر أو علىٰ عسر؛ لأني لا أدري أيهما خير لي)** أخرجه الإسماعيلي في مناقبه.

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه**: (ما أصبحت علىٰ حالة فتمنَّيت أن أكون علىٰ غيرها**[3].

وقال عثمان رضي الله عنه**: ما تغنَّيت ولا تمنَّيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسولَ الله ﷺ)** قال العراقي[4]: رواه أبو يعلىٰ الموصلي في معجمه[5] بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث، وأن عثمان قال: يا رسول الله ... فذكره بلفظ: منذ بايعتك. قال: «هو ذاك يا عثمان».

---

(١) تقريب التهذيب ص ٣٧١.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٣١ بلفظ: «ثلاث أنا فيما سواهن بعدُ ضعيف: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولا قط إلا علمت أنه حق، ولا صليت صلاة قط فألهاني عنها غيرها حتىٰ أنصرف، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة أو يقال لها حتىٰ نفرغ منها». ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٥ والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٥١٠ بنحوه.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٦٠ ومن طريقه ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا عن الله بقضائه ص ٨٥ - ٨٦ (ط - الدار السلفية بالهند) بلفظ: «ما أبالي إذا رجعت إلىٰ أهلي علىٰ أي حال أراهم أبسراء أم بضراء، وما أصبحت علىٰ حال فتمنيت أني علىٰ سواها».

(٤) المغني ٢/ ٩٣٦ - ٩٣٧.

(٥) معجم شيوخ أبي يعلىٰ ص ٢٤٤ - ٢٤٥. ورواه أيضا في مسنده ٧/ ٤٥ - ٤٦.

قلت: رواه وكيع[١] عن الصلت عن عقبة بن صهبان أنه سمع عثمان يقول: ما تمنَّيت ولا تغنَّيت ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ. وقد تقدم في كتاب الوجد والسماع.

(وقال شداد بن أوس) رضي الله عنه: **(ما تكلَّمت بكلمة منذ أسلمت حتىٰ أزمَّها وأخطمها)** يقال: زمَّ ناقته وخطمها: إذا حبسها بزمام أو خطام **(غير هذه. وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتىٰ ندرك الغداء)** أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت[٢] من طريقين:

إحداهما قال فيها: حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن عمران بن أبي ليلىٰ، حدثنا عيسىٰ بن يونس، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس في سفر، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: ائتنا بالسُّفرة نعبث بها. فأنكرتُ عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطِمها وأزِمُّها إلا كلمتي هذه، فلا تحفظوها عليَّ.

والثانية قال فيها: حدثنا أحمد بن جميل، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا السري بن يحيىٰ، عن ثابت البُناني قال: قال شداد بن أوس لغلامه: ائتنا بسفرتنا نعبث ببعض ما فيها. فقال له رجل من أصحابه: ما سمعت منك كلمة منذ صاحبتُك أرىٰ أن يكون فيها شيء من هذه. قال: صدقتَ، ما تكلمتُ بكلمة منذ بايعت رسولَ الله ﷺ إلا أزمُّها وأخطمها إلا هذه، وايم الله لا تذهب مني هكذا. فجعل يسبِّح ويكبِّر ويحمد الله عز وجل.

(وقال أبو سفيان) بن[٣] الحارث بن عبد المطلب الهاشمي رضي الله عنه، ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما حليمة **(لأهله حين حضره الموت: لا**

---

(١) ومن طريقه رواه ابن ماجه في سننه ١/ ٢٧٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٢٥.

(٢) الصمت وآداب اللسان ص ٢١٧، ٢٢٣.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١١/ ١٦٩ - ١٧١.

تبكوا عليَّ، فإني ما أحدثت ذنبًا منذ أسلمت) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت[(١)]، وسيأتي في آخر الكتاب. وكان إسلامه يوم فتح مكة، ثم شهد حنينًا، وكان ممَّن ثبت معه، وكان آخذًا بِركاب البغلة، ومات سنة خمس عشرة في خلافة عمر، وقيل: سنة عشرين. وقيل: إنه لم يرفع رأسه إلىٰ رسول الله ﷺ حياءً منه.

(**وقال عمر بن عبد العزيز**) الأموي رحمه الله تعالىٰ: (**ما قضىٰ الله تعالىٰ لي بقضاء قط فسرَّني أن يكون قضىٰ لي بغيره، وما أصبح لي هوىً إلا في مواقع قدر الله**)[(٢)] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممَّن يرائي بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممَّن يُقتدَىٰ به، فذلك علىٰ قصد الاقتداء جائز للأقوياء**) القادرين علىٰ أنفسهم، المخلصين في قصودهم (**بالشروط التي ذكرناها، فلا ينبغي أن يُسَد باب إظهار الأعمال**) علىٰ مُظهِريها (**والطباع مجبولة علىٰ حب التشبُّه والاقتداء**) بذوي الصلاح في أعمالهم وكيفية سلوكهم وآدابهم (**بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس، ولكنه شر للمرائي، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمَن هو مُراءٍ عند الله، وقد رُوي أنه كان يجتاز**) أي يمر [(٣)] (**الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلِّين بالقرآن من البيوت**) وكأنَّ المراد به صلاة الليل، فقوله «عند الصبح» أي بالقرب من طلوعه (**فصنَّف بعضُهم كتابًا في**) التصوف وذكر فيه جملة من (**دقائق الرياء**) وخفاياها فطالعوه وسمعوه (**فتركوا ذلك**) خوفًا من أن يدخل فيه الرياء

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين ص ١١٥ (ط - دار ابن حزم) بلفظ: «لا تبكوا عليَّ، فما تنطفت بخطيئة منذ أسلمت».

(٢) الجملة الثانية من الأثر رواها ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٧/ ٣٦٣ بلفظ: «ما أصبح لي اليوم في الأمور هوىً إلا في مواقع قضاء الله فيها». هو في الرعاية صـ٢٠٤.

(٣) قوت القلوب ١/ ١٨٦.

الخفيُّ (وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنَّف) نقله صاحب القوت (**فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يُعرَف رياؤه، فإن الله يؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خَلاق لهم، كما ورد**) ذلك (**في الأخبار، وبعض المرائين ممَّن يُقتدَىٰ به منهم**) قال العراقي[1]: هما حديثان، فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في العلم، والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح، وقد تقدم أيضًا.

قلت: وروىٰ الطبراني من حديث عمرو بن النعمان بن مقرن: «إن الله تعالىٰ لَيؤيِّدُ الدين بالرجل الفاجر».

وروىٰ ابن النجار من حديث كعب بن مالك: «إن الله لَيؤيدُ الدين بقوم لا خَلاق لهم».

وروىٰ الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لَيؤيِّدُ الإسلام برجال ما هم من أهله»[2]. وقد تقدم الكلام عليه.

---

(١) المغني ٢/ ٩٣٧.

(٢) تقدمت هذه الأحاديث كلها في الباب الرابع من كتاب العلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطِّلاع الناس عليه وكراهة ذمِّهم له

(اعلمْ) أرشدك الله **(أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، كما قال عمر** رضي الله عنه **لرجل: عليك بعمل العلانية. قال: يا أمير المؤمنين، وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطُّلِع عليك لم تستحِ منه)**[١] أخرجه الإسماعيلي في مناقبه. وبه فسَّر مالك رحمه الله تعالىٰ قوله ﷺ: «إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ». أي إذا كنت في أمورك آمنًا من الحياء في فعلها لكونها علىٰ القانون الشرعي الذي لا يستحي منه أهله فاصنع ما شئت، ولا عليك من متكبِّر يلومك ولا من متصلِّف يستعتبك، فإن ما أباحه الشرع لا حياء في فعله.

(وقال أبو مسلم) عبد الله بن ثوب **(الخَوْلاني)** الزاهد الشامي التابعي رحمه الله تعالىٰ: **(ما عملت عملاً أبالي أن يطَّلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط)**[٢] أي فهذان العملان ممَّا يُستحيا منهما إذا اطَّلع عليهما الناس.

(إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل أحد، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه وبجوارحه) الظاهرة **(وهو يخفيها ويكره اطِّلاع الناس عليها لا سيَّما ما تختلج به الخواطر من الشهوات والأماني، والله مطَّلع علىٰ جميع ذلك، فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يُظَن أنه رياء محظور، وليس كذلك، بل المحظور أن يستر ذلك)**

---

(١) الرعاية صـ٢١٦.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٨١، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٢٨، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٨٢، وأبو داود في الزهد ص ٣٩٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧/ ٢٠٩. السابق

عنهم (ليرىٰ الناس أنه ورع) وأنه متَّقٍ وأنه (خائف من الله، مع أنه ليس كذلك، فهذا هو ستر المرائي، وأما الصادق الذي لا يرائي فله سترُ المعاصي، ويصح قصدُه فيه، ويصح اغتمامه باطِّلاع الناس عليه من ثمانية أوجه):

الوجه (الأول): هو (أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتمَّ بهتك الله ستره) في الدنيا (وخاف أن يهتك ستره في القيامة؛ إذ ورد في الخبر: إنَّ مَن سُتر عليه في الدنيا يُستَر عليه في الآخرة) تقدم قريبًا من رواية مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما ستر الله علىٰ عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة» (وهذا غمٌّ ينشأ من قوة الإيمان).

الوجه (الثاني: أنه قد علم أن الله تعالىٰ يكره ظهور المعاصي ويحب سترها، كما قال ﷺ: مَن ارتكب شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله) رواه الحاكم في المستدرك، وقد تقدم[١] (فهو وإن عصىٰ الله بالذنب فلم يَخْلُ قلبُه من محبة ما أحبه الله، وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله ظهور المعاصي، وأثرُ الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضًا ويغتمُّ بسببه).

الوجه (الثالث: أن يكره ذم الناس له من حيث إن ذلك يغمُّه ويشغل قلبَه وعقله عن طاعة الله، فإنَّ الطبع يتأذَّىٰ بالذم وينازع العقل ويشتغل عن الطاعة، ولهذه العلة أيضًا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن الله تعالىٰ ويستغرق قلبَه) بأن يغمره كلَّه (ويصرفه عن ذكر الله، وهذا أيضًا من قوة الإيمان؛ إذ صدقُ الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة) حتىٰ لا يكون فيه شاغل سواها (من الإيمان).

الوجه (الرابع: أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذَّىٰ طبعُه، فإنَّ الذم مؤلم للقلب، كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألُّم القلب بالذم ليس بحرام، ولا الإنسان به عاصٍ، وإنما يعصىٰ به إذا جزعت نفسه من ذم الناس

(١) في كتاب آفات اللسان [الآفة الرابعة عشر: الكذب في القول واليمين].

ودعتْه إلىٰ ما لا يجوز) ارتكابه (حذرًا من ذمِّهم، وليس يجب علىٰ الإنسان أن لا يغتمَّ بذم الخلق ولا يتألَّم به. نعم، كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامُّه ومادحه) أي يكون عنده حامده وذامُّه في الخلق سواء، كما قال ابن مسعود: لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتىٰ يحلَّ بذروته، ولا يحل بذروته حتىٰ يكون حامده وذامُّه عنده سواء. رواه صاحب الحلية[1] (لعلمه أن الضار والنافع هو الله، وأن العِباد كلهم عاجزون، و) وجود (ذلك قليل جدًّا) لعزة هذا المقام (وأكثر الطباع تتألَّم بالذم؛ لِما فيه من الشعور بالنقصان، ورُب متألِّم بالذم محمود إن كان الذامُّ من أهل البصيرة في الدين، فإنهم شهداء الله) في الأرض. وروىٰ الطبراني[2] من حديث سلمة بن الأكوع: «أنتم شهداء الله في الأرض، والملائكة شهداء الله في السماء» (وذمُّهم يدل علىٰ ذم الله تعالىٰ وعلىٰ نقصانه في الدين، فكيف لا يغتمُّ به؟! نعم، الغم المذموم هو أن يغتمَّ لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يُحمَد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يُحمَد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابًا من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد، وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم، فله الستر حذرًا من ذلك، ويُتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم، وإنما مراده أن يتركه الناس حمدًا وذمًّا، فكم من صابر علىٰ لذة الحمد لا يصبر علىٰ ألم الذم؛ إذ الحمد يطلب اللذة، وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم، فحب الحمد علىٰ الطاعة طلبُ ثواب علىٰ الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم علىٰ المصية فلا محذور فيه إلا لأمر واحد وهو أن يشغله غمُّه باطِّلاع الخلق علىٰ ذنبه عن اطلاع الله، فإنَّ ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمُّه باطلاع الله وذمِّه له أكثر) لأن شغله باطلاع الخَلق لا يزيده إلا غمًّا، بخلاف شغله باطلاع الله فإنه يزيده رهبة

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٢، وفيه: «ولا يحل بذروته حتىٰ يكون الفقر أحب إليه من الغنىٰ والتواضع أحب إليه من الشرف وحتىٰ يكون حامده ...» الخ.

(٢) المعجم الكبير ٧/ ٢٥.

ويجرُّه إلىٰ توبة.

(**الخامس: أن يكره الذم من حيث إن الذامَّ قد عصىٰ الله به، وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضًا، فهذا التوجُّع لا يفرق بينه وبين غيره، بخلاف التوجُّع من جهة الطبع**) فإنه يتوجَّع لنفسه أكثر من غيره.

الوجه (**السادس: أن يستر ذلك كيلا يُقصَد بشرٍّ إذا عُرف ذنبه، وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم مؤلم من حيث يُشعِر القلبَ بنقصانه وخسَّته، وإن كان ممَّن يؤمَن شره، وقد يخاف شر مَن يطَّلع علىٰ ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذرًا منه**).

الوجه (**السابع: مجرد الحياء، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خُلقٌ كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل، فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه**) والاستحياء[١] استفعال من الحياء، والحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياء (**وهو وصف محمود**) واختُلف فيه، وأشهر الأقوال أنه: تغيُّر[٢] وانكسار يَعرِض للإنسان من تخوُّف ما يُعاب به أو يُذَم عليه (**إذ قال رسول الله ﷺ: الحياء خير كله**) قال العراقي[٣]: رواه مسلم[٤] من حديث عمران ابن حصين، وقد تقدم.

قلت: وكذلك رواه أحمد[٥] وأبو داود[٦]. وإنما[٧] كان خيرًا كله لأن مبدأه انكسار يلحق الإنسانَ مخافةَ نسبته إلىٰ القبيح، ونهايته تركُ القبيح، وكلاهما خير،

(١) التفسير البسيط للواحدي ٢/ ٢٧٠.
(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٣٦.
(٣) المغني ٢/ ٩٣٧.
(٤) صحيح مسلم ١/ ٣٨. وهو عند البخاري ٤/ ١١٣ بلفظ: «الحياء لا يأتي إلا بخير».
(٥) مسند أحمد ٣٣/ ٥١، ٦٤، ١٣٨، ١٤٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٧، ٢٠٣، ٢١٠ - ٢١١.
(٦) سنن أبي داود ٥/ ٢٧٤.
(٧) فيض القدير ٣/ ٤٢٧.

ومن ثمراته مشهد النعمة والإحسان، فإن الكريم لا يقابل بالإساءة مَن أحسن إليه، وإنما يفعله اللئيم فيمنعه مشهدُ إحسانه إليه ونعمته عليه من عصيانه حياءً منه أن يكون خيره وإنعامه نازلاً عليه ومخالفته صاعدة إليه، فملَك ينزل بهذا وملَك يعرج بهذا، فأقبِح به من مقابلة!

(وقال ﷺ: **الحياء شعبة من الإيمان**) قال العراقي[١]: متفق عليه[٢] من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

قلت: وروىٰ أحمد[٣] وابن منيع والترمذي[٤] - وقال: حسن غريب - والحاكم[٥] والضياء من حديث أبي أمامة: «الحياء والعِيُّ شعبتان من الإيمان، والبَذاء والبيان شعبتان من النفاق». وفي لفظ آخر: «الحياء من الإيمان». رواه مسلم[٦] والترمذي[٧] وابن ماجه[٨] من طريق سفيان بن عيينة، والبخاري[٩] وأبو داود[١٠] والنسائي[١١] من طريق مالك، ومسلم وحده من طريق معمر، ثلاثتهم عن الزهري عن سالم عن أبيه أنه قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلاً يعظ أخاه في الحياء

(١) المغني ٢/ ٩٣٧.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٠. صحيح مسلم ١/ ٣٨. وتمام الحديث: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

(٣) مسند أحمد ٣٦/ ٦٤٩.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٥٥١.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٠٨.

(٦) صحيح مسلم ١/ ٣٨.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ٣٦١.

(٨) سنن ابن ماجه ١/ ٨٤.

(٩) صحيح البخاري ١/ ٢٤، ٤/ ١١٣.

(١٠) سنن أبي داود ٥/ ٢٧٤.

(١١) سنن النسائي ص ٧٦٤.

فقال: «الحياء من الإيمان». وفي رواية: وقال: «دَعْه، فإن الحياء من الإيمان». وقد انفرد الشيخان بهذه اللفظة. ورواه أبو يعلىٰ[١] من حديث عبد الله بن سلام. ورواه ابن عساكر[٢] وابن النجار من حديث أبي بكرة. ورواه[٣] أيضًا من حديث أبي هريرة. وفي لفظ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة». رواه الطبراني[٤] والبيهقي[٥] من حديث عمران بن حصين. ورواه أحمد[٦] والترمذي[٧] – وقال: حسن صحيح – وابن حبان[٨] والحاكم[٩] من حديث أبي هريرة. ورواه البخاري في الأدب[١٠] والطبراني[١١] والحاكم[١٢] والبيهقي[١٣] من حديث أبي بكرة. ورواه الشيرازي في الألقاب والطبراني في الأوسط[١٤] من حديث عمران بن حصين وأبي بكرة معًا. وفي لفظ: «الحياء شعبة من شُعَب الإيمان، ولا إيمان لمَن لا حياء له». رواه ابن لال في مكارم الأخلاق[١٥] عن مجمِّع بن جارية عن عمِّه.

---

(١) مسند أبي يعلىٰ ١٣/ ٤٨٨.

(٢) تاريخ دمشق ٣٣/ ٢٧٨.

(٣) السابق ٣٧/ ٢٤٣، ٣٩/ ٩٢.

(٤) المعجم الكبير ١٨/ ١٧٨.

(٥) شعب الإيمان ١٠/ ١٥٠ - ١٥١.

(٦) مسند أحمد ١٦/ ٣٠٥.

(٧) سنن الترمذي ٣/ ٥٣٩.

(٨) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٠٨.

(١٠) الأدب المفرد ص ٣٨٠.

(١١) المعجم الأوسط ٥/ ١٩٣.

(١٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٠٨.

(١٣) شعب الإيمان ١٠/ ١٥٠.

(١٤) المعجم الأوسط ٨/ ٢٧١.

(١٥) وكذلك ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص ٤٤، وقوام السنة في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٧٥.

(وقال ﷺ: **الحياء لا يأتي إلا بخير**) لأن[1] مَن استحيا من الناس أن يروه يأتي بقبيح دعاه ذلك إلىٰ أن يكون حياؤه من ربه أشد، فلا يضيع فريضة، ولا يرتكب خطيئة.

قال العراقي[2]: متفق عليه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

قلت: ورواه كذلك أحمد.

(وقال ﷺ: **إن الله يحب الحيي الحليم**) أي صاحب الحياء والحلم. قال العراقي[3]: رواه الطبراني من حديث فاطمة. وللبزار من حديث أبي هريرة: «إن الله يحب الغني الحليم المتعفِّف». وفيه ليث بن أبي سليم، مختلَف فيه.

قلت: وروىٰ ابن صَصْرَىٰ في أماليه من حديث أبي هريرة: «إن الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفِّف من عباده، ويبغض الفاحش البذيء السائل الملحف».

وروىٰ أحمد ومسلم والعسكري في الأمثال من حديث سعد: «إن الله عز وجل يحب العبد التقي الغني الخفيَّ»[4].

(**فالذي يفسق ولا يبالي بأن يظهر فسقُه للناس جمع إلىٰ الفسق التهتُّكَ والوقاحة**) أي صلابة الوجه (**وفقد الحياء، فهو أشد حالاً ممَّن يستتر ويستحي، إلا أن الحياء ممزوج بالرياء ومشتبه به اشتباهًا عظيمًا قلَّ مَن يتفطَّن له، ويدَّعي كلُّ**

---

(١) فيض القدير ٣/ ٤٢٧.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٨.

(٣) السابق ٢/ ٩٣٨.

(٤) حديث فاطمة وحديث سعد بن أبي وقاص تقدما في فضيلة الحلم من كتاب ذم الغضب والحقد. أما حديث أبي هريرة فرواه البزار في مسنده ١٦/ ٢١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٨/ ٢٦٤، وأبو نعيم في تاريخ أصفهان ١/ ٧٨، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصفهان ٢/ ٣٠٥.

مُراءٍ أنه مستح، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس. وذلك كذبٌ، بل الحياء خُلقٌ ينبعث من الطبع الكريم) ونقل القشيري في الرسالة[1] عن الجنيد رحمه الله تعالىٰ قال: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فتولَّد من بينهما حالةٌ تسمىٰ: الحياء (وتهيج عقيبه داعيةُ الرياء وداعية الإخلاص، ويُتصور أن يخلص معه، ويُتصور أن يرائي معه.

وبيانه: أن الرجل يطلب من صديق له قرضًا، ونفسه لا تسخو بإقراضه، إلا أنه يستحي من ردِّه) بلا إعطاء (وعلم أنه لو راسله علىٰ لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب، فله عند ذلك أحوال:

إحداها: أن يشافه) أي يواجه (بالرد الصريح ولا يبالي فيُنسَب إلىٰ قلة الحياء، وهذا فعلُ مَن لا حياء له، فإن المستحي) لا يخلو (إما أن يتعلَّل) أي يعتذر ويتعلق بذكر علة مانعة له من الإقراض (أو يقرض) في الحال (فإن أعطىٰ فيُتصور له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يمتزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياءُ فيقبُح عنده الردُّ فيهيج خاطرُ الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتىٰ يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء. أو: ينبغي أن تعطي حتىٰ لا يذمك ولا ينسبك إلىٰ البخل، فإذا أعطىٰ فقد أعطىٰ بالرياء، وكان المحرِّك للرياء هو هيجان الحياء).

الحالة (الثانية: أن يتعذَّر عليه الرد بالحياء ويبقي في نفسه البخل، فيتعذَّر الإعطاء، فيهيج باعثُ الإخلاص ويقول: إن الصدقة بواحدة والقرض بثمانية عشر) كما ورد ذلك في الخبر (ففيه أجر عظيم وإدخال سرور علىٰ قلب صديق، وذلك محمود عند الله تعالىٰ، فتسخو النفسُ بالإعطاء لذلك. فهذا مخلص هيَّج الحياءُ إخلاصه).

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٧٥.

الحالة (**الثالثة: أن لا تكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مَذَمَّته ولا حب لمَحمدته؛ لأنه لو طلبه مراسَلةً لكان لا يعطيه، فإعطاؤه بمحض الحياء وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء، ولولا الحياء لردَّه، ولو جاءه مَن لا يستحي منه من الأجانب والأراذل لكان يرده وإن كثُر الحمدُ والثواب فيه، فهذا مجرَّد الحياء، ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب**) أي ملابستها (**والمرائي يستحي من المباحات أيضًا، حتىٰ إنه يُرَىٰ مستعجلاً في المشي فيعود إلىٰ الهدوء**) أي السكون (أو) يُرَىٰ (**ضاحكًا فيرجع إلىٰ الانقباض، ويزعم أن ذلك حياء، وهو عين الرياء، وقد قيل: إن بعض الحياء ضعفٌ**[1]. وهو) قول (**صحيح، والمراد به الحياء ممَّا ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة، وهو في النساء والصبيان محمود، وفي العقلاء**) البالغين (**غير محمود، وقد تشاهَد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكَر عليه؛ لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم**) كما ورد في الخبر: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم». رواه ابن المبارك وابن أبي شيبة وأبو داود والطبراني والبيهقي والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث جابر[2]: «إن من إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم» (**وهذا الحياء**

---

(١) روىٰ ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٩/ ٦٦ عن حميد بن عبد الرحمن قال: دخلنا علىٰ أسير - رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - حين استخلف يزيد بن معاوية ... فذكر حديثا فيه: ثم قال أسير: قال رسول الله ﷺ: «لا يأتيك من الحياء إلا خير». قال حميد: فقال صاحبي: إن في قصص لقمان: إن بعض الحياء ضعف، وبعضه وقار لله ... وذكر بقية الحديث. وعند مسلم في صحيحه ١/ ٣٨ من حديث عمران بن حصين: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله». فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب - أو الحكمة - أن منه سكينة ووقارا لله ومنه ضعف. فغضب عمران حتىٰ احمرت عيناه وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه؟!

(٢) هذا الحديث رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٤٣ وأبو داود في سننه ٥/ ٢٩١ عن أبي موسىٰ الأشعري مرفوعا، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٠٣، ١١/ ١٣ عنه موقوفا. ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ٧/ ٢١ والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٢٢٦ عن جابر. ولم أقف علىٰ الحديث عند الخرائطي. وتمام الحديث: «وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

حسنٌ، وأحسن منه أن تستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوي يؤثِر الحياء من الله علىٰ الحياء من الناس، والضعيف قد لا يقدر عليه) وقال النووي في شرح مسلم[١]: وأما كون الحياء خيرًا كله ولا يأتي إلا بخير فقد يشكل علىٰ بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق مَن يجلّه فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله علىٰ الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك ممَّا هو معروف في العادة. قال: وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة - منهم الشيخ ابن الصلاح[٢] - أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقةً، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياءً من إطلاقهم، يعني أهل العُرف، أطلقوه مجازًا لمشابهته للحياء الحقيقي، وإنما حقيقة الحياء: خُلقٌ يبعث علىٰ ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق. والله أعلم.

(فهذه الأسباب هي التي يجوز لأجلها سترُ القبائح والذنوب) وقد ذكر المصنف منها ستة، ولم يذكر الوجه السابع، وتقدم له في أول الكلام أنها ثمانية أوجه، وقد راجعت غالب نسخ المتن فوجدت الوجه السابع ساقطًا فيها[٣]، فانظر ذلك.

الوجه **(الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيرُه ويقتدي به، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة، ويختصُّ ذلك بالأئمة أو بمَن يُقتدَىٰ به، وبهذه العلة ينبغي أيضًا أن يخفي العاصي أيضًا معصيته من أهله وولده؛ لأنهم يتعلمون منه)** إذا اطَّلعوا عليها منه **(ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيِّل إلىٰ الناس أنه ورع كان مرائيًا، كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة)** كلاهما علىٰ حد سواء.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ٧ - ٨.

(٢) صيانة صحيح مسلم ١٩٨ - ١٩٩ (ط - دار الغرب الإسلامي).

(٣) لعله سهو من الشارح، فإن الوجه السابع مذكور وهو من قوله: مجرد الحياء فإنه نوع ألم ... الخ.

(فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه؟ وقد قال رجل للنبي ﷺ: دُلَّني علىٰ ما يحبني الله عليه ويحبني الناس. فقال: ازهدْ في الدنيا) من[1] الزُّهد بالضم، وهو لغةً: الإعراض عن الشيء احتقارًا، وشرعًا: الاقتصار علىٰ قدْر الضرورة ممَّا يُتيقَّن حِله، والمراد بالزهد في الدنيا: استصغار جملتها واحتقار جميع شأنها لتحذير الله منها واحتقاره لها **(يحبك الله، وانبذ إليهم هذا الحُطام)** أي ارمِ لهم بما في يدك من أعراض الدنيا **(يحبوك)** لأن قلوبهم مجبولة مطبوعة علىٰ حب الدنيا، ومَن نازع إنسانًا في محبوبه كرهه وقلاه، ومَن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه.

قال العراقي[2]: رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ: «وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

قلت: سياق[3] المصنف أخرجه أبو نعيم في الحلية[4] من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أنس بلفظ: «ازهدْ في الدنيا يحبك الله، وأما الناس فانبذْ إليهم هذا يحبوك». ورجاله ثقات، لكن في سماع مجاهد من أنس نظرٌ، وقد رواه الأثبات فلم يجاوزوا به مجاهدًا، وكذا رُوي من حديث ربعي بن حراش عن الربيع بن خثيم رفعه مرسلاً. وأما حديث سهل بن سعد فرواه ابن ماجه في الزهد من سننه[5] والطبراني في الكبير[6] وأبو نعيم في الحلية[7] وابن حبان[8] والحاكم في

---

(١) فيض القدير ١/ ٤٨١.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٨.

(٣) المقاصد الحسنة ص ٥٢.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٤١.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٥٢ - ٥٥٣.

(٦) المعجم الكبير ٦/ ١٩٣.

(٧) حلية الأولياء ٣/ ٢٥٣، ٧/ ١٣٦.

(٨) روضة العقلاء ص ١٤١.

صحيحه(١) والبيهقي في الشعب(٢) وآخرون، كلهم من حديث خالد ابن عمرو القرشي عن الثوري عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلَّني علىٰ عمل إذا عملتُه أحبني الله وأحبني الناس. فقال: ازهدْ ... وذكره. وقال الحاكم: إنه صحيح الإسناد. وليس كذلك، فخالد مُجمَع علىٰ تركه، بل نُسب إلىٰ الوضع، لكن قد رواه غيره عن الثوري. وقال المنذري(٣) عقيب عزوه لابن ماجه: وقد حسَّن بعضُ مشايخنا إسنادَه، وفيه بعدٌ؛ لأنه من رواية خالد القرشي، وقد تُرِكَ واتُّهِم. قال: لكن علىٰ هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة، ولا يمنع كونُ راويه ضعيفًا أن يكون النبي ﷺ قاله. ا.هـ. وقد سبقه النووي(٤) في تحسينه، وتبعه العراقيُّ والجلال السيوطي(٥)، وقد اختلف فيه كلام الحافظ ابن حجر(٦)، والذي يميل إليه القلب تحسينه. والله أعلم.

(فنقول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحًا، وقد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه عَزَّوَجَلَّ إذا أحب عبدًا حبَّبه في قلوب عباده) روىٰ أبو نعيم في الحلية(٧) من حديث أنس: «إذا أحب الله عبدًا قذف حبه في قلوب الملائكة، وإذا أبغض عبدًا قذف بغضه في قلوب الملائكة، ثم يقذفه في قلوب الآدميين». وفي المتفق عليه(٨) من حديث أبي هريرة: «إذا أحب الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا نادىٰ جبريلَ: إن الله يحب فلانًا فأحِبْه. فيحبه جبريل، فينادي

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٥.

(٢) شعب الإيمان ١٣/ ١١٦ - ١١٧.

(٣) الترغيب والترهيب ص ١١٦٦.

(٤) رياض الصالحين ص ١٦٥. بستان العارفين ص ٣٣ - ٣٤. الأذكار ص ٣٥١ [وعده أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام].

(٥) بل رمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير.

(٦) بل حكم عليه بالضعف في لسان الميزان ١/ ٦١٥.

(٧) حلية الأولياء ٣/ ٧٧.

(٨) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٤، ٤/ ٩٨، ٤٠١. صحيح مسلم ٢/ ١٢١٧.

جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضَع له القبول في الأرض». و[هو] عند الترمذي[1] - وقال: حسن صحيح - بزيادة: «ثم تُنزَل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾» [مريم: ٩٦] **(والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم علىٰ حجك وغزوك وصلاتك وعلىٰ طاعة بعينها، فإنَّ ذلك طلبُ عوض علىٰ طاعة الله عاجلاً سوىٰ ثواب الله)** فذلك مذموم **(والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة)** وأخلاق حسنة **(سوىٰ الطاعات المحبوبة المعينة، فحبك ذلك كحبك للمال؛ لأن مَلْك القلوب وسيلة إلىٰ الأغراض كمَلْك الأموال)** فإنه كذلك وسيلة إلىٰ الأغراض **(فلا فرق بينهما)** حينئذٍ. والله الموفِّق.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٢٢٤.

بيان ترك الطاعات خوفًا من الرياء ودخول الآفات

(اعلمْ) هداك الله (أن من الناس من يترك العمل خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك) أي تركُ أصل العمل لهذا الخوف (غلط وموافَقة للشيطان) فإنَّ قصده من العبد ذلك (بل الحق فيما يُترَك من الأعمال وما لا يُترَك لخوف الآفات ما نذكره) الآن (وهو أن الطاعات) بأسرها (تنقسم إلىٰ ما لا لذة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو، فإنها) في أصلها (مُقاساة ومجاهدات) بدنية ومالية (وإنما تصير لذيذة) لعارض وهو (من حيث إنها توصل إلىٰ حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطِّلاع الناس عليه) فظهر أن اللذة فيها لا لعينها (وإلىٰ ما هو لذيذ) لعينه (وهو أكثر مما لا يقتصر علىٰ البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحِسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال علىٰ الخلق وغير ذلك ممَّا تعظُم الآفةُ فيه لتعلُّقه بالخلق ولما فيه من اللذة.

القسم الأول: الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصلاة والصوم والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث:

إحداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث علىٰ الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين، فهذا مما ينبغي أن يُترَك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه، فإنه تدرُّعٌ) أي تلبُّسٌ (بصورة الطاعة إلىٰ طلب المنزلة) في قلوب الناس (فإن قدر الإنسان علىٰ أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحين من مولاكِ؟ لا تسخين بالعمل لأجله، وتسخين بالعمل لأجل عباده. حتىٰ يندفع) بذلك القول (باعثُ الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبةً للنفس علىٰ خاطر الرياء وكفَّارة له، فليشتغل حينئذٍ[1] بالعمل.

---

(١) لعلها من كلام الزبيدي، إذ لا توجد إلا عنده.

الثانية: أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياءُ مع عقد العبادة وأولها، فلا ينبغي أن يترك العمل) لهذا (لأنه وجد باعثًا دينيًّا، فليشرع في العمل) وليستمرَّ عليه (وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحصيل) أصل (الإخلاص بالمعالجة التي ذكرناها من إلزام النفس كراهية الرياء والإباء عن القبول.

الثالثة: أن يعقد علىٰ الإخلاص) بالمعالجة (ثم يطرأ الرياءُ ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع) مهما أمكنه (ولا يترك العمل لكي يرجع إلىٰ عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهرًا حتىٰ يتمِّم العملَ؛ لأن الشيطان يدعوك أولاً إلىٰ ترك العمل) من أصله (فإذا لم تُجِبْ) دعاءه (واشتغلت) بالعمل (فيدعوك إلىٰ الرياء، فإن لم تُجِبْ) دعاءه (ودفعت) في عملك (بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص، وأنت مُراءٍ، وتعبك ضائع، وأيُّ فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه؟ حتىٰ يحملك بذلك علىٰ ترك العمل) بهذه الخِداعات (فإذا تركتَه فقد حصَّلتَ غرضَه) الذي هو بصدده، وهذا معنىٰ الخبر: «إن للشيطان مصائد وفخوخًا». وفي الخبر الآخر: «الشيطان طَلاَّع رَصَّاد» (ومثال مَن يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيًا كمَن سلَّم إليه مولاه حنطة فيها زُؤان) وهو[1] حب يخالط البُرَّ فيكسبه الرداءة، وفيه لغات: ضمُّ الزاي مع الهمز وتركه فيكون وِزان: غُراب، وكسر الزاي مع الواو، الواحدة: زؤانة، ويسمىٰ: الشَّيْلَم (وقال: خلِّصْها من الزؤان ونَقِّها منه تنقية بالغة. فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلتُ به لم تخلَّص خلاصًا صافيًا نقيًّا. فيترك العمل من أجله، وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنىٰ له. ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفًا علىٰ الناس أن يقولوا إنه مُراءٍ فيعصون الله) بسبب قولهم ذلك، فيكون هو الحامل لهم علىٰ الوقوع في تلك المعصية (فهذا من مكائد الشيطان) وخِدَعه (لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك) فهو داخل تحت قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] (ثم إن كان فلا يضرُّه قولُهم

---

(١) المصباح المنير ص ٢٦٠. وفيه أن أهل الشام هم الذين يسمونه الشيلم.

ويفوته ثوابُ العبادة، وتركُ العمل خوفًا من قولهم إنه مُراءٍ هو عين الرياء) فهو مثله مثل مَن فرَّ من المطر إلىٰ الميزاب (فلولا حبه لمَحمدتهم وخوفه من مَذَمَّتهم فما له ولقولهم، قالوا إنه مُراءٍ أو قالوا إنه مخلص، فأيُّ فرق بين أن يترك العمل خوفًا من أن يقال إنه مُراءٍ وبين أن يحسن العمل خوفًا من أن يقال إنه غافل) عن أمور الدين (مقصِّر) فيها (بل تركُ العمل أشد من ذلك، فهذه كلها مكائد الشيطان) وتلبيساته (علىٰ العُبَّاد الجهَّال) الذين اختلفوا علىٰ العبادة وتركوا العلم (ثم كيف يطمع أن يتخلَّص من) شَرَك (الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخلِّيه بل يقول له) ممَّا يوسوس إليه: (الآن يقول الناس إنك تركتَ العمل ليقال إنك مخلص لا تشتهي الشهرة. فيضطرك) أي يلجئك (بذلك إلىٰ أن تهرب من الناس، فإن هربت ودخلت سَرَبًا) محرَّكة: بيتًا (تحت الأرض) لا سقف له[1]، ويسمَّىٰ: الوَكْر (ألقىٰ في قلبك حلاوة معرفة الناس بتزهُّدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم علىٰ ذلك، فكيف تتخلَّص منه) من شرِّه ومن شَرَكه؟ (بل لا نجاة منه إلا بأن تُلزِم قلبَك معرفةَ آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة، ولا نفع فيه في الدنيا؛ لتُلزِم الكراهةَ والإباء قلبَك، وتستمر مع ذلك علىٰ العمل) وتسير عليه (فلا تبالي وإن نزغ العدو نازغ الطبع، فإنَّ ذلك لا ينقطع) ولا يُدرَك مُنتهاه (وتركُ العمل لأجل ذلك يجرُّ إلىٰ البطالة و) يفضي إلىٰ (ترك الخيرات) فيبقىٰ محرومًا خاسرًا (فما دمتَ تجد باعثًا دينيًّا علىٰ العمل فلا تترك العمل، وجاهِدْ خاطر الرياء، وألزِمْ قلبَك الحياءَ من الله إذا دعتك نفسُك إلىٰ أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطَّلع علىٰ قلبك) رقيب علىٰ أحوالك (ولو اطَّلع الخلق علىٰ قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك) أي أبغضوك (بل إن قدرتَ علىٰ أن تزيد في العمل حياءً من ربك وعقوبة لنفسك فافعلْ، فإن قال لك) قائل أو (الشيطان: أنت مُراءٍ، فاعلمْ كذبه وخِدَعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله، فإن لم تجد في قلبك

(١) في المصباح المنير ص ٢٧٢: لا منفذ له.

له كراهية ومنه خوفًا ولم يبقَ باعث دينيٌّ بل مجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك. وهو بعيد، فمَن شرع في العمل لله فإنه لا بد أن يبقىٰ معه أصل قصدِ الثواب.

فإن قلتَ: فقد نُقل عن أقوام) من السلف (تركُ العمل مخافة الشهرة) فمن ذلك: (رُوي أن إبراهيم) بن يزيد (النخعي) رحمه الله تعالىٰ (دخل عليه إنسان وكان يقرأ) في المصحف (فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرىٰ هذا أنَّا نقرأ كل ساعة[١]. وقال إبراهيم) بن يزيد (التيمي) رحمه الله تعالىٰ: (إذا أعجبك الكلام فاسكت، وإذا أعجبك السكوت فتكلم[٢])[٣] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وقد تقدم في آفات اللسان (وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: (إن كان أحدهم) أي من الذين أدركهم من السلف (لَيمرُّ بالأذىٰ) في الطريق من خشبة وعَذِرة وحجر وشوك وغير ذلك (ما يمنعه من رفعه) وإزالته (إلا كراهة الشهرة) بين الناس (وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلىٰ الضحك مخافة الشهرة[٤])[٥] بين الناس. رواه أبو نعيم في الحلية من طريق هشام عن الحسن (وقد ورد في ذلك آثار كثيرة) تدل علىٰ ترك العمل مخافة الشهرة (قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ ٥٠٦، ١٠/ ٥٦، وأحمد في الزهد ص ٢٩٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٢٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٥١٤.

(٢) عن إبراهيم ذكره الحارث في الرعاية صـ٢٠٧.

(٣) هذا الكلام رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٨٥ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٤٧ عن بشر بن الحارث الحافي. وقد تقدم عنه في الباب السادس من كتاب العلم بلفظ: «إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت، فإذا لم تشتهِ فحدث». ورواه أبو نعيم في موضع آخر ٧/ ٢٨١ عن سفيان بن عيينة.

(٤) السابق.

(٥) تقدم هذا الأثر في بيان ذم الرياء بلفظ: «لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم ليمر فيرىٰ الأذىٰ في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة». وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية ص ٦٤ من طريق عبد الله بن المبارك قال: أخبرني رجل عن أبي السليل البصري أنه كان يحدث أو يقرأ فيأتيه البكاء فيصرفه إلىٰ الضحك.

الطاعات ممَّن لا يُحصَىٰ، وإظهار الحسن البصري) رحمه الله تعالىٰ (هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلىٰ خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذىٰ عن الطريق يقلُّ) ويندر (ثم لم يتركه) أي لم يثبُت عنه الترك (وبالجملة، تركُ النوافل جائز، والكلام في الأفضل، والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتمِّم العملَ ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف) وتمكُّنه منهم (فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلىٰ ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته) وإنجاح ما جاء لأجله (فرأىٰ أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم علىٰ الترك للاشتغال به حتىٰ يعود إليه بعد ذلك. وأما تركُ رفع الأذىٰ فذلك ممَّن يخاف علىٰ نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة عن الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة علىٰ عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء.

وأما قول إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الخطاب وغيره، فإنَّ ذلك يورث العُجْبَ) في النفس (وكذلك العُجب في السكوت المباح محذور، فهو عدول عن مباح إلىٰ مباح حذرًا من) الوقوع في (العُجب، فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينصَّ عليه، علىٰ أن الآفة ممَّا تعظُم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني) الآتي ذِكره بعد هذا (وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد ممَّا لا يتعلق بالناس ولا تعظُم فيه الآفات.

ثم كلام الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ (في تركهم البكاء وإماطة الأذىٰ لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفًا للناس من آفة الشهرة وزجرًا عن طلبها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظُم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة) أي الولاية العامة (ثم القضاء) وهي الولاية الخاصة (ثم التذكير) والوعظ علىٰ العامة

(**ثم التدريس**) للعلوم الشرعية (**والفتوىٰ، ثم إنفاق الأموال**) علىٰ الناس (**أما الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، وقد قال النبي ﷺ: لَيومٌ من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عامًا**) قال العراقي[1]: رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس، وقد تقدم[2].

قلت: لفظهما: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحدٌّ يُقام في الأرض بحقه أزكىٰ فيها من مطر أربعين يومًا».

وقد رُويت الجملة الأخيرة من حديث أبي هريرة بلفظ: «حدٌّ يُقام في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحًا». هكذا رواه ابن حبان[3]، وعند أحمد[4] والنسائي[5] وابن ماجه[6] بلفظ: «حدٌّ يُقام في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحًا».

(**فأعظِمْ بعبادة يوازي يوم منها عبادةَ ستين سنة.**

وقال ﷺ: أول من يدخل الجنة ثلاثة، الإمام المقسط أحدهم) قال العراقي[7]: رواه مسلم[8] من حديث عياض بن حمار: «أهل الجنة ثلاث: ذو سلطان مقسط ...»، ولم أرَ فيه ذِكر الأوَّلية.

---

(١) المغني ٢/ ٩٣٨.

(٢) في الباب الرابع من كتاب الصلاة، واقتصر هناك علىٰ عزوه للطبراني، وقد رواه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٨١.

(٣) صحيح ابن حبان ١٠/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤) مسند أحمد ١٤/ ٣٥١، ١٥/ ١٢٤.

(٥) سنن النسائي ص ٧٤٧.

(٦) سنن ابن ماجه ٤/ ١٥٧.

(٧) المغني ٢/ ٩٣٨.

(٨) صحيح مسلم ٢/ ١٣١١. وفيه: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربىٰ ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال».

(وقال أبو هريرة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم، الإمام العادل أحدهم)** وتمام الحديث: «والصائم حتىٰ يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب تبارك وتعالىٰ: وعزَّتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين». هكذا رواه الطيالسي[1] وأحمد[2] والترمذي[3] - وقال: حسن - وابن ماجه[4] والبيهقي[5]، وروىٰ ابن حبان صدره إلىٰ قوله «المظلوم»[6]، وقد تقدم في كتاب الصوم. ورواه ابن أبي شيبة[7] بلفظ: «الإمام العادل لا تُرَدُّ دعوته».

(وقال ﷺ: أقرب الناس مني منزلاً يوم القيامة إمام عادل. رواه أبو سعيد الخدري) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال العراقي[8]: رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب[9] من رواية عطية العوفي - وهو ضعيف - عنه، وفيه أيضًا إسحاق بن إبراهيم الديباجي، ضعيف أيضًا.

قلت: رواه أحمد[10] والترمذي[11] - وقال: حسن غريب - والبيهقي[12]

---

(١) مسند الطيالسي ٤/ ٣١٠.

(٢) مسند أحمد ١٣/ ٤١٠، ١٥/ ٤٦٣.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٩٣، ٥/ ٥٤٨.

(٤) سنن ابن ماجه ٣/ ٢٢٨.

(٥) السنن الكبرىٰ ٣/ ٤٨١، ٨/ ٢٨٠، ١٠/ ١٥٠.

(٦) صحيح ابن حبان ٨/ ٢١٥.

ورواه في موضع آخر ١٦/ ٣٩٦ تاما.

ورواه في موضع آخر ٣/ ١٥٨ من أول قوله (دعوة المظلوم) ولم يذكر أوله.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٠٤، ١١/ ١٣.

(٨) المغني ٢/ ٩٣٩.

(٩) الترغيب والترهيب ٣/ ٨٠، ولفظه: «أرفع الناس درجة عند الله تعالىٰ يوم القيامة إمام عادل، وأوضع الناس يوم القيامة إمام غير عادل».

(١٠) مسند أحمد ١٧/ ٢٦٤، ١٨/ ٨٥.

(١١) سنن الترمذي ٣/ ١١.

(١٢) السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٥٢.

بلفظ: «إن أحب عباد الله [إلىٰ الله] يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا إمام عادل، وأبغض الناس إلىٰ الله [يوم القيامة] وأبعدهم منه مجلسًا - وفي لفظ: وأشدهم عذابًا - إمام جائر».

(**فالإمارة والخلافة من أعظم العبادة، ولم يزل المتَّقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلُّدها، وذلك لِما فيها من عِظَم الخطر؛ إذ تتحرك بها الصفات الباطنة، ويغلب علىٰ النفس حبُّ الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم مَلاذِّ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعيًا في حظ نفسه وأوشك أن يتَّبع هواه فيمتنع عن كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقًّا ويُقدِم علىٰ ما يزيد في مكانته**) أي منزلته وقدْره (**وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرًّا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه**) وهو حديث ابن عباس (**ولهذا الخطر العظيم كان عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول: من يأخذها**) أي الإمارة (**بما فيها**)؟ أي من الأخطار. رواه ابن أبي الدنيا في «مواعظ الخلفاء» بلفظ: قال عمر: واعمراه! مَن يتولاَّها بما فيها؟ وقد تقدم للمصنف في كتاب الأمر بالمعروف.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية(١) من طريق الأوزاعي عن سِماك عن ابن عباس قال: لمَّا طُعن عمر دخلت عليه فقلت له: أبشِرْ يا أمير المؤمنين، فإن الله قد مصَّرَ بك الأمصارَ، ودفع بك النفاق، وأفشىٰ بك الرزق. فقال: أفي الإمارة تثني عليَّ يا ابن عباس؟ فقلت: وفي غيرها. فقال: والذي نفسي بيده، لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر.

(**وكيف لا وقد قال النبي** ﷺ**: ما من والي عشيرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلىٰ عنقه، أطلقه عدله أو أوبقه جوره. رواه معقل بن يسار**) بن عبد الله المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شهد الحديبيةَ ونزل البصرة. قال العراقي(٢): رواه أحمد(٣) من حديث

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٥٢.

(٢) المغني ٢/ ٩٣٩.

(٣) مسند أحمد ٣٧/ ٤١٩، ٤٤٤.

عبادة بن الصامت. ورواه أحمد[١] والبزار[٢] من رواية رجل لم يُسَمَّ عن سعد ابن عُبادة، وفيهما يزيد بن أبي زياد، متكلَّم فيه. ورواه أحمد[٣] والبزار[٤] وأبو يعلىٰ[٥] والطبراني في الأوسط[٦] من حديث أبي هريرة. ورواه البزار[٧] والطبراني[٨] من حديث بُرَيدة. والطبراني في الأوسط[٩] من حديث ابن عباس وثوبان. وله[١٠] من حديث أبي الدرداء: «ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولةً يمينه ...» الحديث. وقد عزا المصنف هذا الحديثَ لرواية معقل بن يسار، والمعروف من حديث معقل بن يسار: «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً لم يَحُطْها بنصحه إلا لم يرحْ رائحة الجنة». متفق عليه[١١]. انتهىٰ.

قلت: سياق المصنف رواه الضياء في المختارة من حديث ثوبان.

وأما حديث معقل بن يسار فلفظه عند الحاكم في الكنىٰ والطبراني في الكبير[١٢]: «ما من والٍ وليَ من أمر المسلمين شيئًا فلم يحطْ من ورائهم بالنصيحة إلا كبَّه الله علىٰ وجهه في جهنم يوم يجمع الله الأوَّلين والآخِرين». ولفظ مسلم: «ما من أمير يلي أمرَ المسلمين ثم لم يَجْهَد لهم ولم ينصح إلا لم يدخل معهم الجنة».

---

(١) السابق ٣٧/ ١٢٠، ١٢٩.

(٢) مسند البزار ٩/ ١٩٢.

(٣) مسند أحمد ١٥/ ٣٥٢.

(٤) مسند البزار ١٤/ ٢٤٨، ١٥/ ٢٨، ١٥٦.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ١١/ ٤٤٣، ٤٩٢، ٥٠٦.

(٦) المعجم الأوسط ١/ ٩١، ٦/ ٢١٦.

(٧) مسند البزار ١٠/ ٣٣٩.

(٨) المعجم الأوسط ٥/ ٩١، ٦/ ٤٨.

(٩) السابق ١/ ٩٤، ٩/ ٤١، ١٤٤.

(١٠) السابق ١/ ٢٠٥، ٧/ ١١٠.

(١١) صحيح البخاري ٤/ ٣٣١. صحيح مسلم ١/ ٧٥، ٢/ ٨٨٧ - ٨٨٨.

(١٢) المعجم الكبير ٢٠/ ٢٠٥.

وأما حديث أبي الدرداء فلفظه: «ما من والي ثلاثة إلا لقي اللهَ مغلولةً يمينه إلىٰ عنقه، فكَّه عدلُه أو غلَّه جَوْرُه». هكذا رواه ابن عساكر[١] أيضًا.

وروىٰ أحمد[٢] من حديث أبي أمامة: «ما من رجل يلي أمرَ عشرة فما فوق ذلك إلا أتىٰ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مغلولاً [يوم القيامة] يده إلىٰ عنقه، فكَّه عدلُه[٣] أو أوبقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزيٌ يوم القيامة».

وروىٰ النسائي[٤] من حديث أبي هريرة: «ما من أمير ثلاثة إلا يؤتَىٰ به يوم القيامة مغلولةً يداه إلىٰ عنقه، أطلقه الحق أو أوثقه». ورواه البيهقي[٥] بلفظ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتَىٰ به يوم القيامة ويده مغلولة إلىٰ عنقه».

وعند الطبراني[٦] من حديث ابن عباس: «ما من أمير يؤمَّر علىٰ عشرة إلا سُئل عنهم يوم القيامة».

وأما حديث سعد بن عُبادة فلفظه عند أحمد: «ما من أمير عشرة إلا يؤتَىٰ به يوم القيامة مغلولاً يده إلىٰ عنقه، لا يفكه من غُلِّه ذلك إلا العدل». وهكذا رواه سعيد بن منصور[٧] وابن أبي شيبة[٨] وعبد بن حميد[٩] والطبراني[١٠] والبيهقي[١١].

---

(١) تاريخ دمشق ٤٦/ ٣١٢.

(٢) مسند أحمد ٣٦/ ٦٣٥.

(٣) في المسند: بره.

(٤) لم أقف عليه عند النسائي، وقد رواه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ١٢.

(٥) السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٦٣.

(٦) المعجم الكبير ١١/ ٤١١.

(٧) تفسير سعيد بن منصور ١/ ٨٧.

(٨) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ١٢.

(٩) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ٢٥٣.

(١٠) المعجم الكبير ٦/ ٢٢ - ٢٣.

(١١) شعب الإيمان ٣/ ٣٥٦ - ٣٥٧.

وروىٰ ابن أبي شيبة[١] والبيهقي[٢] وابن عساكر[٣] من حديث أبي هريرة: «ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتَىٰ به يوم القيامة مغلولاً حتىٰ يفكه العدل أو يوبِقه الجورُ».

(وولاّه) أي معقل بن يسار (عمرُ) رضي الله عنه (ولاية) قيل: ولاية البصرة[٤] (فقال: يا أمير المؤمنين، أشِرْ عليَّ. فقال: اجلس واكتم عليَّ[٥]).

وروىٰ الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ (أن رجلاً ولاّه النبيُّ ﷺ، فقال) الرجل (للنبي ﷺ: خِرْ لي. فقال: اجلسْ) قال العراقي[٦]: رواه الطبراني موصولاً[٧] من حديث عصمة وهو ابن مالك، وفيه الفضل بن المختار، أحاديثه منكرة، يحدِّث بالأباطيل؛ قاله أبو حاتم[٨]. ورواه[٩] أيضًا من حديث ابن عمر بلفظ: «الزمْ بيتك»، وفيه الفرات بن أبي الفرات، ضعَّفه ابن معين[١٠] وابن عدي[١١]، وقال أبو حاتم: صدوق.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ١٢ مرفوعا وموقوفا باللفظ الذي مر قريبا وفي آخره: «أطلقه الحق أو أوثقه».

(٢) السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٦٤.

(٣) تاريخ دمشق ٣٦/ ٣٨.

(٤) لم يذكر أحد ممن ترجم له أنه تولىٰ البصرة أو غيرها، وإنما ذكروا أنه حفر نهرا في البصرة بأمر عمر فنُسب إليه. انظر: معجم الصحابة للبغوي ٥/ ٣٢١. الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٢٥٥. أسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٢٢٤. الأعلام للزركلي ٧/ ٢٧١.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ١١، وأبو بكر الخلال في السنة ١/ ١٢٥. وعندهما: استعمل عمر رجلا.

(٦) المغني ٢/ ٩٤٠.

(٧) المعجم الكبير ١٧/ ١٨٥ بلفظ: استعمل رسول الله ﷺ رجلا علىٰ الصدقة، فقال: يا رسول الله، اختر لي. فقال: «اجلس في بيتك».

(٨) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٦٩، وزاد: مجهول.

(٩) المعجم الكبير ١٣/ ٢٣٦.

(١٠) نقل عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٧/ ٨٠ أنه قال: بصري، ليس بشيء.

(١١) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٠٤٨، وفيه: «الضعف بيِّن علىٰ رواياته وأحاديثه».

وقال الحافظ في الإصابة(١): عصمة بن مالك الخَطمي، له أحاديث أخرجها الدارقطني والطبراني وغيرهما مدارها علىٰ الفضل بن المختار، وهو ضعيف جدًّا.

(وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة) العَبْشَمي القرشي رضي الله عنه **(إذ قال له النبي ﷺ: يا عبد الرحمن)** بن سمرة **(لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتَها من غير مسألة أُعِنتَ عليها، وإن أوتيتَها عن مسألة وُكلتَ إليها)** رواه أحمد(٢) وابن أبي شيبة(٣) والشيخان(٤) وأبو داود(٥) والترمذي(٦) بزيادة: «وإذا حلفتَ علىٰ يمين فرأيتَ غيرها خيرًا منها فكفِّرْ عن يمينك وائتِ الذي هو خير». ورواه ابن عساكر(٧) بلفظ: «لا تسأل الإمارة، فإنه مَن سألها وُكِلَ إليها، ومَن ابتُلي بها ولم يسألها أُعينَ عليها»(٨).

(وقال أبو بكر رضي الله عنه **لرافع بن عمرو)** الطائي: **(لا تأمَّرْ علىٰ اثنين. ثم وليَ هو الخلافةَ فقام بها، فقال له رافع: ألم تقُلْ لي: لا تأمَّرْ علىٰ اثنين؟ وأنت قد وُليتَ أمر أمّة محمد ﷺ. فقال: بلىٰ، وأنا أقول لك ذلك، فمَن لم يعدل فيها فعليه بَهْلة الله. أي لعنة الله)**(٩) روىٰ ابن المبارك في الزهد(١٠) عن رافع الطائي قال: صحبتُ أبا بكر

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٨.

(٢) مسند أحمد ٣٤/ ٢٢٣ - ٢٣١.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ١٠.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٢١٤، ٢٣٤، ٣٣٠. صحيح مسلم ٢/ ٧٨١، ٨٨٤.

(٥) سنن أبي داود ٣/ ٤٢٥.

(٦) سنن الترمذي ٣/ ١٨٩.

(٧) تاريخ دمشق ١٣/ ٣٤٨، ١٧/ ٢١، ٥٣/ ٣٤٠.

(٨) هو في المعجم لابن المقرئ صـ٢٤٠ وقد رواه ابن عساكر من طريقه في ١٣/ ٣٤٨ و١٧/ ٢١ ومن طريق تمام صاحب الفوائد ٥٣/ ٣٤٠.

(٩) الرعاية صـ٢١١.

(١٠) الحديث في الزهد والرقائق ص ٢١٦ مختصر، وليس فيه ذكر الإمارة. وقد روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة، وأقربها للسياق الذي أورده الغزالي ما رواه الطبراني في المعجم الكبير ٥/ ٢١ - ٢١.

في غزاة، فلما قفلنا قلت: أوصِني. قال: أقِم الصلاة المكتوبة ... فساق الحديث، وفيه: ولا تكونَنَّ أميرًا. ثم قال: إن هذه الإمارة التي تُرَىٰ اليوم يسيرة قد أوشكت أن تفشو وتكثُر حتىٰ ينالها مَن ليس لها بأهل، وإنه مَن يكن أميرًا فإنه من أطول الناس حسابًا وأغلظه عذابًا ... الحديث.

وروىٰ الدينوري في المجالسة[1] عن رافع الطائي قال: خطب أبو بكر رضي الله عنه فذكَّر المسلمين فقال: مَن ظلم منهم أحدًا فقد أخفر ذمة الله، ومَن ولي من أمور المسلمين شيئًا فلم يعطهم كتاب الله فعليه بَهْلة الله».

(ولعل القليل البصيرة يرىٰ ما ورد في فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضًا، وليس كذلك، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلُّد الولايات) لقوتهم وصلابتهم في الدين **(وأن الضعفاء)** في المعرفة **(لا ينبغي أن يدوروا بها فيَهلكوا)** لعدم تحمُّلهم لذلك، فيكون سببًا لهلاكهم **(وأعني بالقوي: الذي لا تميله الدنيا، ولا يستفزُّه الطمعُ)** أي لا يحركه ولا يحمله **(ولا تأخذه في الله لومةُ لائم، وهم الذين سقط الخلق من أعينهم)** فلم تكن لهم منزلة عندهم **(وزهدوا في الدنيا وتبرَّموا بها وبمخالطة الخلق)** أي ضجروا **(وقهروا أنفسهم)** فأماتوها **(وملكوها، وقمعوا الشيطان فأيسَ منهم)** فلا يحوم حول حِماهم **(فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق، ولا يسكِّنهم إلا الحق ولو زهقت فيه أرواحُهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة، ومَن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرُم عليه الخوضُ في الولايات)** والدوران لطلبها **(ومَن جرَّب نفسه فرآها صابرة علىٰ الحق كافَّة عن الشهوات في غير الولاية ولكن خاف عليها أن تتغير)** عن حالتها الأولىٰ **(إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذَّ نفاذ الأمر)** فيه **(فتكره العزل)** عنها **(فيداهن خيفةً من العزل فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهربُ من تقلُّد الولاية)** أم لا؟ **(فقال قائلون: لا يجب؛ لأن هذا خوف أمرٍ في المستقبل)** أي

---

(١) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢٧٩ - ٢٨٠. وزاد في آخره: «ومن صلىٰ الصبح فقد أخفره الله عز وجل».

فيما سيَعرِض (وهو في الحال لم يعهد نفسَه إلا قوية في ملازمة الحق وتركِ لذَّات النفس. والصحيح أن عليه الاحتراز؛ لأن النفس خدَّاعة، مدَّعية للحق، واعدة بالخير، فلو) أنها (وُعِدت بالخير جزمًا لكان يُخاف عليها أن تتغير عند الولاية، فكيف إذا أظهرت التردُّدَ، والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، فالعزل مؤلم، وهو كما قيل: طلاق الرجال)[1] وسبب كون العزل مؤلمًا نفور النفس عن مفارقة ما ألفتْه من لذة الاستيلاء ومَلْكِ القلوب ونفاذ الأمر (فإذا شرع) في الولاية (لا تسمح نفسه بالعزل، وتميل نفسه إلىٰ المداهنة وإهمال الحق فيهوي به في قعر جهنم) أي تسقط فيه (ولا يستطيع النزوع منه إلىٰ الموت) برضا نفسه (إلا أن يُعزَل قهرًا) علىٰ نفسه (وكان فيه عذاب عاجل علىٰ كل محب للولاية، ومهما مالت النفس إلىٰ طلب الولاية وحُملت علىٰ السؤال والطلب) لها (فهو أمارة الشر، ولذلك قال ﷺ: إنَّا لا نولِّي أمرنا مَن سألناه) قال العراقي[2]: متفق عليه[3] من حديث أبي موسىٰ.

(فإذا فهمتَ اختلاف حكمِ القوي والضعيف عرفتَ أن نهي أبي بكر) رضي الله عنه (لرافع) الطائي (عن الولاية ثم تقلُّده لها ليس بمتناقض.

وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة) في المرتبة (فهو في معناهما، فإنَّ كل ذي ولايةٍ أميرٌ، أي له أمر نافذ) في الناس (والإمارة محبوبة بالطبع) لذيذة بحكم نفاذ الأمر (والثواب في القضاء عظيم مع اتِّباع الحق، والعقاب فيه أيضًا عظيم مع العدول عن الحق، وقد قال النبي ﷺ: القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار) قال العراقي[4]: رواه أصحاب السنن[5] من حديث بريدة، وقد تقدم في العلم. انتهىٰ.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٤١٠.

(٢) المغني ٢/ ٩٤٠.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ١٣٠، ٤/ ٢٧٩، ٣٣٠. صحيح مسلم ٢/ ٨٨٥.

(٤) المغني ٢/ ٩٤٠.

(٥) سنن أبي داود ٤/ ٢٠٨. سنن الترمذي ٣/ ٦. سنن ابن ماجه ٤/ ١٠. السنن الكبرىٰ للنسائي ٥/ ٣٩٧.

قلت: وكذلك رواه سعيد بن منصور وابن أبي عاصم والطبراني[١] والحاكم[٢] وصحَّحه والبيهقي[٣] والضياء من حديث ابن بريدة عن أبيه، ولفظهم: «القضاة ثلاثة، اثنان في النار، وواحد في الجنة: رجل علم الحقَّ فقضىٰ به فهو في الجنة، ورجل قضىٰ للناس علىٰ جهل فهو في النار، ورجل عرف الحق فجارَ في الحكم فهو في النار».

ورواه الطبراني[٤] أيضًا من حديث ابن عمر بلفظ: «القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: قاضٍ قضىٰ بالهوىٰ فهو في النار، وقاضٍ قضىٰ بغير علم فهو في النار، وقاضٍ قضىٰ بالحق فهو في الجنة».

وفي لفظ للطبراني من حديث بريدة: «قاضٍ قضىٰ بغير حق وهو يعلم فذلك في النار، وقاضٍ قضىٰ وهو لا يعلم فأهلك حقوقَ الناس فذلك في النار، وقاضٍ قضىٰ بالحق فذلك في الجنة».

ورواه البيهقي[٥] من حديث علي موقوفًا، وحكمُه الرفع.

وقد أفرد الحافظ ابن حجر في طرق حديث بريدة جزءًا.

(**وقال ﷺ: مَن استُقضي فقد ذُبح بغير سكين**) قال العراقي[٦]: رواه أصحاب السنن[٧] من حديث أبي هريرة بلفظ: «مَن جُعل قاضيًا». وفي رواية: «مَن وليَ

---

(١) المعجم الكبير ٢/ ٢٠، ٢١.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ١٨٨.

(٣) السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٩٩.

(٤) المعجم الكبير ١٣/ ١٣١.

(٥) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٠٠.

(٦) المغني ٢/ ٩٤٠.

(٧) سنن أبي داود ٤/ ٢٠٧. سنن الترمذي ٣/ ٨. سنن ابن ماجه ٤/ ٥. السنن الكبرىٰ للنسائي ٥/ ٣٩٨.

القضاء». وإسناده صحيح. انتهىٰ.

قلت: رواه[١] أحمد[٢] وأبو داود والنسائي والدارقطني[٣] وابن أبي عاصم والبيهقي[٤] من طريق عثمان بن محمد الأخنسي [والقضاعي[٥] من حديث زيد ابن أسلم] عن سعيد المقبري والأعرج كلاهما عن أبي هريرة بلفظ: «مَن جُعل قاضيًا فقد ذُبح بغير سكين». وهو عند ابن ماجه وكذا النسائي والدارقطني وابن أبي عاصم [بدون الأعرج[٦]، ولفظ أحدهم: «مَن استُعمل علىٰ القضاء». بل شذَّ بعضُهم فقال: «فكأنما ذُبح بالسكين»[٧]. ورواه النسائي بدون الأعرج أيضًا، وابن أبي عاصم] من حديث داود بن خالد المكي أنه سمع المقبري. وأبو داود أيضًا بلفظ: «مَن وليَ القضاء» [من حديث عمرو بن أبي عمرو عن المقبري. وهو عند الترمذي وابن أبي عاصم بلفظ: «مَن وليَ القضاء] أو جُعل قاضيًا بين الناس». والدارقطني بلفظ: «مَن ولي». وقال الترمذي: إنه حسن غريب. وقال النسائي: إن داود ليس بالمشهور، والأخنسي ليس بالقوي. قال الحافظ السخاوي في المقاصد: قد رُوي عن غيرهما، بل رواه أحمد من حديث محمد بن عجلان[٨]، وابن أبي عاصم من حديث بعض المدنيين، والقضاعي من حديث زيد بن أسلم، ثلاثتهم عن المقبري. وهو صحيح، بل حسن. قيل: وفي قوله «بغير سكين» إشارة إلىٰ أن

---

(١) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٤٠٩.

(٢) مسند أحمد ١٢/ ٥٢، ١٤/ ٣٨٤.

(٣) سنن الدارقطني ٥/ ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٤) السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٦٤ - ١٦٥.

(٥) مسند الشهاب ١/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٦) بل الأعرج مذكور في أحد أسانيد الدارقطني، وغير مذكور في مسند القضاعي.

(٧) المقصود بـ (أحدهم) و(بعضهم) هو النسائي، ففي إحدىٰ رواياته: «من استعمل علىٰ القضاء فكأنما ذبح بالسكين».

(٨) لم يروه أحمد من طريق ابن عجلان، بل رواه من طريق عبد الله بن سعيد بن أبي هند ومن طريق عثمان بن محمد الأخنسي كلاهما عن المقبري.

محذوره الخوف من هلاك الدين دون البدن؛ إذ الذبح في ظاهر العرف إنما هو بالسكين، أو إلىٰ شدة الألم؛ لكون الذبح بغير السكين إما بالخنق أو التعذيب، والذبح بالسكين أروَحُ[1]. والله أعلم.

(فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل مَن للدنيا ولذَّاتها وزنٌ) أي مقام ومنزلة (في عينه) فلا يليق به تقلُّده (وليتقلَّده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومهما كان السلاطين ظَلَمة ولم يقدر القاضي علىٰ القضاء إلا بمداهنتهم) ومصانعتهم (وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلِّقين بهم إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه) عن منصبه (أو لم يطيعوه) وراموا إذايته (فليس له أن يتقلَّد) منصب (القضاء، وإن تقلَّده فعليه أن يطالبهم بالحقوق) الشرعية (ولا يكون خوف العزل) عن منصبه (عذرًا مرخِّصًا له في الإهمال أصلاً، بل إذا عُزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله) عَزَّوَجَلَّ (فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذًا يقضي لاتِّباع الهوىٰ والشيطان، فكيف يرتقب عليه) أي ينتظر (ثوابًا) من الله (وهو مع الظَّلمة في الدرك الأسفل من النار) فقد رُوي أن القضاة يُحشَرون في زمرة الملوك، كما نقله صاحب القوت، وتقدم في كتاب العلم.

(وأما الوعظ) علىٰ العامة (والفتوىٰ والتدريس ورواية الحديث) بالارتحال إلىٰ البلدان النائية (وجمع الأسانيد العالية) وعلوُّها بسبب قربها من فوق بأن

(١) هذا المعنىٰ مختصر من كلام الخطابي، ونصه في معالم السنن ٤/ ١٥٩: «معناه التحذير من طلب القضاء والحرص عليه، يقول: من تصدىٰ للقضاء فقد تعرض للذبح، فليحذره وليتوقَّه. وقوله «بغير سكين» يحتمل وجهين، أحدهما: أن الذبح إنما يكون في ظاهر العرف بالسكين، فعدل به عَلَيْهِ السَّلَامُ عن غير ظاهر العرف وصرفه عن سنن العادة إلىٰ غيرها؛ ليُعلَم أن الذي أراده بهذا القول إنما هو ما يخاف عليه من هلاك دينه دون هلاك بدنه. والوجه الآخر: أن الذبح الوجيء الذي يقع به إزهاق الروح وإراحة الذبيحة وخلاصها من طول الألم وشدته إنما يكون بالسكين؛ لأنه يجهز عليه، وإذا ذبح بغير السكين كان ذبحه خنقا وتعذيبا، فضرب المثل في ذلك ليكون أبلغ في الحذر من الوقوع فيه».

يقع له ثلاثيًا أو رباعيًا .. وهلم جرًا إلىٰ العشاريات (**وكل ما يتّسع بسببه الجاه ويعظُم به القدْرُ فآفته أيضًا عظيمة مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوىٰ ما وجدوا إليه سبيلاً**) كما تقدم في كتاب العلم (**وكانوا يقولون**): قول المحدِّث (**حدثنا**) وأخبرنا (**باب من أبواب الدنيا، ومن قال «حدثنا» فقد قال**) بلسان حاله: (**أوسِعوا لي**) تقدم في كتاب العلم (**ودفن**) أبو نصر (**بشر بن الحارث**) الحافي قُدِّس سره (**كذا وكذا قمطرة من الحديث**) الذي كان يسمعه من الشيوخ وكتبه بيده. تقدم في كتاب العلم (**وقال: يمنعني من الحديث**) أي من التحدُّث به (**أن أشتهي أن أحدِّث، ولو اشتهيت أن لا أحدِّث لحدَّثتُ**) تقدم في كتاب العلم (**والواعظ يجد في وعظه**) للناس (**وتأثُّر قلوب الناس به**) أي بوعظه (**وتلاحُق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذةً**) عظيمة (**لا توازيها لذةٌ، فإذا غلب ذلك علىٰ قلبه مال قلبه إلىٰ كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان**) في نفسه (**باطلاً، ويفر من كل كلام يستقلُّه العوامُّ وإن كان**) في نفسه (**حقًّا، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلىٰ ما يحرك قلوب العوام**) ويروج عندهم (**ويعظِّم منزلتَه في قلوبهم، فلا يسمع حديثًا ولا حكمة**) ولا نادرة (**إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلُح لأنْ يذكره علىٰ رأس المنبر**) أو الكرسي (**وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً ثم يقول: إذا أنعم الله عليَّ بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصُّها**) للناس (**ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون**) ممَّن يسمع مني (**فهذا أيضًا مما يعظُم فيه الخوفُ والفتنة، فحكمه حكم الولايات، فمَن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة**) في القلوب (**والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر به، فينبغي أن يتركه ويخالف الهوىٰ فيه إلىٰ أن ترتاض نفسه**) وتتزكَّىٰ (**وتقوَىٰ في الدين مُنعته**[1]) بالضم، أي قوَّته (**ويأمن علىٰ نفسه الفتنةَ، فعند ذلك يعود إليه.**)

---

(١) في م الإمام وط المنهاج: منته - وهي بمعنىٰ قوته التي أشار إليها الشارح، فلعل اللفظة حرفت في المطبوعة، والله أعلم.

فإن قلتَ: مهما حُكِمَ بذلك علىٰ أهل العلم تعطَّلت العلوم واندرست) لعدم رغبة طالبيها **(وعمَّ الجهلُ كافةَ الخلق. فنقول: قد نهىٰ رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعَّد عليها)** وهو في حديث عبد الرحمن بن سمرة «لا تسأل الإمارة»، وقد ذُكر قريبًا **(حتىٰ قال: إنكم تحرصون علىٰ الإمارة، وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا مَن أخذها بحقِّها)** قال العراقي[١]: رواه البخاري[٢] من حديث أبي هريرة دون قوله «إلا مَن أخذها بحقها»، وزاد في آخره: «فنِعمت المرضِعة وبئست الفاطمة»، ودون قوله «حسرة»، وهي في صحيح ابن حبان[٣]. انتهىٰ.

قلت: ولفظ البخاري: «إنكم ستحرصون علىٰ الإمارة، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة، فنعمت المرضِعة وبئست الفاطمة». وكذلك رواه أحمد[٤] وابن أبي شيبة[٥] والنسائي[٦].

وروىٰ الطبراني[٧] من حديث عوف بن مالك أنه سأل النبيَّ ﷺ عن الإمارة، فقال: «أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة».

وروىٰ الطيالسي[٨] وابن أبي شيبة[٩] ومسلم[١٠] وابن سعد[١١] وابن خزيمة

---

(١) المغني ٢/ ٩٤١.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٣٣٠.

(٣) صحيح ابن حبان ١٠/ ٣٣٤.

(٤) مسند أحمد ١٥/ ٤٩١، ١٦/ ١٤٠.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٩.

(٦) سنن النسائي ص ٦٤٩، ٨٠٩.

(٧) المعجم الكبير ١٨/ ٧٢، وفيه: «عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي؟ أولها ...» الخ. وزاد في آخره: «إلا من عدل».

(٨) مسند الطيالسي ١/ ٣٩١.

(٩) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٩.

(١٠) صحيح مسلم ٢/ ٨٨٥.

(١١) الطبقات الكبرىٰ ٤/ ٢١٧.

وأبو عوانة والحاكم[1] من حديث أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا مَن أخذها بحقها وأدَّىٰ الذي عليه فيها».

وروىٰ الطبراني[2] من حديث زيد بن ثابت: «نِعم الشيء الإمارة لمَن أخذها بحقها وحِلِّها، وبئس الشيء الإمارة لمَن أخذها بغير حقها فتكون عليه حسرة يوم القيامة».

(وقال: نعمت المرضِعة وبئست الفاطمة) قال العراقي[3]: رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو بقية الحديث الذي قبله، ورواه ابن حبان بلفظ «فبئست المرضعة[4] وبئست الفاطمة». انتهىٰ.

قلت: وُجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه: يريد باعتبار ما في نفس الأمر، ولفظ «نعمت» في الأولىٰ باعتبار ما في معتقَد المتلبِّس بذلك.

(ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطَّلت لبطل الدينُ والدنيا جميعًا، وثار القتالُ بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطَّلت المعايش، فلِمَ نُهي عنها مع ذلك؟ وضرب عمر أبيَّ بن كعب) ﷺ، أي رفع دِرَّته وأراد أن يضربه بها **(حين رأىٰ قومًا يتَّبعونه، وهو في ذلك يقول: أبيٌّ سيد المسلمين. وكان يقرأ عليه القرآن)** بل قرأ عليه مَن هو أفضل منه: رسول الله ﷺ قال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك». قال: آلله سمَّاني لك؟ قال: «نعم، الله سمَّاك لي». قال: فجعل أبيٌّ يبكي. رواه أبو نعيم في الحلية[5] من حديث أنس **(فمنع من أن يتَّبعوه وقال: ذلك فتنة علىٰ المتبوع**

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) المعجم الكبير ٥/ ١٢٧.

(٣) المغني ٢/ ٩٤١.

(٤) الذي في صحيح ابن حبان: (فنعمت المرضعة) كما عند البخاري.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٢٥١. والحديث رواه البخاري ٣/ ٤٥، ٣٢٩. ومسلم ١/ ٣٥٩، ٢/ ١١٥٢. وفي بعض الروايات: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لم يكن الذين كفروا». يعني سورة البينة.

ومَذَلَّة علىٰ التابع) وقد تقدم في أول هذا الكتاب (وعمر) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه.

واستأذن رجل علىٰ عمر) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح، فمنعه) من ذلك (فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشىٰ أن تنتفخ حتىٰ تبلغ الثريَّا)[١] وهذا أورده علىٰ سبيل المبالغة (إذ رأىٰ فيه مخايل) أي مَظانَّ (الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق) فلذلك منعه.

(فالقضاء والخلافة ممَّا يحتاج إليه الناس في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوىٰ، وفي كل واحد منها فتنة ولذة، فلا فرق بينهما. فأما قول القائل: نهيك عن ذلك يؤدي إلىٰ اندراس العلم) وانطماسه (فهو غلط) نشأ من وهم (إذ نهيُ رسولِ الله ﷺ عن القضاء) قال العراقي[٢]: رواه مسلم[٣] من حديث أبي ذر: «لا تأمَّرنَّ علىٰ اثنين، ولا تَلِينَّ مالَ يتيم». انتهىٰ. قلت: ورواه أبو داود[٤] والنسائي[٥] وابن حبان[٦] والحاكم[٧] بلفظ: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تتأمَّرن علىٰ اثنين، ولا تتولَّينَّ مالَ يتيم». وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس: «لا تأمَّرنَّ علىٰ اثنين ولا تَقَدَّمَهما» (لم يؤدِّ إلىٰ تعطُّل القضاء بل الرياسة، وحبها يضطر الخلقَ إلىٰ طلبها، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس، بل لو حُبس الناس) في موضع (وقُيِّدوا بالسلاسل) في أرجلهم (والأغلال) في أعناقهم

---

(١) أحمد في مسنده (١١١)، والرجل هو الحارث بن معاوية الكِنْدي، وحسن إسناده ابن كثير في مسند الفاروق ١/ ٢٧٤. ط دار الفلاح.

(٢) المغني ٢/ ٩٤١.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٨٥.

(٤) سنن أبي داود ٣/ ٣٩٤.

(٥) سنن النسائي ص ٥٧٠.

(٦) صحيح ابن حبان ١٢/ ٣٧٥.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ١٨٩.

ومُنعوا (عن طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها، وقد وعد الله تعالىٰ أن يؤيِّد هذا الدينَ بأقوام لا خَلاق لهم) كما في الخبر، وتقدم ذِكرُه (فلا تشغل قلبَك بأمر الناس، فإن الله لا يضيعهم، وانظر في نفسك) وما أنت فيه (ثم إني أقول مع هذا: إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم، وإلا فتعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة، فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعًا للناس من حيث حُسن كلامه) بأن يكون سلسًا منقادًا لا تعقيد فيه (وحسن سَمْته في الظاهر) مما يوافق الشرعَ في لباسه وهيئته وغض بصره وغير ذلك (وتخييله إلىٰ العوام أنه إنما يريد اللهَ بوعظه) لا غيره (وأنه تارك للدنيا ومُعرِض عنها فلا نمنعه منه، ونقول له: اشتغِلْ وجاهدْ نفسك. وإن قال: لست أقدر علىٰ نفسي، فنقول: اشتغلْ وجاهدْ؛ لأنَّا نعلم أنه لو تُرك ذلك لهلك الناس كلهم؛ إذ لا قائم به غيره، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده) دون غيره (وسلامة دين الجميع أحب إلينا من سلامة دينه وحده، فنجعله فداء للقوم، ونقول: لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إن الله يؤيِّد هذا الدين بأقوام لا خَلاق لهم) رواه النسائي، وقد تقدم (ثم الواعظ هو الذي يرغِّب في الآخرة ويزهِّد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته، وأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من) إلقاء (الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجَعة) الموزونة (المقرونة بالأشعار) الغريبة (مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه الترجية والتجرئة علىٰ المعاصي بطيارات النُّكت) أي بالنكت النوادر الغريبة المهيِّجة للأوصاف المستكنَّة في الضمائر مما يكون باعثًا علىٰ آفاته غرض شيطاني (فيجب إخلاء البلاد منهم) ومنعهم من صعود المنابر والكراسي (فإنهم نوَّاب الدجال وخلفاء الشيطان) بجامع الإفساد والافتتان (وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ، جميل الظاهر، يبطن في نفسه حبَّ القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبيِّن لزومَ الحذر) والاحتراز (من فتن العلم وغوائله، ولقد قال عيسىٰ عليه السلام) فيما أورده

صاحب القوت في مقام الزهد – وهو المقام السادس من مقامات اليقين – أنه قال: **(يا علماء السوء، تصومون وتصلُّون وتتصدَّقون ولا تفعلون ما تؤمَرون، وتدرسون ما لا تعلمون، فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني، وتعملون بالهوىٰ، وما يغني عنكم أن تنقُّوا جلودكم)** أي تنظفوها وتغسلوها بالماء والأُشنان **(وقلوبكم دَنِسة)** أي وسخة بالمعاصي الباطنة **(بحق أقول لكم لا تكونوا كالمُنخل)** بضم الميم **(يخرج منه الدقيق الطيب وتبقىٰ فيه النُّخالة)** وهو ما يُرمَىٰ من الدقيق **(كذلك أنتم تُخرِجون الحِكَمَ من أفواهكم)** تعظون بها الناس **(ويبقىٰ الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة مَن لا تنقضي من الدنيا شهوتُه ولا تنقطع منها رغبتُه، بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم)** لمخالفتها لها **(جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم)** وهو كناية عن الغفلة والإعراض وعدم الاعتناء، فإنَّ مَن جعل شيئًا تحت قدمه فقد استهان به **(بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأيُّ الناس أخس منكم)** أي أكثر دناءة منكم **(لو تعلمون)** ذلك؟ **(ويلكم! حتىٰ متىٰ تَصِفون الطريق للمدلجين)** أي السارينَ بالليل **(وتقيمون في محلة المتحيِّرين)** أي الواقفين وقوفَ المتحيِّر الذي لا يجد للسلوك سبيلاً **(كأنَّكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم)** فتتمتَّعون بها، ويسلبون دنياهم لأجل صلاح حالكم **(مهلاً مهلاً، ويلكم! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهرِه وجوفُه وحش مظلم)** لا نور فيه **(كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافُكم منه وحشة معطَّلة)** عن وصول النور إليها **(يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم)** أي تزيلكم **(عن أصولكم فتلقيكم علىٰ وجوهكم ثم تكبُّكم)** أي ترميكم **(علىٰ مناخركم)** أي وجوهكم **(ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلىٰ الملك الديَّان)** المجازي بأعمالكم **(حفاة عراة فرادَىٰ فيوقفكم علىٰ سوءاتكم)** أي فضيحتكم **(ثم يجزيكم بسوء**

أعمالكم)[١] هكذا نقله صاحب القوت بتمامه.

وروىٰ صاحب الحلية[٢] في ترجمة ابن السمَّاك من طريق عبد الله بن صالح قال: سمعت ابن السمَّاك يقول: قال عيسىٰ عليه السلام: حتىٰ متىٰ تصفون الطريق للمدلجين[٣] وأنتم مقيمون في محلة المتحيِّرين، تنقُّون البعوض من شرابكم وتشترطون الجمال بأحمالها.

وفي ترجمة وهب[٤] من طريق بكَّار بن عبد الله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: قال الله عز وجل فيما يعتب به [أحبار] بني إسرائيل: تتفقَّهون لغير الدين، وتتعلَّمون لغير العمل، وتتباهون بعمل الآخرة[٥]، تلبسون جلود الضأن وتُخفُون أنفُس الذئاب، وتنقُّون القذىٰ من شرابكم وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام، تطيلون الصلاة وتبيِّضون الثياب، تقتنصون بذلك مال اليتيم والأرملة، فبعزَّتي حلفتُ لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم.

(وقد روىٰ الحارث) بن أسد **(المحاسبي)** رحمه الله **(هذا الحديث في بعض كتبه)** بهذا السياق **(ثم قال: هؤلاء علماء السوء، شياطين الإنس، وفتنة علىٰ الناس)** وقد روىٰ الطيالسي[٦] وأحمد[٧] والنسائي[٨] وأبو يعلىٰ والحاكم والبيهقي[٩] من

---

(١) تقدم هذا الخبر في بيان ذم الغنىٰ ومدح الفقر من كتاب ذم البخل وحب المال، وكذلك كلام الحارث المحاسبي بعده.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

(٣) في الحلية: للذاكرين.

(٤) السابق ٤/ ٣٨ - ٣٩.

(٥) في الحلية: وتتنازعون الدنيا بعمل الآخرة.

(٦) مسند الطيالسي ١/ ٣٨٤.

(٧) مسند أحمد ٣٥/ ٤٣١، ٤٣٧.

(٨) سنن النسائي ص ٨٣٠.

(٩) شعب الإيمان ٥/ ١٩٨.

حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوَّذْ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟! قال: «نعم ...» الحديث. ورواه الطبراني[1] من حديث أبي أمامة (**رغبوا في عَرَض الدنيا ورفعتها وآثروها علىٰ الآخرة، وأذلُّوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشَين، وفي الآخرة هم الأخسرون**) وقد تقدم هذا السياق للمصنف في أول الكتاب.

(**فإن قلتَ: فهذه الآفات ظاهرة، ولكن ورد في العلم والوعظ**) والتذكير (**رغائب كثيرة، حتىٰ قال رسول الله ﷺ: لأنْ يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها**) قال العراقي[2]: متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ «خير لك من حُمر النعم»، وقد تقدم في العلم[3].

قلت: وروىٰ الحكيم والطبراني من حديث أبي رافع قال: بعث رسول الله ﷺ عليًّا إلىٰ اليمن، فعقد له لواء، فلما مضىٰ قال: «يا أبا رافع، الحقْه، ولا تَدْعُه من خلفه، وليقف، ولا يلتفت حتىٰ أجيئه». فأتاه وأوصاه بأشياء وقال: «لأنْ يهدي الله علىٰ يديك رجلاً خير لك ممَّا طلعت عليه الشمس وغربت».

(**وقال ﷺ: أيُّما داعٍ دعا إلىٰ هدىٰ واتُّبع عليه كان له أجره وأجر مَن اتَّبعه**) قال العراقي[4]: رواه ابن ماجه[5] من حديث أنس بزيادة في أوله. ولمسلم[6] من حديث أبي هريرة: «مَن دعا إلىٰ هدًىٰ كان له من الأجر مثل أجور من اتَّبعه ... الحديث.

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ٢٥٩.

(٢) المغني ٢/ ٩٤١.

(٣) وكذلك حديث أبي رافع بعده.

(٤) المغني ٢/ ٩٤٢.

(٥) سنن ابن ماجه ١/ ٢٠١.

(٦) صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٤.

قلت: لفظ حديث أنس عند ابن ماجه: «أيُّما داعٍ دعا إلىٰ ضلالة فاتُّبع فإنَّ عليه مثل أوزار مَن اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئًا، وأيُّما داعٍ دعا إلىٰ هدىٰ فاتُّبع فإنَّ له مثل أجور مَن اتَّبعه ولا ينقص من أجورهم شيئًا».

وأما لفظ حديث أبي هريرة عند مسلم: «مَن دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومَن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا». وهكذا رواه أحمد[1] وأبو داود[2] والترمذي[3] وابن ماجه[4].

ورواه الطبراني[5] بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(**إلىٰ غير ذلك من فضائل العلم**) مما تقدم مجموعُها في كتاب العلم (**فينبغي أن يقال للعالِم: اشتغِلْ بالعلم واترك مراءاة الخلق، كما يقال لمَن خالجه الرياءُ في الصلاة: لا تترك العمل، ولكن أتمِم العملَ وجاهدْ نفسك.**

فاعلمْ أن فضل العلم كبير[6]، **وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة، ولا نقول لأحد من عباد الله: اترك العلم**) ولا تشتغل به (**إذ ليس في نفس العلم آفة، وإنما الآفة في إظهاره بالتصدِّي للوعظ والتدريس ورواية الأحاديث**) بالأسانيد (**ولا نقول له أيضًا: اتركه، ما دام يجد في نفسه باعثًا دينيًّا ممزوجًا بباعث الرياء، فأما إذا لم يحركه إلا الرياء**) ولم يكن هناك باعث الدين (**فتركُ الإظهار أنفع له وأسلم**) لدينه (**وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرَّد فيها باعث الرياء وجب تركُها،**

---

(١) مسند أحمد ١٥/ ٨٣، ١٦/ ٣٢٦.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ١٩٤.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤٠٦.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ٢٠٢.

(٥) المعجم الكبير ١٣/ ٢٥٠.

(٦) كذا في م الإمام وط الشعب وفي الزبيدي وط المنهاج ٦/ ٤٣٣: كثير.

أما إذا خطر له وسواس الرياء في أثناء الصلاة وهو له كاره فلا يترك الصلاة؛ لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة) كما تقدمت الإشارة إليه (وإنما تعظُم في الولايات وفي التصدِّي للمناصب الكبيرة في العلم.

وبالجملة، فالمراتب ثلاث:

الأولىٰ: الولايات، والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف) وهربوا منها (خوفًا من الآفة) أن تلحقهم.

(الثانية: الصلاة والصوم والحج والغزو، وقد تعرَّض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم، ولم يؤثَر عنهم الترك) لها (لخوف الآفة، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة علىٰ نفيها) وطردها (مع إتمام العمل لله بأدنىٰ قوة.

الثالثة، وهيٰ متوسطة بين الرتبتين: وهو التصدِّي لمنصب الوعظ والفتوىٰ والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلوات، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي، ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأسًا دون الأقوياء) المتحمِّلين لها (ومناصب العلم بينهما، ومَن جرَّب آفات منصب العلم علم أنه بالولايات أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم. والله أعلم.

وههنا رتبة رابعة وهي جمعُ المال وأخذُه للتفرقة علىٰ المستحقِّين، فإنَّ في الإنفاق) عليهم (وإظهار السخاء) والجود (استجلابًا للثناء) والمَحمدة (وفي إدخال السرور علىٰ قلوب الناس لذة للنفس) عظيمة (والآفات فيها أيضًا كثيرة) كما تقدم ذِكرُ بعضها (ولذلك سُئل الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ (عن رجل طلب القوت ثم أمسك) عليه (وآخر طلب فوق قوته ثم تصدَّق به. فقال: القاعد أفضل) وذلك (لِما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وإن من الزهد تركها قربةً لله عَزَّوَجَلَّ) نقله صاحب القوت.

(وقال أبو الدرداء) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(ما يسرُّني أني أقمت علىٰ درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارًا أتصدَّق بها، أما إني لا أحرِّم البيع والشراء، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكر الله)** أخرجه أحمد في الزهد[1] ومن طريقه أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا عبد الصمد، ثنا عبد الله بن بجير، حدثنا أبو عبد رب قال: قال أبو الدرداء: ما يسرُّني أن أقوم علىٰ الدرج من باب المسجد فأبيع وأشتري فأصيب كل يوم ثلاثمائة دينار أشهد الصلوات كلها في المسجد، ما أقول إن الله لم يحلَّ البيع ويحرِّم الربا، ولكن أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله.

(وقد اختلف العلماء، فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسَلِمَ منها وتصدَّق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل) وهذا قول عُبَّاد الشام **(وقال قوم: الجلوس في دوام ذِكر الله أفضل، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله)** وهذا قول عُبَّاد البصرة **(وقد قال عيسىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ**: يا طالب الدنيا لتبرَّ بها تركُك لها أَبَرُّ)** تقدم في كتاب ذم الدنيا **(وقال)** أيضًا: **(أقل ما فيه أنه يشغله إصلاحُه عن ذكر الله، وذكرُ الله أفضل وأكبر)** وروي[3] عنه أنه قال: إن في المال داء كثيرًا. قيل: يا روح الله، وإن كان يكتسبه من الحلال؟ قال: يشغله كسبُه عن الله عَزَّ وَجَلَّ[4] **(وهذا فيمَن سَلِمَ من الآفات، فأما مَن يتعرَّض لآفة الرياء فتركُه لها أبرُّ، والاشتغال بالذكر لا خلاف في**

---

(١) الزهد ص ١١٣.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٠٩.

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢/ ٨٠٨، وزاد في أوله: إني لأحب المسكنة وأبغض المال للغني، وإن في المال داء كثيرا ...» الخ.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد ص ٤٣ وأحمد في الزهد ص ٧٧ والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٧٥ عن سفيان الثوري قال: كان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيها داء كبير. قالوا: وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء. قالوا: فإن سلم؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ. وفي الحلية لأبي نعيم ٦/ ٣٨٨: «قيل: يا روح الله ما داؤه؟ قال: لا يؤدي حقه. قالوا: فإن أدىٰ حقه؟ قال: لا يسلم من الفخر ...».

أنه أفضل) وقد وردت بذلك أخبار (وبالجملة، ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مَثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز) عن الدفع (فلينظر، وليجتهد، وليستفتِ قلبه، وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نورُ العلم دون ما يميل إليه الطبع) فما دلَّ عليه نور العلم واطمأن إليه القلب يُقدِم عليه، وما مال إليه الطبع وحاك في الصدر يتركه (وبالجملة، ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضرُّ عليه؛ لأن النفس لا تشير إلا بالشر، وقلَّما تستلذُّ الخيرَ) أو تستحسنه (وتميل إليه، وإن كان لا يبعُد ذلك أيضًا في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات، فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه) بما يصلحه (ويَدَع ما يريبه إلى ما لا يريبه) كما ورد الأثر بذلك في الخبر (ثم قد يقع بما ذكرناه غرورٌ للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفةً من الآفة، وهو عين البخل) المذموم (ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات) الواجبة أو المسنونة (أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل الكسب والإنفاق أو التجرُّد للذكر، وذلك لِما في الكسب من الآفات) وأكبرها الشغل عن الله (وأما المال الحاصل من الحلال) من غير مزاولة الاكتساب (فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلتَ: وبأيِّ علامة يعرف العالِم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه، غير مريد رياء الناس؟ فاعلمْ أن لذلك علامات، إحداها: أنه لو ظهر) في بلده (مَن هو أحسن منه وعظًا وأغزر منه علمًا والناس أشد له قبولاً) وأكثر محبة (فرح به) باطنًا وظاهرًا (ولم يحسده) على ما أُوتي من فضله وعلمه (نعم، لا بأس بالغِبطة) فيه (وهو أن يتمنَّى لنفسه مثل علمه) من غير أن يزول عنه ذلك (والأخرى: أن الأكابر) من أرباب الدنيا (إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه، بل يبقى على ما كان عليه) في سَوْقه (فينظر إلى الخلق بعين واحدة) فمَن نظر إليهم كذلك فهو بعينين، ومَن نظر إليهم بعينين فهو بعين واحدة (والأخرى: أن لا يحب اتِّباع الناس له في

الطريق والمشي خلفه في الأسواق، ولذلك علامات كثيرة) غير ما ذكرناها هنا **(يطول إحصاؤها.**

وقد رُوي عن سعيد بن أبي مروان) الأسلمي، أخو عطاء بن أبي مروان، وأبو مروان كان كثير الصحبة لعمر، وقيل: له صحبة **(قال: كنت جالسًا إلىٰ جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج)** بن يوسف الثقفي عامل بني أمية **(من بعض أبواب المسجد، ومعه الحرس)** أي الجند والأعوان **(وهو علىٰ برذون أصفر)** والبرذون: الحصان الرومي **(فدخل المسجد)** أي ساحته وهو **(علىٰ برذونه)** أي راكبًا **(فجعل يلتفت في المسجد)** يمينًا وشمالاً **(فلم يرَ حلقة أحفل)** أي أعظم وأكبر **(من حلقة الحسن، فتوجَّهَ نحوها حتىٰ بلغ قريبًا منها، ثم ثنىٰ وركه فنزل ومشىٰ نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجِّهًا إليه تجافَىٰ له عن ناحية مجلسه. قال سعيد)** الراوي: **(وتجافيت له أيضًا عن ناحية مجلسي حتىٰ صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتىٰ جلس بيني وبينه، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم، فما قطع الحسن كلامه)** لجلوس الحجاج **(قال سعيد)** الراوي: **(فقلت في نفسي: لأبلونَّ الحسنَ اليوم، ولأنظرنَّ هل يحمل الحسنَ جلوسُ الحجاج إليه علىٰ أن يزيد في كلامه يتقرَّب إليه)** بذلك **(أو يحمل الحسنَ هيبةُ الحجاج علىٰ أن ينقص من كلامه، فتكلم الحسن كلامًا واحدًا نحوًا ممَّا كان يتكلم به في كل يوم حتىٰ انتهىٰ)** الحسن **(إلىٰ آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها علىٰ منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبرَّ)** أي فيما قال **(فعليكم بهذه المجالس وأشباهها، واتخِذوها خُلقًا وعادة، فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ أن: مجالس الذكر رياض الجنة)** قد ورد معنىٰ ذلك في أخبار، منها: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر». رواه الترمذي – وقال: حسن غريب – وأبو يعلىٰ وابن شاهين في «الترغيب في الذكر» والبيهقي في الشعب من حديث أنس. وفي لفظ: قال: «مجالس العلم».

رواه الطبراني من حديث ابن عباس. وفي لفظ: قال: «المساجد، والرتع فيها قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: غريب. وقد تقدم في كتاب الأذكار والدعوات[1] **(ولولا ما حُمِّلناه من أمر الناس ما غلبتمونا علىٰ هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها. قال: ثم افترَّ الحجاجُ)** أي فتح فمه **(فتكلم حتىٰ عجب الحسنُ ومَن حضر)** في مجلسه **(من بلاغته، فلما فرغ)** من كلامه **(طفق فقام)** من المجلس **(فجاء رجل من أهل الشام إلىٰ مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال: عِباد الله المسلمين، ألا تعجبون؟ إني رجل شيخ كبير، وإني أغزو)** أي أؤمر بالغزو **(فأكلَّف فرسًا وبغلاً، وأكلَّف فسطاطًا، وإن لي ثلاثمائة درهم من العطاء)** أي في ديوان الجند **(وأن لي سبع بنات من العيال. فشكا من حاله حتىٰ رقَّ له الحسن وأصحابه)** علىٰ ذلك **(والحسن مكبٌّ)** أي خافض رأسه ليسمع ما يقول **(فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولاً)** أي مستخدَمين **(ومال الله دولاً)** يتناوبونه **(وقتلوا الناس علىٰ الدينار والدرهم، فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبَّابة)** أي العالية المشرَعة **(وعلىٰ البغال السبَّاقة، وإذا أغزىٰ أخاه أغزاه طاويًا)** أي جائعًا **(راجلاً)** أي علىٰ رجليه **(فما فتر الحسن حتىٰ ذكرهم بأقبح العيب وأشده، فقام رجل من أهل الشام كان جالسًا إلىٰ الحسن فسعىٰ به إلىٰ الحجاج)** أي نقل مجلسه ذلك **(وحكىٰ له كلامه، فما لبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجِب الأميرَ. فقام الحسن، وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به)** في حقِّهم **(فلم يلبث الحسن أن رجع إلىٰ مجلسه وهو يتبسَّم، وقلَّما رأيتُه فاغرًا فاه)** أي فاتحًا **(يضحك، إنما كان يتبسَّم، فأقبل حتىٰ قعد في مجلسه، فعظَّم الأمانة)** أي أمرها **(وقال: إنما تَجالَسون بالأمانة)**[2] رواه بهذا اللفظ العسكري من طريق هشام بن زياد عن

(١) وكذلك في الباب الثالث من كتاب العلم.

(٢) الحديث عن أبي داود (٤٨٧١)، وأحمد (١٤٧٣٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس[١] رفعه. وروىٰ عبد الرزاق في جامعه[٢] وابن المبارك في الزهد[٣] والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم مرفوعًا ومرسلاً: «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله تعالىٰ، فلا يحل لأحدهما أن يفشي علىٰ صاحبه ما يكره». ورواه ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود. وروىٰ العسكري والديلمي والقضاعي[٤] من حديث علي: «المجالس بالأمانة». وروىٰ الديلمي[٥] من حديث أسامة بن زيد: «المجالس أمانة، فلا يحل لمؤمن أن يرفع علىٰ مؤمن قبيحًا» **(كأنَّكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم، إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلىٰ ناحيته ثم ينطلق فيسعىٰ بنا إلىٰ شرارة من نار)** وروىٰ[٦] العسكري عن ابن عباس في تأويل قوله «إنما تَجالَسون بالأمانة» قال: أراد ﷺ أن الرجل يجلس إلىٰ القوم فيخوضون في الحديث، ولعل فيه ما إن نمىٰ كان فيه ما يكرهون فيأمنونه علىٰ أسرارهم[٧]. وروىٰ من طريق سلم بن جُنادة، حدثنا أبو أسامة، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أنس مرفوعًا: «ألا ومن الأمانة - أو: ألا من الخيانة - أن يحدِّث الرجل أخاه بالحديث فيقول: اكتمْه، فيفشيه»[٨] **(إني أتيت هذا الرجل)** يعني الحجاج **(فقال: أقصِرْ عليك من لسانك وقولك:**

---

(١) ورواه أيضا من حديث ابن عباس: الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٠٤، وعبد بن حميد في مسنده ١/ ٥٠٥، والقضاعي في مسند الشهاب ٢/ ١٢٤.

(٢) مصنف عبد الرزاق ١١/ ٢٢.

(٣) الزهد والرقائق ص ٢١٩.

(٤) مسند الشهاب ١/ ٣٨.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢١٥.

(٦) المقاصد الحسنة ص ٣٧٦. وتأويل الحديث المذكور ليس مرويا عن ابن عباس، وإنما هو كلام العسكري. وقد صرح بذلك المناوي في فيض القدير ٦/ ٢٦٢.

(٧) بعده في المقاصد: «فيريد أن الأحاديث التي تجري بينهم كالأمانة التي لا يحب أن يطلع عليها، فمن أظهر أحاديث الذين أمنوه علىٰ أسرارهم فهو قتات، أي نمام».

(٨) ورواه هناد في الزهد ٢/ ٥٧٨ عن الحسن مرسلا.

إذا غزا عدوُّ الله غزا كذا فإذا أغزَىٰ أخاه أغزاه كذا، لا أبا لك! تحرِّض علينا الناس، أما إنَّا علىٰ ذلك لا نتَّهم نصيحتك، فأقصِرْ عليك من لسانك. قال: فدفعه الله عني. وركب الحسن حمارًا يريد المنزل، فبينما هو يسير إذ التفت فرأىٰ قومًا يتبعونه، فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء، وإلا فارجعوا) أي فإنَّ ذلك فتنة علىٰ المتبوع ومَذَلَّة للتابع (فما يبقىٰ هذا من قلب العبد[1].

فبهذه العلامات وأمثالها تتبيَّن سريرة الباطن، ومهما رأيتَ العلماء يتغايرون ويتحاسدون) مع بعضهم (ولا يتوانسون ولا يتعاونون) في الحق (فاعلمْ أنهم) علماء سوء (قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فهم الخاسرون) في صفقتهم، الخائبون في حركتهم. والله الموفِّق.

---

(١) هذه القصة رواها ابن الجوزي في المنتظم ٦/ ٣٤٠ - ٣٤١ بسياق آخر.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

(اعلمْ) وفَّقك الله (أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجُّد) أي لصلاة الليل (أو يقوم بعضهم فيصلُّون الليل كله أو بعضه وهو ممَّن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطُه للموافقة) معهم في عملهم (حتىٰ يزيد علىٰ ما كان يعتاده، أو) أنه (يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل) ذلك (الموضع فينبعث له نشاط في الصوم، ولولاهم لَما انبعث هذا النشاطُ، فهذا ربما يُظَن أنه رياء وأن الواجب تركُ الموافقة، وليس كذلك علىٰ الإطلاق، بل له تفصيل؛ لأن كل مؤمن) فهو (راغب في عبادة الله تعالىٰ وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الأشغال ويغلبه التمكُّنُ من الشهوات أو تستهويه الغفلةُ، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال) تلك (الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجُّد مثل تمكُّنه من النوم علىٰ فراش وثير) أي وطيء (أو تمكُّنه من التمتُّع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده، أو مطالعة حساب له مع معامليه) أو غير ذلك من الأسباب (فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر) أي تُضعِف (رغبتَه في الخير، وحصلت له أسباب باعثة علىٰ الخير لمشاهدته إياهم وقد أقبلوا علىٰ الله) بقلوبهم (وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله، فتتحرك دواعيه للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النومُ لاستنكاره الموضع) أو مزايلة الطبع مألوفه (أو بسبب آخر) ككثرة الناموس والبرغوث والبَق (فيغتنم زوالَ

النوم) عنه (وفي منزله ربما يغلب عليه النوم، وربما ينضاف إليه أنه في منزله علىٰ الدوام، والنفس لا تسمح بالتهجد دائمًا وإنما تسمح بالتهجد وقتًا قليلاً، فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسُر الصوم عليه في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبرُ عنها) مع تمكُّنه منها (فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه، فتنبعث داعيةُ الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق) أي موانع (ودوافع تغلب باعثَ الدين، فإذا سَلِمَ منها قويَ الباعثُ. فهذا وأمثاله من الأسباب يُتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصدُّ عن العمل) ويمنعه (ويقول: لا تعمل، فإنك) إن عملتَ (تكون مرائيًا؛ إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزيد علىٰ صلاتك المعتادة. وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفًا من ذمِّهم ونسبتهم إياه إلىٰ الكسل لا سيَّما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم، فيريد أن يحفظ منزلته) عندهم (وعند ذلك قد يقول له الشيطان: صَلِّ، فإنك مخلص) لله (ولستَ تصلي لأجلهم بل لله) عَزَّوَجَلَّ (وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق) التي كانت عرضتْ لك (وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطِّلاعهم، وهذا أمر مشتبه) الطرفين (إلا علىٰ ذوي البصائر) النافذة (فإذا عُرف أن المحرِّك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد علىٰ ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة؛ لأنه يعصي الله بطلب مَحمدة الناس بطاعة الله. وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرُّك الغِبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق، وعلامة ذلك أن يعرض علىٰ نفسه أنه لو رأىٰ هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه، فإن سَخَتْ نفسُه فليصلِّ، فإنَّ باعثه الحق، وإن كان يثقل علىٰ نفسه ذلك لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء. وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة) مع الجماعة (ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم) له (ويمكن أن يكون) تحرُّك (نشاطه بسبب نشاطهم، وزوال

غفلته بسبب إقبالهم علىٰ الله تعالىٰ، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوعُ النفس إلىٰ حب الحمد، فمهما علمَ أن الغالب علىٰ قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يردَّ ذلك علىٰ نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة. وكذلك قد تبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفًا من الله لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لَما بكىٰ، ولكن بكاء الناس يؤثِّر في ترقيق القلب) وتليينه (وقد لا يحضره البكاءُ فيتباكَىٰ) أي يتكلَّف البكاءَ (تارةً رياءً، وتارة مع الصدق؛ إذ يخشىٰ علىٰ نفسه قساوة القلب حين) رآهم (يبكون ولا تدمع عينُه، فيتباكَىٰ تكلُّفًا، وذلك محمود، وعلامة الصدق فيه أن يعرض علىٰ نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف علىٰ نفسه القساوة فيتباكَىٰ أم لا، فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي. قال لقمان لابنه): يا بني (لا تُرِ الناسَ أنك تخشىٰ الله ليكرموك وقلبك فاجر)[1] أي فإن ذلك رياء ونفاق (وكذلك الصيحة) أي الزعقة (والتنفس) صُعَداء (والأنين عند) سماع (القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسُّف) علىٰ ما فات من الخير (وتارةً تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه فيتنفس ويتكلَّف التنفسَ والأنين ويتحازن، وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته علىٰ أنه كثير الحزن ليُعرَف بذلك، فإن تجرَّدت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سَلِمَ بكاؤه وتباكيه، وإن قَبِلَ ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجرُه وضاع سعيه وتعرَّض لسخط الله به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ولكن يمدُّه ويزيد في رفع الصوت، فرفعُ تلك الزيادة رياء، وهو محظور؛ لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسَه ولكن يسبق خاطرُ الرياء فيقبله فيدعو إلىٰ زيادة تحزين الصوت أو رفعٍ له أو

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٩٤ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٠ وأحمد في الزهد ص ٤٤، ٨٧ والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٢٢٩ عن محمد بن واسع.

حفظ الدمعة) الجارية (علىٰ الوجه حتىٰ تُبصَر) أي يراها الناس (بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها علىٰ الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذِّكر فتضعُف قواه) وترتخي (من الخوف فيسقط) علىٰ الأرض (فيستحي أن يقال إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة، فيزعق) ويصيح (ويتواجد تكلُّفًا ليُرِي أنه سقط لكونه مغشيًّا عليه، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعًا، فتجزع نفسُه أن يقال: حالته غير ثابتة وإنما هي كبرق خاطف، فيستديم الزعقةَ والرقص والتواجُد ليُرِي دوامَ حاله) وثبوتها (وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفُه سريعًا، فيجزع أن يقال: لم تكن غشيته صحيحة، ولو كان لدام ضعفُه، فيستديم إظهارَ الضعف والأنين فيتَّكئ علىٰ غيره يُرِي أنه يضعُف عن القيام، ويتمايل في المشي) يمينًا وشمالاً (ويقرِّب الخطا ليُظهِر أنه ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكائد الشيطان) وخِدَعه (ونزغات النفس، فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكَّر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطَّلعوا علىٰ) ما في (ضميره لمقتوه) أي أبغضوه (وأن الله مطَّلع علىٰ ضميره، وهو له أشد مقتًا، كما رُوي عن ذي النون) رحمه الله تعالىٰ (أنه) لما دخل بغداد واجتمعت عليه الصوفية، ومعهم قوَّال يقول شيئًا، فاستأذنوه في أن يقول بين يديه شيئًا، فأذنَ له، فابتدأ يقول:

صغيرُ هَواك عذَّبني ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعتَ في قلبي ... هوًىٰ قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب ... إذا ضحك الخليُّ بكىٰ

(قام) ذو النون (وزعق) وسقط علىٰ وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يشعر به (فقام معه شيخ آخر رأىٰ فيه أثر التكلُّف) يتواجد (فقال) له ذو النون: (يا شيخ، الذي يراك حين تقوم. فجلس الشيخ) حكاه القشيري في الرسالة عن أحمد بن مقاتل العكي. ثم قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق يقول في هذه الحكاية:

كان ذو النون المصري صاحب إشراف على ذلك الرجل حيث نبَّهه أن ذلك ليس مقامه، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف، حيث قَبِلَ ذلك منه فرجع وقعد. وقد تقدم ذلك في كتاب السماع والوجد **(وكل ذلك من أعمال المنافقين، وقد جاء في الخبر: نعوذ بالله من خشوع النفاق)** قال العراقي[١]: رواه البيهقي في الشعب[٢] من حديث أبي بكر الصديق، وفيه الحارث بن عبيد الإيادي، ضعَّفه أحمد وابن معين[٣] **(وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع)**[٤] وقد جاء مفسَّرًا هكذا في الخبر فيما رواه الحكيم[٥] والبيهقي من حديث أبي بكر المتقدم بلفظ: «تعوَّذوا بالله من خشوع النفاق». قالوا: يا رسول الله، وما خشوع النفاق؟ قال: «خشوع البدن ونفاق القلب». وقد رواه كذلك الحاكم في تاريخه من حديث ابن عمر.

(ومن ذلك: الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإنَّ ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكُّر ذنب وتندُّم عليه، وقد يكون للمراءاة.

فهذه خواطر تَرِدُ على القلب متضادَّة مترادفة متقاربة، وهي مع تقارُبها متشابهة) يعسر التمييزُ بينها إلا على ذوي البصائر **(فراقِبْ قلبك في كل ما يخطر لك، وانظر ما هو ومن أين هو، فإن كان لله فامضْه، واحذر مع ذلك أن يكون خفيَ عليك شيء من الرياء الذي هو)** في دقَّته وخفائه **(كدبيب النمل، وكن على وَجَل من عبادتك أهي مقبولة)** عند الله **(أم لا لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدَّد لك خاطر الركون)** أي الميل **(إلى حمدهم بعد الشروع في الإخلاص، فإنَّ**

---

(١) المغني ٢/ ٩٤٢.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٢٢١.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٨١.

(٤) من حديث أبي بكر أخرجه البيهقي في الشعب ٩/ ٢٢٠، وابن أبي شيبة ١٤/ ٥٩، وابن المبارك في الزهد صـ٤٦، البيهقي في الشعب ٩/ ٢٢٠ من كلام أبي الدرداء ﷺ جميعًا.

(٥) نوادر الأصول ص ٥٨٢، ١٠٠٧.

ذلك ممَّا يُكرَه) في الأعمال (جدًّا، فإذا خطر لك فتفكَّرْ في اطِّلاع الله عليك ومقته لك، وتذكَّرْ ما قاله أحد الثلاثة نفر الذين حاجُّوا أيوبَ عليه السلام؛ إذ قال: يا أيوب، أما علمتَ أن العبد تضل عنه علانيتُه التي يخادع بها في نفسه ويُجزَىٰ بسريرته. وقول بعضهم(١): أعوذ بك أن يرىٰ الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت)(٢) أي باغض (وكان من دعاء علي بن الحسين) بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: (اللهم إني أعوذ بك أن تحسُن في لامعة العيون) أي ما ظهر منها (علانيتي وتقبُح لك فيما أخلو سريرتي محافظًا علىٰ رياء الناس في نفسي ومضيعًا ما أنت مطَّلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري وأفضي إليك بأسوأ عملي تقرُّبًا إلىٰ الناس بحسناتي وفرارًا منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك ويجب عليَّ غضبُك، أعِذْني من ذلك يا رب العالمين(٣))(٤) وهذا الدعاء رواه صاحب نهج البلاغة(٥) من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ولفظه: اللهم إني أعوذ بك من أن تحسُن في لامعة العيون علانيتي وتقبُح فيما أُبطِنُ لك سريرتي محافظًا علىٰ رياء الناس، مطَّلع من نفسي بجميع ما أنت مطَّلع عليه مني فأُبدي للناس حُسن ظاهري وأفضي إليك بسوء عملي تقرُّبًا

(١) هو محمد بن واسع البصري، فقد روىٰ ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٤٩ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٤٩ عن سفيان الثوري قال: قيل لمحمد بن واسع: إني لأحبك في الله تعالىٰ. قال: أحبك الذي أحببتني له، اللهم إني أعوذ بك أن أُحَب فيك وأنت لي ماقت أو مبغِض. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١١/ ٣٢٥ ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ١٥٢ عن علي بن عثام قال: قال رجل لمحمد بن واسع ... فذكره.

(٢) الرعاية صـ٢٣٤.

(٣) الرعاية صـ٢٣٤.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٣٤ مختصرا بلفظ: «اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لوامع العيون علانيتي وتقبح في خفيات العيون سريرتي، اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ فإذا عدت فعدْ عليَّ». وروىٰ الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢٧٤ عن يزيد بن هارون قال: كان من دعاء عمر بن ذر: اللهم إني أعوذ بك أن يحسن بمرامقة العيون علانيتي، ويقبح فيما أخونك به سريرتي، أبدأ إليك بمساوئ أمري، وأفضي إلىٰ المخلوقين محاسن عملي.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٩/ ٩٢.

إلىٰ عبادك وتباعُدًا من مرضاتك. وهو من رواية علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جده.

(وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب ﷺ: يا أيوب، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلىٰ الرحمن تسودُّ وجوههم[1].

فهذه جملة آفات الرياء، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها، ففي الخبر: إن للرياء سبعين بابًا) قال العراقي[2]: هكذا ذكر المصنِّف هذا الحديث هنا، وكأنَّه تصحَّف عليه أو علىٰ مَن نقله من كلامه أنه «الرياء» بالمثناة التحتية، وإنما هو «الربا» بالموحدة، والرسم كتابته بالواو. والحديث رواه ابن ماجه[3] من حديث أبي هريرة بلفظ: «الربا سبعون حُوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمَّه». وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيح، مختلَف فيه. وروىٰ ابن ماجه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابًا»، وإسناده صحيح. هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات، وقد روىٰ البزار[4] حديث ابن مسعود بلفظ: «الربا بضع وسبعون بابًا، والشرك مثل ذلك». وهذه الزيادة قد يُستدَل بها علىٰ أنه «الرياء» بالمثناة؛ لاقترانه مع الشرك. والله أعلم.

قلت: رُوي ذلك من حديث أبي هريرة وابن مسعود والبراء وعائشة ورجل من الأنصار. فحديث أبي هريرة رواه ابن جرير بلفظ: «الربا سبعون حُوبًا، أهونها مثل وقوع الرجل علىٰ أمه». ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الغيبة[5] بلفظ: «وأيسرها كنكاح الرجل أمه، وإن أربىٰ الربا عِرضُ الرجل المسلم». ورواه

---

(١) السابق.

(٢) المغني ٢/ ٩٤٢.

(٣) سنن ابن ماجه ٣/ ٥٩٧.

(٤) مسند البزار ٥/ ٣١٨.

(٥) ذم الغيبة والنميمة ص ٥٨.

البيهقي[١] بلفظ: «الربا سبعون بابًا، أدناها كالذي يقع علىٰ أمه». وفي لفظ له: «إن الربا سبعون حُوبًا، أدناها مثلما يقع الرجل علىٰ أمه، وأربىٰ الربا استطالة المرء في عِرض أخيه [المسلم]».

وأما حديث ابن مسعود فلفظه: «الربا ثلاثة وسبعون بابًا، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربىٰ الربا عِرض الرجل المسلم». رواه الحاكم[٢] والبيهقي[٣].

وأما حديث البراء فلفظه: «الربا اثنان وسبعون بابًا، أدناها مثل إتيان الرجل أمه». رواه ابن جرير[٤].

وأما حديث عائشة فلفظه: «إن الربا بضع وسبعون بابًا، أصغرها كالواقع علىٰ أخته». رواه أبو نعيم في الحلية[٥].

وأما حديث رجل من الأنصار فلفظه: «الربا أحد وسبعون - أو قال: ثلاثة وسبعون - حُوبا، أهونها مثل إتيان الرجل أمه». رواه عبد الرزاق في جامعه[٦].

وأما حديث ابن مسعود الذي رواه البزار فقد رواه ابن جرير كذلك، وضبطوه بالموحدة. وقد تقدم ذِكرُ هذا الحديث في كتاب [آفات] اللسان.

(وقد عرفتَ أن بعضه أغمض من بعض، حتىٰ إن بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفىٰ من دبيب النمل، وكيف يُدرَك ما هو أخفىٰ من دبيب النمل) لشدة خفائه ودقَّته **(إلا بشدة التفقُّد والمراقبة)** وكثرة المجاهدة لعيوب النفس **(وليته**

---

(١) شعب الإيمان ٧/ ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٤٦.

(٣) شعب الإيمان ٧/ ٣٦٣.

(٤) ورواه أيضا الطبراني في المعجم الأوسط ٧/ ١٥٨.

(٥) حلية الأولياء ٥/ ٧٤، وفيه: «كالواقع علىٰ أمه، والدرهم الواحد من الربا أعظم عند الله من ستة وثلاثين زنية».

(٦) مصنف عبد الرزاق ٨/ ٣١٤، وفيه (أدناها) بدل: أهونها.

أُدرِكَ بعد بذل المجهود، فكيف يُطمَع في إدراكه من غير تفقُّد للقلب وامتحان للنفس) ورياضة لها وتهذيبها **(وتفتيش عن خِدَعها)** وتلبيساتها. والله الموفِّق.

بيان ما ينبغي للمريد أن يُلزِم نفسَه قبل العمل وبعده وفيه

(اعلمْ) هداك الله (أن أول ما يُلزِم المريدُ قلبَه في سائر أوقاته القناعةُ بعلم الله تعالىٰ في جميع طاعاته) وما يتقرَّب به إليه (ولا يَقنع بعلم الله إلا مَن لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما مَن خاف غيره وارتجاه اشتهىٰ اطِّلاعه علىٰ محاسن أحواله الباطنة والظاهرة (فإن كان) المريد (في هذه المرتبة فليُلزِم قلبَه كراهتَه ذلك) أي يحبسه به ويجعل الكراهة كالزمام. وفي نسخة: فيلزم (من جهة العقل والإيمان؛ لِما فيه من خطر التعرُّض للمقت) والسقوط من عين الله تعالىٰ (وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصًا علىٰ الإفشاء) والإظهار (وتقول: مثل هذا العمل العظيم) الشاق (والخوف العظيم والبكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك) تعظيمًا لمقامك (فما في الخلق مَن يقدر علىٰ مثله، فكيف ترضىٰ بإخفائه) وكتمِه (فيجهل الناس محلَّك) ومنزلتك (وينكرون قدْرك ويُحرَمون الاقتداء بك. ففي مثل هذا الأمر) إذا عرض له (ينبغي أن تثبُت قدمُه، ويتذكَّر في مقابلة عِظَم عمله عِظَم مُلْك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد) وما أعدَّ الله فيها للعاملين ممَّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر (و) يتذكَّر أيضًا (عِظَم غضب الله ومقته علىٰ مَن طلب بطاعته ثوابًا من عباده، ويعلم أن إظهاره لغيره تحبُّبٌ إليه وسقوط عند الله) من عين رحمته (وإحباط للعمل العظيم، فيقول: وكيف أُتبِعُ مثل هذا العمل بحمد الخلق) وثنائهم (وهم عاجزون) في أنفسهم (لا يقدرون لي علىٰ رزق ولا أجل. فيُلزِم ذلك قلبَه) ويردُّه عليه (ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر علىٰ الإخلاص الأقوياء) من الناس (فأما المخلِّطون فليس ذلك من شأنهم. فيترك المجاهدة في الإخلاص) رأسًا (لأن المخلِّط إلىٰ ذلك أحوج من المتَّقي؛ لأن المتقي إن فسدت نوافلُه بقيت

فرائضه كاملة تامة) محفوظة عن الفساد **(والمخلِّط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلىٰ الجبران بالنوافل، فإن لم يَسلم صار مأخوذًا بالفرائض وهلك به، فالمخلِّط إلىٰ الإخلاص)** في أعماله **(أحوج)** من المتَّقي **(وقد روىٰ)** أبو[١] رقيَّة **(تميم)** بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة بن ذراع بن عدي بن الدار **(الداري)** رضي الله عنه، قدم المدينةَ سنة تسع وأسلم، وذكر للنبي ﷺ قصة الجسَّاسة والدجال، فحدَّث النبيُّ ﷺ عنه بذلك علىٰ المنبر، وعُدَّ ذلك من مناقبه، وانتقل إلىٰ الشام بعد قتل عثمان، وسكن فلسطين، وكان النبي ﷺ أقطعه بها قرية عينون[٢]. قال ابن حبان[٣]: مات بالشام، وقبره ببيت جبرين[٤] من بلاد فلسطين **(عن النبي ﷺ أنه قال: يحاسَب العبد يوم القيامة، فإن نقص فرضُه قيل: انظروا هل له من تطوُّع، فإن كان له تطوُّعٌ أُكمِل به فرضه، وإن لم يكن له تطوُّعٌ أُخِذ بطرفيه فأُلقي في النار)** رواه أحمد[٥] وأبو داود[٦] وابن ماجه[٧] والدارمي[٨] وابن قانع[٩] والحاكم[١٠] والبيهقي[١١] والضياء، ولفظهم: «أول ما يحاسَب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن كان أتمَّها كُتبت له تامة، فإن لم يكن أتمَّها قال الله عز وجل لملائكته: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوُّع فتكملون بها فريضته. ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخَذ الأعمال علىٰ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) بيت عينون: قرية فلسطينية تقع شمال مدينة الخليل، يقطنها عدد قليل من السكان.

(٣) الثقات ٣/ ٤٠.

(٤) وهي الآن في مدينة الخليل.

(٥) مسند أحمد ٢٨/ ١٥٢.

(٦) سنن أبي داود ١/ ٥٤٢.

(٧) سنن ابن ماجه ٢/ ٥٣٦.

(٨) سنن الدارمي ١/ ٣٦١.

(٩) معجم الصحابة ١/ ١٠٩ مختصرا.

(١٠) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٣٨٤.

(١١) السنن الكبرىٰ ٢/ ٥٤١.

حسب ذلك». ورواه أيضًا أحمد[١] وابن أبي شيبة[٢] عن رجل من الصحابة. وفي رواية: «أول ما يحاسَب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، يقول ربُّنا عَزَّوَجَلَّ لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمَّها أم نقصَها. فإن كانت تامة كُتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع. فإن كان له تطوعٌ قال: أتِمُّوا لعبدي فريضته من تطوعه. ثم تؤخَذ الأعمال علىٰ ذلكم». هكذا رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤] والنسائي[٥] والحاكم[٦] والبيهقي[٧] من حديث أبي هريرة. وروىٰ الحاكم في الكنىٰ من حديث ابن عمر: «أول ما افترض الله تعالىٰ علىٰ أمَّتي الصلوات الخمس، وأول ما يُرفع من أعمالهم الصلوات الخمس، وأول ما يُسئلون عنه الصلوات الخمس، فمَن كان ضيَّع شيئًا منها يقول الله تبارك وتعالىٰ: انظروا هل تجدون لعبدي نافلة من صلاة تتمُّون بها ما نقص من الفريضة، وانظروا في صيام عبدي شهر رمضان، فإن كان ضيَّع شيئًا منه فانظروا هل تجدون لعبدي نافلة من صيام تتمُّون بها ما نقص من الصيام، وانظروا في زكاة عبدي، فإن كان ضيَّع شيئًا منها فانظروا هل تجدون لعبدي نافلة من صدقة تتمُّون بها ما نقص من الزكاة. فيؤخَذ ذلك علىٰ فرائض الله، وذلك برحمة الله وعدله، فإن وُجد فضل وُضع في ميزانه وقيل: ادخل الجنة مسرورًا، وإن لم يوجد له شيء من ذلك أُمِرت به الزبانية فأُخِذ بيديه ورجليه ثم قُذف به في النار»[٨]. وروىٰ ابن عساكر[٩] من حديث

---

(١) مسند أحمد ٢٧/ ١٦٠، ٣٤/ ٢٩٣، ٣٨/ ٢٥٢.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٣٨.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ٢٧٨، ١٥/ ٢٩٩.

(٤) سنن أبي داود ١/ ٥٤٢.

(٥) سنن النسائي ص ٨٠ - ٨١.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٣٨٣.

(٧) السنن الكبرىٰ ٢/ ٥٤٠.

(٨) كنز العمال ٧/ ٢٧٦.

(٩) تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٧٧.

أبي هريرة: «إن أول ما يحاسَب به العبد صلاته، فإن سَلِمت سَلِمَ[١] سائرُ عمله، وإن فسدت فسد سائرُ عمله، ثم يقول: انظروا هل لعبدي من نافلة. فإن كانت له نافلة أتمَّ بها الفريضةَ، ثم الفرائض كذلك بعائدة الله تعالىٰ ورحمته». وإسناده حسن. ورواه الترمذي[٢] - وقال: حسن غريب - والنسائي وابن ماجه[٣] بلفظ: «إن أول ما يحاسَب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلُحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فيكمَّل به ما انتقص من الفريضة. ثم يكون سائر عمله علىٰ ذلك». وقد تقدم شيء من ذلك في كتاب الصلاة (**فيأتي المخلِّط يوم القيامة وفرضُه ناقص، وعليه ذنوب كثيرة، فاجتهاده في جبر الفرائض**) بالنوافل (**وتكفير السيئات أحوج، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل**) حتىٰ يقع بها الجبر (**وأما المتَّقي فجهده في زيادة الدرجات**) ورفعها (**فإن حبط تطوعُه بقي من حسناته ما يترجَّح به علىٰ السيئات فيدخل الجنة**) بفضل الله ورحمته (**فإذًا ينبغي أن يُلزِم قلبَه خوف اطِّلاع غير الله عليه لتصحَّ نوافله، ثم يُلزِم قلبَه ذلك بعد الفراغ حتىٰ لا يتحدَّث به ولا يظهره للناس، فإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وَجِلاً من عمله، خائفًا أنه ربما داخَلَه من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكًّا في قبوله وردِّه، مجوِّزًا أن يكون الله قد أحصىٰ عليه من نيَّته الخفية ما مقته بها**) أي أبغضه (**وردَّ عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده لا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقِّنًا في الابتداء أنه مخلص، ما يريد بعمله إلا الله، حتىٰ يصح عملُه، فإذا شرع فيه ومضت لحظةٌ يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عُجْب أَولىٰ به**) وبه يكون تمام عمله بالإخلاص، فيعطَىٰ لآخره حكم أوله (**ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه؛ لأنه استيقن أنه**

(١) في تاريخ دمشق: فإن صلحت صلح.

(٢) سنن الترمذي ١/ ٤٣٨.

(٣) سنن ابن ماجه ٢/ ٥٣٥ - ٥٣٦.

دخل بإخلاص) في ابتداء العقد (وشكٌّ في أنه هل أفسده برياء، فيكون رجاء القبول أغلب، وبذلك تعظُم لذتُه في المناجاة والطاعات، فالإخلاص يقين، والرياء شك) واليقين لا يُزال بالشك (وخوفه لأجل الشك جدير بأن يكفِّر خاطرَ الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه، و) أما (الذي يتقرَّب إلىٰ الله بالسعي في حوائج الناس) التي يضطرون إليها (و) في (إفادة العلم) فإنه (ينبغي أن يُلزِم نفسَه رجاءَ الثواب علىٰ دخول السرور علىٰ قلب مَن قضىٰ حاجته فقط، ورجاء الثواب علىٰ عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعَم عليه، فإنَّ ذلك يحبط الأجر، فمهما توقَّع) أي ترجَّىٰ (من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه) له أو مشيه خلفه راكبًا أو ماشيًا (أو تردُّدًا منه في حاجة) من حاجاته المتعلقة به (فقد أخذ أجره، ولا ثواب له غيره. نعم، إن لم يتوقَّع هو) ذلك (ولم يقصد إلا الثواب علىٰ عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن) لو (خدمه التلميذُ بنفسه) من غير طلب منه (فقَبِلَ خدمته فنرجو أن لا يُحبَط لذلك أجره؛ إذ كان لا ينتظره ولا يريده منه) ولا يطلبه (ولا يستعيده منه لو قطعه، ومع هذا فقد كان العلماء يحذَرون هذا، حتىٰ إن بعضهم وقع في بئر) فاستغاث (فجاء قوم فأدلوا) له (حبلاً ليرقوه) وفي نسخة: ليرفعوه (فحلف عليهم أن لا يقف معهم مَن قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثًا، خيفةً من أن يحبط أجره.

وقال شقيق البلخي) رحمه الله تعالىٰ: (أهديتُ لسفيان) بن سعيد (الثوري) رحمه الله تعالىٰ (ثوبًا، فردَّه عليَّ) ولم يقبله (فقلت له: يا أبا عبد الله، لست أنا ممَّن يسمع الحديث حتىٰ تردَّه عليَّ) فتخاف أني أهديته لك لأجل ذلك (قال) الثوري: قد (علمت ذلك، ولكن أخوك يسمع مني الحديث، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر ممَّا يلين لغيره) أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] عن عبد المنعم ابن عمر، حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا أبو داود، حدثنا إسحاق بن الجرَّاح الأَذَني، حدثنا

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣.

عبد الله بن محمد قال: حدثني شقيق البلخي قال: أهديتُ لسفيان ... فذكره.

(و) قال أبو نعيم أيضًا: حدثنا عبد المنعم بن عمر، حدثنا أحمد بن محمد ابن زياد، حدثنا محمد بن إسماعيل الصائغ، حدثنا الحُلْواني، حدثنا يحيىٰ بن أيوب، حدثنا مبارك بن سعيد قال: **(جاء رجل إلىٰ سفيان ببدرة أو ببدرتين، وكان أبوه صديقًا لسفيان، وكان سفيان يأتيه كثيرًا)** قال: **(فقال له: يا أبا عبد الله، في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك، كان وكان، فأثنىٰ عليه)** قال: **(فقال: يا أبا عبد الله، قد عرفتَ كيف صار إليَّ هذا المالُ، فأحب أن تأخذ هذه)** البدرة من المال **(تستعين بها علىٰ عيالك. قال: فقَبِلَ سفيان ذلك، فلما خرج قال لولده)** ولفظ الحلية بعد قوله «ذلك»: وقام الرجل، فلما كاد أن يخرج قال: **(يا مبارك، الحقْه فرُدَّه عليَّ)** وهذا السياق هو الصواب، فإن مباركًا أخاه لا ولده، وهو[1] مبارك بن سعيد بن مسروق الثوري الأعمىٰ، أبو عبد الرحمن الكوفي، نزيل بغداد، صدوق، مات سنة ثمانين [ومائة] روىٰ له أبو داود والترمذي والنسائي في عمل اليوم والليلة. فرجع الرجل **(فقال)** له سفيان: يا ابن أخي، **(أحب أن تأخذ مالك)** قال له: يا أبا عبد الله، في نفسك منه شيء؟ قال: لا، ولكن أحب أن تأخذه **(فلم يزل به حتىٰ ردَّه عليه)** فذهب به **(وكأنه كانت أخوَّته مع أبيه في الله فكره أن يأخذ ذلك)** ومن قوله «وكأنه» إلىٰ هنا من زيادة المصنف ليست في سياق الحلية، وقد ساقها للاعتذار عن سفيان، وهو حسن **(قال ولده: فلما خرج)** الرجل بماله **(لم أملك نفسي أنْ جئتُ إليه فقلت: ويلك)**! وليس في الحلية «ولده»، وإنما هو: قال: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويحك! **(أيُّ شيء قلبك هذا حجارة؟! عُد أنه ليس لك عيال، أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ أما ترحم عيالك)**؟ وفي الحلية: عيالنا وعيالك. قال: **(فأكثرت عليه، فقال: الله يا مبارك، تأكلها أنت هنيئًا مريئًا وأُسأل عنها أنا)** ولفظ الحلية: أنا عنها.

---

(١) تقريب التهذيب ص ٩١٨.

(فإذًا يجب علىٰ العالِم أن يُلزِم قلبَه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط) ولا يخطر به شيء سواه **(ويجب علىٰ المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله تعالىٰ وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق، وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه، وهو خطأ؛ لأن إرادة غير الله بطاعته خسران في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد، وكيف يخسر في الحال عملاً نقدًا)** حاضرًا **(علىٰ توهُّم علمٍ)** سيستفيده مع التردُّد في كونه مفيدًا أو غير مفيد **(وذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله، ويعبد لله، ويخدم المعلم لله لا ليكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلُّمه طاعة، فإن العباد أُمِروا أن لا يعبدوا إلا الله، ولا يريدوا بطاعتهم غيرَه)** كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] غير مشركين به **(وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث أن رضا الله عنه في رضا الوالدين)** وقد روىٰ الترمذي(١) من حديث عبد الله بن عمرو: «رضا الرب من رضا الوالد، وسَخَطُ الرب من سخط الوالد» **(ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عن ريائه، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضًا)** فإنَّ مَن طلب رضا الناس بسخط الله أسخطهم [عليه] كما ورد ذلك في الخبر، وتقدم **(وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يُلزِم قلبَه ذِكر الله)** تعالىٰ **(والقناعة بعلمه)** فقط **(ولا تخطر بقلبه معرفةُ الناس بزهده واستعظامهم محله)** وتبجيلهم له **(فإنَّ ذلك يغرس الرياء في صدره حتىٰ تتيسَّر عليه العبادة في خلواته به)** وفي نسخة: العبادات في خلوته به **(وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحلِّه، وهو لا يدري أنه المخفِّف للعمل عليه. قال إبراهيم بن أدهم)** رحمه الله تعالىٰ: **(تعلَّمت المعرفة من راهب)** في دير **(يقال له سمعان، دخلت عليه في صومعته)** التي هو يتعبَّد فيها **(فقلت: يا سمعان، منذ كم أنت في صومعتك)** هذه؟ **(قال: منذ سبعين سنة. قلت: فما طعامك)** في هذه المدة؟

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ٤٦٤.

(قال: يا حنيفي، وما دعاك إلىٰ هذا) السؤال؟ (قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة حمصة. قلت: فما الذي يهيج في قلبك حتىٰ تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترىٰ الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتون في كل سنة يومًا واحدًا فيزيِّنون صومعتي ويطوفون حولها ويعظِّموني، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكَّرتُها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمِلْ يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد. فوقرت في قلبي المعرفة، فقال: حسبك) أي يكفيك ما علمتَ (أو أزيدك؟ فقلت: بلىٰ) زدني (قال: انزلْ عن الصومعة. فنزلت، فأدلَىٰ) أي أنزلَ (إليَّ ركوة فيها عشرون حمصة، فقال لي: ادخل الدير، فقد رأوا ما أدليت لك. فلما دخلت الدير اجتمعت عليَّ النصارىٰ، فقالوا: يا حنيفي، ما الذي أدلىٰ لك الشيخُ) يعنون الراهب (قلت): شيئًا (من قوته. قالوا: وما تصنع به؟ فنحن أحق به. ثم قالوا: ساوِمْ. قلت: عشرون دينارًا. فأعطوني عشرين دينارًا، فرجعت إلىٰ الشيخ، فقال: يا حنيفي، ما الذي صنعتَ؟ قلت: بعته منهم. قال: بكم؟ قلت: بعشرين دينارًا. قال: أخطأتَ، لو ساومتَهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عز مَن لا تعبده، فانظر كيف يكون عز من تعبده. يا حنيفي، أَقبِلْ علىٰ ربِّك ودَعِ الذهابَ والجيئة) أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] عن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يزيد، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن حمدان النيسابوري، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: سمعت بقية بن الوليد يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: تعلَّمت المعرفة من راهب يقال له سمعان[2] ... فذكره له.

(والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثًا في الخلوة، وقد لا يشعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه، وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، فلو تغيَّروا عن اعتقادهم له لم يجزع) من

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٩.

(٢) في الحلية: (يقال له أبا سمعان). وفيه أيضا: (يا أبا سمعان منذ كم ...).

ذلك (ولم يَضِقْ به ذرعًا إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، وأنه لو كان في عبادة فاطَّلع الناس كلهم عليه لم يزدْه ذلك خشوعًا، ولم يداخله سرورٌ بسبب اطِّلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسيرٌ فهو دليل ضعفه، ولكن) مع ذلك (إذا قدر علىٰ ردِّه بكراهة العقل والإيمان وبادر إلىٰ ذلك ولم يقبل ذلك السرورَ) وذلك (بالركون إليه) أي ميل الطبع (فيُرجَىٰ له أن لا يخيب سعيُه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض) في نفسه (كيلا ينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به، ولكن فيه غرور؛ إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلَّل بطلب الانقباض، فليطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علمَ أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو سريعًا أو يأكل كثيرًا أو يضحك كثيرًا فتسمح نفسه بذلك، فإذا لم تسمح به وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم) في قلوبهم (ولا ينجو من ذلك إلا مَن تقرَّر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوىٰ الله) تعالىٰ، وهو التوحيد الصِّرف (فيعمل عمل مَن لو كان علىٰ وجه الأرض وحده لكان يعمله، ولا يلتفت قلبه إلىٰ الخلق إلا خطرات ضعيفة لا تشق عليه إزالتُها) بأهون سبب (فإذا كان كذلك لم يتغيَّر بمشاهدة الخلق) ووجود مثل ذلك عزيز (ومن علامة الصدق فيه: أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني) وذو مال (والآخر فقير) لا شيء له (فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه لإكرامه، إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع، فيكون مكرمًا له بذلك الوصف لا بالغنىٰ، فمَن كان استرواحه إلىٰ مشاهدة الغني) وفي نسخة: الأغنياء (أكثر فهو) إما (مُراءٍ أو طَمَّاع، وإلا فالنظر إلىٰ الفقراء يزيد رغبةً في الآخرة، ويحبِّب إلىٰ القلب المسكنةَ) والتواضع (والنظر إلىٰ الأغنياء بخلافه) أي يزيد الرغبة في الدنيا، ويحبِّب إلىٰ القلب التجبُّرَ والبَطَر (فكيف يستروح إلىٰ الغني أكثر ممَّا يستروح إلىٰ الفقير؟! وقد حُكي أنه لم يُرَ الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، وكان يجلسهم وراء الصف ويقدِّم الفقراء، حتىٰ كانوا يتمنَّون أنهم فقراء

في مجلسه) قال أبو نعيم في الحلية[١]: حدثنا محمد ابن إبراهيم، حدثنا محمد بن بركة، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم، سمعت قبيصة يقول: ما رأيت الأغنياء أذل منهم في مجلس سفيان الثوري[٢]. وحدثنا محمد بن علي، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن المَوَّاز[٣] بمصر، حدثنا إبراهيم ابن أبي داود، حدثنا سعيد بن أسد، عن أبيه، عن حماد بن دليل قال: ما كنا نأتي سفيان إلا في خلقان ثيابنا **(نعم، لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون بحيث لو وُجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدِّم الغني عليه في إكرام وتوقير البتَّة، فإن الفقير أكرم علىٰ الله من الغني)** فالنظر إلىٰ تفضيل الغني علىٰ الفقير، كما سيأتي بيانه **(فإيثارك له لا يكون إلا طمعًا في غناه ورياء له، ثم إذا سوَّيت بينهما في المجالسة)** ولم تميِّز **(فيُخشَىٰ عليك أن تُظهِر الحكمةَ والخشوع للغني أكثر ممَّا تظهره للفقير، وإنما ذلك لرياء خفيٍّ أو طمع خفيٍّ، كما قال)** محمد بن صبيح **(ابن السَّمَّاك)** البغدادي الواعظ **(لجارية له: ما لي إذا أتيت بغداد فُتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانَك)**[٤] أي يجعله حديدًا منطلقًا في الفصاحة **(وقد صدقت)** الجارية **(فإن اللسان ينطلق عند الغني بما لا ينطلق)** وفي نسخة: أكثر مما ينطلق **(به عند الفقير)** وما ذلك إلا لطمع أو رياء، ومنه قولهم: اللُّها تفتح اللَّها **(وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير)** لأنه لا يكترث بالفقير في مجلسه، فكيف يؤاتيه الخشوعُ؟! **(ومكائد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك منها إلا بأن تُخرِج ما سوىٰ الله من قلبك)** فلا يكون لك تعلُّقٌ بسواه أبدًا **(وتتجرَّد للشفقة علىٰ نفسك بقية عمرك، ولا ترضىٰ لها بالنار بسبب)** ارتكاب **(شهوات منغِّصة)** أي مكدِّرة **(في أيام متقاربة)** منقضية، سريعة الذهاب. وفي الخبر:

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) بعده في الحلية: ولا الفقراء أعز منهم في مجلس سفيان الثوري.

(٣) في الحلية: اللواق.

(٤) الرعاية صـ٢٣٧.

«حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» (وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهواتُ وساعدته اللذات ولكن في بدنه سقم) أي مرضٌ (وهو يخاف الهلاك علىٰ نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات) أي في تناوُلها (وعلم أنه لو احتمىٰ) عنها (وجاهد) فيه (شهوتَه عاش ودام مُلكُه، فلما عرف ذلك) من نفسه (جالَسَ الأطباءَ وحارَفَ) أي نادَمَ (الصيادلة) وهم الذين يبيعون العقاقير (وعوَّد نفسَه شرب الأدوية المرة) الكريهة الطعم (وصبر علىٰ بشاعتها) وكراهتها (وهجر جميع اللذات وصبر علىٰ مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً) أي تغيُّرًا ونقصًا (لقلة أكله، ولكنَّ سقمه كل يوم يزداد نقصانًا لشدة احتمائه، فمهما نازعته نفسُه إلىٰ شهوة تفكَّرَ في توالي الآلام والأوجاع عليه وأداء ذلك إلىٰ الموت المفرِّق بينه وبين مملكته، الموجِب لشماتة الأعداء) أي فرحهم (فيه، ومهما اشتد عليه شربُ دواء) كريه الطعم (تفكَّرَ فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتُّع بمُلكه ونعيمه في عيش هنيء وبدن صحيح وقلب رضيٍّ) أي منشرح (وأمر نافذ، فتخف عليه مهاجرة اللذات) والشهوات (ومصابرة المكروهات، وكذلك المؤمن المريد لمُلك الآخرة احتمىٰ من كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهراتها، فاجتزىٰ) أي اكتفىٰ (منها بالقليل) قدْر البلاغ (واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفًا من أن يحل عليه غضب من الله فيَهلك) هلاكَ الأبد (ورجاء أن ينجو من عذابه، فخف ذلك كلُّه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره) بما سيصير إليه (وبما أُعِدَّ له من النعيم المقيم في رضوان الله) غير منقطع (أبد الآباد) ودهر الدهور (ثم علمَ أن الله كريم رحيم، لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونًا) ومعينًا (وبهم رؤوفًا، وعليهم عطوفًا، ولو شاء لأغناهم عن التعب والنَّصَب) وساق لهم لذَّات الدنيا بأسرها (ولكن) حماهم عنها و(أراد أن يبلوهم) ويختبرهم (ويعرف صدق إرادتهم حكمةً منه وعدلاً) وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف:

٧] **(ثم إذا تحمَّل)** المريد **(التعب في بدايته)** من جهة مجاهدة النفس وقطعها عن مألوفاتها **(أقبل الله عليه بالمعونة)** الباطنية **(والتيسير)** لأسباب الخير **(وحطَّ عنه الأعباء)** أي الأثقال **(وسهَّل عليه الصبرَ، وحبَّب إليه الطاعة، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات)** بل لا توازيها لذةٌ **(ويقويِّه علىٰ إماتة الشهوات، وتولَّىٰ سياسته وتقويته، وأمدَّه بمعونته)** وقرَّبه إليه **(فإن الكريم)** من شأنه أنه **(لا يضيع سعي الراجي، ولا يخيِّب أملَ المحب، وهو الذي يقول)** فيما أخبرنا عنه نبيُّنا ﷺ: **(مَن تقرَّب إليَّ)** أي[1] طلب قربه مني بالطاعة **(شبرًا)** أي مقدارًا قليلاً **(تقرَّبت منه ذراعًا)** أي أوصلت رحمتي إليه قدرًا أزيد منه، وكلما زاد العبد قربًا زاده الله رحمة **(ومَن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت[2] إليه ميلاً)** وتمام الحديث: «وإذا أتىٰ إليَّ مشيًا أتيته هرولةً». رواه البخاري[3] من حديث قتادة عن أنس. ورواه أيضًا من رواية التيمي عن أنس عن أبي هريرة مرفوعًا. ورواه أبو عوانة والطبراني[4] والضياء من حديث سلمان بلفظ: «قال الله تعالىٰ: إذا تقرَّبَ العبد إليَّ شبراً ...» الخ.

قال النووي[5]: معناه: مَن تقرَّب إليَّ بطاعتي تقرَّبت إليه برحمتي، وإن زاد زدتُ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة، أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلىٰ المشي الكثير في الوصول إلىٰ المقصود.

وقال عياض[6]: العبد لا يزال يتقرَّب إلىٰ الله بأنواع الطاعات وأصناف الرياضات ويترقَّىٰ من مقام إلىٰ آخر أعلىٰ منه حتىٰ يستغرق بملاحظة[7] جناب

---

(١) فيض القدير ٤/ ٤٨٢.

(٢) كذا هذه الزيادة في الزبيدي وحده.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٤١٤.

(٤) المعجم الكبير ٦/ ٢٥٤.

(٥) شرح صحيح مسلم ١٧/ ٥.

(٦) هذا ليس كلام القاضي عياض، وإنما هو كلام القاضي البيضاوي في تحفة الأبرار ٢/ ١٦.

(٧) في الفيض والتحفة: حتىٰ يحبه فيجعله مستغرقا بملاحظة.

قُدسه بحيث ما لاحظ شيئًا إلا لاحظ ربَّه فما التفت إلىٰ حاسٍّ ومحسوس وصانع ومصنوع وفاعل ومفعول إلا رأىٰ الله، وهو آخر درجات السالكين وأول درجات الواصلين.

وروىٰ الطيالسي في مسنده[1] من حديث أبي ذر: «قال ربكم عَزَّوَجَلَّ: الحسنة بعشرة، والسيئة بواحدة أو أغفرها ...»، ثم ساق الحديث، وفيه: «ومن تقرَّب مني شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبت منه باعًا». وهذا أشبهُ بسياق المصنف. ورواه أحمد[2] ومسلم[3] وابن ماجه[4] وأبو عوانة بنحوه. وروىٰ أحمد[5] وعبد بن حميد[6] من حديث أنس: «قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملإ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبرًا دنوت منك ذراعًا، وإن دنوت مني ذراعًا دنوت منك باعًا، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة». ورواه ابن شاهين في الترغيب في الذكر[7] من حديث ابن عباس بلفظ: «يقول الله: ابنَ آدم ...». وفيه معمر بن زائدة، قال العقيلي[8]: لا يتابَع علىٰ حديثه. ورواه أحمد[9] والشيخان[10] والترمذي[11] وابن ماجه[12] وابن

(١) مسند الطيالسي ١/ ٣٧١.

(٢) مسند أحمد ٣٥/ ٢٨٩، ٣٨٦.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٨.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٤٨.

(٥) مسند أحمد ١٩/ ٣٩٧.

(٦) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢١٦.

(٧) ورواه أيضا في الترغيب في فضائل الأعمال ص ٦٠.

(٨) الضعفاء الكبير ٤/ ١٣٥٢.

(٩) مسند أحمد ١٢/ ٣٨٥، ١٥/ ٢٠٤، ١٦/ ١٦٧، ١٧٨.

(١٠) صحيح البخاري ٤/ ٣٨٤. صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٤ - ١٢٣٥، ١٢٣٨، ١٢٥٨.

(١١) سنن الترمذي ٥/ ٥٥٣.

(١٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٥٠.

حبان[١] من حديث أبي هريرة بلفظ: «يقول الله عَزَّوَجَلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني ...» الخ.

(ويقول عَزَّوَجَلَّ: **قد طال شوق الأبرار إلىٰ لقائي، وأنا إلىٰ لقائهم أشد شوقًا. فليُظهِر العبد في البداية جده**) أي اجتهاده (**وصِدقه**) في العمل (**وإخلاصه**) بأن لا يشرك فيه غيرَ مَن يعمل له (**فلا يعوزه من الله علىٰ القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته**) فمَن جدَّ وجد، ومَن صدق في العمل نال الأمل، ومَن أخلص أجرىٰ الله ينابيع الحِكَم علىٰ قلبه وجعله من المقرَّبين في حظيرة قُدسه علىٰ بساط أُنسه، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

وبه تم كتاب ذم الجاه وحب المال[٢]، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد خلاصة الموجودات وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

قال مؤلفه الإمام الكامل والرحلة الشامل، أبو الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني، غفر الله ذنوبه وستر بعميم فضله عيوبَه: فُرِغ من تسويد ذلك مسوِّده، وذلك في [الساعة] الرابعة من ليلة الخميس تاسع شهر ربيع الآخر سنة ١٢٠٠، حامدًا ومصلِّيًا ومسلِّمًا ومستغفرًا الله. نفعنا به وبأمثاله .. آمين.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) صحيح ابن حبان ٣/ ٩٣ - ٩٥.

(٢) الصواب: ذم الجاه والرياء.

فهرس كتاب ذم الجاه والرياء

٢٨ - كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الكبر والعُجب

٢٩ - كتاب ذم الكبر والعُجب (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا. الله ناصر كل صابر.

الحمد لله العليِّ عن شَبَه المخلوقين، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، الباطن بجلال عزَّته عن فكر المتوهِّمين، أحمده استتمامًا لنعمته، واستسلامًا لعزته، واستعفافًا عن معصيته، وأستعينه فاقةً إلىٰ كفايته، إنه لا يَضل مَن هداه، ولا يجلُّ مَن عاداه، ولا يفتقر مَن كفاه. وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة ممتحنًا إخلاصها، مقتصدًا مصاصها، نتمسك بها أبدًا ما أبقانا، وندَّخرها لأهاويل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان، ومرضاة الرحمن، ومَدحرة الشيطان. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالضياء، وقدَّمه في الاصطفاء، فرتق به المفاتق، وساوَرَ به الغالب، وذلَّل به الصعوبةَ، وسهَّل به الحرونة، حتىٰ سرح الضلال عن يمين وشمال، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، عباب علمه، وموائد حكمه، وكهوف ثبته، ورجال دينه، بهم أنام الخنا ظهره، وأذهبَ ارتعادَ فرائصه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) انظر الكلام عن العجب والكبر وأقوال العلماء في ذلك في: كتاب الرعاية لحقوق الله تعالىٰ للحارث المحاسبي ص ٣٣٥ - ٤٢٦. الرسالة القشيرية ص ٢٦٤ - ٢٧١، وشرحها إحكام الدلالة لزكريا الأنصاري ١/ ٤٧٧ - ٤٩٣.

وبعد، فهذا شرح كتاب «ذم العُجب والكبر»، وهو التاسع من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، أمطر الله علىٰ ضريحه سحب الرحمة تزدحم وتوالي، قصدتُ فيه إبراز ما خفيَ من مخدِّرات أبكاره، وتبيين ما استدقَّ من زواهر أسراره، وإيضاح ما أُبهِم من رُواة أخباره، وإذاعة ما أُودِع في سياقه من محصِّلات أذكاره، علىٰ نسق يرتضيه العالِمون، ووجه ينتحيه المخلصون، ونهج يهتدي به السالكون، ومَحَجَّة يقتفيها المتقون، معتصمًا بالله في تكميل ما أنا بصدده، متوكلاً عليه، مستعينًا بفيض مدده، إنه نِعم العون لمَن أخلص إليه وقصر نظره علىٰ الخير من يديه.

قال رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) مفتاح كل كتاب. كما رواه الخطيب في الجامع[1] من رواية أبي جعفر محمد بن علي معضلاً (**الحمد لله الخالق البارئ المصوِّر**) اعلم[2] أنه قد يُظَن أن هذه الأسماء الثلاثة مترادفة وأن الكل يرجع إلىٰ الخلق والاختراع، ولا ينبغي أن يكون كذلك، بل كل ما يخرج من العدم إلىٰ الوجود يفتقر إلىٰ تقدير أولاً، وإلىٰ إيجاد علىٰ وفق التقدير ثانيًا، وإلىٰ التصوير بعد الإيجاد ثالثًا، والله تعالىٰ خالق من حيث إنه مقدِّر، بارئ من حيث إنه مخترع موجِد، ومصوِّر من حيث إنه مرتِّب صور المخترعات أحسن ترتيب، وهذا كالبناء مثلاً، فإنه يحتاج إلىٰ مقدِّر يقدِّر ما لا بد منه من الخشب واللبِن ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاَّه المهندس فيرسمه ويصوِّره. ثم يُحتاج إلىٰ بنَّاء يتولَّىٰ الأعمال التي تحدث عندها أصول الأبنية. ثم يُحتاج إلىٰ مزيِّن ينقش ظاهرَه ويزيِّن صورته، فيتولاَّه غير البَنَّاء. وهذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير، وليس كذلك في أفعال الله تعالىٰ، بل هو المقدِّر والموجِد والمزيِّن، فهو الخالق البارئ المصوِّر، وهو باعتبار تقدير الأمور خالق، وباعتبار الإيجاد علىٰ وفق التقدير مصور، وباعتبار مجرد الإيجاد والاختراع من العدم إلىٰ

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٤٠٧.

(٢) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٧٩ - ٨١.

الوجود بارئ. والإيجاد المجرَّد شيء، والإيجاد علىٰ وفق التقدير شيء آخر، وهذا يحتاج إليه من يبعد رد الخلق إلىٰ مجرد التقدير، مع أن له في اللغة وجهًا؛ إذ العرب تسمِّي الحَذَّاء خالقًا لتقديره بعض طاقات النعل علىٰ بعض، كما قال الشاعر[1]:

ولأنـت تفـري مـا خلقـتَ وبعـ ـضُ القـوم يخلـق ثـم لا يفـري

وأما اسم «المصور» فهو له من حيث رتَّب صور الأشياء أحسن ترتيب، وصوَّرها أحسن تصوير، وهذا من أوصاف الفعل، فلا يعلم حقيقته إلا من يعلم صورة العالَم علىٰ الجملة ثم علىٰ التفصيل، وكل من كان أوفر علمًا بالتفصيل كان أكثر إحاطة بمعنىٰ اسم «المصور».

(**العزيز**) هو[2] الخطير الذي يقلُّ وجودُ مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصولُ إليه، فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة لم يُطلَق اسم «العزيز» عليه. ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان، فالكمال في قلة الوجود أن يرجع إلىٰ واحد؛ إذ لا أقل من واحد ويكون بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هو إلا الله تعالىٰ. والكمال في شدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء حتىٰ في وجوده وبقائه وصفاته، وليس ذلك علىٰ الكمال إلا لله تعالىٰ، والكمال في صعوبة الوصول علىٰ معنىٰ الإحاطة بكُنهه، وليس ذلك علىٰ الكمال إلا لله تعالىٰ، فهو العزيز المطلق الحق الذي لا يوازيه فيه غيرُه.

(**الجبَّار**) هو[3] الذي تنفذ مشيئتُه علىٰ سبيل الإجبار في كل واحد، ولا تنفذ فيه مشيئةُ أحد، والذي لا يخرج أحد من قبضته، وتقصُر الأيدي دون جبر[4]

(١) هو زهير بن أبي سلمىٰ، والبيت في ديوانه ص ٥٦ من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان. وانظر: تاج العروس ٢٥/ ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٧٧ - ٧٨.

(٣) السابق ص ٧٨.

(٤) في المقصد: دون حمىٰ.

حضرته، والجبار المطلَق هو الله تعالىٰ، فإنه يُجبِر كلَّ أحد، ولا يجبره أحد، ولا تسوية[1] في حقه من الطرفين.

(**المتكبِّر**) هو[2] الذي يرىٰ الكل حقيرًا بالإضافة إلىٰ ذاته، ولا يرىٰ العَظَمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلىٰ غيره نظر الملوك إلىٰ العبيد، فإن كانت الرؤية صادقة كان التكبُّر حقًّا، وكان صاحبها متكبِّرًا حقًّا، ولا يُتصور ذلك علىٰ الإطلاق إلا لله تعالىٰ. وإن كان التكبُّر والاستعظام باطلاً ولم يكن ما يراه من التفرُّد بالعظمة كما يراه كان التكبر باطلاً ومذمومًا، وكل مَن رأىٰ العظمة والكبرياء لنفسه علىٰ الخصوص دون غيره كانت رؤيته كاذبة ونظره باطلاً، إلا الله سبحانه وتعالىٰ.

(**العلي الذي لا يضعه عن مجده واضعٌ**) لأن[3] العلو عبارة عن الفوقية، والموجودات بأسرها لا يمكن قسمتها إلىٰ درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق تعالىٰ في الدرجة العليا من درجات أقسامها، حتىٰ لا يُتصور أن يكون فوقه درجة، وذلك هو العليُّ المطلَق، وكل ما سواه فيكون عليًّا بالإضافة إلىٰ ما دونه، ويكون دنيًّا أو سافلاً بالإضافة إلىٰ ما فوقه.

(**الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جانب عزِّه مستكين متواضع**) تقدم معنىٰ الجبار والمتكبر قريبًا. والاستكانة: الذل والمسكنة، واختُلف في سينها، فقيل: هي أصلية، وقيل: زائدة[4] (**فهو القهار الذي**) لا موجود إلا وهو مسخَّر تحت قهره وقدرته، فهو (**لا يدافعه عن مراده دافعٌ. الغني الذي**) لا[5] تعلُّق له بغيره،

---

(١) في المقصد: ولا مثنوية.

(٢) السابق ص ٧٩.

(٣) السابق ص ١١٦.

(٤) في تاج العروس ٣٦/ ٧٨: «الاستكانة: الخضوع والذل. جعله بعضهم استفعل من الكون، وجعله أبو علي من الكَيْن، وهو الأشبه. وقال ابن الأنباري: فيه قولان، أحدهما: أنه من السكينة، وأصله: استكن، افتعل من سكن، فمُدت فتحة الكاف بألف. والثاني: أنه استفعال من كان يكون».

(٥) المقصد الأسنىٰ ص ١٥٥.

لا في ذاته ولا في صفاته، بل هو منزَّه عن العلاقة مع الأغيار **(ليس له)** في مُلكه **(شريك ولا منازع)** وكان مَن شاركه في نكد أو نازعه في أمر فهو محتاج فقير إلىٰ الكسب، ولا يُتصور أن يكون غنيًّا مطلقًا إلا الله تعالىٰ **(القادر الذي بهر أبصارَ الخلائق جلالُه وبهاؤه)** لأنه اخترع كل موجود اختراعًا انفرد به واستغنىٰ فيه عن معاونة غيره. فأبصار الخلائق دون عظمته وجلاله حاسرة **(وقهر العرش المجيد استواؤه)** واستواؤه: استعلاؤه **(واستيلاؤه)** يشير إلىٰ أن الاستواء في اللغة يتردَّد بين ثلاثة معانٍ، معنيان جائزان علىٰ الله تعالىٰ وهما الاستعلاء والاستيلاء، وواحد باطل[1].

واعلم أن[2] الموجودات بأسرها تنقسم إلىٰ ما هو سبب وإلىٰ ما هو مسبَّب، والسبب فوق المسبب فوقية بالرتبة، والفوقية المطلقة ليست إلا لمسبِّب الأسباب. وكذلك تنقسم الموجودات إلىٰ حي وميت، والحي ينقسم إلىٰ ما ليس له إلا الإدراك الحسي وهو البهيمة وإلىٰ ما له مع الحس الإدراك العقلي. والذي له الإدراك العقلي ينقسم إلىٰ ما يعارضه في إدراكه[3] الشهوة والغضب وهو الإنسان وإلىٰ ما يَسلم إدراكه عن معارضة الكدورات، والذي يَسلم عنها ينقسم إلىٰ ما يمكن أن يُبتلَىٰ بها ولكن رُزق السلامة كالملائكة وإلىٰ ما يستحيل ذلك في حقه وهو الله سبحانه وتعالىٰ، وليس يخفَىٰ عليك في هذا التقسيمِ التدريجُ؛ إذ الملَك فوق الإنسان، والإنسان فوق البهيمة، وأن الله تعالىٰ فوق الكل، فهو العليُّ المطلَق، المنزَّه عن جميع أنواع النقص. فقد وقع الميت في الدرجة السفلىٰ من درجات الكمال، ولم يقع في العلو إلا الله تعالىٰ، وهكذا ينبغي أن تُفهَم فوقيَّته وعلوه، فإنَّ هذه الأسامي وُضعت أولاً بالإضافة إلىٰ إدراك البصر، وهو درجة العوامِّ، ثم لما تنبَّه الخواصُّ لإدراك البصائر ووجدوا بينها وبين الأبصار موازنات

---

(١) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص١٥٤ - ١٦٧.

(٢) السابق ص ١١٦ - ١١٨.

(٣) في المقصد: في معلوماته.

استعاروا منها الألفاظ المطلقة، وفهمها الخواصُّ، وأنكرها العوامُّ فلم يفهموا عظمة إلا بالمساحة، ولا علوًّا إلا بالمكان. فإذا فهمتَ هذا فهمت معنىٰ استوائه علىٰ العرش؛ لأن العرش أعظم الأجسام الموجودات، وهو فوق جميعها، والموجود المنزَّه عن التحدُّد والتقدُّر بحدود الأجسام ومقاديرها فوق الأجسام كلها في المرتبة، ولكن خُصَّ العرش بالذِّكر لأنه فوق جميع الأجسام، فلما كان فوقها كان فوق جميعها، وهو كقول القائل: الخليفة فوق السلطان، تنبيهًا به علىٰ أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان.

وقد تقدم الكلام في الاستواء في شرح كتاب قواعد العقائد مفصَّلاً.

(**وحصر ألسن الأنبياء**) عليهم السلام، وهم خواصُّ عباده المقرَّبين (**وصفُه وثناؤه، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كُنْه جلالِه ملائكتُه وأنبياؤه**) فإن[1] نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه، وأنهم لا يمكنهم البتَّة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكُنْه صفات الربوبية إلا الله تعالىٰ، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافًا برهانيًّا فقد بلغوا المنتهَىٰ الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه حيث قال: العجز عن درك الإدراك إدراكٌ. بل هو الذي عناه رسول الله ﷺ حيث قال: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك». ولم يُرِدْ به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه: إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيَّتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك. فإذًا لا يحظىٰ مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة، وأما اتساع المعرفة فإنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته.

(**وكسر ظهور الأكاسرة عزُّه وعلاؤه**) المراد بالأكاسرة: ملوك الفُرس، جمع كسرىٰ، وهو لقب كل مَن ملك بلادَ الفرس (**وقصر أيدي القياصرة عظمتُه**

(١) السابق ص ٥٤، والأمد الأقصىٰ لابن العربي ١/ ١٧٧، ٢٢٥- ٢٢٧.

وكبرياؤه) المراد بالقياصرة: ملوك الروم، جمع قيصر، وهو كل مَن ملك بلادَ الروم. وفي كلٍّ من الجملتين جِناس اشتقاق **(فالعظمة إزاره، والكبرياء رِداؤه)** العظمة: كون الشيء في نفسه كاملاً شريفًا مستغنيًا. والكبرياء[١] كناية عن كمال الذات، وأعني بكمال الذات: كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلىٰ شيئين، أحدهما: دوامه أزلاً وأبدًا، والثاني: أن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجودُ كل موجود. ومعنىٰ كونهما إزاره ورداءه أنهما من خاص صفاته كما يليق به **(ومَن نازعه فيهما)** أي جاذَبَه إياهما بأن تعظَّمَ علىٰ عباده وتكبَّر **(قصمه)** أي كسره **(بداء الموت فأعجزه دواؤه)** إذ لا دواء له **(جلَّ جلالُه)** أي عظُمَ تَناهيه في عِظَم القدْر **(وتقدَّست أسماؤه)** أي تنزَّهت عن أن يلحقها نقصٌ **(والصلاة علىٰ)** سيدنا **(محمد الذي أُنزِل معه النور المنتشر ضياؤه)** اعلم[٢] أن العقول وإن كانت مبصرة فليست المبصَرات كلها عندها علىٰ مرتبة واحدة، بل بعضها يكون عندها كأنها حاضرة كالعلوم الضرورية، وبعضها ما لا يقارن العقلَ في كل حال إذا عُرض عليه، بل يحتاج إلىٰ أن ينبَّه عليه بالتنبيه كالنظريات، وإنما ينبِّهه كلامُ الحكمة، فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة، وأعظم الحِكَم كلام الله تعالىٰ، ومن جملة كلامه القرآن خاصةً، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة؛ إذ به يتم الإبصارُ، فبالحريِّ أن يسمَّىٰ القرآن نورًا، كما يسمَّىٰ نور الشمس نورًا، فمثال القرآن نور الشمس، ومثال العقل نور العين، وبهذا يُفهَم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨] وقوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤] وبين النور والضياء عموم وخصوص[٣] **(حتىٰ أشرقت بنوره أكناف العالَم وأرجاؤه)** أي أطرافه من سائر الجهات **(وعلىٰ آله وأصحابه الذين**

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ١١٨ - ١١٩.

(٢) مشكاة الأنوار للغزالي ص ٥٠ - ٥١.

(٣) انظر: تفسير الراغب ١/ ١٠٦ (ط كلية الآداب جامعة طنطا).

هم أحبَّاؤه وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه) أي أحبهم الله بحبه ووالاهم وقرَّبهم وأدناهم واختارهم واصطفاهم **(وسلَّم تسليمًا كثيرًا.**

أما بعد، فقد قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ: الكبرياء رِدائي، والعظمة إزاري) اختلفوا[١] في معنىٰ ذلك، فقال الكلاباذي[٢]: الرداء عبارة عن الجمال والبهاء، والإزار عبارة عن الجلال والستر والحجاب، فكأنه قال: لا يليق الكبرياء إلا بي؛ لأن مَن دوني صفات الحدوث لازمة له، وسِمة العجز ظاهرة عليه، والإزار عبارة عن الامتناع عن الإدراك والإحاطة به علمًا وكيفيةً لذاته وصفاته، فكأنه قال: حجبتُ خلقي عن إدراك ذاتي وكيفية صفاتي بالجلال والعظمة. وقال عياض[٣]: الكبرياء: الكبر، وهو الترفُّع علىٰ الغير بأن يرىٰ لنفسه عليه شرفًا، والعظمة: كون الشيء في نفسه كاملاً شريفًا مستغنيًا، فالأول أرفع من الثاني؛ إذ هو غاية العظمة، فلذا مثَّله بالرداء، وقيل: الكبرياء: الترفُّع عن الانقياد، وذلك لا يستحقُّه إلا الحق، فكبرياء الله: ألوهيَّته التي هي عبارة عن استغنائه [عمَّا سواه، وعظمته: وجوبه الذاتي الذي هو عبارة عن استقلاله] واستعلائه، ومثَّلهما بالرداء [والإزار إدناءً للمتوَّهم من المشاهَد و] إبرازًا للمعقول في صورة المحسوس، فكما لا يشارَك الرجل في ردائه وإزاره لا يشارَك الباري في هذين [الوصفين] فإنه الكامل المنعم المنفرد بالبقاء، وما سواه ناقص محتاج **(فمَن نازعني فيهما)** بأن تشوَّف إلىٰ الاتِّصاف بهما أو بأحدهما **(قصمتُه)** أي أذللته وأهنته، أو قرَّبت هلاكه. قال الزمخشري[٤]: هذا

(١) فيض القدير ٤/ ٤٨٤.

(٢) بحر الفوائد ص ٣١٠.

(٣) هذا ليس كلام عياض، وإنما هو كلام البيضاوي في تحفة الأبرار ١/ ٥٩، ولعل سبب ذلك أن المناوي يقول (وقال القاضي) فيظن الشارح أنه يريد القاضي عياض، مع أن المناوي قد صرح في مقدمة الفيض بأنه إذا قال (قال القاضي) فإنما يريد به البيضاوي.

(٤) الكشاف ٤/ ١٣١.

وارد عن غضب شديد، ومنادٍ علىٰ سخط عظيم؛ لأن القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الكسر[1]. ا.هـ. وقال صاحب الحِكَم[2]: كنْ بأوصاف ربوبيَّته متعلقًا، وبأوصاف عبوديتك متحقِّقًا، منعك أن تدَّعي ما ليس لك ممَّا للمخلوقين أفيبيح لك أن تدَّعي وصفه وهو رب العالمين. ا.هـ. وقد أفاد هذا الوعيدُ أن التكبر والتعاظُم من الكبائر.

قال العراقي[3]: رواه الحاكم في المستدرك دون ذِكر العظمة، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، وتقدم في العلم، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر.

قلت: رواه الحاكم من حديث أبي هريرة، ولفظه: «الكبرياء ردائي، فمَن نازعني ردائي قصمتُه».

(وقال ﷺ: **ثلاثٌ مهلكات**) وثلاث منجيات، وثلاث كفَّارات، وثلاث درجات، أما المهلكات (**شحٌّ مطاع**) أي[4] بخلٌ يطيعه الإنسان فلا يؤدي ما عليه من حق الحق وحق الخلق، فلا يكون مجرد الشح مهلكًا إلا إذا كان مطاعًا، وإلا فهو من لوازم النفس. قال الراغب[5]: خصَّ المطاع لينبِّه أن الشح في النفس ليس ممَّا يستحق به ذمًّا؛ إذ ليس هو من فعله، وإنما يُذَم بالانقياد له (**وهوًىٰ متَّبَع**) بأن يتَّبع كلُّ أحد ما يأمره به هواه (**وإعجاب المرء بنفسه**) أي تحسين كل أحد نفسه علىٰ غيره وإن كان قبيحًا. قال القرطبي[6]: إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيانه نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر.

---

(١) في الكشاف: بخلاف الفصم.

(٢) الحكم العطائية بشرح ابن عباد الرندي ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) المغني ٢/ ٩٤٧.

(٤) فيض القدير ٣/ ٣٠٧، التيسير شرح الجامع الصغير ١/ ٤٧٠، كلاهما للمناوي.

(٥) الذريعة ص ٢٨٦.

(٦) المفهم ٥/ ٤٠٦.

وأما ما في الحديث فقد تقدم في كتاب ذم البخل[1]، وقد رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر، وفيه ابن لهيعة. ورواه البزار والطبراني وأبو الشيخ في التوبيخ وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنىٰ. وثلاث مهلكات: هوًىٰ متَّبع، وشُح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه».

(فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجَب) بنفسه **(سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاحُ الكبر والعجب، فإنهما من قبائح المُرديات)** الرَّدَىٰ هو الهلاك، وأرداه: أوقعه فيه **(ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشطر في العجب)**.

(الشطر الأول من الكتاب في الكبر، وفيه: بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة الكبر وآفته، وبيان من يُتكبَّر عليه ودرجات الكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث علىٰ التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر التكبر، وبيان علاج الكبر، وبيان امتحان النفس في خُلقِ الكبر، وبيان المحمود من خُلقِ التواضع وبيان المذموم منه).

---

(١) وكذلك في الباب الثاني من كتاب العلم.

بيـان ذم الكــبر

اعلمْ أنه (قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر، فقال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾) المنصوبة في الآفاق والأنفس (﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾) [الأعراف: ١٤٦] سيأتي تفسيره للمصنف في آخر بيان حقيقة الكبر وآفته.

(وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾) [غافر: ٣٥] قُرئ بالتنوين علىٰ حذف مضاف، أي كل ذي قلب.

(وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾) [إبراهيم: ١٥] أي معاند للحق، جاحد له، مستكبر عن قبوله.

(وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾) فلا يرفعون لها رأسًا (﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾) [غافر: ٦٠] أي صاغرين ذليلين.

(وذمُّ الكبر في القرآن كثير.

وقال رسول الله ﷺ: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مِثقال حبة من خردل من إيمان) قال العراقي[١]: رواه مسلم[٢] من حديث ابن مسعود.

---

(١) المغني ٢/ ٩٤٧.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٥.

قلت: سياق المصنف لأحمد في مسنده، لكنه بتقديم وتأخير وزيادة، قال[١]: حدثنا عارم قال: حدثنا عبد العزيز بن مسلم القَسْمَلي، حدثنا سليمان الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيىٰ بن جعدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار مَن كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». قال رجل: يا رسول الله، يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهينًا، وشِراك نعلي جديدًا ... وذكر أشياء، حتىٰ ذكر عِلاقة سوطه[٢]، قال: «ذاك الجمال، والله تعالىٰ جميل يحب الجمال، ولكن الكبر مَن بطر[٣] الحق وازدرىٰ الناسَ». ورواه الحاكم[٤] من رواية عفان عن عبد العزيز بن مسلم بالإسناد المذكور، ولفظ الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من كبر ...» الحديث، وفيه: «والله [جميل] يحب الجمال». ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقد احتجَّا جميعًا برُواته. واعترض عليه العراقي في إصلاح المستدرك فقال: لم يحتجَّ واحد من الشيخين بيحيىٰ بن جعدة، ومع ذلك فهو مرسَل، فإن يحيىٰ لم يلقَ ابن مسعود كما قال ابن معين[٥] وأبو حاتم[٦]، ومع ذلك فالحديث أخرجه مسلم من رواية إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مع اختلاف يسير، فلا حاجة إلىٰ إيراده. ا.هـ. كلام العراقي. قلت: لفظ مسلم: قيل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة». قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس».

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٣٣٨.

(٢) بعده في المسند: «أفمن الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: لا، ذاك الجمال ...».

(٣) في المسند: من سفه.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٧١ - ٧٢.

(٥) تاريخ ابن معين برواية الدوري ٣/ ٣٢٧.

(٦) علل الحديث لابن أبي حاتم ٥/ ١٠٤.

وقد رواه هنَّاد في الزهد[١] عن يحيىٰ بن جعدة المخزومي مرسلاً، ولفظه: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، العزة إزار الله، والكبرياء رداؤه».

وروىٰ الطبراني في الكبير[٢] من حديث السائب بن يزيد: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال [حبة من] كبر.

وروىٰ البزار[٣] من حديث ابن عباس: «لا يدخل الجنة مِثقال حبة خردل من كبر، ولا يدخل النار مثقال حبة خردل من إيمان».

وروىٰ مسلم والترمذي[٤] وابن ماجه[٥] من حديث ابن مسعود: «لا يدخل النار أحدٌ في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء».

وروىٰ أبو يعلىٰ والطبراني[٦] والبيهقي[٧] والضياء[٨] من حديث عبد الله بن

---

(١) الزهد ٢/ ٤٢١ . وفيه بعد قوله «من كبر»: «فقال رجل: يا رسول الله، إنه ليعجبني نقاء ثوبي وشراك نعلي وعلاقة سوطي، فهذا من الكبر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله جميل يحب الجمال، ويحب إذا أنعم علىٰ عبد بنعمة أن يرىٰ أثرها عليه، ويبغض البؤس والتباؤس، ولكن الكبر أن يسفه الحق أو يغمط الخلق».

(٢) المعجم الكبير ٧/ ١٨٢ . وزاد: «قالوا: يا رسول الله، هلكنا، وكيف لنا أن نعلم ما في قلوبنا من ذلك الكبر وأين هو؟ فقال النبي ﷺ: من لبس الصوف أو حلب الشاة أو أكل مع ما ملكت يمينه فليس في قلبه إن شاء الله الكبر».

(٣) مسند البزار ١١/ ٣٢٦.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٥) سنن ابن ماجه ١/ ٨٥، ٥/ ٥٩٥.

(٦) المعجم الكبير ١٤/ ٣٠٨.

(٧) شعب الإيمان ١٠/ ٤٨٩.

(٨) الأحاديث المختارة ٩/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

سلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر».

ورواه الطبراني[١] أيضًا من حديث ابن عباس.

ورواه أحمد[٢] وهناد[٣] والطبراني[٤] أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو.

وروى ابن سعد[٥] وأحمد[٦] والبغوي[٧] والطبراني[٨] والبيهقي[٩] وابن عساكر[١٠] من حديث أبي ريحانة: «لا يدخل الجنة من الكبر شيء». فقال قائل: يا رسول الله، إني أحب أن أتجمَّل بسير سوطي وشِسْع نعلي. فقال: «إن ذلك ليس بالكبر، إن الله جميل يحب الجمال، إنما الكبر مَن سَفِهَ الحقَّ وغَمَصَ الناسَ بعينه».

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: **(قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي)** قال العراقي[١١]: رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له، وقال أبو داود «قذفته في النار»، وقال مسلم «عذَّبته»، وقال «رداؤه» و«إزاره» بالغيبة، وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضًا.

قلت: وبلفظ أبي داود رواه أيضًا أحمد وهنَّاد والدارقطني في الأفراد، ورواه

(١) المعجم الكبير ١١/ ٤٣٥.
(٢) مسند أحمد ١١/ ٨٠، ٥٨٩.
(٣) الزهد ٢/ ٤٢٥.
(٤) المعجم الكبير ١٣/ ٣٦٠ - ٣٦١، ٤٩٠.
(٥) الطبقات الكبرىٰ ٩/ ٤٢٨.
(٦) مسند أحمد ٢٨/ ٤٣٧ - ٤٤٠.
(٧) معجم الصحابة ٣/ ٣٢١.
(٨) مسند الشاميين ٢/ ١٤٢.
(٩) شعب الإيمان ١٠/ ٤٦٣.
(١٠) تاريخ دمشق ١١/ ١٧٦ - ١٧٧، ٥٠/ ١١٣.
(١١) المغني ٢/ ٩٤٧.

ابن حبان في صحيحه بلفظ: «ألقيته في النار». ورواه القضاعي في مسنده من طريق عطاء ابن السائب عن أبيه عن أبي هريرة مثله. ورواه سمويه في فوائده من حديث أبي هريرة وأبي سعيد معًا بلفظ مسلم، إلا أنه قال «ردائي» و«إزاري». ورواه الحاكم في مستدركه من وجه آخر بلفظ «قصمته» وبدون ذكر العظمة، وقد تقدم قبل هذا بحديثين. وعند الحكيم الترمذي من حديث أنس: «يقول الله عَزَّوَجَلَّ: لي العظمة والكبرياء والفخر، والقدَر سري، فمَن نازعني واحدة منهن كببته في النار»[١].

(وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن) بن[٢] عوف القرشي الزهري المدني، قيل: اسمه عبد الله، وقيل: إسماعيل، وقيل: اسمه وكنيته واحد. قال ابن سعد[٣]: كان ثقة، فقيهًا، كثير الحديث. وقال أبو زُرعة: ثقة، إمام[٤]. توفي سنة أربع وتسعين بالمدينة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، روىٰ له الجماعة (قال: التقىٰ عبد الله بن عمر) بن الخطاب (وعبد الله بن عمرو) بن العاص ﷺ (علىٰ المروة، فتواقَفا، فمضىٰ ابن عمرو) بن العاص (وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا، يعني عبد الله بن عمرو) بن العاص (زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: مَن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبَّه الله في النار علىٰ وجهه) قال العراقي[٥]: رواه أحمد[٦] والبيهقي في الشعب[٧] من طريقه بإسناد صحيح.

قلت: وكذلك رواه الدارقطني في الأفراد وابن النجار في التاريخ.

---

(١) حديث أبي هريرة وحديث أنس تقدما في الباب الرابع من كتاب العلم وفي آخر كتاب آداب الصحبة.

(٢) تهذيب الكمال ٣٣/ ٣٧٠ - ٣٧٦.

(٣) الطبقات الكبرىٰ ٧/ ١٥٣ - ١٥٦.

(٤) نقله عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٩٤.

(٥) المغني ٢/ ٩٤٨.

(٦) مسند أحمد ١١/ ٨٠، ٥٨٩.

(٧) شعب الإيمان ١٠/ ٤٦٤ - ٤٦٥.

(وقال ﷺ: لا يزال الرجل يذهب بنفسه[١] حتىٰ يُكتَب في الجبَّارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب) قال العراقي[٢]: رواه الترمذي[٣] وحسَّنه من حديث سلمة ابن الأكوع دون قوله «من العذاب».

قلت: لفظ الترمذي: «لا يزال الرجل يتكبَّر ويذهب بنفسه حتىٰ يُكتَب في الجبَّارين فيصيبه ما أصابهم». وقال: حسن غريب. ورواه كذلك الدارقطني في الأفراد والطبراني في الكبير[٤].

(وقال سليمان بن داود عليهما السلام يومًا للطير والجن والإنس والبهائم: اخرجوا. فخرجوا في مائتي ألف من الإنس، ومائتي ألف من الجن، فرُفع حتىٰ سمع زَجَل الملائكة بالتسبيح في السموات) الزَّجَل محرَّكة: الصوت **(ثم خفض حتىٰ مسَّت قدماه البحر، فسمع صوتًا)** أي من هاتف: **(لو كان في قلب صاحبكم)** يعني سليمان عليه السلام **(مِثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد ممَّا رفعته[٥].**

وقال ﷺ: يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: وُكلتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل مَن دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصوِّرين) قال العراقي[٦]: رواه الترمذي[٧] من حديث أبي هريرة، وقال: حسن [صحيح] غريب.

---

(١) قال المظهري: قوله: «يذهب بنفسه» الباء يحتمل أن تكون للتعدية؛ أي: يُغلي نفسه ويبعدها عن الناس في المرتبة، ويعتقدها عظيمة القَدْر، ويحتمل أن تكون الباء للمصاحبة؛ أي: يوافق نفسه ويعزِّزها ويكرمها كما يكرم الخليلُ الخليلَ حتىٰ يغترَّ بنفسه وتصيرَ متكبرة. انظر: المفاتيح شرح المصابيح ٥/ ٢٥٥، ٢٥٦ (ط دار النوادر).

(٢) المغني ٢/ ٩٤٨.

(٣) سنن الترمذي ٣/ ٥٣٥.

(٤) المعجم الكبير ٧/ ٢٣.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٩٨ عن مالك بن دينار.

(٦) المغني ٢/ ٩٤٨.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ٣٣٠.

قلت: لفظ الترمذي: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ...» والباقي سواء، وقال: حسن [صحيح] غريب. ورواه كذلك أحمد[١] وابن مردويه والبيهقي[٢].

(**وقال ﷺ: لا يدخل الجنة جبار، ولا بخيل، ولا سيئ المَلَكة**) قال العراقي[٣]: تقدم في آداب الكسب والمعاش[٤]، والمعروف «خائن» مكان «جبار».

قلت: روىٰ الطيالسي من حديث أبي بكر: «لا يدخل الجنة خب ولا خائن». ورواه أحمد بلفظ: «لا يدخل الجنة بخيل، ولا خب، ولا خائن، ولا سيئ الملكة». وعند الخطيب في ذم البخلاء وابن عساكر: «لا يدخل الجنة خب، ولا بخيل، ولا لئيم، ولا منَّان، ولا خائن، ولا سيئ الملكة». وعند الخرائطي في مساوئ الأخلاق من حديث أنس: «لا يدخل الجنة بخيل، ولا خب، ولا منَّان، ولا سيئ الملكة». وروىٰ الطيالسي والترمذي - وقال: حسن غريب - وابن ماجه والدارقطني في الأفراد من حديث أبي بكر: «لا يدخل الجنة سيئ الملكة». ولم أجد لفظ «جبار» في شيء من الروايات.

(**وقال ﷺ: تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبِّرين. وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسُقَّاطُهم وعَجَزتهم؟ فقال الله تعالىٰ للجنة: إنما أنتِ رحمتي أرحم بكِ مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابي أعذِّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما مِلؤها**) فيه[٥] فوائد:

---

(١) مسند أحمد ١٤/ ١٥٢.

(٢) شعب الإيمان ٨/ ٣٣١.

(٣) المغني ٢/ ٩٤٨.

(٤) بل في كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب ذم البخل وحب المال.

(٥) طرح التثريب للعراقي ٨/ ١٧٦ - ١٨٠.

الأولىٰ: رواه أحمد[١] والبخاري[٢] من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همَّام عن أبي هريرة، ورواه مسلم[٣] أيضًا من طريق أبي الزناد عن الأعرج، ومن طريق أيوب السختياني عن محمد بن سيرين، كلاهما عن أبي هريرة.

الثانية: قوله «تحاجَّت» أي تخاصمت، قال الجوهري[٤]: التَّحاجُّ: التخاصُم. وقال ابن سيده[٥]: حاجَّه: نازعه الحُجةَ، وحجَّه: غلبه علىٰ حُجته. وقال ابن عطية[٦] في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] المُحاجَّة: التحاور بالحجة والخصومة.

الثالثة : الظاهر أن المراد بتحاجِّهما تخاصُمهما في الأفضل منهما وإقامة كلٍّ منهما الحجة علىٰ أفضليَّتها، فاحتجَّت النار بقهرها للمتكبرين والمتجبرين، واحتجَّت الجنة بكونها مأوىٰ الضعفاء في الدنيا، عوَّضهم الله تعالىٰ عن ضعفهم الجنةَ، فقطع سبحانه التخاصم بينهما وبيَّن أن الجنة رحمته، أي نعمته علىٰ الخلق إن جُعلت الرحمة صفة فعلٍ، أو أثر إرادته الخير بمن يشاء إن جُعلت صفة ذات، وأن النار عذابه الناشئ عن غضبه و[إرادة] انتقامه جل وعلا.

الرابعة: قال النووي[٧]: هذا الحديث علىٰ ظاهره، وأن الله تعالىٰ جعل في النار والجنة تمييزًا تدركان به فتحاجَّتا، ولا يلزم من هذا أن يكون [ذلك] التمييز فيهما دائمًا. وقال أبو العباس القرطبي[٨]: ظاهر هذه المحاجَّة أنها لسان مقال،

(١) مسند أحمد ١٣/ ١٥٠، ٥٠٠، ١٥/ ٥٠٦، ١٦/ ٣٤٦.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٩٦، ٤/ ٣٩٥، ومسلم أيضًا من طريق عبد الرزاق كالبخاري سواء.
(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٣٠٤ - ١٣٠٥.
(٤) الصحاح ١/ ٣٠٤.
(٥) المحكم ٢/ ٣٣٨.
(٦) المحرر الوجيز ص ١٦٣٩.
(٧) شرح صحيح مسلم ١٧/ ٢٦٥ - ٢٦٦.
(٨) المفهم ٧/ ١٩٢ - ١٩٣.

فيكون خَزَنة كل واحدة منهما هم القائلون ذلك، ويجوز أن يخلق الله ذلك القول فيما شاء من أجزاء الجنة، ولا يُشترَط عقلاً في الأصوات المقطَّعة أن يكون محلها حيًّا، خلافًا لمَن اشترط ذلك من المتكلمين، ولو سلَّمنا ذلك لكان من الممكن أن يخلق الله تعالىٰ في بعض أجزاء الجنة والنار الجمادية حياة بحيث يصدر ذلك القولُ عنه لا سيَّما وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤]: إن كل ما في الجنة حي. ويحتمل أن يكون ذلك لسان حال، فيكون ذلك عبارة عن حالتَيْهما. والأول أولىٰ. والله أعلم.

الخامسة: قوله «إلا الضعفاء من الناس»، لفظ الشيخين «إلا ضعفاء الناس» جمع ضعيف، قال أبو العباس القرطبي: يعني به الضعفاء في أمر الدنيا، ويحتمل أن يريد به هنا الفقراء، وحملُه علىٰ الفقراء أولىٰ من حمله علىٰ الأول؛ لأنه يكون معنىٰ الضعفاء معنىٰ العَجَزة المذكورين بعدُ. وقال عياض[1]: المراد بالضعيف هنا وفي الحديث الآخَر «أهل الجنة كل ضعيف متضعَّف» أنه ضد المتجبر المتكبر[2]. وقال أبو بكر ابن خزيمة: الضعيف هنا الذي برَّأ نفسه من الحول والقوة في اليوم والليلة عشرين مرة إلىٰ خمسين[3]. ولم يُرِد التحديدَ، وإنما أراد اتِّصافه بالتبرؤ من الحول والقوة واللجأ إلىٰ الله متىٰ تذكَّرَ. قال أبو عبد الله القرطبي[4]: ومثل هذا لا يقال من قِبَل الرأي، فهو مرفوع. ا.هـ. قال الولي العراقي: وهو عجيب؛ لأن ذلك إنما يقال في الصحابي لا في مطلَق الناس.

السادسة: قوله «وسُقَّاطهم» هو جمع ساقط، ككاتِب وكُتَّاب، وهو النازل القدْر، وهو الذي عبَّر عنه بأنه لا يؤبَه له، وأصله من سقط المتاع وهو رديئه. ورواية

(١) إكمال المعلم ٨/ ٣٧٧ – ٣٧٨.

(٢) في إكمال المعلم: «أنه الخاضع لله، المذل نفسه لله تعالىٰ، ضد المتجبرين المستكبرين».

(٣) رواه عنه الحاكم في معرفة علوم الحديث ص ٢٨٦.

(٤) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ص ٨٠٣.

مسلم «وسَقَطهم» بفتح السين والقاف، وهو جمع ساقط أيضًا، والمعنىٰ واحد، ويلزم علىٰ ذلك أن يكون بالتاء، ككاتِب وكَتَبة وحاسِب وحَسَبة، وإنما يُسقِطون التاء لأنهم سلكوا بالجمع مَسلك اسم الجنس.

السابعة: وقع في رواية مسلم بعد قوله «وسقطهم»: «وغويهم»، ورُويت هذه اللفظة علىٰ ثلاثة أوجه حكاها القاضي عياض، قال النووي: وهي موجودة في النسخ، أحدها: بفتح الغين المعجمة وكسر الواو وتشديد الياء، ولا يظهر له هنا معنىٰ، ولهذا كان الحافظ العراقي يقول: لعله: وغوغاؤهم. وكتبه بخطه كذلك علىٰ حاشية نسخته، ولعله تصحَّف بقوله «وغويهم». الثاني: غَرَثهم، بغين معجمة مفتوحة وراء مفتوحة وثاء مثلثة، قال عياض: هذه رواية الأكثرين من شيوخنا، ومعناه: أهل الحاجة والفاقة والجوع، والغَرَث: الجوع. والثالث: غِرَّتهم، بغين معجمة مكسورة وراء مشددة وتاء مثناة من فوق، وهذا هو الأشهر في نسخ بلاد المشرق، أي البُلْه الغافلون الذين ليس لهم فتك وحِذق في أمور الدنيا، وهو نحو الحديث الآخَر: «أكثر أهل الجنة البُلْه». وقال عياض: معناه سواد الناس وعامَّتهم من أهل الإيمان [الذين لا يفطنون للشُّبَه] فتُدخِل عليهم الفتنةَ أو تُدخِلهم في البدعة أو غيرها، فهم ثابتو الإيمان، صحيحو العقائد، وهم أكثر المؤمنين، وهم أكثر أهل الجنة، وأما العارفون والعلماء العاملون والصالحون المتعبِّدون فهم قليلون، وهم أصحاب الدرجات العلىٰ.

الثامنة: وقع في رواية الشيخين بعد قوله «ضعفاء الناس»: «وسِفَلهم»، وهو بكسر السين المهملة وفتح الفاء، وهو جمع سِفْلة بكسر فسكون، وهو الرجل الوضيع، ويوافقه ما في الصحاح[1]: والعامة تقول: رجل سَفِلة من قوم سَفِل. وكذا قال في النهاية[2]، ثم قال: وليس بعربي. وذلك بعد أن صدَّرا كلامَهما بأن

---

(١) الصحاح ٥/ ١٧٣٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٧٦.

السَّفِلة بفتح فكسر: السُّقاط من الناس، وأنه يقال: هو من السَّفِلة، ولا يقال: [هو] سَفِلة؛ لأنه جمعٌ. ثم قال في النهاية: وبعض العرب يخفِّف فيقول: [فلان] من سِفْلة الناس، فينقل كسرة الفاء إلىٰ السين. وحكاه في الصحاح عن ابن السكيت(١). وقال في المحكم(٢): سَفِلة الناس - أي بفتح فكسر - وسِفْلتهم - أي بكسر فسكون: أسافلهم وغوغاؤهم.

التاسعة: قوله «وعَجَزتهم» بعين مهملة مفتوحة وجيم وزاي وتاء، جمع عاجز، ومعناه: العاجزون عن طلب الدنيا والتمكن فيها والثروة والشوكة. كذا ضبطه عياض والنووي. قال أبو العباس القرطبي: ويلزم علىٰ ذلك أن يكون بالتاء، وسقوطها في مثل هذا الجمع نادرٌ، وإنما يُسقِطونها إذا سلكوا بالجمع مسلك اسم الجنس، كما قدمناه في «سقطهم»، وصواب هذا اللفظ أن يكون «عُجَّزهم» بضم فتشديد، كشاهِد وشُهَّد.

العاشرة: فيه ذم التكبر والتجبر، وأن فاعل ذلك من أهل النار، فإن وصل الكبر بالإنسان إلىٰ الكفر لتكبره عن الإيمان بالله ورسوله فهو مخلَّد فيها، وإن لم يصل إلىٰ ذلك فلا بد له من الخلوص منها، ولا يُقطَع له أيضًا بدخولها، بل هو تحت المشيئة، فقد يُعفَىٰ عنه ولا يدخلها.

الحادية عشرة: هذا الحديث له بقية عند أحمد والشيخين وهي: «فأما النار فلا تمتلئ حتىٰ يضع الله تبارك وتعالىٰ رجله - وفي لفظ: قدمه - فيها تقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوىٰ بعضُها إلىٰ بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا. وأما الجنة فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينشئ لها خلقًا». ولم يذكر المصنف رحمه الله هذه الزيادة؛ لحصول المقصود بصدر الحديث وهو الدلالة علىٰ ذم الكبر واستحقاق فاعله النار، ولأنها من أحاديث الصفات المشكلة المحتاجة إلىٰ التأويل، وقد زعم ابن

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ص ١٦٨.
(٢) المحكم لابن سيده ٨/ ٣٣٠.

فورك[١] أن هذه اللفظة وهي قوله «حتىٰ يضع الله رِجله» غير ثابتة عند أهل النقل. ولكن قد عرفتَ أنه رواها أحمد والشيخان وغيرهم، فهي صحيحة، وتأويلها من أوجه، أحدها: أن المراد رِجل بعض المخلوقين، فيعود الضمير في «رجله» إلىٰ ذلك المخلوق المعلوم. الثاني: أنه يحتمل أن من المخلوقات ما يسمَّىٰ بهذه التسمية. الثالث: أنه يجوز أن يُراد بالرِّجل الجماعة من الناس، كما تقول: رِجل من جراد، أي قطعة منه. الرابع: أن المراد بوضع الرجل نوع زجر لها، كما تقول: جعلته تحت رجلي. الخامس: أن الرجل قد تُستعمَل في طلب الشيء علىٰ سبيل الجد والإلحاح، كما تقول: قام في هذا الأمر علىٰ رجل. والمشهور في أكثر روايات الحديث «حتىٰ يضع فيها قدمه»، وفيه التأويلات المتقدمة، وأشهر منها تأويل آخر: أن المراد مَن قدَّمه اللهُ لها من أهل العذاب. وهذا كله بناء علىٰ طريقة التأويل، وهي طريقة جمهور المتكلمين، والذي عليه [جمهور] السلف وذهبت إليه طائفة من المتكلمين أنه لا يُتكلم في تأويلها، بل نؤمن بأنها حق علىٰ ما أراد الله، ولها معنىٰ يليق بها، وظاهرها غير مراد. وذكر الخطَّابي أن ترك التأويل إنما هو في الصفات الواردة في القرآن أو في السنَّة المتواترة، فأما الواردة في أخبار الآحاد من غير أن يكون لها أصل في القرآن فإنها تؤوَّل[٢]. والله أعلم.

(**وقال** ﷺ: **بئس**) وهي[٣] كلمة جامعة للمَذامِّ مقابلة لـ «نعم» الجامعة لوجوه المدائح كلها[٤] (**العبد عبد تجبَّر**) من الجبروت وهو القهر بأن انتشأ في

---

(١) مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص ١٢٥ - ١٢٦ (ط - عالم الكتب ببيروت).

(٢) عبارة الخطابي في أعلام الحديث ٣/ ١٩١١: «الأصل أن كل صفة جاء بها الكتاب، أو صحت بأخبار التواتر، أو رويت من طريق الآحاد، وكان لها أصل في الكتاب، أو خُرِّجت علىٰ بعض معانيه، فإنا نقول بها ونجريها علىٰ ظاهرها من غير تكييف. وما لم يكن له منها في الكتاب ذكر ولا في التواتر أصل، ولا له بمعاني الكتاب تعلق، وكان مجيئه من طريق الآحاد وأفضىٰ بنا القول إذا أجريناه علىٰ ظاهره إلىٰ التشبيه، فإنا نتأوله علىٰ معنىٰ يحتمله الكلام ويزول معه معنىٰ التشبيه».

(٣) فيض القدير ٣/ ٢١١ - ٢١٢.

(٤) ذكره البقاعي في نظم الدرر ٢/ ٤٣.

الشهوات[١] وجبر الخلقَ على هواه فيها، فصار ذلك عادة له (**واعتدى**) أي تجاوز الحدود في جبروته (**ونسي الجبار الأعلى**) الذي له الجبروت الأعظم (**بئس العبد عبدٌ تجبَّر واختال**) من الخيلاء وهو الكبر والعجب (**ونسي**) الله (**الكبير المتعال**) أي نسي أن الكبرياء والتعالي ليس إلا للواحد القهَّار (**بئس العبد عبد غفل وسها**) بالأماني مستغرقًا في شئون هذا الحُطام الفاني (**ولها**) بالإكباب على الشهوات والاشتغال بما لا يعنيه عمَّا خُلق لأجله من العبادات (**ونسي المقابر والبِلَى**) أي بأن القبر يضمُّه يومًا ويحتوي على أركانه ويبلي لحمه ودمه (**بئس العبد عبد عتا وطغى**) العتو: التجبر والتكبر، والطغيان: مجاوزة الحد، أي بالَغَ في ركوب المعاصي وتمرَّد حتى صار لا ينفع فيه وعظٌ ولا يؤثِّر فيه زجر، فصار إيمانه محجوبًا (**ونسي المبدأ والمنتهَى**) أي نسي من أين بُدئ وإلى أين يُعاد وصيرورته ترابًا، أي مَن كان ذلك ابتداؤه ويكون انتهاؤه هذا جدير بأن يطيع الله في أوسط الحالين.

قال العراقي[٢]: رواه الترمذي من حديث أسماء بنت عُمَيس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير، وقال: غريب وليس إسناده بالقوي. ورواه الحاكم في المستدرك وصحَّحه. ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن همار وضعَّفه.

قلت: لفظ الترمذي: «بئس العبدُ عبدٌ تخيَّل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبَّر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبِلَى، بئس العبد عبد عتا وطغى ونسي المبتدأ والمنتهَى، بئس العبد عبد يَخْتِل [الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل] الدين بالشبهات، بئس العبد عبد طمعٌ يقوده، بئس العبد عبد هوًى يضله، بئس العبد عبد رَغَبٌ يذله». هكذا رواه الترمذي[٣] وضعَّفه والبغوي والطبراني[٤]، ورواه الحاكم في الرقاق من

---

(١) في الفيض: احتشى من الشهوات.

(٢) المغني ٢/ ٩٤٩.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٤٠.

(٤) المعجم الكبير ٢٤/ ١٥٦.

مستدركه[١] وصحَّحه، وردَّه الذهبي وقال: سنده مظلم. وكذلك رواه البيهقي[٢]، كلهم من حديث أسماء، قال البيهقي: إسناده ضعيف. ورواه الطبراني وابن عدي[٣] والبيهقي[٤] من حديث نعيم بن همار الغَطَفاني، وفيه طلحة بن زيد الرقِّي، وهو ضعيف[٥].

(وعن) أبي[٦] محمد **(ثابت)** بن أسلم البُناني البصري، ثقة، عابد، مات سنة بضع وعشرين [ومائة] وله ست وثمانون سنة، روىٰ له الجماعة **(أنه قال: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله، ما أعظم كبر فلان! فقال: أليس بعده الموت)**؟ قال العراقي[٧]: رواه البيهقي في الشعب[٨] هكذا مرسلاً بلفظ: ما أعظم تجبُّر فلان!

(وقال عبد الله بن عمرو) بن العاص ﵄: **(إن رسول الله ﷺ قال: إن نوحًا ﵇ لمَّا حضرته الوفاةُ دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك)** بالله **(والكبر)** علىٰ الناس **(وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرض وما فيهن لو وُضعت في كفة الميزان ووُضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرىٰ كانت أرجح منها، ولو أن السموات والأرض وما فيهن كانتا حلقة فوُضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزَق كل شيء)** قال العراقي[٩]: رواه أحمد[١٠] والبخاري في كتاب

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٨.

(٢) شعب الإيمان ١٠/ ٤٧٩.

(٣) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٤٢٩.

(٤) شعب الإيمان ١٠/ ٤٨١.

(٥) بل متهم بالوضع، ولا يكتب حديثه، وانظر: الجرح والتعديل ٤/ ٤٨٠، الكاشف للذهبي ١/ ٥١٤.

(٦) تقريب التهذيب ص ١٨٥.

(٧) المغني ٢/ ٩٤٩.

(٨) شعب الإيمان ١٠/ ٤٩٣.

(٩) المغني ٢/ ٩٤٩.

(١٠) مسند أحمد ١١/ ١٥٠، ٦٧١.

الأدب[١] والحاكم[٢] بزيادة في أوله، وقال: صحيح الإسناد.

قلت: وكذلك رواه الطبراني في الكبير[٣]، ولفظهم جميعًا: «إن نبي الله نوحًا لما حضرته الوفاةُ قال لابنه: يا بني، إني موصيك فقاصر عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فلو أن السموات السبع والأرضين السبع وُضعن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كانت حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله. وأوصيك بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة الخلق، وبها يُرزَق الخلق. وأنهاك عن الكفر والكبر». قيل: يا رسول الله، ما الكبر؟ أهو أن يكون للرجل حُلَّة حسنة يلبسها وفرس جميل يعجبه جماله؟ قال: «لا، الكبر أن تسفه الحقَّ وتغمص الناسَ».

وروىٰ ابن أبي شيبة من حديث جابر: «ألا أعلِّمكم ما علَّم نوحٌ ابنَه: آمرك بقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير، فإن السموات لو كانت في كفة لرجحت بها، ولو كانت حلقة قصمتها. وآمرك بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يُرزَق الخلق».

وروىٰ الحكيم الترمذي[٤] والديلمي[٥] من حديث معاذ بن أنس: «ألا أخبركم عن وصية نوح لابنه حين حضره الموت؟ قال: إني واهب لك أربع كلمات هنَّ قيام السموات والأرض، وهن أول الكلمات دخولاً [علىٰ الله] وآخر الكلمات خروجًا من عنده، ولو وُزن بهن أعمال بني آدم لوزنتهن، فاعملْ بهن واستمسِكْ حتىٰ تلقاني، تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. والذي نفس

(١) الأدب المفرد ص ١٦٧.
(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٠٣.
(٣) المعجم الكبير ١٣/ ٦٦١.
(٤) نوادر الأصول ص ١٢٣١.
(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٣٢.

محمد[١] بيده لو أن السموات والأرض وما فيهن وما تحتهن وُزِنَّ بهذه الكلمات لوزنتهن».

وروىٰ عبد بن حميد[٢] وابن عساكر[٣] من حديث جابر، وأبو يعلىٰ والبيهقي[٤] وابن عساكر[٥] أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحًا قال لابنه: يا بني، آمرك بأمرين وأنهاك عن أمرين: آمرك أن تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو علىٰ كل شيء قدير، فإن السموات والأرض لو جُعلتا في كفة [وجُعلت في كفة] وزنتهما، ولو جُعلتا حلقة قصمتهما. وآمرك يا بني أن تقول: سبحان الله وبحمده، فإنها صلاة الخلائق وتسبيح الخلق وبها يُرزَق الخلق. وأنهاك يا بني عن الشرك، فإنَّ مَن أشرك بالله حرَّم الله عليه الجنة. وأنهاك يا بني عن الكبر، فإن أحدًا لا يدخل الجنة وفي قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». فقال معاذ: «يا رسول الله، أمن الكبر أن يكون لأحدنا دابَّة يركبها والنعلان يلبسهما والثياب يلبسها والطعام يجمع عليه أصحابه؟ قال: «لا، ولكن الكبر أن تسفه الحقَّ وتغمص المؤمنَ، وسأنبئك بخلال مَن كنَّ فيه فليس بمتكبر: اعتقال الشاة، وركوب الحمار، ولبوس الصوف، ومجالسة فقراء المؤمنين، وأن يأكل أحدهم مع عياله».

(وقال عيسىٰ عليه السلام: طوبىٰ لمَن علَّمه الله كتابه ثم لم يمُت جبارًا)[٦] أي متكبراً.

---

(١) في نوادر الأصول وكنز العمال ١/ ٤٧١: نوح.
وفي الفردوس: والذي يقسم به نوح.

(٢) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٠٦.

(٣) تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٤) الأسماء والصفات ١/ ٢٥٢.

(٥) تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٨٣ - ٢٨٥.

(٦) رواه أحمد في الزهد ص ٧٧، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ٢٠٢، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٣٩.

(وقال النبي ﷺ: **أهل النار كل جعظري**) وهو الفَظ الغليظ، المنتفخ بما ليس عنده (**جَوَّاظ**) وهو الكثير اللحم، المختال في مشيته (**مستكبر**) علىٰ إخوانه (**جَمَّاع**) للمال (**مَنَّاع**) للحق (**وأهل الجنة الضعفاء المقلُّون**) وفي لفظ: المغلوبون. قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] والبيهقي في الشعب[٣] من حديث سُراقة بن مالك دون قوله «جَمَّاع منَّاع»، وهذه الزيادة عندهما[٤] من حديث عبد الله بن عمرو. وفي الصحيحين[٥] من حديث حارثة بن وهب الخزاعي: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعَّف لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر».

قلت: لفظ حديث سراقة عند ابن قانع[٦] والحاكم[٧]: «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون».

وروىٰ أحمد والطبراني[٨] من حديث عبد الله بن عمرو وسراقة بن مالك: «أهل الجنة المغلوبون، وأهل النار كل جعظري جواظ مستكبر».

وروىٰ الطيالسي[٩] من حديث حارثة بن وهب: «أهل النار كل جَوَّاظ عُتُلٍّ مستكبر».

---

(١) المغني ٢/ ٩٤٩ - ٩٥٠.
(٢) مسند أحمد ٢٩/ ١٢٥.
(٣) شعب الإيمان ١٠/ ٤٧٣.
(٤) مسند أحمد ١١/ ١٤٥، ٥٨٥. شعب الإيمان ١٠/ ٤٧٣.
(٥) صحيح البخاري ٣/ ٣١٥، ٤/ ١٠٤، ٢٢٠. صحيح مسلم ٢/ ١٣٠٧.
(٦) معجم الصحابة ١/ ٣١٧ مقتصرا علىٰ الشطر الأول من الحديث.
(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٨، ٤/ ٥٣.
(٨) المعجم الكبير ٧/ ١٥٢، ١٤/ ٢٩.
(٩) مسند الطيالسي ٢/ ٥٦٥.

وروىٰ الشيرازي في الألقاب والديلمي[(١)] من حديث أبي عامر الأشعري: «أهل النار كل شديد قعبري». قيل: يا رسول الله، وما هو [القعبري]؟ قال: «الشديد علىٰ الأهل، الشديد علىٰ الصاحب، الشديد علىٰ العشيرة. وأهل الجنة كل ضعيف مزهَد».

وروىٰ أحمد والحاكم[(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو: «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جَمَّاع منَّاع، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون».

وروىٰ الطبراني في الكبير من حديث ابن عمرو: «ألا أنبئك بأهل الجنة؟ الضعفاء المغلوبون».

وروىٰ أيضًا من حديث أبي الدرداء: «ألا أخبرك يا أبا الدرداء بأهل النار؟ كل جعظري جواظ مستكبر جماع [منوع] ألا أخبرك بأهل الجنة؟ كل مسكين لو أقسم علىٰ الله تعالىٰ لأبرَّه».

وأما حديث حارثة بن وهب في الصحيحين فلفظه: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعَّف لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جواظ جعظري مستكبر». وهكذا رواه الطيالسي وأحمد[(٣)] والترمذي[(٤)] والنسائي[(٥)] وابن ماجه[(٦)] وابن حبان[(٧)] والطبراني[(٨)]، كلهم من طريق معبد بن

---

(١) ورواه أيضا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٥/ ٢٧٧، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٢٩، وقوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ٥٥٦، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٥/ ٢٩٦٤.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٨٧.

(٣) مسند أحمد ٣١/ ٢٧، ٢٩.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٣٥٠.

(٥) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣١٠.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٦١.

(٧) صحيح ابن حبان ١٢/ ٤٩٢.

(٨) المعجم الكبير ٣/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

خالد عن حارثة بن وهب الخزاعي. ورواه الطبراني أيضًا عن معبد بن خالد عن حارثة بن وهب والمستورد بن شداد معًا.

ورواه الطبراني[١] أيضا والضياء عن معبد بن خالد عن أبي عبد الله الجدلي عن زيد بن ثابت.

(وقال ﷺ: إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدِّقون المتفيهقون. قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون) قال العراقي[٢]: رواه أحمد[٣] من حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ «إليَّ» و«مني»، وفيه انقطاع، مكحول لم يسمع من أبي ثعلبة، وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث.

قلت: لفظ أحمد: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة محاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقًا الثرثارون المتفيهقون المتشدِّقون». وكذلك رواه ابن حبان[٤] والطبراني[٥] وأبو نعيم[٦] والبيهقي[٧] والخرائطي[٨].

وروى الخرائطي[٩] أيضًا والخطيب[١٠] وابن عساكر[١١] والضياء من حديث

---

(١) السابق ٥/ ١٥٦.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٠.

(٣) مسند أحمد ٢٦/ ٢٦٧، ٢٧٩.

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٢٣٢، ١٢/ ٣٦٨.

(٥) المعجم الكبير ٢٢/ ٢٢١.

(٦) حلية الأولياء ٣/ ٩٧، ٥/ ١٨٨.

(٧) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٢٦.

(٨) روىٰ الشطر الأول في مكارم الأخلاق ص ٣١، والشطر الثاني في مساوئ الأخلاق ص ٤٣.

(٩) روىٰ الشطر الأول في مكارم الأخلاق ص ٣٢، والشطر الثاني في مساوئ الأخلاق ص ٤٣، ٢٥٧.

(١٠) تاريخ بغداد ٥/ ١٠١.

(١١) تاريخ دمشق ٣٧/ ٣٩٧.

جابر: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة مساوئكم أخلاقًا الثرثارون المتشدِّقون المتفيهقون».

وروىٰ الطبراني[١] من حديث ابن مسعود: «إن أحبكم إليَّ يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليَّ يوم القيامة المتشدِّقون المتفيهقون».

وروىٰ البيهقي[٢] من حديث أبي هريرة: «ألا أخبركم بشِرار هذه الأمة؟ الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. أفلا أنبئكم بخيارهم؟ أحاسنهم أخلاقًا». ورواه أحمد[٣] بلفظ: «ألا أنبئكم بشراركم؟ الثرثارون المتشدقون. ألا أنبئكم بخياركم؟ أحاسنكم أخلاقًا».

(**وقال ﷺ: يُحشَر المتكبرون يوم القيامة ذرًّا في مثل صور الرجال، يعلوهم كلُّ شيء من الصَّغار**) أي الذل (**ثم يُساقون إلىٰ سجن في جهنم يقال له: بُولَس**) بضم الموحدة وفتح اللام وآخره سين مهملة (**تعلوهم نارُ الأنيار**) هو جمع نار (**يُسقَون من طينة الخَبال**) وهي (**عُصارة أهل النار**) أي ممَّا يسيل من أجسادهم بعد ذوبانها من القيح والصديد. قال العراقي[٤]: رواه الترمذي[٥] من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: حسن غريب.

قلت: وكذلك رواه أحمد[٦]، ولفظه: «أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذلُّ من كل مكان ...» والباقي سواء.

---

(١) المعجم الكبير ١٠/ ٢٣٥.

(٢) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٢٦.

(٣) مسند أحمد ١٤/ ٤١٨.

(٤) المغني ٢/ ٩٥٠.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٦٨.

(٦) مسند أحمد ١١/ ٢٦٠.

(**وقال أبو هريرة**) رضي الله عنه: (**قال النبي ﷺ: يُحشَر الجبارون المتكبرون يوم القيامة في صور الذر، يطؤهم الناس لهوانهم علىٰ الله**) قال العراقي[1]: رواه البزار[2] هكذا مختصرًا دون قوله «الجبارون»، وإسناده حسن.

(**وعن محمد بن واسع**) بن[3] جابر بن الأخنس البصري، ثقة، عابد، كثير المناقب، مات سنة ثلاث وعشرين ومائة، روىٰ له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (**قال: دخلت علىٰ بلال بن أبي بُردة**) بن[4] أبي موسىٰ الأشعري، قاضي البصرة، مات سنة نيِّف وعشرين [ومائة] روىٰ له البخاري معلقًا والترمذي (**فقلت له: يا بلال، إن أباك**) أبا[5] بُرْدة بن أبي موسىٰ الأشعري، قيل: اسمه عامر، وقيل: الحارث، ثقة، مات سنة أربع ومائة، روىٰ له الجماعة (**حدثني عن أبيه**) أبي[6] موسىٰ عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار الأشعري رضي الله عنه، صحابي مشهور، أمَّره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصِفِّين، مات سنة خمسين، وقيل: بعدها (**عن النبي ﷺ أنه قال: إن في جهنم واديًا يقال له هبهب، حقٌّ علىٰ الله أن يُسكِنه كلَّ جبار. فإياك يا بلال أن تكون ممَّن يسكنه**) قال العراقي[7]: رواه أبو يعلىٰ[8] والطبراني[9] والحاكم[10]، وقال: صحيح الإسناد. قلت: فيه أزهر بن سِنان، ضعَّفه ابن

(١) المغني ٢/ ٩٥٠.

(٢) مسند البزار ١٤/ ٣٣٩ حتىٰ قوله (الذر) ولم يذكر ما بعده، وهو عند ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٢٤) باللفظ الذي أورده الإمام.

(٣) تقريب التهذيب ص ٩٠٤.

(٤) السابق ص ١٧٩.

(٥) السابق ص ١١١٢.

(٦) السابق ص ٥٣٦.

(٧) المغني ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١.

(٨) مسند أبي يعلىٰ ١٣/ ٢٢٥.

(٩) المعجم الأوسط ٤/ ٣٧.

(١٠) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٧ - ٤٧٨.

معين[١] وابن حبان وأورد له في الضعفاء[٢] هذا الحديث.

قلت: قال أبو نعيم في الحلية[٣]: حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مخلد، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أزهر بن سنان القرشي، حدثنا محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بُردة فقلت: يا بلال، إن أباك حدثني عن جدك عن رسول الله ﷺ قال: «إن في جهنم واديًا، ولذلك الوادي بئر يقال لها هبهب، حقٌّ على الله أن يُسكِنها كلَّ جبار». فإياك أن تكون منهم.

قلت: ورواه كذلك العقيلي[٤] وابن عدي[٥] وابن عساكر[٦]. وقال أبو نعيم بعد أن أورد الحديث: هذا حديث تفرَّد به أزهر عن محمد، وحدث به أحمد بن حنبل وأبو خيثمة عن يزيد بن هارون بمثله.

(وقال ﷺ: إن في النار قصرًا يُجعَل فيه المتكبرون ويُطبَق عليهم)[٧] قال العراقي[٨]: رواه البيهقي في الشعب[٩] من حديث أنس، وقال «توابيت» مكان «قصر»، وقال «فيُقفَل» مكان «يُطبَق»، وفيه أبان بن أبي عيَّاش، وهو ضعيف.

---

(١) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٣١٤ عن يحيى بن معين: «أزهر بن سنان لا شيء».

(٢) المجروحون من المحدثين ١/ ٢٠١ - ٢٠٢، وفيه: «الأزهر بن سنان القرشي مولى لهم، كنيته أبو خالد، قليل الحديث، منكر الرواية على قلته، لم يتابعه الثقات فيما رواه». ثم ذكر قول ابن معين السابق، ثم أورد الحديث، ثم قال: «هذا متن لا أصل له».

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٤) الضعفاء الكبير ١/ ١٥٢.

(٥) الكامل في الضعفاء ١/ ٤٢٠.

(٦) تاريخ دمشق ١٠/ ٥١٧، ١٤/ ٣٠٣.

(٧) هو في مساوئ الأخلاق للخرائطي ص٢٥٦ من كلام محمد بن المنكدر.

(٨) المغني ٢/ ٩٥١.

(٩) شعب الإيمان ١٠/ ٤٨٢.

(وقال ﷺ) في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء) قال العراقي[١]: لم أرَه بهذا اللفظ، وروىٰ أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مُطعِم مرفوعًا في أثناء حديث: «أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونَفْثه وهَمْزه». قال: نفثه الشِّعر، ونفخه الكبر، وهمزه الموتة. ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه، تكلم فيه أبو داود، وقال الترمذي: هذا أشهر حديث في الباب[٢].

(وقال ﷺ: مَن فارق روحُه جسدَه وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر، والدَّين، والغلول) قال العراقي[٣]: رواه الترمذي[٤] والنسائي[٥] وابن ماجه[٦] من حديث ثوبان بإسناد صحيح، وذِكرُ المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور في الرواية أنه «الكبر» بالموحدة والراء، ولكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد[٧] عن الدارقطني قال: إنما هو «الكنز» بالنون والزاي. وكذلك أيضًا ذكر ابن مردويه [الحديث] في تفسير ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤].

قلت: ورواه أيضًا أحمد[٨] والدارمي[٩] وأبو يعلىٰ والروياني[١٠] وابن حبان[١١]

---

(١) المغني ٢/ ٩٥١.

(٢) حديث جبير بن مطعم وحديث أبي سعيد تقدما في الباب الثاني من كتاب الصلاة.

(٣) المغني ٢/ ٩٥١.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٢٣١.

(٥) السنن الكبرىٰ ٨/ ٨٦ - ٨٧.

(٦) سنن ابن ماجه ٤/ ٧٢.

(٧) جامع المسانيد ١/ ٣٩٢.

(٨) مسند أحمد ٣٧/ ٥٣، ٧٤، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٩.

(٩) سنن الدارمي ٢/ ٣٤١.

(١٠) مسند الروياني ١/ ٤٠٣.

(١١) صحيح ابن حبان ١/ ٤٢٧.

والحاكم[١] وأبو نعيم[٢] والبيهقي[٣] والضياء. ووقع في روايتهم «الغل» بدل «الغلول».

(الآثـار:

قال أبو بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **لا يحقرن أحدٌ أحدًا من المسلمين)** وفي نسخة: لا تحقرن أحدًا من المسلمين **(فإنَّ صغير المسلمين عند الله كبير)** رواه أبو عبد الرحمن السلمي والديلمي في مسند الفردوس[٤] من حديثه مرفوعًا بلفظ: «لا تحقرن من المسلمين أحدًا ...» والباقي سواء.

(وقال وهب) بن منبه رحمه الله تعالىٰ: **(لمَّا خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنتِ حرام علىٰ كل متكبر)** روىٰ الطبراني من حديث ابن عباس: «لما خلق الله عَزَّوَجَلَّ جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، ثم قال لها: تكلمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون». زاد ابن عساكر: «ثم قالت: أنا حرام علىٰ كل بخيل ومُراءٍ. ثم أطبقها فلم يرَ ما فيها ملَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسَل»[٥]. وقد تقدم ذلك في ذم الرياء[٦].

(وكان الأحنف بن قيس) بن[٧] معاوية التميمي، أبو بحر البصري، أدرك زمانَ النبي ﷺ ولم يرَه، قال العجلي[٨]: بصري، تابعي، ثقة، وكان سيد قومه

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٣٣.

(٢) معرفة الصحابة ١/ ٥٠١.

(٣) السنن الكبرىٰ ٥/ ٥٨١، ٩/ ١٧٣.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ١٥٩.

(٥) قوله: ثم أطبقها ... الخ، ليس في رواية ابن عساكر.

(٦) بل في كتاب آفات اللسان [الآفة الخامسة عشر: الغيبة] وفي كتاب ذم البخل وحب المال.

(٧) تهذيب الكمال ٢/ ٢٨٢ - ٢٨٧.

(٨) معرفة الثقات ١/ ٢١٢.

(يجلس مع مصعب بن الزبير) بالبصرة، وكان أخوه عبد الله بن الزبير قد ولاَّه عليها **(علىٰ سريره، فجاء)** الأحنف **(يومًا ومصعب مادٌّ رجليه، فلم يقبضهما)** لدخوله **(وقعد الأحنف)** علىٰ السرير علىٰ عادته **(فزاحمه بعض الزحمة، فرأىٰ أثر ذلك في وجهه، فقال)** الأحنف: **(عجبًا لابن آدم، يتكبر وقد خرج من مجرىٰ البول مرتين)**(١) مرة من مجرىٰ بول أبيه، وثانية من مجرىٰ بول أمه. ومات الأحنف في ولاية مصعب. رُوي عن عتبة بن صعصعة قال: رأيت مصعب بن الزبير في جنازة الأحنف متقلِّدًا سيفًا ليس عليه رداء وهو يقول: ذهب اليوم الحزم والرأي(٢).

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(العجب من ابن آدم، يغسل الخراء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات(٣))**.

وقد قيل في) تأويل قوله تعالىٰ: (﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]: **هو سبيل البول والغائط**(٤)) ولفظ القوت(٥): وقال بعض أهل التفسير في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ قال: مواضع البول والغائط، أي فتعتبروا به مآل الدنيا وقبح عاقبتها فتعبروها إلىٰ الآخرة.

(وقال) أبو جعفر **(محمد بن الحسين بن علي)** بن أبي طالب ﷺ. كذا في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٩٩. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥/ ٣٠١ مقتصرا علىٰ كلام الأحنف الأخير. وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٤٩٤ عن علي بن عثام قال: قال الأحنف بن قيس وجفاه ابن الزبير: ما ينبغي لمن خرج من مخرج البول مرتين أن يفخر.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ٣٥٣.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ٢٠٣.

(٤) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ٢٦٦ عن علي بن أبي طالب. ورواه الطبري في جامع البيان ٢١/ ٥١٩ والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٢٥٩، ١٠/ ٤٩٣ عن عبد الله بن الزبير. وفي الدر المنثور ١٣/ ٦٧٩: «أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: ما يدخل من طعامكم وما يخرج».

(٥) قوت القلوب ٢/ ٦٩٩.

النسخ، وصوابه: محمد بن علي بن الحسين بن علي **(ما دخل قلب امرئ شيءٌ من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قلَّ أو كثر)** أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] عن أبيه، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين، حدثنا أبو الربيع الرشديني، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني إبراهيم بن النشيط، عن عمر مولىٰ عُفْرة، عن محمد بن علي بن الحسين قال: ما دخل قلبَ امرئ شيءٌ من الكبر ... فذكره.

(وسُئل سلمان) الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة. فقال: الكبر**[2].

وقال النعمان بن بشير) بن[3] سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، له ولأبيه صحبة، ثم سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قُتل بحِمص سنة خمس وستين وله أربع وستون سنة **(علىٰ المنبر: إن للشيطان مصالي)** وهي[4] تشبه الشَّرَك، جمع مِصْلاة، والمراد ما يستفز به الناسَ من زينة الدنيا وشهواتها[5] **(وفخوخًا)** جمع فخ: آلة يُصاد بها **(وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعُم الله)** أي الطغيان عند النعمة **(والفخر بإعطاء الله)** أي ادِّعاء العِظَم والشرف **(والكبر علىٰ عباد الله)** أي التعاظُم والترفُّع عليهم **(واتِّباع الهوىٰ في غير ذات الله)**[6] فهذه الخصال أخلاقه، وهي فخوخه ومصائده التي نصبها لبني آدم، فإذا أراد الله بعبد شرًّا خلَّىٰ بينه وبين الشيطان [فتحلَّىٰ بهذه الأخلاق] فوقع في شبكته فكان من الهالكين، ومن أراد به خيرًا أيقظه ليجتنب تلك الخصالَ ويتباعد عنها ليصير من أهل الكمال. هكذا

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٨٠.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ٢١١.

(٣) تقريب التهذيب ص ١٠٠٤.

(٤) فيض القدير ٢/ ٤٩٩.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٥١.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص١٨٩، ١٩٠.

أورده المصنف موقوفًا علىٰ النعمان، وقد رُوي ذلك مرفوعًا من طريقه بلفظ: «البطر بنعم الله، والفخر بعطاء الله ...» والباقي سواء. هكذا رواه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب[1] وابن عساكر في التاريخ[2]، وفي الإسناد إسماعيل بن عيَّاش، مختلَف فيه. والله أعلم.

(١) شعب الإيمان ١٠/ ٤٧٩.

(٢) تاريخ دمشق ٦٢/ ١٢٤.

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجرِّ الثياب

(قال رسول الله ﷺ: **لا ينظر الله إلىٰ رجل يجر إزاره بَطَرًا**) هكذا في سائر النسخ، وفي نسخة العراقي[١]: «لا ينظر الله إلىٰ مَن جرَّ إزاره بطرًا»، وقال: متفق عليه[٢] من حديث أبي هريرة.

وقال في التقريب[٣]: وعن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلىٰ مَن جرَّ إزاره بطرًا». قال ولده الولي العراقي في شرحه علىٰ كتاب والده: أخرجه البخاري من هذا الوجه من طريق مالك، وأخرجه مسلم والنسائي[٤] من طريق شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة، وابن ماجه[٥] من رواية محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة بلفظ «من الخيلاء».

وقال السيوطي في الجامع الكبير: حديث «لا ينظر الله يوم القيامة إلىٰ مَن جرَّ ثوبه بطرًا». رواه البخاري وأحمد[٦] والبيهقي[٧] من حديث أبي هريرة.

ومعنىٰ كون الله لا ينظر إليه [أي لا يرحمه ولا ينظر إليه] نظر رحمة، ونظرُه سبحانه لعباده رحمته لهم ولطفه بهم، فعبَّر عن المعنىٰ الكائن عن النظر بالنظر؛ لأن مَن نظر إلىٰ متواضع رحمَه، ومَن نظر إلىٰ متكبر مقته، فالنظر إليه اقتضىٰ

---

(١) المغني ٢/ ٩٥٢.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٥٤. صحيح مسلم ٢/ ١٠٠٤.

(٣) طرح التثريب ٨/ ١٦٩ - ١٧١.

(٤) السنن الكبرىٰ ٨/ ٤٤١.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ١٩٩.

(٦) مسند أحمد ١٤/ ٥٤٩ - ٥٥٠، ١٥/ ٧٩، ١٧٥، ٣٤٢، ٥٣١، ١٦/ ٧٤، ١٥٧، ٣١٩.

(٧) شعب الإيمان ٨/ ٢١٤.

الرحمةَ أو المقت، وأما التقييد بيوم القيامة فلأنه محل الرحمة العظيمة المستمرة التي لا تنقطع عن المرحوم[1].

(وقال ﷺ: **بينما رجل يتبختر في بُرْدَيْه**) مثنىٰ بُرْد بضم فسكون: نوع من الثياب معروف، قال في المحكم[2]: ثوب فيه خطوط، وخصَّ بعضُهم به الموشَّىٰ، والجمع: أبراد وأبرُد وبُرود. ا.هـ. وفي رواية: في بُرْدين (**وقد أعجبته نفسه**) وفي رواية: قد أعجبته جُمَّته وبُرداه. كما سيأتي (**خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها**) أي يتحرك وينزل مضطربًا؛ قاله الخليل[3] (**إلىٰ يوم القيامة**) وفي رواية: حتىٰ يوم القيامة. فيه[4] فوائد:

الأولىٰ: أخرجه مسلم من طريق همَّام عن أبي هريرة، ومن طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وأخرجه من طريق أبي رافع عن أبي هريرة بلفظ: «إن رجلاً ممن كان قبلكم يتبختر في حُلَّة ...» الحديث، واتفق عليه الشيخان[5] من طريق شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة بلفظ: «بينما رجل يمشي في حُلَّة تعجبه نفسه مرجِّل جمَّته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلىٰ يوم القيامة». لفظ البخاري، ولم يسُقْ مسلم لفظه، وأخرجه أيضًا من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة بلفظ: «بينما رجل يمشي قد أعجبته جُمَّته وبُرْداه». وأخرجه البخاري من طريق سالم بن عبد الله بن عمر عن أبي هريرة.

الثانية: قيل: يحتمل أن هذا الرجل من هذه الأمة فأخبر النبي ﷺ بأنه سيقع

---

(١) في طرح التثريب: «التي لا تنقطع، بخلاف رحمة الدنيا فقد تنقطع عن المرحوم ويأتي له ما يخالفها».

(٢) المحكم لابن سيده ١٠/ ٤٣.

(٣) في مشارق الأنوار لعياض ١/ ١٥١: «كذا رواه الجمهور بجيمين، ورواه بعضهم: يتخلخل، بخائين معجمتين، والأول أعرف وأصح، قالوا: التجلجل: السوخ في الأرض مع حركة واضطراب؛ قاله الخليل».

(٤) طرح التثريب ٨/ ١٦٧ - ١٦٩.

(٥) صحيح البخاري ٤/ ٥٤. صحيح مسلم ٢/ ١٠٠٤.

هذا. وقيل: بل هو إخبار عمَّن قبل هذه الأمة، قال عياض[(١)]: وهذا أظهر. وقال النووي[(٢)]: وهذا هو الصحيح، وهو معنىٰ إدخال البخاري له في ذكر بني إسرائيل. قال الولي العراقي: قد صرَّح به في رواية مسلم المتقدمة، حيث قال فيها: «إن رجلاً ممَّن كان قبلكم». وروىٰ أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده[(٣)] عن كريب قال: كنت أقود ابنَ عباس في زُقاق أبي لهب، فقال: يا كريب، بلغنا مكان كذا وكذا؟ قلت: أنت عنده الآن. فقال: حدثني العباس بن عبد المطلب قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ في هذا الموضع إذ أقبل رجل يتبختر بين بُرْدين وينظر بين عِطْفيه قد أعجبته نفسُه إذ خسف الله به الأرض في هذا الموطن، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة.

قلت: وروىٰ الطبراني في الكبير[(٤)] من حديث أبي جريٍّ الهُجَيمي بلفظ: «إن رجلاً ممَّن كان قبلكم لبس بردة فتبختر فيها، فنظر الله إليه من فوق عرشه فمقته، فأمر الأرض فأخذتْه، فهو يتجلجل [بين الأرض] فاحذروا مقت الله عَزَّوَجَلَّ». وروىٰ ابن عساكر: «إن رجلاً في الجاهلية جعل يتبختر وعليه حُلَّة قد لبسها، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة». هكذا أورده السيوطي في الجامع الكبير[(٥)] ولم يذكر صحابيه وبيَّض له، فليحرَّر، ولعله أبو هريرة[(٦)].

الثالثة: قال أبو العباس القرطبي[(٧)]: البُرْدان: الرداء والإزار، وهذا علىٰ طريقة تثنية العُمَرين والقمرين. انتهىٰ. قال الولي العراقي: وفي تعيينه أن البردين إزار ورداء نظرٌ، وقوله «إنه كالعمرين والقمرين» مردود؛ لأن ذلك فيه تغليب،

---

(١) إكمال المعلم ٦/ ٦٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/ ٨٩.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ١٢/ ٥٧.

(٤) المعجم الكبير ٧/ ٧٢ - ٧٣.

(٥) كنز العمال ٣/ ٥٣٧.

(٦) بل رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٧٠ من حديث عبد الله بن عمر.

(٧) المفهم ٥/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

وهذا لا تغليب فيه، بل كلٌّ من مفرديه بُرْد، ولو قيل للرداء والإزار إزاران أو رداءان لكان من باب التغليب.

الرابعة: قال أبو العباس القرطبي: إعجاب الرجل بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منَّة الله، فإن رفعها على الغير واحتقره فهو الكبر المذموم.

الخامسة: في الرواية التي فيها «حتىٰ يوم القيامة» «يوم القيامة» مجرور بـ «حتىٰ»، وهي دالَّة علىٰ انتهاء الغاية بشرط كون المجرور بها آخر جزء أو يلاقي آخر جزء؛ ذكره الزمخشري[١] وطائفة من المغاربة وابن مالك في شرح الكافية[٢]، ولم يشترط ذلك في التسهيل[٣].

السادسة: قال أبو العباس القرطبي: يفيد هذا الحديثُ ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة علىٰ الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة. والله أعلم.

(**وقال ﷺ: مَن جرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**) أغفله العراقي، وقد رواه أحمد والشيخان والأربعة من حديث ابن عمر[٤]. ورواه ابن ماجه[٥] أيضًا من حديث أبي سعيد. ورواه[٦] أيضًا من حديث أبي هريرة، ورواه الطيالسي ومسلم أيضًا بلفظ: «مَن جرَّ إزاره لا يريد بذلك إلا الخيلاء فإن الله لا ينظر إليه»[٧].

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب ص ٢٨٣ - ٢٨٤ (ط - مطبعة التقدم).

(٢) شرح الكافية الشافية ص ٧٩٩ (ط - دار المأمون للتراث).

(٣) شرح التسهيل ٤/ ٥٣ - ٥٦ (ط - دار هجر).

(٤) حديث ابن عمر يأتي تخريجه في الحديث الذي بعده.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ١٩٨.

(٦) السابق ٥/ ١٩٩.

(٧) هذا لفظ حديث ابن عمر، كما سيأتي، ولكن فيه (المخيلة) بدل (الخيلاء).

ويُروَىٰ: «مَن جرَّ ثيابه من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، وبينا رجل يمشي بين بُرْدين مختالاً خسف الله به الأرضَ فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة». هكذا رواه أحمد[1] وأبو يعلىٰ[2] والضياء من حديث أبي سعيد. ويُروَىٰ: «مَن جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه في حلال ولا في حرام». هكذا رواه الطبراني[3] من حديث ابن مسعود.

(**وقال زيد بن أسلم**) أبو[4] عبد الله العدوي، مولىٰ عمر بن الخطاب، مدني، ثقة، عالم، مات سنة ست وثلاثين، روىٰ له الجماعة (**دخلت علىٰ ابن عمر**) يعني به عبد الله (**فمر به عبد الله بن واقد**) بن[5] عبد الله بن عمر بن الخطاب، فهو حفيده ابن ابنه، مدني، مقبول، مات سنة تسع عشرة [ومائة] روىٰ له مسلم وأبو داود وابن ماجه (**وعليه ثوب جديد، فسمعته يقول: أي بني، ارفع إزارك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا ينظر الله إلىٰ مَن جرَّ إزاره خيلاء**) قال العراقي[6]: رواه مسلم مقتصرًا علىٰ المرفوع دون ذِكر مرور عبد الله بن واقد علىٰ ابن عمر، وفي رواية لمسلم أن المارَّ رجل من بني ليث غير مسمًّىٰ. انتهىٰ.

قلت: رواه[7] الشيخان والترمذي من طريق مالك عن نافع وعبد الله بن دينار وزيد بن أسلم كلهم يخبرون عن عبد الله بن عمر بهذا اللفظ، ورواه مسلم والنسائي وعلَّقه البخاري من طريق الليث بن سعد، ورواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أيوب السختياني، وزاد الترمذي والنسائي في روايتهما: فقالت

---

(١) مسند أحمد ١٧/ ٤٤٩ - ٤٥٠، ٤٥٢.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٢٦٩ بالشطر الأول من الحديث، ولفظه: «لا ينظر الله إلىٰ من جر إزاره خيلاء».

(٣) المعجم الكبير ١٠/ ٢٨٤.

(٤) تقريب التهذيب ص ٣٥٠.

(٥) السابق ص ٥٥٥.

(٦) المغني ٢/ ٩٥٢.

(٧) طرح التثريب ٨/ ١٦٩ - ١٧٥.

أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟ فقال: «يرخينَ شبراً». فقالت: إذًا تنكشف أقدامهن. قال: «فيرخينه ذراعًا لا يزدن عليه». وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه من رواية [عبيد الله بن عمر، ومسلم أيضًا من رواية] أسامة بن زيد الليثي وعمر بن محمد العُمَري خمستهم عن نافع، وزادوا فيه «يوم القيامة»، وفي رواية البخاري وأبي داود والنسائي: فقال أبو بكر: إن أحد شقَّي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء». واتفق عليه الشيخان والنسائي من رواية محارب بن دِثار، ومسلم والنسائي من رواية جَبَلَة بن سُحَيم ومسلم بن يَناق، ومسلم أيضًا من رواية زيد بن محمد العُمَري، وعلَّقه البخاري من رواية زيد بن عبد الله وجبلة ابن سحيم أيضًا، وابن ماجه من رواية عطية العوفي، كلهم عن ابن عمر[١].

وفي الحديث فوائد:

الأولىٰ: «الخُيلاء» بضم الخاء، وحُكي كسرها في المحكم[٢] وغيره، والياء مفتوحة ممدودة. قال النووي[٣]: قال العلماء: الخيلاء والمَخِيلة والبطر [والكبر] والزهو والتبختر كلها بمعنىٰ واحد، وهو حرام، ويقال: خالَ الرجلُ خالاً واختال اختيالاً: إذا تكبر، وهو رجل خالٌ: أي متكبر، وصاحب خالٍ: أي صاحب كبر. انتهىٰ. وقال العراقي في شرح الترمذي: وكأنَّه مأخوذ من التخيُّل أي الظن وهو أن يخيَّل له أنه بصفة عظيمة بلباسه لذلك اللباس أو لغير ذلك.

الثانية: يدخل في قوله «برديه» الإزار والرداء والقميص والسراويل والجُبَّة

---

(١) حديث ابن عمر رواه: البخاري في صحيحه ٣/ ١٠، ٤/ ٥٣، ٥٤. ومسلم في صحيحه ٢/ ١٠٠٢- ١٠٠٣. وأبو داود في سننه ٤/ ٤١٥، ٤١٩. والترمذي في سننه ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٦. والنسائي في سننه ص ٨٠١ - ٨٠٢. وابن ماجه في سننه ٥/ ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٣. وأحمد في مسنده ٨/ ٧٣ وفي مواضع أخرىٰ كثيرة. والطيالسي في مسنده ٣/ ٤٥٤.

(٢) المحكم لابن سيده ٥/ ١٥٨.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٤/ ٨٧ - ٨٨.

والقباء وغير ذلك ممَّا يسمَّىٰ ثوبًا، وفي صحيح البخاري عن شعبة: قلت لمحارب: أذكر إزاره؟ قال: ما خصَّ إزارًا ولا قميصًا. وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن[١] عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة، مَن جر شيئًا [منها] خيلاءً لم ينظر الله إليه يوم القيامة». وأما الرواية التي فيها ذِكر الإزار - وهي في الصحيح - فخرجت علىٰ الغالب من لباس العرب وهو الأُزُر، وحكىٰ النووي في شرح مسلم[٢] عن محمد بن جرير الطبري وغيره أن ذِكر الإزار وحده لأنه كان عامة لباسهم، وحكم القميص وغيره حكمه. ثم اعترض ذلك بأنه جاء مبيَّنًا منصوصًا، فذكر رواية سالم عن أبيه المتقدمة. فإن قلتَ: ما المراد بإسبال العمامة؟ هل هو جرُّها علىٰ الأرض كالثوب أو المراد المبالغة في تطويل عذبتها بحيث يخرج عن المعتاد؟ قال العراقي في شرح الترمذي: هو محل نظر، والظاهر أنه إذا لم يكن جرُّها علىٰ الأرض معهودًا مستعمَلاً فالمراد الثاني وأنه في كل شيء بحسبه.

الثالثة: هل يختصُّ ذلك بجرِّ الذيول أو يتعدَّىٰ إلىٰ غيرها كالأكمام إذا خرجت عن المعتاد؟ قال العراقي في شرح الترمذي: لا شك في تناوُل التحريم لِما مس الأرضَ منها للخيلاء، ولو قيل بتحريم ما زاد علىٰ المعتاد لم يكن بعيدًا، فقد كان كم رسول الله ﷺ إلىٰ الرُّسغ[٣]، وكذلك فعل عليٌّ في قميص اشتراه لنفسه، ولكن قد حدث للناس اصطلاح بتطويلها، فإن كان ذلك علىٰ سبيل الخيلاء فهو داخل في النهي، وإن كان علىٰ طريق العوائد المتجددة من غير خيلاء فالظاهر عدم التحريم. وحكىٰ عياض[٤] عن العلماء أنه يُكره كل ما زاد علىٰ الحاجة والمعتاد في اللباس من الطول والسعة.

---

(١) بعده في طرح التثريب: «أو صحيح، كما جزم النووي في شرح مسلم بكل منهما في موضع».

(٢) شرح صحيح مسلم ٢/ ١٥٤.

(٣) بعده في طرح التثريب: «وأراد عمر قص كم عتبة بن فرقد فيما خرج عن الأصابع».

(٤) إكمال المعلم ٦/ ٦٠١.

الرابعة: هذا الوعيد يقتضي أن ذلك كبيرة، وقد تقدم عن القرطبي أنه قال: العجب كبيرة، والكبر عجب وزيادة. وفي سنن أبي داود[١] عن أبي هريرة قال: بينما رجل يصلي مسبلاً إزاره فقال له رسول الله ﷺ: «اذهب فتوضأْ». فذهب فتوضأَ ثم جاء، فقال: «اذهب فتوضأ». فقال له رجل: يا رسول الله، ما لك أمرتَه أن يتوضأ ثم سكتَّ عنه؟ قال: «إنه كان يصلي وهو مسبل إزاره، وإن الله لا يقبل صلاة رجل مسبل». وفي الأوسط[٢] للطبراني من حديث جابر: خرج علينا رسول الله ﷺ ... فذكر حديثًا فيه: «فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، وإنه لا يجدها عاقٌّ، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زانٍ، ولا جارٌّ إزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين».

الخامسة: التقييد بالخيلاء يُخرِج ما إذا جرَّ بغير هذا القصد، ويقتضي أنه لا تحريم فيه. قال النووي في شرح مسلم: ظواهر الأحاديث في تقييدها بالجر خيلاء تدل علىٰ أن التحريم مخصوص بالخيلاء، وهكذا نص الشافعي عليه[٣]، وأما القدر المستحب [فيما ينزل إليه طرف القميص أو الإزار] فنصف الساقين، والجائز بلا كراهة ما تحته إلىٰ الكعبين، وما تحتهما فهو ممنوع، فإن كان للخيلاء فهو ممنوع منع تحريم وإلا فمنعُ تنزيه، وأما الأحاديث المطلقة بأن ما تحت الكعبين في النار فالمراد بها ما كان للخيلاء؛ لأنه مطلَق، فوجب حملُه علىٰ المقيَّد.

السادسة: يُستثنَىٰ من جرِّه [خيلاء] ما إذا كان ذلك حالة القتال فيجوز، كما ورد ذلك في الخبر؛ لأن فيه إعزاز الإسلام وظهوره واحتقار عدوه وغيظه، بخلاف ما فيه احتقار المسلمين وغيظهم والاستعلاء عليهم، والظاهر أيضًا جوازه بلا كراهة دفعًا لضرر يحصل له كأن يكون تحت كعبه جراح أو حكَّة أو نحو ذلك إن لم يغطِّها

---

(١) سنن أبي داود ١/ ٤٤٧، ٤/ ٤١٥.

(٢) المعجم الأوسط ٦/ ١٨.

(٣) في طرح التثريب وشرح النووي: علىٰ الفرق. قال النووي: «وأجمع العلماء علىٰ جواز الإسبال للنساء، وقد صح عن النبي ﷺ الإذن لهن في إرخاء ذيولهن ذراعا».

تؤذه الهوامُّ كالذباب ونحوه بالجلوس عليها ولا يجد ما يسترها به إلا إزاره أو رداءه أو قميصه، فقد أذنَ ﷺ للزبير وابن عوف في لبس قميص الحرير من حكَّة كانت بهما، ولكعب في حلق رأسه وهو محرم لمَّا آذاه القمل، مع تحريم لبس الحرير لغير عارض، وتحريم حلق الرأس للمحرم، وهذا كما يجوز كشفُ العورة للتداوي، وغير ذلك من الأسباب المبيحة للرخص. ذكره العراقي في شرح الترمذي.

السابعة: إن قلتَ: في الصحيح من حديث ابن مسعود: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس». فالجارُّ لثوبه فوق الكعبين مُظهِرًا للتجمُّل بذلك معجَبًا بحُسن ملبسه ونضارة رونقه لم يتكبر عن قبول الحق ولم يحتقر أحدًا، فكيف جُعل كبره مذمومًا؟ قلت: الذم إنما ورد فيمن فعل ذلك كبرًا بأن فعله غير قابل للنصيحة النبوية، ولا مكترثًا بالتأديب الإلهي، أو محتقرًا لمَن ليس على صفته التي رآها حسنة بهجة، فإن لم يوجد واحد من الأمرين وإنما أعجبه رونقُه غافلاً عن نعمة الله تعالى فهو العجب، على ما تقدم بيانه، فإن استحضر مع استحسانه لهيئته وإعجابه بملبوسه نعمةَ الله عليه بذلك وخضع لها فليس هذا كبرًا ولا إعجابًا، ولم يَرِدْ في الحديث ذمُّه. والله أعلم.

(ورُوي أن رسول الله ﷺ بزق يومًا على كفِّه ووضع إصبعه عليه وقال: يقول الله تعالى: ابن آدم، أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه) يعني النطفة **(حتى إذا سوَّيتك وعدَّلتك مشيتَ بين بُرْدين)** أي معجَبًا بنفسك **(وللأرض منك وئيد)** أي وطء ثقيل، ومنه قول الزَّبَّاء:

ما للجِمال مشيها وئيدا ... أجندلاً يحملن أم حديدا[1]

---

(١) البيت في الصحاح للجوهري ٤/ ١٣٨٥، وجمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٧٤١، ٣/ ١٢٣٧، والمحكم لابن سيده ٨/ ٢٠٢. وبعده:

أم صرفانا باردا شديدا ... أم الرجال جثما قعودا

(جمعتَ) الأموال (ومنعت) الحقوق (حتىٰ إذا بلغت) الروح (التَّراقي) جمع ترقوة وهي عظام العنق (قلتَ: **أتصدَّق، وأنَّىٰ أوان الصدقة**) قال العراقي[١]: رواه ابن ماجه[٢] والحاكم[٣] وصحَّح إسناده من حديث بُسْر بن جَحَّاش. انتهىٰ.

قلت: ورواه أيضًا أحمد[٤] وابن سعد[٥] وابن أبي عاصم[٦] والباوَرْدي وابن قانع[٧] وسمويه والطبراني[٨] والبيهقي[٩] وأبو نعيم[١٠] والضياء، ولفظهم جميعًا: «يقول الله: يا ابن آدم، أنَّىٰ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا ...» والباقي سواء. وبُسر بضم فسين مهملة، وأهل الشام يقولون: بِشر، وهو صحابي عبدري قرشي[١١]. وإسناد أحمد وابن ماجه صحيح.

(وقال ﷺ: **إذا مشت أمَّتي المُطَيْطاء**) بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة تحتية مصغَّرًا، يُمَد ويُقصَر، أي تبختروا في مشيتهم عجبًا واستكبارًا (**وخدمتهم فارس والروم**) أي فتحت بلادهم فأسرت منها الذكور والإناث

= وانظر قصة هذا الشعر في: الأغاني للأصفهاني ١٥/ ٢١٦، وتاريخ الرسل والملوك للطبري ١/ ٦٢٥، والمنتظم لابن الجوزي ٢/ ٦٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٣١٩.

(١) المغني ٢/ ٩٥٢.

(٢) سنن ابن ماجه ٤/ ٢٧٣.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٩٠ - ٥٩١، ٤/ ٤٦٧.

(٤) مسند أحمد ٢٩/ ٣٨٥ - ٣٨٧.

(٥) الطبقات الكبرىٰ ٩/ ٤٣٠.

(٦) الآحاد والمثاني ٢/ ١٤٩.

(٧) معجم الصحابة ١/ ٧٦.

(٨) المعجم الكبير ٢/ ٣٢.

(٩) شعب الإيمان ٥/ ١٣٧.

(١٠) معرفة الصحابة ١/ ٤١٢.

(١١) وذكر ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٤٤ - ٢٤٥ أنه نزل حمص ومات بها، وأنه لم يرو عنه غير جبير بن نفير.

(سلَّط الله بعضهم علىٰ بعض) قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] وابن حبان في صحيحه[٣] من حديث ابن عمر. انتهىٰ.

قلت: سياق المصنف رواه الطبراني[٤] من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن. وأما لفظ الترمذي: «إذا مشت أمَّتي المُطَيطاء وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلَّط الله شِرارها علىٰ خيارها». وقال: غريب. وفيه زيد بن الحُباب وموسىٰ بن عبيدة، وقد ضُعِّفا. وهذا من دلائل نبوَّته ﷺ، فإنهم لما فتحوا بلاد فارس والروم وأخذوا مالهم واستخدموا أولادهم سُلِّط عليهم قتلة عثمان فقتلوا عثمان، ثم سُلِّط بنو أميَّة علىٰ بني هاشم ففعلوا ما فعلوا. قال الميداني والعسكري: لم تعرف الجاهلية اللواط قبل الإسلام، وإنما حدث في صدره حين كثر الغزو وطالت غيبتهم عن نسائهم وسبوا أبناء فارس والروم واستخدموهم وطالت خلوتهم بهم فرأوهم يجزئون عن النساء في الجملة ففعلوه.

(قال ابن الأعرابي) أحد أئمة اللغة[٥]: **(هي)** أي المطيطاء **(مشية فيها اختيال)** هكذا رواه عنه غير واحد من الأئمة. وقال الزمخشري[٦]: ممدودة ومقصورة بمعنىٰ التمطِّي وهو التبختر ومدُّ اليدين، وأصل التمطِّي التمطُّط، تفعُّلٌ من المط وهو المد، وهي من المصغَّرات التي لم يُستعمَل لها مكبَّر ككُمَيت. انتهىٰ. وقال عياض[٧]: هي مشية فيها تبختر ومدُّ يدين، من مطَّه: إذا مدَّه، وكذا التمطِّي، وهي من المصغَّرات، ولم يُستعمَل لها مكبَّر كالمُرَيطاء.

---

(١) المغني ٢/ ٩٥٢ - ٩٥٣.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ١١٠.

(٣) بل رواه في كتاب المجروحين من المحدثين ٢/ ٢٤٣.

(٤) المعجم الأوسط ١/ ٤٨، ٤/ ٥٣.

(٥) انظر ترجمته في: مقدمة تهذيب اللغة للأزهري ١/ ٢٠، ٢١، إنباه الرواه للقفطي ٣/ ١٢٨، ١٣٧.

(٦) الفائق في غريب الحديث ٣/ ٣٧١.

(٧) هذا ليس كلام عياض، وإنما كلام البيضاوي في تحفة الأبرار ٣/ ٣١١.

(وقال ﷺ: مَن تعظَّم في نفسه) أي[١] تكبر وتجبر **(واختال في مشيته)** أي تبختر وأُعجب بنفسه **(لقي اللهَ وهو عليه غضبان)** فإن شاء عذَّبه، وإن شاء عفا عنه.

قال العراقي[٢]: رواه أحمد[٣] والطبراني[٤] والحاكم[٥] وصحَّحه والبيهقي في الشعب[٦] من حديث ابن عمر. انتهىٰ.

قلت: وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد[٧]. قال الهيثمي[٨]: رجاله رجال الصحيح. وقال المنذري[٩]: رُواته محتجٌّ بهم في الصحيح.

(الآثـار:

عن أبي بكر) سُلْمَىٰ[١٠] بن عبد الله بن سلمىٰ **(الهُذَلي)** البصري، وهو ابن بنت حميد بن عبد الرحمن الحِمْيَري، روىٰ عن قتادة بن دِعامة، وعنه إسماعيل ابن عيَّاش. قال الحافظ في التهذيب: أخباري متروك الحديث، مات سنة سبع وستين [ومائة] روىٰ له ابن ماجه **(قال: بينما نحن مع الحسن)** يعني البصري **(إذ مر علينا ابن الأهتم)** إذا أُطلِق يُصرَف إلىٰ عمرو[١١] بن الأهتم بن سُمَيٍّ بن خالد بن مِنقر بن عبيد بن مُقاعِس التميمي المِنقري، كان خطيبًا، جميلاً، بليغًا،

---

(١) فيض القدير ٦/ ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٣.

(٣) مسند أحمد ١٠/ ٢٠٠.

(٤) المعجم الكبير ١٣/ ٦٥.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٨.

(٦) شعب الإيمان ١٠/ ٤٧١.

(٧) الأدب المفرد ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٨) مجمع الزوائد ١/ ٢٨٣.

(٩) الترغيب والترهيب ص ١٠٧٤.

(١٠) تهذيب الكمال ٣٣/ ١٥٩ - ١٦١. تقريب التهذيب ص ١١٢٠.

(١١) الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٨٦ - ٨٧.

شاعرًا، شريفًا في قومه، له صحبة، وهو الذي يخاطب الزبرقان بن بدر بقوله:

طلبتَ مفترش الهَلْباء تشتمني عند النبي فلم تصدُق ولم تُصِبِ[1]

ولكن يبعُد خطابُ الحسن البصري الآتي ذِكره وهو أصغر سنًّا وقدرًا مع مثله، وهو صحابي أكبر منه سنًّا وقدرًا، فالظاهر أن المراد به أحد بني إخوته: إما شيبة بن سعد بن الأهتم، وإما المؤمل بن خاقان بن الأهتم، وإما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم، وكلهم من البلغاء المشهورين، فليحرَّر ذلك (**يريد المقصورة**) وهو الموضع الذي جُعل شِبه القصر على يمين المحراب، أحدثها بنو أمية (**وعليه جِباب خز قد نُضِّض بعضها فوق بعض على ساقه**) أي رتَّبها واحدًا فوق واحد (**فانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر**) أي يميل يمينًا وشمالاً (**إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه**) وهو كناية عن التكبر، يقال: شمخ بأنفه: إذا تكبر (**ثاني عِطفه، مصعِّر خده**) يقال: صعَّر خدَّه بالتشديد وصاعَره: أماله عن الناس إعراضًا وتكبرًا (**ينظر في عِطْفَيْه**) أي جانبيه، والجمع: أعطاف (**أي حُمَيِّق**) أي: يا أحمق، وهو مصغَّر «أحمق»، بتشديد التحتية المكسورة (**أنت تنظر في عطفيك في نِعم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدِّي حق الله منها، واللهِ إن يمشي أحدكم طبيعته يتخلَّج تخلُّج المجنون**) أي يضطرب اضطرابه (**في كل عضو من أعضائه لله نعمة وللشيطان فيه لعقة. فسمع ابن الأهتم**) هذا الكلام (**فرجع يعتذر إليه، فقال**) الحسن: (**لا تعتذر إليَّ، وتُبْ إلى ربك، أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾**)[2] [الإسراء: ٣٧] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**ومر بالحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**شابٌّ عليه بِزَّة حسنة**) البِزَّة بالكسر: الهيئة (**فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه، محب لشمائله، كأنَّ القبر**

---

(١) البيت في كتاب شعر الزبرقان وعمرو بن الأهتم ص ٨١.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ٢١٥.

قد وارَىٰ بدنَك، وكأنَّك قد لاقيتَ عملك، ويحك! داوِ قلبَك، فإن حاجة الله إلىٰ العِباد صلاح قلوبهم) أخرجه أبو نعيم في الحلية[١].

(ورُوي أن عمر بن عبد العزيز) بن عبد الملك بن مروان الأموي رحمه الله تعالىٰ **(حج قبل أن يُستخلَف)** وذلك في زمن ابن عمه سليمان بن عبد الملك **(فنظر إليه طاووس)** اليماني رحمه الله تعالىٰ **(وهو يختال في مشيته، فغمز جنبه بإصبعه ثم قال: ليست هذه مشية مَن في بطنه خرء)** وفي بعض النسخ: مَن في قلبه خير **(فقال عمر كالمعتذر)** له: **(يا عم، لقد ضُرب كل عضو مني علىٰ هذه المشية حتىٰ تعلَّمتُها)**[٢] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(ورأىٰ محمد بن واسع) البصري رحمه الله تعالىٰ **(ولده يختال، فدعاه فقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتُها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في الإسلام)** وفي نسخة: في المسلمين **(مثله)** قال أبو نعيم في الحلية[٣]: حدثنا أحمد ابن محمد بن سنان، حدثنا أبو العباس السَّرَّاج، حدثنا العباس بن أبي طالب، حدثنا عبد الله بن عيسىٰ الطفاوي، حدثنا محمد بن عبد الله الزَّرَّاد أبو يحيىٰ قال: نظر محمد بن واسع إلىٰ ابن له يخطر بيده فقال له: [تعالَ] ويحك! أتدري ابن مَن أنت؟ أمك اشتريتها بمائتي درهم، وأبوك فلا كثَّر اللهُ في المسلمين ضربه أو نحوه. وأخرج أيضًا من طريق الأصمعي قال: آذىٰ ابنٌ لمحمد بن واسع رجلاً، فقال له محمد: أتؤذيه وأنا أبوك؟! وإنما اشتريت أمَّك بمائة درهم.

(ورأىٰ ابن عمر) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(رجلاً يجر إزاره)** أي اختيالاً **(فقال: إن للشيطان إخوانًا. كرَّرها مرتين أو ثلاثًا)** وإنما قيَّدناه بكونه اختيالاً لأن مَن جرَّه من غير هذا القصد فإنه لا يحرُم عليه، كما تقدمت الإشارة إليه، وبوَّب البخاري في صحيحه[٤]

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٥٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ٢١٧.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٠.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٥٣.

باب مَن جر إزاره من غير خيلاء. وأورد فيه حديث أبي بكر لما قال: يا رسول الله، إن أحد شِقَّي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال له النبي ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء». وحديث أبي بكرة: خسفت الشمس ونحن عند النبي ﷺ، فقام يجر ثوبه مستعجلاً حتىٰ أتىٰ المسجدَ ... الحديث.

(ويُروَىٰ أن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير) الحرشي البصري التابعي العابد الثقة (رأىٰ المهلَّب) بن أبي صُفرة ظالم بن سراق الأزدي العَتَكي (وهو يتبختر في جُبَّة خز، فقال: يا عبد الله) سمَّاه بأعم أسمائه؛ إذ كل الناس عبيد الله عَزَّوَجَلَّ (هذه مشية يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله. فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلىٰ، أعرفك، أوَّلك نطفة مَذِرة) أي متغيِّرة (وآخرك جيفة قذرة) أي نتنة (وأنت بين ذلك تحمل العَذِرة) بفتح العين المهملة وكسر الذال المعجمة: الخرء، ولا يُعرَف تخفيفها (فمضىٰ المهلب وترك مشيته تلك) هكذا في نسخ الكتاب من رواية مطرف بن عبد الله، وأخرجه أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمة مالك بن دينار فقال: حدثنا الحسن بن علي بن الخطاب الورَّاق، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا إبراهيم بن العباس الكاتب، حدثنا الأصمعي [عن أبيه] قال: مر المهلَّب بن أبي صفرة علىٰ مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: أما علمتَ أن هذه المشية تُكرَه إلا بين الصفَّين؟ فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال مالك: أعرفك أحسن المعرفة. فقال: وما يعرفك مني؟ قال: أما أوَّلك فنُطفة مَذِرة، وأما آخرك فجيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل العَذِرة. قال: فقال المهلب: الآن عرفتني حق المعرفة. وأخرج من طريق سلام بن مسكين عن مالك بن دينار أنه لقي بلالَ بن أبي بُردة [في الطريق] والناس يطوفون حوله، فقال له: أما تعرفني؟ قال: بلىٰ أعرفك، أولك نطفة، وأوسطك جيفة، وأسفلك دودة. قال: فهموا به أن يضربوه، فقال لهم: هذا مالك بن دينار. فتركه ومضىٰ.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٤.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالىٰ **(في قوله تعالىٰ:** ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [القيامة: ٣٣] **أي يتبختر**[1]**)** أصله: يتمطَّط، وهو تفعُّلٌ من المط وهو المد، وأصله أن يمد يديه في حالة المشي.

(**وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر**) الآن (**فضيلة التواضع**) وما فيه من الأخبار والآثار. والله الموفِّق.

---

(١) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ٢٥٧. وأورده السيوطي في الدر المنثور ١٥/ ١٣٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر في تفسيريهما. ورواه الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٥٢٣ من طريق إسماعيل بن أمية أن مجاهدا رأىٰ رجلا من قريش يمشي، فقال: هكذا كان يمشي كما يمشي هذا، كان يتبختر.

بيان فضيلة التواضع [١]

وهو تفاعُلٌ من الوضع بمعنىٰ الخشوع والذل، والفرق بين التواضع والضعة أن التواضع: رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته، والضعة: وضعُ الإنسان نفسه بمحل يزري به. والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يُعتبَر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح. قاله الراغب[٢].

وقال[٣] ابن القيم: الفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولَّد من بين العلم بالله وصفاته ومحبته وإجلاله ومن معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها، فيتولَّد من ذلك خُلقٌ هو التواضع وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، والمهانة: الدناءة والخسَّة وابتذال النفس في نيل حظوظها كتواضع الفاعل للمفعول به.

(قال رسول الله ﷺ: ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله) قال العراقي[٤]: رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم[٥].

(وقال ﷺ: ما من أحد) «ما» نافية، و«من» زائدة، وهي هنا تفيد عمومَ النفي وتحسينَ دخول «ما» علىٰ النكرة **(إلا ومعه ملَكان)** موكَّلان به **(وعليه حَكَمة)**

---

(١) أكثر الغزالي في هذا الموضع من النقل عن كتاب التواضع والخمول لابن أبي الدنيا.

(٢) الذريعة ص ٢١٣.

(٣) الروح ص٦٥٧، ٦٥٨ (ط عالم الفوائد)، وفيض القدير ٤/ ٢٧٧.

(٤) المغني ٢/ ٩٥٣.

(٥) في كتاب آداب الصحبة.

محرَّكة، وهي[١] نحو لجام الدابة، سُمِّيت بذلك لأنها تذلِّلها لراكبها حتىٰ تمنعها الجِماحَ ونحوَه، ومنه اشتقاق الحِكْمة بالكسر؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل (**يمسكانه بها، فإن هو رفع نفسه**) علىٰ غيره واستعلىٰ (**جبذاها ثم قالا: اللهم ضَعْه**) وهو كناية عن إذلاله (**وإن وضع نفسه**) للحق والخلق (**قالا: اللهم ارفعْه**) وهو كناية عن إعزازه ورفع قدره.

قال العراقي[٢]: رواه العقيلي في الضعفاء[٣] والبيهقي في الشعب[٤] من حديث أبي هريرة، والبيهقي أيضًا من حديث ابن عباس، وكلاهما ضعيف.

قلت: حديث ابن عباس رواه الطبراني في الكبير[٥]، وحديث أبي هريرة رواه البزار[٦]، قال المنذري[٧] والهيثمي[٨]: إسنادهما حسن، وتبعهما السيوطيُّ فرمز لحسنه، ولفظهما: «ما من آدمي إلا وفي رأسه حَكَمة بيد ملَك، فإذا تواضع قيل للملَك: ارفعْ حَكَمته. وإذا تكبر قيل للملَك: ضعْ حَكَمته». لكن قال ابن الجوزي[٩]: حديث لا يصح.

وروىٰ الخرائطي في مساوئ الأخلاق[١٠] والحسن بن سفيان في مسنده وابن

---

(١) المصباح المنير ص ١٤٥.
(٢) المغني ٢/ ٩٥٣.
(٣) الضعفاء الكبير ٤/ ١٣٨١.
(٤) شعب الإيمان ١٠/ ٤٥٧.
(٥) المعجم الكبير ١٢/ ٢١٩.
(٦) مسند البزار ١٤/ ٢٦٠.
(٧) الترغيب والترهيب ص ١٠٦٨.
(٨) مجمع الزوائد ٨/ ١٥٧ - ١٥٨.
(٩) العلل المتناهية ٢/ ٨١١.
(١٠) مساوئ الأخلاق ص ٢٥٩.

لال في مكارم الأخلاق والديلمي[١] من حديث ابن عباس: «ما من آدمي إلا وفي رأسه سلسلتان: سلسلة في السماء السابعة، وسلسلة في الأرض السابعة، فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة إلىٰ السماء السابعة، وإذا تجبَّر وضعه الله بالسلسلة إلىٰ الأرض السابعة». وقد رُوي ذلك من حديث أنس عند ابن صَصْرَىٰ في أماليه بلفظ: «ما من آدمي إلا وفي رأسه حَكَمة بيد ملَك، فإذا تواضع رفعه الله، وإن ارتفع قمعه الله، والكبرياء رداء الله، فمَن نازع اللهَ قمعه». وعند أبي نعيم في الحلية والديلمي[٢] بلفظ: «ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك، فإن تواضع رفعه الله بها وقال: ارتفعْ رفعك الله، وإن رفع نفسه جذبه إلىٰ الأرض وقال: انخفضْ خفضك الله».

(وقال ﷺ: **طوبىٰ لمَن تواضع في غير مسكنة**) بأن[٣] لا يضع نفسه بمكان يزري به ويؤدي إلىٰ تضييع حق الحق أو الخلق، فالقصد بالتواضع خفضُ الجناح للمؤمنين، مع بقاء عزة الدين (**وأنفق مالاً جمعه في غير معصية**) أي صرفه في وجوه الطاعات (**ورحم أهل الذل والمسكنة**) أي رقَّ لهم وواساهم بمقدوره (**وخالط أهلَ الفقه والحكمة**) رواه البخاري في التاريخ والبغوي في معجم الصحابة والباوَرْدي وابن قانع والطبراني وتمام والبيهقي وابن عساكر من رواية نصيح العنسي عن رَكْب المصري - وله صحبة - مرفوعًا بلفظ: «طوبىٰ لمَن تواضع في غير مَنقصة، وذلَّ نفسه في غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه في غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، ورحم أهل الذل والمسكنة، طوبىٰ لمَن ذلَّ نفسه، وطاب كسبُه، وحسنت سريرتُه [وكرمت علانيتُه] وعزل عن الناس شرَّه، طوبىٰ لمَن عملَ بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله». وروىٰ بعضَ ذلك البزارُ من حديث أنس. وقد تقدم بعضه في كتاب العلم، وبعضه في آفات اللسان، وذكرنا هنالك الكلام علىٰ راويه ومرتبة الحديث.

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٣٨ - ٣٩.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٣٨.

(٣) فيض القدير ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقُباء) وهو علىٰ ميلين من المدينة من جهة الجنوب **(وكان صائمًا، فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئًا من عسل، فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال: ما هذا؟ قلنا: يا رسول الله، جعلنا فيه شيئًا من عسل. فوضعه)** من يده علىٰ الأرض **(وقال: أما إني لا أحرِّمه، ومَن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّر وضعه الله، ومن اقتصد)** أي توسَّط في معيشته **(أغناه الله، ومن بذَّر)** أي فرَّق ماله في غير موضعه **(أفقره الله، ومن أكثر ذِكر الله أحبه الله)** قال العراقي[1]: رواه البزار[2] من رواية طلحة [بن يحيىٰ بن طلحة] بن عبيد الله عن [أبيه عن] جده طلحة، فذكر نحوه دون قوله «ومَن أكثر ذِكر الله أحبه الله»، ولم يقل: بقباء. وقال الذهبي في الميزان[3]: إنه خبر منكر. وقد تقدم[4]. ورواه الطبراني في الأوسط[5] من حديث عائشة قالت: أُتِيَ رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل ... الحديث، وفيه: «أما إني لا أزعم أنه حرام ...» الحديث، وفيه: «ومَن أكثر ذِكر الموت أحبه الله». وروىٰ المرفوع منه أحمد وأبو يعلىٰ من حديث أبي سعيد دون قوله «ومَن بذَّر أفقره الله»، وذكرا فيه قوله: «ومَن أكثر ذِكر الله أحبه الله»[6]، وتقدم في ذم الدنيا[7].

قلت: هو في نوادر الأصول[8] للحكيم الترمذي من طريق محمد بن علي أن

---

(١) المغني ٢/ ٩٥٤.

(٢) مسند البزار ٣/ ١٦١.

(٣) ميزان الاعتدال ٣/ ٢٤٤.

(٤) في كتاب أخلاق النبوة، وفي كتاب ذم البخل وحب المال.

(٥) المعجم الأوسط ٥/ ١٤٠.

(٦) لم أقف عليه عندهما بهذا اللفظ، وإنما رواه أحمد ١٨/ ١٩٥، ٢١٢ وأبو يعلىٰ ٢/ ٥٢١ عنه بلفظ: «أكثروا ذكر الله حتىٰ يقولوا مجنون».

(٧) بل في كتاب ذم البخل وحب المال.

(٨) نوادر الأصول ص ١٢٧٧.

رسول الله ﷺ أتاه أوس بن خولي بقدح فيه لبن وعسل، فوضعه وقال: «أما إني لا أحرِّمه، ولكن أتركه تواضعًا لله، فإنَّ مَن تواضع لله رفعه الله، ومن اقتصد أغناه الله، ومن بذَّر أفقره الله».

وروى ابن منده في معجم الصحابة وأبو نعيم[١] من حديث أوس بن خولي: «مَن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّر وضعه الله». وقال البغوي[٢]: لا أعلم لأوس ابن خولي حديثًا مسندًا. قال الحافظ[٣]: بل له حديث مسند أورده ابن منده من طريق هند بن أبي هالة عن أوس بن خولي أن النبي ﷺ قال له: «مَن تواضع لله رفعه الله». وفي إسناده خارجة بن مصعب، وهو ضعيف، وفيه مَن لا يُعرَف أيضًا.

وروى أبو نعيم في الحلية[٤] من حديث أبي هريرة: «من تواضع لله رفعه الله». وزاد ابن النجار: «ومن اقتصد أغناه الله، ومن ذكر الله أحبه الله».

وروى ابن شاهين في الترغيب في الذكر من حديثه[٥] بسند رجاله ثقات[٦]: «مَن أكثر ذِكر الله أحبه الله».

(ورُوي أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون، فقام سائل على الباب وبه زَمانة) وهو مرض يدوم زمانًا طويلاً **(يُتكرَّه منها)** وفي نسخة: منكرة **(فأذنَ له، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه، ثم قال: اطعَمْ)** أي كلْ **(وكأنَّ رجلاً**

---

(١) معرفة الصحابة ١/ ٣٠٢.

(٢) معجم الصحابة ١/ ٨١.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ١٣٤ - ١٣٥.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٤٦.

(٥) تقدم في كتاب ذم البخل أن ابن شاهين رواه في الترغيب في فضائل الأعمال ص ٥٧ من حديث عائشة.

(٦) بل موضوع، فنعيم بن مورع منكر الحديث، والنقاش يروي الموضوعات، وهو نفسه متهم، ورمز له السيوطي في الجامع بالضعف.

من قريش اشمأزَّ منه وتكرَّهه، فما مات ذلك الرجل حتىٰ كانت به زمانة مثلها)[١] قال العراقي[٢]: لم أجد له أصلاً، والموجود [حديث] أكله مع مجذوم، رواه أبو داود[٣] والترمذي[٤] وابن ماجه[٥] من حديث جابر، وقال الترمذي: غريب. ا.هـ.

وما[٦] رُوي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه قال: «لا عدوىٰ، ولا طِيرة، ولا هامة، ولا صفر، واتقوا المجذوم كما يُتقَىٰ الأسد». فالمعنىٰ الفرار منه خوفًا من العدوىٰ، لا كما يتوهَّمه العامة، ثم إن هذا في حق ضعيف اليقين، وإلا فقد ورد: «لا يعدي شيءٌ شيئًا» و«لا عدوىٰ»، ونحو ذلك، كما قُرِّر في محالِّه.

ويؤيد الجملة الأخيرة من الحديث ما رواه البيهقي عن يحيىٰ بن جابر قال: ما عاب رجل قط رجلاً بعيب إلا ابتلاه الله بذلك العيب. وعن إبراهيم النخعي قال: إني لأرىٰ الشيء فأكرهه فلا يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن أُبتلَىٰ بمثله. ويُروَىٰ عن ابن مسعود قال: لو سخرتُ من كلب لخشيتُ أن أحوَّل كلبًا. وقال عمرو بن شرحبيل: لو رأيتُ رجلاً يرضع عنزًا فضحكتُ منه لخشيت أن أصنع مثل ما صنع[٧]. إلىٰ غير ذلك مما تقدم بعضه.

(وقال ﷺ: خيَّرني ربِّي بين أمرين: أن أكون عبدًا رسولاً أو ملكًا نبيًّا، فلم أدرِ أيهما أختار، وكان صفيِّي من الملائكة جبريل) عليه السلام والصَّفِيُّ كغني: هو من

---

(١) ابن أبي الدنيا في التواضع (٨٢) عن إبراهيم مرسلا.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٤.

(٣) سنن أبي داود ٤/ ٣٤٨.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٤٠٤.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ١٨١.

ولفظ الحديث: أخذ رسول الله ﷺ بيد رجل مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: «كل، ثقة بالله وتوكلا علىٰ الله».

(٦) المقاصد الحسنة ص ١٨.

(٧) تقدمت هذه الآثار كلها في كتاب آفات اللسان [الآفة الحادية عشر: السخرية والاستهزاء].

يصطفيه الإنسان لنفسه بالصحبة والمحبة ويختاره (**فرفعت رأسي**) كالمستشير (**إليه، فقال: تواضعْ لربِّك. فقلت: عبدًا رسولاً**) قال العراقي[(١)]: رواه أبو يعلىٰ[(٢)] من حديث عائشة، والطبراني[(٣)] من حديث ابن عباس، وكِلا الحديثين ضعيف.

قلت: ورواه هناد في الزهد[(٤)] من مرسل الشعبي بلفظ: «خيَّرني ربي بين أن أكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا، فلم أدرِ ما أقول، وكان صفيِّي من الملائكة جبريل، فنظرت إليه، فقال بيده أنْ تواضعْ، فقلت: نبيًّا عبدًا».

(**وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ** عليه السلام): يا موسىٰ (**إنما أقبل صلاة مَن تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم علىٰ خلقي، وألزم قلبَه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي**)[(٥)] رواه الديلمي[(٦)] من حديث حارثة بن وهب رفعه: «قال الله عز وجل: ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبَّل الصلاة ممَّن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصرَّ علىٰ معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوىٰ الغريب، كل ذلك لي».

وروىٰ الدارقطني في الأفراد من حديث علي: «يقول الله تعالىٰ: إنما أتقبَّل الصلاة ممَّن تواضع لعظمتي، ولم يتكبَّر علىٰ خلقي، وقطع نهاره بذكري، ولم يَبِتْ مصرًّا علىٰ خطيئته، يطعم الجائعَ، ويؤوي الغريب، ويرحم الصغير، ويوقِّر الكبير، فذلك الذي يسألني فأعطيه ...» الحديث، وقد تقدم[(٧)].

---

(١) المغني ٢/ ٩٥٤.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ٨/ ٣١٨.

(٣) المعجم الكبير ١٠/ ٣٥٠، ١١/ ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٤) الزهد ٢/ ٤١٠.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤١ عن إسماعيل بن أمية.

(٦) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١٧٩.

(٧) في الباب الأول من كتاب الصلاة.

(**وقال ﷺ: الكرم التقوىٰ، والشرف التواضع**) أي[1] إن الناس متساوون، وأن أحسابهم إنما هي بأفعالهم لا بأنسابهم (**واليقين الغِنىٰ**) فإن العبد إذا تيقَّن أن له رزقًا قُدِّر له لا يتخطَّاه عرف أن طلبه لِما لم يقدَّر له عناء لا يفيد سوىٰ الحرص والطمع المذمومينِ، فقنع برزقه وشكر عليه.

قال العراقي[2]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين[3] مرسلاً، وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة، وقال: صحيح الإسناد.

قلت: رواه ابن أبي الدنيا في الكتاب المذكور من مرسل يحيىٰ بن أبي كثير. ورواه العسكري في الأمثال[4] من قول عمر بلفظ: الكرم التقوىٰ، والحسب المال، لست بخير من فارسي ولا نَبَطي إلا بتقوىٰ الله. ويُروَىٰ: «الحسب المال، والكرم التقوىٰ». هكذا رواه أحمد[5] وعبد بن حميد في تفسيره والترمذي[6] - وقال: حسن صحيح غريب - وابن ماجه[7] والطبراني[8] والحاكم[9] والبيهقي[10] والضياء من حديث سمرة، وهذا هو الذي أشار إليه العراقي. ورواه القضاعي[11]

---

(١) فيض القدير ٥/ ٦٤.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٥.

(٣) اليقين ص ٢٨.

(٤) ورواه أيضا البيهقي في السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٨٧، وفيه (عجمي) بدل (نبطي).

(٥) مسند أحمد ٣٣/ ٢٩٤.

(٦) سنن الترمذي ٥/ ٣١٠.

(٧) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢١.

(٨) المعجم الكبير ٧/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٩٤، ٤/ ٤٧٠.

(١٠) السنن الكبرىٰ ٧/ ٢١٩.

(١١) مسند الشهاب ١/ ٤٦.

من حديث بريدة. ورواه العسكري في الأمثال والطبراني[١] وأبو نعيم في الحلية[٢] من حديث أبي هريرة. ورواه الطبراني وابن جرير وصحَّحه والخطيب من حديث علي. ورواه الطبراني من حديث جابر.

(**وقال عيسىٰ عليه السلام: طوبىٰ للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبىٰ للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبىٰ للمطهَّرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلىٰ الله يوم القيامة**)[٣] أخرجه أحمد في الزهد من طريق خيثمة.

(**وقال بعضهم: بلغني أن النبي ﷺ قال: إذا هدىٰ الله عبدًا للإسلام وحسَّن صورتَه**) أي في ظاهر ما يُرَىٰ (**وجعله في موضع غير شائن له**) من الشَّين وهو العيب، أي لا يكون في نسبه دخلة (**ورزقه مع ذلك تواضعًا فذلك من صفوة الله**) أي ممن اصطفاه الله واختاره. قال العراقي[٤]: رواه الطبراني[٥] موقوفًا علىٰ ابن مسعود نحوه، وفيه المسعودي، مختلَف فيه.

قلت: وروىٰ ابن النجار من حديث أنس: «مَن حسَّن الله خُلُقه وحسَّن خَلْقه ورزقه الإسلام أدخله الجنة».

---

(١) المعجم الأوسط ٧/ ٥ بلفظ: «كرم المرء تقواه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه». ورواه بلفظ (الحسب المال والكرم التقوىٰ) الدارقطني في سننه ٤/ ٤٦٣، والبزار في مسنده ١٥/ ١٠١.

(٢) رواه ٦/ ١٩٠ من حديث سمرة، وليس من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٥٤ عن سعد الطائي الكوفي. وروىٰ أبو داود في الزهد ص ٣٢ عن يزيد بن أبي سعيد القيسي قال: حدثنا رجل في مجلس مكحول قال: مكتوب في الإنجيل: طوبىٰ للمتراحمين فيّ أولئك المرحومون يوم القيامة، طوبىٰ للمتواضعين فيّ أولئك المرفوعون لمنابر الملك يوم القيامة، طوبىٰ للمطهرة قلوبهم ....

(٤) المغني ٢/ ٩٥٥.

(٥) المعجم الكبير ٩/ ٢٠٢ بلفظ: «من كانت له صورة حسنة وكان في موضع لا يشينه ووسع عليه من الرزق ثم تواضع كان من خالص الله».

(**وقال ﷺ: أربع**) خصال (**لا يعطيهنَّ الله إلا من يحب**) وفي نسخة: مَن أحب (**الصمت**) أي[1] السكوت عمَّا لا ينبغي أو ما لا يعني المتكلمَ (**وهو أول العبادة**) أي مبناها وأساسها؛ لأن اللسان هو الذي يكبُّ الناس علىٰ مناخرهم [في النار] (**والتوكل علىٰ الله، والتواضع**) أي لِين الجانب للخلق علىٰ [اختلاف] طبقاتهم [وطبائعهم] ورؤية الإنسان نفسه حقيرًا صغيرًا (**والزهد في الدنيا**) أي القلة فيها.

قال العراقي[2]: رواه الطبراني[3] والحاكم[4] من حديث أنس: «أربع لا يُصَبْنَ إلا بعُجب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع، وذِكر الله، وقلة الشيء». قال الحاكم: صحيح الإسناد. قلت: فيه العوَّام بن جويرية، قال ابن حبان[5]: يروي الموضوعات. ثم روىٰ له هذا الحديث.

قلت: وكذلك رواه البيهقي[6]، ورواه ابن عساكر[7] موقوفًا. ومعنىٰ كونهنَّ لا يصبن إلا بعجب: أي لا توجد وتجتمع في إنسان في آن واحد إلا علىٰ وجه عجيب [عظيم] يُتعجَّب منه لعِظَم موقعه؛ لكونها قلَّ أن تجتمع، فإن الغالب علىٰ الزاهد في الدنيا قلة ما ينفق منه علىٰ نفسه ويمونه فيُظهِر الشكوىٰ والتضجُّر ويمنع صرف الهمَّة إلىٰ الذكر، فاجتماعها شيء عجيب لا يحصل إلا بتوفيق إلهيّ وإمداد سماويٍّ. وقد شنَّع الذهبي والمنذري[8] علىٰ الحاكم في الحكم بتصحيحه، فذكره

(١) فيض القدير ١/ ٤٦٨.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٥.

(٣) المعجم الكبير ١/ ٢٥٦.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٣.

(٥) المجروحون من المحدثين ٢/ ١٩٠، ونصه: «كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات علىٰ صلاح فيه، كان يهم ويأتي بالشيء علىٰ التوهم من غير أن يتعمد فاستحق ترك الاحتجاج به لما ظهر عليه من أمارات الجرح».

(٦) شعب الإيمان ٧/ ٥١، ١٠/ ٤٦١.

(٧) تاريخ دمشق ٩/ ٣٦٦. ورواه في موضع آخر ٤٧/ ٤٢٧ من كلام عيسىٰ عليه السلام.

(٨) الترغيب والترهيب ص ١٠٥٩.

الذهبي في الميزان[١] في ترجمة العوام بن جويرية بعد أن تعجَّب من إخراجه له. وقال ابن عدي[٢]: الأصل في هذا أنه موقوف على أنس، وقد رفعه بعض الضعفاء عن أبي معاوية: حميدُ بن الربيع، وقد قال يحيىٰ: حميد كذاب.

(**وقال ابن عباس**) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**قال رسول الله** ﷺ: **إذا تواضع العبد رفعه الله إلىٰ السماء السابعة**) قال العراقي[٣]: رواه البيهقي في الشعب نحوه، وفيه زمعة بن صالح، ضعَّفه الجمهور.

قلت: سياق المصنف رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وفيه الكديمي، قال ابن حبان[٤]: كان يضع علىٰ الثقات. وروىٰ الخرائطي في مساوئ الأخلاق في أثناء حديث: «فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة إلىٰ السماء السابعة». وقد تقدم قريبًا.

(**وقال** ﷺ: **التواضع لا يزيد العبدَ إلا رفعة، فتواضعوا يرحمكم الله**) قال العراقي[٥]: رواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب[٦] من حديث أنس، وفيه بشر ابن الحسين، وهو ضعيف جدًّا. ولمسلم[٧] في أثناء حديث لأبي هريرة: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٨].

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠٣.

(٢) الكامل في الضعفاء ٢/ ٦٩٧، وعبارته: «هذا الحديث الأصل فيه موقوف من قول أنس، وقد روي عن أسد بن موسىٰ عن أبي معاوية مرفوعا، وقد رفعه أيضا عن أبي معاوية بعض الضعفاء، وحميد أضعف من ذلك الضعيف الذي رفع هذا الحديث».

(٣) المغني ٢/ ٩٥٥.

(٤) المجروحون من المحدثين ٢/ ٣٢٢، وفيه: «كان يضع علىٰ الثقات الحديث وضعا، ولعله قد وضع أكثر من ألف حديث».

(٥) المغني ٢/ ٩٥٥ - ٩٥٦.

(٦) الترغيب والترهيب ١/ ٣٦٥.

(٧) صحيح مسلم ٢/ ١٢٠٢.

(٨) بعده في المغني: «ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر، وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطي وخارجة بن مصعب، وكلاهما ضعيف». قلت: حديث ابن عمر في الكامل لابن عدي =

قلت: سياق المصنف رواه أبو نعيم في الحلية[1] ومن طريقه الديلمي من حديث أنس، إلا أنه قال: «فتواضعوا يرفعكم الله». ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث محمد بن عمير العبدي بزيادة جملتين وهما: «والعفو لا يزيد العبد إلا عزًّا، فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المالَ إلا كثرةً، فتصدَّقوا يرحمكم الله». ومحمد بن عمير العبدي لم أجده في الصحابة.

(ورُوي أن رسول الله ﷺ كان يَطعم، فجاء رجل أسود) اللون (به جدري قد) برئ منه و(تقشَّر) وتقبَّح (فجعل لا يجلس إلىٰ أحد إلا قام من جنبه) تقذُّرًا له وتكرُّهًا (فأجلسه رسول الله ﷺ إلىٰ جنبه) وأكل معه. قال العراقي[2]: لم أجده هكذا، والمعروف أكلُه مع مجذوم، رواه أبو داود والترمذي - وقال: غريب - وابن ماجه من حديث جابر، وقد تقدم.

(وقال ﷺ: إنه لَيعجبني أن يحمل الرجل شيئًا في يده يكون مهنأة) وفي بعض النسخ: مهنة (لأهله يدفع به الكبرَ عن نفسه) قال العراقي[3]: غريب.

قلت: ورد من حديث أبي سعيد: كان ﷺ لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق [إلىٰ أهله]. أورده القشيري في الرسالة[4].

(وقال ﷺ لأصحابه يومًا: ما لي لا أرىٰ عليكم حلاوة العبادة؟ قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع) قال العراقي[5]: غريب أيضًا.

= ٢/ ٧٤٧ ولكن ليس فيه ذكر التواضع، ولفظه: «إن الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله، وإن العفو لا يزيد العبد إلا عزا فاعفوا يعزكم الله».

(١) الذي في حلية الأولياء ٢/ ٣٣٧ من قول قتادة غير مرفوع لفظه: «تواضعوا لله عز وجل لعل الله يرفعكم».

(٢) المغني ٢/ ٩٥٦.

(٣) السابق ٢/ ٩٥٦. والحديث رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٥ عن عمر الهمذاني مرسلا دون قوله (عن نفسه).

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٦٧.

(٥) المغني ٢/ ٩٥٦.

(وقال ﷺ: إذا رأيتم المتواضعين من أمَّتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك مَذلَّة لهم وصَغار) قال العراقي[(١)]: غريب أيضًا.

والمعنىٰ[(٢)] أن المتكبر إذا تواضعتَ له تمادَىٰ في تيهه، وإذا تكبرتَ عليه يمكن أن يتنبَّه، ومن ثَم قال الشافعي: ما تكبر عليَّ متكبر مرتين[(٣)]. وقال الزهري: التجبُّر علىٰ أبناء الدنيا أوثق عُرَىٰ الإسلام. وفي بعض الآثار: التكبر علىٰ المتكبر صدقة. ويؤيِّده ما تقدم من حديث رَكْب المصري: «طوبىٰ لمَن تواضع في غير مَنقصة، وذلَّ [في نفسه] في غير مَسكنة». ومنه يؤخذ أن الرجل إذا تغيَّر صديقه وتكبر عليه لنحو منصب أن يفارقه، ولذلك قيل:

سأصبر عن رفيقي إذا جفاني ... علىٰ كل الأذىٰ إلا الهوانا[(٤)]

وقال الشيخ الأكبر قُدِّس سره[(٥)]: الخضوع واجب في كل حال إلىٰ الله باطنًا

---

(١) السابق ٢/ ٩٥٦، قلتُ: هذا والذي قبله أوردهما الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٣، ٤٦٥ وهو من مصادر الإمام الغزالي التي اعتمد عليها، وقد ذكر هذا الحديث السمرقندي أيضًا في تنبيه الغافلين ص ٧٢ عن ابن عمر، وزاد في آخره: «ولكم بذلك صدقة».

(٢) فيض القدير ٤/ ٢٧٧، التيسير شرح الجامع الصغير ٢/ ١١٩. كلاهما للمناوي.

(٣) روي نحوه عن الأصمعي، رواه السلفي في الطيوريات ١/ ٦٠ من طريق أبي حاتم السجستاني قال: سمعت الأصمعي يقول: ما تكبر عليَّ أحد أكثر من مرة. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لا أكلمه بعدها. وقال الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٣٩٢ - ٣٩٣: «حدثنا أحمد بن زكريا المخزومي، حدثنا عبد الرحمن، عن عمه الأصمعي قال: قال رجل: ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه فيَّ. يريد أني أتكبر عليه. وبإسناده قال: قال أعرابي: ما تاه عليَّ أحد قط مرتين. قيل: ولم ذاك؟ قال: لأنه إذا تاه عليَّ مرة لم أعُدْ إليه».

(٤) البيت مع بيتين آخرين في معجم الشعراء للمرزباني ص ١٠٣ معزو لعمير بن جعيل التغلبي [من شعراء الدولة الأموية]:

إذا ضيقت أمرا ضاق جدا ... وإن هونت ما قد ضاق هانا
سأصبر عن صديقي إن جفاني ... علىٰ كل الأذىٰ إلا الهوانا
فإن الحر يأنف في خلاء ... وإن حضر الجماعة أن يهانا

(٥) الفتوحات المكية ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣.

وظاهرًا، فإذا اتفق أن يُقام [العبد] في موطن الأولىٰ فيه ظهور عزة الإيمان وجبروته وعظمته لعز المؤمن وعظمته وجبروته، ويظهر في المؤمن من الأَنَفة والجبروت ما يناقض الخضوعَ والذلة، فالأَولىٰ إظهار ما يقتضيه ذلك الموطنُ، فإنَّ للمواطن أحكامًا، فافعلْ بمقتضاها تكن حكيمًا. والله أعلم.

(الآثــار:

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **إذا تواضع العبد لله رفع الله حكمته وقال: انتعشْ)** أي ارتفعْ **(رفعك الله. وإذا تكبر وعدا)** أي تجاوز **(طَوْره وهصه**[1] **الله في الأرض)** أي دفعه إليها **(وقال: اخسأ خسأك الله)** والقائل بهذا هو الملَك الموكَّل بالحكمة **(فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير، حتىٰ إنه لأحقرُ عندهم من الخنزير)**[2] أوله رُوي مرفوعًا من حديث أنس عند أبي نعيم والديلمي بلفظ: «ما من آدميٍّ إلا وفي رأسه حَكَمة بيد ملَك، فإن تواضع رفعه الله بها وقال: ارتفعْ رفعك الله. وإن رفع نفسه جذبه إلىٰ الأرض وقال: انخفضْ خفضك الله». وعند ابن صَصْرَىٰ في أماليه بلفظ: «فإن تواضع رفعه الله، وإن ارتفع قمعه الله». وكل ذلك قد تقدم. وآخره رواه أبو نعيم[3] من حديثه مرفوعًا بلفظ: «مَن تواضع لله رفعه الله [وقال: انتعشْ رفعك الله] فهو في نفسه صغير وفي أنفُس الناس عظيم. ومن تكبر وضعه الله [وقال: اخسأ خفضك الله] فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير حتىٰ لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير».

(وقال جرير بن عبد الله) البَجَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(انتهيت مرةً إلىٰ شجرة تحتها رجل نائم قد استظلَّ بنطع له)** وهو[4] المتخَذ من الأديم، معروف، وفيه أربع لغات:

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية ٥/ ٢٣٢: أي رماه رميًا شديدًا، كأنه غمزه إلىٰ الأرض.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ٦٠٨، ١٢/ ٥٨، وأبو داود في الزهد ص ٨٥، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٤٥٤.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ١٢٩.

(٤) المصباح المنير ص ٦١١.

فتح النون وكسرها، ومع كل واحد فتحُ الطاء وسكونها، والجمع: أنطاع ونُطوع **(وقد جاوزت الشمس النطعَ، فسوَّيته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي)** رضي الله عنه **(فذكرتُ له ما صنعت، فقال لي: يا جرير، تواضعْ لله في الدنيا، فإنه مَن تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير، أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا. قال: ظلم الناس بعضهم بعضًا في الدنيا)**[1] قال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن سالم، حدثنا هنَّاد بن السري، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن جرير قال: قال سلمان: يا جرير، تواضعْ لله، فإنه مَن تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير، هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري. قال: ظلم الناس بينهم في الدنيا. قال: ثم أخذ عُوَيدًا لا أكاد أن أراه بين أصبعيه قال: يا جرير، لو طلبتَ في الجنة مثل هذا العود لم تجده. قال: قلت: يا أبا عبد الله، فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب، وأعلاها الثمر.

ورواه جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه نحوه.

(وقالت عائشة رضي الله عنها**: إنكم لَتغفلون عن أفضل العبادة: التواضع)** أي الخشوع لله ولين الجانب للخلق، وإنما كان أفضل العبادة لأنه ثمرتها. رواه ابن أبي شيبة في المصنَّف[3] عن وكيع، عن مِسعر، عن سعيد بن أبي بُردة، عن أبيه، عن الأسود، عن عائشة.

(وقال يوسف بن أسباط) الشيباني رحمه الله تعالىٰ: **(يجزئ قليل الورع عن كثير العمل، ويجزئ قليل التواضع عن كثير الاجتهاد)** أخرجه أبو نعيم في

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٣٧.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٠٢.

(٣) الزهد لابن المبارك ص١٣٢، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ١٢٠ بلفظ: «إنكم لتدعون أفضل العبادة: التواضع».

الحلية[1] عن أحمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن يحيىٰ بن منده، حدثنا الحسين ابن منصور، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا سهل أبو الحسن، سمعت يوسف بن أسباط يقول ... فذكره.

(**وقال الفضيل**) بن عياض رحمه الله (**وقد سُئل عن التواضع ما هو: هو أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعتَه من صبي قبلتَه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته**) ولفظ القشيري في الرسالة: وسُئل الفضيل عن التواضع، فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممَّن قاله.

وقال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن يزيد، حدثنا إبراهيم قال: سألت الفضيل: ما التواضع؟ قال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعتَه من صبي قبلتَه منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه. وسألته: ما الصبر علىٰ المصيبة؟ قال: أن لا تبثَّ.

وأخرج من طريق محمد بن زنبور قال: سُئل الفضيل عن التواضع، قال: أن تخضع للحق.

(**وقال ابن المبارك**) رحمه الله تعالىٰ: (**رأس التواضع أن تضع نفسك عند مَن دونك في نعمة الدنيا حتىٰ يعلم أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمَّن هو فوقك في الدنيا حتىٰ يعلم أنه ليس له بدنياه عليك فضل**)[3] رواه هكذا في كتاب الزهد له.

(**وقال**) أبو الخطَّاب (**قتادة**) بن دِعامة البصري رحمه الله تعالىٰ: (**مَن أُعطي مالاً أو جمالاً أو ثناء**) حسنًا بين الناس (**أو علمًا**) يُنتفَع به (**ثم لم يتواضع فيه**) أي

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٤٣.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٩١.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٥٠٢.

فيما أعطيه (كان عليه وبالاً يوم القيامة)[١] فإنَّ هذه نعم من الله عليه، والتواضع هو شكرها، فمَن لم يتواضع فكأنه بطر نعم الله تعالىٰ، والبطر وبال يوم القيامة.

(وقيل: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه السلام): يا عيسىٰ (إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبِلْها بالاستكانة) أي الخضوع والتواضع (أتممها عليك[٢]).

وقال كعب) الأحبار رحمه الله تعالىٰ: (ما أنعم الله علىٰ عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله علىٰ عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه) [٣] ومعناه في المرفوع من حديث ابن عباس عند ابن النجار: «ما أنعم الله عز وجل علىٰ عبد من نعمة وأسبغها عليه ثم جعل إليه شيئًا من حوائج الناس فتبرَّم بها إلا وقد عرَّض تلك النعمة للزوال». ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمر بلفظ: «فقد عرَّض تلك النعمةَ لزوالها»[٤].

(وقيل لعبد الملك بن مروان) بن الحكم الأموي القرشي: (أيُّ الرجال أفضل؟ قال: مَن تواضع عن قدرة) أي خضع لجلال الحق، وراعىٰ ذلك في الخلق باختيار نفسه من غير إلجاء إليه (وزهد) في الدنيا (عن قدرة) أي وهو قادر علىٰ حوزها ولكنه زهد فيها (وترك النصرة) لنفسه (عن قدرة)[٥] أي كان قادرًا علىٰ أن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤١.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٣ عن إسماعيل بن ذكوان قال: دُخل علىٰ النجاشي في عقب نعمة، وعليه أطلاس، وهو مرسل رأسه، فقال بعض القوم: أيها الملك، أو لم تنبئنا أن قد سررت؟ قال: بلىٰ. قال: ما هذه الاستكانة؟ قال: إني قرأت فيما أوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ عيسىٰ ابن مريم ﷺ: إذا أنعمت عليك نعمة فاستقبلها بالاستكانة أتمها عليك.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٤٣.

(٤) تقدم هذان الحديثان في كتاب ذم البخل.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف ص ٢٠٩ ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ =

يشفي غيظه بأن ينتصر علىٰ أخيه، ولكنه ترك ذلك لله تعالىٰ.

(ودخل) محمد بن صبيح **(ابن السَّمَّاك)** البغدادي الواعظ **(علىٰ هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، إن تواضعك في شرفك)** أي انقيادك للعلماء مع هذا الشرف وعلو المقام الذي أنت فيه **(أشرف لك من شرفك. فقال)** هارون: **(ما أحسن ما قلتَ! فقال: يا أمير المؤمنين، إن امرءًا آتاه الله جمالاً في خَلْقه)** بأن كان معتدل التركيب مستوي الخلقة **(وموضعًا في حسبه)** بأن يكون ذا دين وتقوىٰ **(وبسط له في ذات يده)** يعني المال **(فعفَّ في جماله)** أي سلك فيه سبيل العفاف بأن لم يدنِّسه بمحارم الله **(وواسَىٰ من ماله)** المحتاجين **(وتواضع في حسبه)** بأن لم يتكبر علىٰ إخوانه **(كُتب في ديوان الله من خالص عِباد الله)** وفي نسخة: من خالص أولياء الله **(فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده)**[1] وروىٰ صاحب الحلية قصة أخرىٰ لابن السمَّاك مع هارون الرشيد تشبهها، قال[2]: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن موسىٰ، حدثنا محمد بن بكَّار قال: بعث هارون الرشيد إلىٰ ابن السماك، فدخل، وعنده يحيىٰ بن خالد البرمكي، فقال يحيىٰ: إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح منك في نفسك، وكثرة ذِكر منك لربك عَزَّوَجَلَّ، ودعائك للعامة. فقال ابن السماك: أما ما بلغ أميرَ المؤمنين من صلاح منا في أنفسنا فذلك بستر الله علينا، فلو اطَّلع الناس علىٰ ذنب من ذنوبنا لَما أقدم قلبٌ

= دمشق ٣٧/ ١٤٤ عن إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: قال يحيىٰ بن الحكم بن أبي العاص لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وترك النصرة عن قوة.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٤ - ١٤٥ عن زكريا بن أبي خالد البلدي، وأورد أوله الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٧، وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٥١٥ أوله عن أبي الحسن علي بن بكار البصري. وقد تقدم نحو هذه القصة في الباب الرابع من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين هارون الرشيد وبهلول المجنون.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٩.

لنا علىٰ مودة، ولا جرىٰ لسان لنا بمدحة، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغرورًا وبمدح الناس مفتونًا، وإني لأخافُ أن أهلك بهما وبقلة الشكر عليهما. فدعا بدواة وقرطاس فكتبه للرشيد.

(وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفَّح وجوه الأغنياء والأشراف حتىٰ يجيء إلىٰ المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين) [١] وأخرج أحمد في الزهد[٢] عن أبي السليل قال: كان داود عليه السلام يدخل المسجد فينظر أغمض حلقة من بني إسرائيل فيجلس إليهم ثم يقول: مسكين بين ظهراني مساكين.

(وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون) أي الحقيرة **(فكذلك فاكرهْ أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة)**[٣] أي الغالية الثمن.

(ورُوي أنه خرج يونس) بن عبيد **(وأيوب)** السختياني **(والحسن)** البصري يومًا **(يتذاكرون التواضع)** واختلف قولهم فيه **(فقال لهما الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك فلا تلقَىٰ مسلمًا إلا رأيتَ له عليك فضلاً)** [٤] أي لا ترىٰ لنفسك معه حالاً أو مقامًا أو قيمة.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالىٰ: **(إن الله تعالىٰ لمَّا أغرق قوم نوح** عليه السلام **شمخت الجبال وتطاولت)** أي ارتفعت **(وتواضع الجودي)** أي تطامن إلىٰ الأرض،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٨ عن حكيم بن محمد الأخنسي.

(٢) الزهد ص ٦٢.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٥٠ قال: حدثني الحسين بن عبد الرحمن قال: قال بعض الناس: كما تكره ... فذكره. ومن طريق ابن أبي الدنيا رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٦٠٣.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٥٤، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٥١١، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٤٦٥.

وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل[١] (فرفعه الله فوق الجبال) لتواضعه (وجعل قرار السفينة عليه)[٢] وذلك فيما قال الله تعالىٰ في كتابه: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] أي وقفت، والجودي لمَّا لم يرَ نفسه أهلاً لحلول النبي والمؤمنين عليه أعطاه الله تلك المنزلة. نقله القشيري في الرسالة.

قلت: أخرجه ابن جرير[٣] وابن أبي حاتم وأبو الشيخ[٤] عن مجاهد قال: الجودي جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذٍ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله فلم يغرق ورست عليه السفينة.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة[٥] عن عطاء قال: بلغني أن الجبال تشامخت في السماء إلا الجودي، فعرف أن أمر الله سيدركه فسكن.

وفيه دلالة علىٰ جواز خلق الحركات في الجمادات.

ونقل القشيري أيضًا عن الفضيل بن عياض قال: أوحىٰ الله إلىٰ الجبال: إني مكلِّم علىٰ واحد منكم نبيًّا. فتطاولت الجبال، وتواضع طور سيناء، فكلَّم الله سبحانه عليه موسىٰ لتواضعه.

وأنشد الشيخ سعد الدين الشيرازي:

أقـل جبـال الأرض طـور وإنـه لأعظـم عنـد الله قـدرًا ومنـزلا[٦]

---

(١) وهو يقع الآن في محافظة شرناق جنوب شرق تركيا.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٣.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٤٢٢.

(٤) العظمة ٥/ ١٧١٩.

(٥) السابق ٥/ ١٧٢٠.

(٦) انظر: الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي للدكتورة أمل إبراهيم ص ١٨٩ (ط – الدار الثقافية للنشر بالقاهرة).

(وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: **(إن الله عَزَّوَجَلَّ اطَّلع علىٰ قلوب الآدميين)** أي نظر إليها **(فلم يجد قلبًا أشد تواضعًا من قلب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فخصَّه من بينهم بالكلام)**(1) فما ميَّزه تعالىٰ علىٰ أمَّته وخصَّه بكلامه إلا لِما خُص به من كمال تواضعه. رواه القشيري عن وهب بن منبه(2) بلفظ: وقال وهب: مكتوب في بعض ما أنزل الله من الكتب: إني أخرجت الذر من صلب آدم، فلم أجد قلبًا أشد تواضعًا من قلب موسىٰ، فلذلك اصطفيته وكلمته.

(وقال يونس بن عبيد) البصري رحمه الله تعالىٰ **(وقد انصرف)** راجعًا **(من عرفات: لم أشكَّ في الرحمة)** أي في أن الله تعالىٰ رحمهم وغفر ذنوبهم **(لولا أني كنت معهم، إني لأخشىٰ أنهم حُرموا بسببي)** أي بسبب ذنوبي، وهذا من مقام الخائفين.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية والقشيري في الرسالة من طريق شعيب بن حرب قال: بينا أنا في الطواف إذ لكزني إنسان بمرفقه، فالتفتُّ فإذا هو الفضيل، فقال: يا أبا صالح، إن كنت تظن أنه شهد الموسم مَن هو شر مني ومنك فبئس ما ظننت(3).

(ويقال: أرفعُ ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه) وهو مصداق الخبر المتقدم: «إذا تواضع العبد رفعه الله، وإذا تكبر وضعه».

---

(1) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٤، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٤٠، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٤٩٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦١/ ٥٣.

(2) ورواه عنه أيضا الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٩ باللفظ المذكور عن أبي سليمان الداراني.

(3) هذا لفظ القشيري في الرسالة، وقد رواه أيضا هكذا البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٥١٣، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٨/ ٤١٨. أما أبو نعيم فرواه في حلية الأولياء ٨/ ١٠١ عن أبي جعفر الحذاء قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: أخذت بيد سفيان بن عيينة في هذا الوادي فقلت له: إن كنت تظن أنه بقي علىٰ وجه الأرض شر مني ومنك فبئس ما تظن.

(وقال زياد) بن عبد الله (النُّمَيري) البصري، روىٰ له الترمذي: (الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر)[1] أي فكما أنه لا يُنتفَع بها إذا كانت غير مثمرة فكذلك الزاهد لا يُنتفَع به إذا لم يكن متواضعًا.

(وقال مالك بن دينار) البصري رحمه الله تعالىٰ: (لو أن مناديًا ينادي بباب المسجد: ليخرج شرُّكم رجلاً، واللهِ ما كان يسبقني أحد إلىٰ الباب إلا رجل بفضل قوة أو سعي. قال) الراوي: (فلما بلغ ابنَ المبارك قولُه قال: بهذا صار مالك مالكًا) أي بهذه المعرفة الدالَّة علىٰ احتقار نفسه وتواضعه نال علو المقام عند الله تعالىٰ.

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (مَن أحب الرياسة لم يفلح أبدًا) أي في طريق القوم، فإنَّ حب الرياسة ينبئ عن تكبُّر النفس المُجانِب للتواضع. وهذا القول أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(وقال موسىٰ بن القاسم) التغلبي الكوفي: (كانت عندنا زلزلة وريح حمراء، فذهبت إلىٰ محمد بن مقاتل) الهلالي الكوفي (فقلت: يا أبا عبد الله، أنت إمامنا، فادْعُ الله عَزَّوَجَلَّ لنا) يرفع عنا هذه الزلزلة والريح (فبكىٰ ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم. قال) موسىٰ: (فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: إن الله دفع) وفي نسخة: رفع (عنكم بدعاء محمد بن مقاتل.

وجاء رجل إلىٰ) أبي بكر (الشِّبْلي) رحمه الله تعالىٰ (فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه) وفي نسخة: شأنه (وعادته) أي في سؤاله بهذا، أي بـ «ما أنت»؟ الذي يعمُّ العقلاء وغيرهم، أي ما حالك؟ وفي بعض نسخ الرسالة: من أنت؟ (فقال: أنا النقطة التي تحت الباء) أي باء البسملة، فكما أنها دليل علىٰ معرفتها وتمييزها عن غيرها كذلك أنا. وهو يشير إلىٰ مقام الواحدية وأنها مقام التمييز عن الأَحَدية، ولولا النقطة لَما تميَّزت الباء من الألف (فقال له الشبلي: أباد الله شاهدك) أي أهلكه

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٣.

(**أوَ تجعل لنفسك موضعًا؟!**)[١] وفي نسخة: مكانًا[٢]. ولفظ القشيري في الرسالة: وجاء إلىٰ الشبلي رجل، فقال له الشبلي: ما أنت؟ فقال: يا سيدي، النقطة التي تحت الباء. فقال له: أنت شاهدي ما لم تجعل لنفسك مقامًا. وقال شارحها: أنت شاهدي: أي حاضري، يعني حالك مستقيم ما لم تجعل لنفسك مقامًا. ودخول هذا في التواضع من حيث إن المسؤول جعل نفسه كالنقطة التي تحت الباء دون التي فوق الحروف ونزَّل نفسه ولم يرَ لها قدرًا. ا.هـ. وهذا إذا تأملت وجدتَ كلام مَن لم يدقق في مصطلحات القوم، فإن قوله «يعني حالك مستقيم» يخالف جواب الشبلي، فإنه ينكر عليه، فكيف يصف حاله بالاستقامة؟! علىٰ أن سياق المصنف أقعد في فهم المراد، فإن المسؤول لمَّا أثبت لنفسه شاهدًا ودليلاً رد عليه الشبلي ونبَّهه أن هذا يخالف التواضع عند أهل الحق، فإنهم لا يُثبِتون لأنفسهم وجودًا ولا شاهدًا، ولذلك قال: أوَ تجعل لنفسك موضعًا أو مكانا؟ وسياق الرسالة فيه غموض ودقة يحتاج إلىٰ تأويل. ويُروَىٰ أن أمير المؤمنين عليًّا كرَّم الله وجهه سُئل يومًا: من أنت؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء. وهذا له وجه، ولجلالة قدره وعلو مقامه لا يُتوهم فيه أنه أثبت لنفسه شاهدًا، وليس لغيره ولو بلغ الدرجة العليا أن يقلِّده في مقاله، ولعل هذا سبب إنكار الشبلي عليه؛ إذ لكل ميدان رجال. والحاصل أن هذا القول مباين لمقام التواضع، فتأملْ ذلك.

(**وقال الشبلي**) رحمه الله تعالىٰ (**في بعض كلامه: ذلي**) في نفسي بمعرفتي بقدرها وبقلة ما يحصل لي من الخير منها وبعجزها عن قيامها بما عليها لربها وبسرعة نقضها لعهدها (**عطَّل ذُلَّ اليهود**)[٣] المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتۡ

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٢ بلفظ: مكانًا.

(٢) كما في أ، وط المنهاج ٦/ ٤٨٥، ولم يذكر محقق المنهاج خلافًا بين النسخ التي اعتمد عليها.

(٣) انظر: اللمع للطوسي ص٤٧٨، والخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٢، واللفظ له إذ عنه ينقل الإمام.

عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١١٢] فهم أذلُّ الخلق، والمعنىٰ: ذلي في نفسي أعظم من ذل اليهود في أنفسهم؛ لأن ذلهم قهريٌّ، وذلي عن علم بما عليه نفسي من النقص، وهذا لا يلزم منه جحده لفضل ربه عليه؛ لأن ما ذكر من الذل بالنظر لنفسه، وما هو عليه من الفضل جارٍ عليه من ربه، فهو ذليل عزيز. وهذا القول نقله القشيري في الرسالة.

(**ويقال: من رأىٰ لنفسه قيمة**) يفضل بها غيرَه ليتكبر عليه (**فليس له من**) وفي نسخة: في (**التواضع نصيب**) وهذا القول نقله القشيري في الرسالة عن الفضيل ابن عياض.

وفي كلام أبي سليمان الداراني: مَن رأىٰ لنفسه قيمة لم يُرزَق حلاوة العبادة والخدمة[١].

(**وعن الفتح بن شخرف**) رحمه الله تعالىٰ، تقدم ذِكرُه في كتاب العلم (**قال: رأيت علي بن أبي طالب** رضي الله عنه **في المنام، فقلت له: يا أبا الحسن، عظني. فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبةً منهم في ثواب الله تعالىٰ، وأحسن من ذلك تيه الفقراء علىٰ الأغنياء ثقةً منهم بالله تعالىٰ**)[٢] وهذا من كلام علي مشهور، ذكره صاحب نهج البلاغة[٣] دون ذكر الرؤيا.

(**وقال أبو سليمان**) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (**لا يتواضع العبد**) أي لا يتحقق بهذا المقام (**حتىٰ يعرف نفسه**)[٤] أي يعرف ما فيها من العيوب والنقص،

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٣١.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٢، ورواه أبو طالب المكي في قوت القلوب ٢/ ١٠٥١، والسلفي في الطيوريات ٢/ ٦٥٦ - ٦٥٧، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٨٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٣/ ٥٦٢.

(٣) شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٢٧٠.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٦.

فإذا عرفها بما فيها تواضع لله حق التواضع.

(**وقال أبو يزيد**) طيفور بن عيسىٰ البِسطامي قُدِّس سره: (**ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر**) أي لكونه رأىٰ لنفسه قدرًا (**فقيل له: فمتىٰ يكون متواضعًا**) كاملاً؟ (**قال: إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالاً**)[1] يفضل بهما غيرَه. أورده القشيري في الرسالة[2] بلفظ: وقيل لأبي يزيد: متىٰ يكون الرجل متواضعًا؟ فقال: إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالاً، ولا يرىٰ أنه في الخلق مَن هو شر منه. انتهىٰ.

وقد[3] اختلفت إشارات الشيوخ في الفرق بين الحال والمقام، والضابط الفارق بينهما أن الحال سُمِّي حالاً لتحوله، والمقام مقامًا لثبوته واستقراره، وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاما. وقال بعضهم: المقامات مكاسب، والأحوال مواهب. وقال بعضهم: الأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد. وقال بعضهم: الأحوال مواريث الأعمال. وقيل: الحال ما من الله، والمقام ما من العبد. وقد أطال الكلام فيه صاحب العوارف في آخر كتابه، فراجعْه.

(**وتواضع كل إنسان علىٰ قدر معرفته بربه عَزَّوَجَلَّ ومعرفته بنفسه**) فكل مَن قويت معرفتُه بنفسه قويت معرفته بربه، وبه يكمُل له مقام التواضع.

(**وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق علىٰ أن يضعوني كاتِّضاعي عند نفسي ما قدروا عليه**)[4].

(**وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف**) أي أحد الآلات التي

---

(١) السابق ص٤٦٣.

(٢) وروىٰ أوله فقط أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٦.

(٣) عوارف المعارف للسهروردي ص ٣٢٦ - ٣٣٠.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٣، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٧٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٣١. وعندهما: ما أحسنوا، بدل: ما قدروا عليه.

يُصطاد بها الشرف (**وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع**)(١) إذ الحسد لا يكون إلا علىٰ النعم المعروفة للحاسد، والتواضع أكثر الناس لا يعدُّونه نعمة، بل مذلَّة وقلة همَّة. ولفظ الرسالة: وقيل: التواضع نعمة لا يُحسَد عليها، والكبر محنة [لا يُرحَم عليها] والعز في التواضع، فمَن طلبه في الكبر لم يجده.

(**وقال يحيىٰ بن خالد**) بن برمك (**البرمكي**) نسبة إلىٰ جده: (**الشريف**) أي الرفيع القدر والمقام (**إذا تنسَّك**) أي تعبَّدَ (**تواضع**) فإن تنسُّكه يجرُّه إليه (**والسفيه إذا تنسَّك تعاظَمَ**)(٢) علىٰ إخوانه وتكبر عليهم ولم يزدْه تنسُّكُه إلا سفهًا.

(**وقال يحيىٰ بن معاذ**) الرازي رحمه الله: (**التكبر علىٰ ذي التكبر عليك بماله**) أي إعراضك عنه (**تواضعٌ**)(٣) لأنك صغَّرت ما صغَّره اللهُ، حيث لم تلتفت إلىٰ تكبر المتكبرين. نقله القشيري في الرسالة بلفظ: علىٰ مَن تكبر عليك. ويُروَىٰ نحوه لابن المبارك قال: التكبر علىٰ الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع.

(**ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح**)(٤) وذلك لوجود أسباب التكبر في الأغنياء من المال والجاه وغيرهما، وفقدِها في الفقراء، فكان تواضع الأغنياء أحسن من تواضع الفقراء، وتكبر الفقراء أقبح من تكبر الأغنياء. وهذا القول نقله القشيري في الرسالة وعزاه إلىٰ يحيىٰ بن معاذ بلفظ: التواضع حسن في كل أحد لكنه في الأغنياء أحسن، والتكبر سمج في كل أحد لكنه في الفقراء أسمج.

(**ويقال: لا عز إلا لمَن تذلَّل لله عزوجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزوجل، ولا**

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٣، وأورده السمرقندي في تنبيه الغافلين ص٧٢، ولكن فيه: عروة بن الزبير.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٣.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

أمن إلا لمن خاف الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عَزَّوَجَلَّ) [١].

(**وقال أبو علي الجَوْزَجاني**) بفتح الجيم وسكون الواو والزاي، نسبة إلىٰ كورة من خراسان من كور بَلْخ[٢] (**النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد**) أي مجبولة علىٰ هذه الأوصاف الثلاثة من أصل خلقتها (**فمَن أراد الله تعالىٰ هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة**) فإذا ترك التواضع ولم يقبل النصح ولم يَقنع بما في يده كان إلىٰ الهلاك أقرب (**وإذا أراد الله به خيرًا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نارُ الكبر أدركها التواضعُ مع نصرة الله تعالىٰ**) فأطفأها (**وإذا هاجت في نفسه نار الحسد أدركتها النصيحة مع توفيق الله عَزَّوَجَلَّ**) لقبولها فأطفأتها (**وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعةُ مع عون الله**)[٣] فأطفأتها.

(**وعن**) أبي القاسم (**الجنيد**) قُدِّس سره (**أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه: لولا أنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في آخر الزمان زعيم القوم**) أي رئيسهم (**أرذلهم» ما تكلمت عليكم**)[٤] قال العراقي[٥]: رواه الترمذي[٦] من حديث أبي هريرة: «إذا اتُّخِذ الفيء دولاً ...» الحديث، وفيه: «وكان زعيم القوم أرذلهم ...» الحديث، وقال: غريب. وله من حديث علي بن أبي طالب: «إذا فعلت أمَّتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاءُ ...»، فذكر منها: «وكان زعيم القوم أرذلهم». ولأبي نعيم في الحلية[٧] من حديث حذيفة: «من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون

---

(١) السابق ص٤٦٤.

(٢) وهي الآن إحدىٰ محافظات أفغانستان، وتقع في الشمال، وعاصمتها مدينة شبرغان، وسكانها خليط من الأوزبك والبشتون والتركمان والطاجيك.

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٤.

(٤) السابق، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٦٣.

(٥) المغني ٢/ ٩٥٧.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٧٠ - ٨٢.

(٧) حلية الأولياء ٣/ ٣٥٨.

خصلة ...» فذكرها منها، وفيه فرج بن فضالة، ضعيف.

قلت: لفظ حديث علي: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء: إذا كان المغنم دولاً، والأمانة مَغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعقَّ أمه، وبرَّ صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرِم الرجل مخافة شره، وشُربت الخمور، ولُبِس الحرير، واتُّخِذت القَيْنات والمعازف، ولعن آخرُ هذه الأمة أولَها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا». هكذا رواه الترمذي والبيهقي في البعث[1] وضعَّفاه.

ولفظ حديث أبي هريرة: «إذا اتُّخِذ الفيء دولاً، والأمانة مَغنمًا، والزكاة مغرمًا، وتُعُلِّم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعقَّ أمه، وأدنىٰ صديقه وأقصىٰ أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلةَ فاسقُهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرِم الرجل مخافة شره، وظهرت القَيْنات والمعازف، وشُربت الخمور، ولعن آخرُ هذه الأمة أولَها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وزلزلة وخسفًا ومسخًا وقذفًا وآيات تتابع كنظام بالٍ قُطع سلكه فتتابعَ».

(وقال) أبو القاسم (**الجنيد**) قُدِّس سره (**أيضًا: التواضع عند أهل التوحيد تكبرٌ**)[2] ورُوي عنه أيضًا أنه قال: التواضع خفض الجناح ولين الجانب. رواه إبراهيم بن فاتك عنه. وقوله الأول يخالف الثاني في الظاهر، فإن التواضع في الحقيقة هو ضد التكبر، فكيف يكون الشيء عين نقيضه؟! وقد وجَّهه المصنف بقوله: (**ولعل مراده أن المتواضع يُثبِت نفسه**) أولاً فيجعلها شاهدًا (**ثم يضعها، والموحِّد لا يُثبِت نفسه**) أصلاً (**ولا يراها شيئًا حتىٰ يضعها أو يرفعها**) وهذا هو عين مراد الشبلي في جوابه لمَن قال له: أنا النقطة التي تحت الباء، حين قال له:

---

(١) لم أقف علىٰ هذا الحديث في كتب البيهقي التي بين أيدينا، والمصنف تابع للسيوطي كما في الجامع الكبير ١/ ٤٥٦، والسخاوي في الأجوبة ٢/ ٦.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٤.

أباد الله شاهدك، أوَ تضع لنفسك موضعًا؟! وكلاهما من وادٍ واحد، هذا يفسر ذلك، فتأملْ.

(وعن) أبي[1] زيد (**عمر بن شَبَّة**) بفتح المعجمة وتشديد الموحدة، ابن عبيدة بن زيد النُّمَيري - بالتصغير - البصري، نزيل بغداد، صدوق، له تصانيف، مات سنة اثنتين وستين [ومائتين] وقد جاوز التسعين، روىٰ له ابن ماجه (**قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة، فرأيت رجلاً**) من عمَّال الخليفة (**راكبًا بغلة، وبين يديه غلمان، وإذا هم يعنِّفون الناس**) ويطردونهم من بين يديه لأجله (**قال: ثم عُدْتُ بعد حين فدخلت بغداد، فكنت علىٰ الجسر**) الذي علىٰ نهر دجلة الفارق بين الشرقية والغربية، وإليه الإشارة بقول الشاعر[2]:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... سلبن النُّهَىٰ من حيث تدري ولا تدري

(**فإذا أنا برجل حافٍ**) الرِّجل (**حاسر**) الرأس (**طويل الشعر**) أشعث، يسأل الناس (**فجعلت أنظر إليه وأتأمله**) متعجبًا من حاله (**فقال لي: ما لك تنظر إليَّ؟ فقلت له: شبَّهتُك برجل رأيته بمكة. ووصفت له الصفة، فقال: أنا ذلك الرجل. فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفَّعت**) أي تكبرت (**في موضع يتواضع فيه الناس، فوضعني الله حيث يرفع الناس**)[3] يعني في بغداد، حيث نقم عليه الخليفة لما وصل إليه، وسلبه جميع ما هو فيه، وصار فقيرًا يسأل الناس. أورده القشيري في الرسالة مختصرًا بلفظ: وقال بعضهم: رأيت في الطواف إنسانًا بين يديه شاكريه يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة علىٰ جسر بغداد يسأل

---

(١) تقريب التهذيب ص ٧٢١.

(٢) هو علي بن الجهم، والبيت في ديوانه ص ١٤١ من قصيدة يمدح بها المتوكل العباسي، والشطر الثاني فيه هكذا:

جلبن الهوىٰ من حيث أدري ولا أدري

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٤، ٤٦٥.

الناس شيئًا، فعجبت منه، فقال لي: أنا تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس هناك، فابتلاني الله سبحانه بالتذلُّل في موضع يترفَّع فيه الناس.

ويُحكَىٰ أن الملك الأشرف قايتباي سنة حجه دخل باب السلام راكبًا علىٰ هيئة، والأمراء بين يديه، ولم يتجاسر أحد أن يقول له انزل عن الفرس مهابةً له، فبينما هو كذلك إذ زلقت رِجل الفرس فوقع السلطان علىٰ الأرض وسقطت عمامته، فلم يتناول العمامة ولم يضعها علىٰ رأسه، ودخل الحرم وهو مكشوف الرأس متذلِّلاً متواضعًا؛ لأنه تنبَّه علىٰ إساءة أدبه في دخوله راكبًا فتواضع وطاف هكذا حاسر الرأس، وعُدَّ ذلك في مناقبه رحمه الله تعالىٰ(١).

(**وقال المغيرة**) بن(٢) مِقسم الضبي مولاهم، أبو هشام الكوفي، ثقة متقن، مات سنة ست وثلاثين [ومائة] روىٰ له الجماعة (**كنا نهاب إبراهيم**) بن يزيد (**النخعي هيبة الأمير**)(٣) لجلالة قدره (**وكان إبراهيم**) مع ذلك (**يقول: إن زمانًا صرتُ فيه فقيه الكوفة لَزمانُ سوء**)(٤) وهذا من باب التواضع وهضم النفس. قال العجلي(٥): كان النخعي رجلاً صالحًا، فقيهًا، متوقِّيًا، قليل التكلُّف، وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما.

---

(١) هذه الحكاية ذكرها قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي في كتابه الإعلام بأعلام البيت الحرام ص ١٥٧ - ١٥٨ (ط - المطبعة الخيرية بمصر).

(٢) تقريب التهذيب ص ٩٦٦.

(٣) رواه الدارمي في سننه ١/ ١٢٢، وأحمد في العلل ومعرفة الرجال ٣/ ١٢٣ - ١٢٤، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٦٠٤، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٨/ ٣٨٩.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٥، ورواه الدارمي في سننه ١/ ٧٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٢٣، والدولابي في الكنىٰ والأسماء ص ٤٩٠، وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف ص ٢٧٠. كلهم بلفظ: «والله لقد تكلمت، ووددت أني لم أكن تكلمت، ولو وجدت بدا من الكلام ما تكلمت، وإن زمانا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء».

(٥) معرفة الثقات ١/ ٢٠٩ - ٢١٠.

(وكان عطاء السَّلِيمي) بفتح السين وكسر اللام، ويقال له أيضًا: العبدي، وهو من رجال الحلية، رحمه الله تعالىٰ **(إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض)** أي الذي أخذها طلق الولادة **(وقال: هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس)**[1] قال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن، عن سيَّار قال: سمعت جعفرًا يقول: هاجت ريح بالبصرة وظلمة. قال: فتشاغل الناس إلىٰ المساجد، فأتيت عطاء فإذا هو قائم في الحجرة ويده علىٰ رأسه وهو يقول: إلهي، لم أكن أرىٰ أن تبقيني حتىٰ تريني أعلام القيامة. قال: فما زال قائمًا في مقامه ذاك حتىٰ أصبح.

حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أحمد بن إبراهيم، حدثنا ابن عبيدة، حدثنا يحيىٰ بن راشد، حدثنا مرجًّىٰ بن وداع الراسبي قال: كان عطاء إذا هبَّت ريح وبرق ورعد قال: هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس. قال: وكنا ندخل علىٰ عطاء، فإذا قلنا له: زاد الطعامُ، قال: هذا من أجلي يصيبكم غلاءُ الطعام، لو متُّ لاستراح الناس.

وساق المصنف هذا القول هنا بناءً علىٰ أن هذا من باب التواضع، وفيه نظرٌ، فإن عطاء كان ممَّن غلب عليه الخوف، فما قاله ليس من باب التواضع، إنما هو من باب الخوف الغالب علىٰ القلب، ويمكن أن يقال: إن التواضع هنا هو ثمرة الخوف.

(وكان بشر) بن الحارث **(الحافي)** رحمه الله تعالىٰ **(يقول)** لبعض أصحابه تأديبًا لهم لمَّا رآهم يسلِّمون علىٰ أبناء الدنيا لدنياهم ويعتلُّون بأنهم إنما يقصدون

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٥.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٢٢١.

الزيارة: (**سلِّموا علىٰ أبناء الدنيا بترك السلام عليهم**)[١] يعني: ترككم السلام عليهم أسلمُ لكم من السلام عليهم علىٰ الوجه المذكور؛ لأنه حينئذٍ ليس بطاعة، بل فيه خطر. أورده القشيري في الرسالة.

(**ودعا رجل لعبد الله بن المبارك**) رحمه الله تعالىٰ (**فقال: أعطاك الله ما ترجوه. فقال**) ابن المبارك: (**إن الرجاء يكون بعد المعرفة، فأين المعرفة؟!**)[٢]. وهذا من باب التواضع، والرجاء والخوف لا يكمُلان إلا بعد المعرفة، فمَن لم يعرف الله لم يرجه ولم يخفْه.

(**وتفاخرت قريش**) أي جماعة منهم (**عند سلمان الفارسي** رضي الله عنه **يومًا**) من الإسلام، أي بأحسابهم وأنسابهم (**فقال سلمان**) رضي الله عنه: (**لكني خُلقت من نطفة قذرة، ثم أعود جيفة منتنة، ثم**) أُبعث و(**آتي الميزان**) حيث توزن الأعمال (**فإن ثقُل**) بالأعمال الصالحة (**فأنا كريم، وإن خفَّ فأنا لئيم**)[٣] فأرشدهم سلمان إلىٰ أن الكرم هو التقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وليس الكرم بالأنساب والأحساب.

(**وقال أبو بكر الصدِّيق** رضي الله عنه: **وجدنا الكرم في التقوىٰ، والغنىٰ في اليقين، والشرف في التواضع**)[٤] وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من حديث يحيىٰ بن أبي كثير مرسلاً بلفظ: «الكرم التقوىٰ، والشرف التواضع، واليقين الغنىٰ». وقد تقدم قريبًا. وقال القشيري في الرسالة: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت [أبا بكر محمد بن عبد الله يقول: سمعت] إبراهيم بن شيبان يقول: الشرف في التواضع، والعز في التقوىٰ، والحرية في القناعة.

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٥.

(٢) السابق ص٤٦٦.

(٣) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١٩/ ٥١٠ وعزاه لابن أبي الدنيا.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٨.

(بيـان حقيقة الكـبر وآفتـه)

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن الكِبْر) بكسر[١] فسكون: اسم من التكبُّر، قال ابن القوطية[٢]: هو اسم من كَبُرَ الأمرُ: إذا عَظُمَ، والكبر: العظمة، والكبرياء مثله، ويقال: كَبِرَ الصغيرُ وغيره يكبَر، من باب تَعِبَ، كِبَرًا وِزان عنب، ومَكْبِرًا كمسجد، فهو كبير، وكَبُرَ الشيءُ، من باب قَرُب: عَظُمَ، فهو كبير أيضًا. والاستكبار[٣] مثل التكبر، فالكبر اسم لحالة يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرىٰ نفسه أعظم من غيره. وهو (ينقسم إلىٰ ظاهر وباطن، فالباطن هو خُلقٌ في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح، واسم «الكبر» بالخُلق الباطن أحق) لأن منشؤه الإعجاب والرؤية (وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخُلق) ونتائج له (وخلقُ الكبر موجِب للأعمال، ولذلك إذا ظهر) أثره (علىٰ الجوارح يقال: تكبَّر) واستكبر (وإذا لم يظهر يقال): فلان (في نفسه كبرٌ، فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلىٰ رؤية النفس فوق المتكبَّر عليه) في العِظَم والقدْر والمنزلة (فإن الكبر يستدعي) شيئين: (متكبَّرا عليه ومتكبَّرًا به) فلا بد منهما في تصوير حقيقة الكبر (وبه ينفصل الكبر عن العُجب، كما سيأتي، فإن العُجْب) بضم فسكون (لا يستدعي غيرَ المعجَب) به (بل لو لم يُخلَق الإنسان إلا وحده تُصُوِّر أن يكون معجبًا، ولا يُتصور أن يكون متكبرًا إلا أن يكون معه غيره وهو يرىٰ نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا، ولا يكفي أن يستعظم نفسَه) أي يعدُّها عظيمة القدر والمنزلة (ليكون) بذلك الاستعظام (متكبرًا، فإنه

---

(١) المصباح المنير ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٢) الأفعال لابن القوطية ص٦٦ (ط الخانجي القاهرة).

(٣) المفردات للراغب ص ٤٢١.

قد يستعظم نفسه ولكنه يرىٰ غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه) مساويًا له (فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيرَه، فإنه مع ذلك لو رأىٰ نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأىٰ غيرَه مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرىٰ لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم) بعد ذلك (يرىٰ مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خُلقُ الكبر) في الباطن (لا أن هذه الرؤية تنفي الكبرَ[1]، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح) واسترواح (وركون إلىٰ ما اعتقده وعزٌّ في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلىٰ العقيدة هي خُلقُ الكبر، ولذلك قال النبي ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء) أي من الركون إلىٰ تلك العقيدة التي تنفخ الكبر في باطني، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث، وأن العراقي قال: لم أجده هكذا (ولذلك قال عمر) رضي الله عنه: (أخشىٰ أن تنتفخ حتىٰ تبلغ الثريّا) قاله (للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح) فإنه خشي عليه من هذه النفخة. وقد تقدم أيضًا (فكأنَّ الإنسان مهما رأىٰ نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبرَ) أي عظُمَ (وانتفخ وتعزَّز، فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، ويسمَّىٰ أيضًا عزة وتعظُّمًا) ويُستعمَل كل ذلك في معنىٰ واحد لكونها متقاربة (ولذلك قال ابن عباس) رضي الله عنهما (في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ [غافر: ٥٦] قال: عظمة لم يبلغوها)[2] وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد[3] (ففسر الكبر بتلك العظمة) والمراد بالعظمة هنا: التكبر عن الحق، والتعظُّم عن الشكر أو التعلُّم (ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرتها[4]، ويسمَّىٰ ذلك تكبرًا) واستكبارًا (فإنه مهما عظُم

---

(١) في أ، وط المنهاج ٦/ ٤٩٠: لا أن هذه الرؤية هي الكبر. وهو الصواب.

(٢) الرعاية للحارث المحاسبي ص٣٠٢.

(٣) في الدر المنثور ١٣/ ٥٠ عن مجاهد: عظمة قريش.

(٤) في أ، والمطبوعة: ثمرته. والمثبت من ط المنهاج ٦/ ٤٩٠.

عنده قدرُه بالإضافة إلىٰ غيره حقَّر مَن دونه وازدراه، وأقصاه عن نفسه وأبعده، وترفَّع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأىٰ أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه) كهيئة الخدم (إن اشتد كبرُه، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه، ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا لخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فيأنف عن مساواته، وتقدَّمَ عليه في مضايق الطرق) عند مماشاته (وارتفع عليه في المحافل) العامة والخاصة (وانتظر) منه (أن يبدأه بالسلام) والمصافحة (واستبعد تقصيرَه في قضاء حوائجه وتعجَّب منه، وإن حاجَّ أو ناظَرَ أَنِفَ أن يردَّ عليه) في مناظرته (وإن وُعِظ استنكف عن القبول) لوعظه (وإن وعظ) غيرَه (عنَّف في النصح) وشدَّد الكلامَ فيه (وإن رُدَّ عليه شيء من قوله) في محاوراته (غضب) من ذلك (وإن علَّم لم يرفق بالمتعلمين واستذلَّهم وانتهرهم وامتنَّ عليهم واستخدمهم، وينظر إلىٰ العامة كأنَّه ينظر إلىٰ الحمير) في بلادتهم (استجهالاً لهم واستحقارًا) لشأنهم (والأعمال الصادرة عن خُلقِ الكبر كثيرة، وهي أكثر من أن تُحصَىٰ، فلا حاجة إلىٰ تعدادها، فإنها مشهورة. فهذا هو الكبر، وآفته عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواصُّ من الخلق، وقلَّما ينفكُّ عنه العُبَّاد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوامِّ الناس، وكيف لا تعظُم آفتُه وقد قال ﷺ: لا يدخل الجنة مَن في قلبه مِثقال ذرَّة من كبر) ولا يدخل النار مَن في قلبه مِثقال ذرة من إيمان. رواه القشيري في الرسالة عن أبي الحسن عبد الرحيم بن [إبراهيم بن] محمد بن يحيىٰ المزكِّي، أخبرنا أبو الفضل الجوهري، أخبرنا علي ابن الحسن، أخبرنا يحيىٰ بن حماد، حدثنا شعبة، عن أبان بن تغلب، عن فضيل الفقيمي، عن إبراهيم النخعي، عن علقمة بن قيس، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ ... فذكره. وقد تقدم أنه من أفراد مسلم(١).

(وإنما صار حجابًا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة) أي بمنزلة الأبواب التي هي مفاتح للجنة

(١) انظر: إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٣٥٩، والمفهم للقرطبي ١/ ٢٨٦ - ٢٨٨.

(**والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلَّها؛ لأنه لا يقدر علىٰ أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من العز**) وقد روىٰ الشيخان من حديث أنس: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] (**ولا يقدر علىٰ التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز**) إذ لا تتم التقوىٰ إلا بالتواضع (**ولا يقدر علىٰ ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر علىٰ أن يدوم علىٰ الصدق**) في القول والعمل (**وفيه العز، ولا يقدر علىٰ كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر علىٰ ترك الحسد وفيه العز**) لأن كبره يجرُّه إليه (**ولا يقدر علىٰ ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر علىٰ النصح اللطيف وفيه العز**) لأن كبره يجرُّه إلىٰ العنف في النصح (**ولا يقدر علىٰ قبول النصح وفيه العز، ولا يَسلم من الإزراء بالناس**) والاحتقار لهم (**ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنىٰ للتطويل**) في مثل هذا (**فما من خُلقٍ ذميم إلا وصاحب الكبر والعز مضطر إليه ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزُّه، فمن هذا**) المعنىٰ (**لم يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال حبة منه**) كما أخبر به ﷺ (**والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داعٍ إلىٰ البعض**) وجارٌّ إليه (**لا محالة**) فكلٌّ منها أنواع (**وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم**) الذي هو المعرفة بالله تعالىٰ (**وقبول الحق والانقياد له**) وإليه الإشارة بما ورد في الخبر: لا يتعلم العلمَ مستحٍ ولا متكبر (**وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر وذم المتكبرين**) من ذلك:

(**قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾** [الأنعام: ٩٣] **ثم قال: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾**) [الزمر: ٧٢، غافر: ٧٦] ونبَّه بذلك علىٰ أن[2] الاستكبار والتكبر شيء واحد، والاستكبار علىٰ وجهين، أحدهما: أن يتحرَّىٰ الإنسان ويطلب أن يكون كبيرًا، وذلك متىٰ كان

---

(١) تقدم هذا الحديث غير مرة.

(٢) المفردات للراغب ص ٤٢١ - ٤٢٢.

على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب فمحمود. والثاني: أن يتشبَّع فيُظهِر من نفسه ما ليس له، فهذا هو المذموم، وعليه ورد القرآنُ، كهذا القول، وكقوله: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] وكقوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٣، يونس: ٧٥] ونبَّه بقوله «مجرمين» أن حاملهم على ذلك ما تقدَّم من جُرْمهم، وأن ذلك دأبهم لا أنه شيء حادث منهم.

(**ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابًا أشدهم عِتِيًّا على الله تعالى فقال:** ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾) أي جماعة وفرقة (﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾) [مريم: ٦٩] قيل[(١)]: العِتيُّ هنا مصدر، وقيل: جمع عاتٍ، وأصل العُتُوِّ النُّبُوُّ عن الطاعة، وقد عتا عُتُوًّا وعِتِيًّا: استكبر وجاوز الحدَّ، فهو عاتٍ وعِتِيٌّ، والجمع: عُتِيٌّ، بالضم.

(**وقال تعالى:** ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾ [النحل: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ [سبأ: ٣١] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر: ٤٧ - ٤٨].

(**وقال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾) عن دعائي أو صلاتي (﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾) [غافر: ٦٠] أي صاغرين أذلاَّء.

(**وقال تعالى:** ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾) قال ابن جريج: عن خلق السموات

---

(١) المفردات للراغب ص ٣٢١ - ٣٢٢. المصباح المنير للفيومي ص ٣٩٢. المحكم لابن سيده ٢/ ٢٤٠.

والأرض وما فيها من الآيات[1] (﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] **قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم**) وذلك بالطبع عليها. رواه ابن المنذر وأبو الشيخ[2] عن سفيان بن عيينة بلفظ: سأنزع عنهم فهم القرآن (**وفي بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت**)[3] فلا يشاهدون أسرارها. وقيل[4]: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا، وقوله «بغير الحق» صلة «يتكبرون» أو حال من فاعله (**وقال ابن جريج**) هو[5] عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي [ثقة] فقيه فاضل، مات سنة خمسين [ومائة] أو بعدها، روىٰ له الجماعة (**سأصرفهم عن أن يتفكَّروا فيها ويعتبروا بها**) رواه ابن المنذر وأبو الشيخ عنه.

(**ولذلك قال عيسىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إن الزرع ينبت في السهل**) وهو الموضع الليِّن من الأرض (**ولا ينبت علىٰ الصفا**) أي الحجر الأملس (**كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع**) للينه وسهولته (**ولا تعمل في قلب المتكبر**) لصلابته (**ألا ترون أن مَن شمخ برأسه**) أي تطاول (**إلىٰ السقف شجَّه**) السقف (**ومَن تطأطأ**) برأسه (**أظلَّه وأكنَّه**)[6].

(**فهذا مثل ضربه**) عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ (**للمتكبرين وأنهم كيف يُحرَمون الحكمة،**

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١٠/ ٤٤٣ بلفظ: «عن خلق السموات والأرض والآيات التي فيها، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا بها». وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٩١ وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ في تفسيريهما.

(٢) العظمة ١/ ٣١٥. ورواه أيضا الطبري في جامع البيان ١٠/ ٤٤٣.

(٣) الرعاية للحارث ص٣٠١، وذكر السلمي في تفسيره ١/ ٢٤٣ عن ابن عطاء قوله: سأمنع قلوبهم وأسرارهم وأرواحهم عن الجولان في ملكوت القدس عن الحق.

(٤) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ٣٤.

(٥) تقريب التهذيب ص ٦٢٤.

(٦) الرعاية للمحاسبي ص٣٠١.

ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال): الكبر (**مَن سفهَ الحقَّ**) أي جحده (**وغمص الناسَ**) بالمهملة، أي احتقرهم. قال العراقي[1]: رواه مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال: «بطرُ الحقِّ وغمطُ الناس». ورواه الترمذي فقال: «مَن بطر الحقَّ وغمص الناسَ» [وقال: حسن صحيح] ورواه أحمد من حديث عُقبة بن عامر بلفظ المصنف، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا.

قلت: حديث ابن مسعود قد تقدم قريبًا من طريق القشيري، وفيه: فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمص الناس». وعند مسلم «وغمط» بدل «وغمص»، والمعنىٰ واحد. وأما حديث أبي ريحانة فلفظه: فقال قائل: يا رسول الله، إني أحب أن أتجمَّل بسير سوطي وشِسْع نعلي. فقال: «إن ذلك ليس بالكبر [إن الله جميل يحب الجمال] إنما الكبر مَن سفه الحقَّ وغمص الناس بعينه». هكذا رواه ابن سعد وأحمد والبغوي والطبراني والبيهقي وابن عساكر. وعند أحمد من حديث ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله، يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً، ورأسي دهينًا، وشِراك نعلي جديدًا ... وذكر أشياء، حتىٰ [ذكر] علاقة سوطه، قال: «ذلك جمال، والله تعالىٰ جميل يحب الجمال، ولكن الكبر مَن بطر الحق وازدرىٰ الناس». وفي حديث عبد الله بن عمرو في أثناء حديث وصية نوح عليه السلام لابنه: قيل: يا رسول الله، ما الكبر؟ أهو أن يكون للرجل حُلَّة حسنة يلبسها وفرس جميل يعجبه جماله؟ قال: «لا، الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس». وهكذا رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والطبراني والحاكم، وقد تقدم. ورواه أبو يعلىٰ والبيهقي وابن عساكر بلفظ: فقال معاذ بن جبل: يا رسول الله، أمن الكبر أن تكون لأحدنا دابة يركبها والنعلان يلبسهما والثياب يلبسها والطعام

---

(١) المغني ٢/٩٥٧.

يجمع عليه أصحابه؟ قال: «لا، ولكن الكبر أن تسفه الحق وتغمص المؤمن».
وروىٰ ذلك عبد بن حميد من حديث جابر، وقد تقدم أيضًا[1].

(١) تقدمت هذه الأحاديث كلها في بيان ذم الكبر، عدا حديث عقبة بن عامر، وقد أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/ ٥٩٩.

بيان المتكبَّر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

(اعلمْ) أرشدك الله (أن المتكبَّر عليه هو الله أو رسله أو سائر خلقه، وقد خُلق الإنسان ظلومًا) كثير الظلم على نفسه (جهولاً) كثير الجهل بمعرفة ربه (فتارةً يتكبر على الخلق، وتارةً يتكبر على الخالق. فإذًا التكبر باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أقسام):

(القسم الأول: التكبر على الله) بالامتناع عن قبول الحق والانقياد له (وذلك هو أفحش أنواع الكبر) وأغلظها (ولا مَثار له إلا الجهل المحض والطغيان) البالغ (مثل ما كان من نُمْروذ) بضم النون وسكون الميم والذال المعجمة، وهو ابن كنعان بن سِنْحاريب بن النمروذ، من ولد كوش بن سام بن نوح عليه السلام، وهو الذي حاجَّ إبراهيم في ربه (فإنه كان يحدِّث نفسَه بأن يقاتل ربَّ السماء) ويُحكَى أنه كان يرمي بالسهام إلى السماء فترجع إليه مضمخة بالدم فيزعم أنه قتل مَن في السماء (وكما يُحكَى عن جماعة من الجَهَلة) من أضرابه (بل ما يُحكَى عن كل مَن ادَّعى الربوبية مثل فرعون) وهو الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير، من ولد لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، وهو فرعون موسى عليه السلام، و«فرعون» لقب له (وغيره) من أشباهه (فإنه) أي فرعون موسى (لتكبُّره قال) فيما حكى عنه الله في كتابه: (﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤] إذ استنكف أن يكون عبدًا لله) تعالى (ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾) [غافر: ٦٠] أي أذلاء صاغرين (وقال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية) أي إلى آخرها وهو قوله: ﴿وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾ ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٢ - ١٧٣] (وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا

ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠] فكل ذلك من التكبر على الله تعالىٰ، وهو أفحش الأنواع(١).

(القسم الثاني: التكبر علىٰ الرسل) الكرام (من حيث تعزُّز النفس وترفُّعها عن الانقياد) والامتثال لِما يأمرون (لبشر مثل سائر الناس، ولذلك يُصرَف تارةً عن الفكر والاستبصار فيبقىٰ في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانٌّ أنه مُحِقٌّ فيه) وهذا لا معرفة معه، إن يظن إلا ظنًّا (وتارةً يمتنع) عن الانقياد (مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقوله) عنهم: (﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ﴾ [الأنعام: ٨].

وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩] فتكبر علىٰ الله وعلىٰ رسوله جميعًا) وكبره علىٰ الله بادِّعائه الألوهية والربوبية، وكبره علىٰ الرسول بعدم الانقياد لِما جاء به (وقال وهب) ابن منبه رحمه الله تعالىٰ: يُروَىٰ أنه (قال له موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: آمِنْ) بالله (ولك مُلْكك. قال: حتىٰ أشاور هامان) وكان وزيره الذي يصدر عن رأيه (فشاور هامان، فقال هامان: بينما أنت رب تُعبَد إذ صرتَ عبدًا تَعبُد)(٢) غيرك (فاستنكف) فرعون (عن عبودية الله وعن اتِّباع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ) فهذا تكبُّره علىٰ الله.

(وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

---

(١) انظر: شرح ابن بطال علىٰ البخاري ٩/ ٢٦٦- ٢٦٨.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣٠٤.

ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾) [الزخرف: ٣١] والمراد بالقريتين: مكة والطائف (**قال قتادة**) بن دعامة البصري: (**عظيما القريتين هما الوليد بن المغيرة**) بن عبد الله بن عمر بن مخزوم من أهل مكة (**وأبو مسعود الثقفي**) من أهل الطائف[(١)] (**طلبوا مَن هو أعظم رياسةً من النبي ﷺ، حيث قالوا: غلام يتيم**) مات أبواه (**كيف بعثه الله إلينا؟! فقال تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾** [الزخرف: ٣٢])[(٢)].

(**وقال الله تعالىٰ: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾** [الأنعام: ٥٣] **أي استحقارًا لهم واستبعادًا لتقدُّمهم**).

(**وقالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ إشارة إلىٰ فقراء المسلمين، فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾** [الأنعام: ٥٢] **وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾**) [الكهف: ٢٨] قال العراقي[(٣)]: رواه مسلم[(٤)] من حديث سعد بن أبي وقاص، إلا أنه قال: فقال المشركون. وقال ابن ماجه[(٥)]: قالت قريش.

قلت: لفظ حديث سعد عند مسلم قال: كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة

---

(١) اتفق المفسرون علىٰ أن المراد بالقريتين مكة والطائف، أما عظيم مكة فهو الوليد بن المغيرة عند أغلب المفسرين، وقيل: عتبة بن ربيعة. أما عظيم الطائف فاختلفوا فيه، فقيل: عروة بن مسعود، وقيل: حبيب بن عمرو، وقيل: مسعود بن عمرو، وقيل: ابن عبد ياليل بن كنانة، وقيل: كنانة بن عبد عمرو بن عمير. انظر: الدر المنثور للسيوطي ١٣/ ٢٠١ - ٢٠٣. جامع البيان للطبري ٢٠/ ٥٨٠ - ٥٨٢. تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢٥ - ٢٢٦. تفسير القرطبي ١٩/ ٣٦.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣٠٤.

(٣) المغني ٢/ ٩٥٨.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١١٣٤.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٦٩.

نفر، فقال المشركون: اطردْ هؤلاء عنك فإنهم وإنهم[١]. قال: فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذَيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما. قال: فوقع في نفس النبي ﷺ من ذلك ما شاء الله [أن يقع] فحدَّث به نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

وقد رواه أبو نعيم في الحلية[٢] فقال: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد، حدثنا عبد الله بن شيرويه، حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا عبيد الله بن موسىٰ، حدثنا إسرائيل، عن المِقدام بن شُرَيح الحارثي، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله ﷺ ... فذكره.

ولفظه عند ابن ماجه: قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم ابن مسعود. قال: كنا نستبق إلىٰ النبي ﷺ ندنو إليه، فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا؟! فكأنَّ النبي ﷺ همَّ بشيء، فنزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية[٣].

وقد رواه أبو نعيم في الحلية[٤] فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان الثوري، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت ... فذكره.

وفي الباب خبَّاب بن الأرت وسلمان الفارسي وابن مسعود:

---

(١) في صحيح مسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٤٦.

(٣) هذا ليس لفظ ابن ماجه، وإنما لفظه: «نزلت هذه الآية فينا ستة: فيَّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال، فقالت قريش لرسول الله ﷺ: إنا لا نرضىٰ أن نكون أتباعا لهم، فاطردهم عنك. فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فأنزل الله ﷻ هذه الآية».

(٤) حلية الأولياء ١/ ٣٤٥.

أما حديث خبَّاب فقال أبو بكر ابن أبي شيبة في المصنف(١): حدثنا أحمد ابن المفضَّل، حدثنا أسباط بن نصر، عن السُّدِّي، عن أبي سعيد الأزدي، عن أبي الكَنُود، عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا النبي ﷺ قاعدًا مع بلال وعمار وصهيب وخباب في أناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حقَّروهم، فخلوا به فقالوا: إنَّا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب قعودًا مع هذه الأعبُد، فإذا نحن جئناك فأقِمْهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئتَ. قال: «نعم». قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا. فدعا بالصحيفة ليكتب لهم، ودعا عليًّا ليكتب، فلما أراد ذلك ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ ثم ذكَّره فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فرمىٰ رسول الله ﷺ بالصحيفة ودعانا، فأتيناه وهو يقول: «سلام عليكم». فدنونا منه حتىٰ وضعنا رُكَبنا علىٰ ركبتيه، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول: لا تَعْدُ عيناك عنهم [يقول: ولا] تجالس الأشراف ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨] أما الذي أغفل قلبه فهو عيينة بن حصن والأقرع، وأما فرطًا فهلاكًا [ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال: فكنا بعد ذلك نقعد مع النبي ﷺ] فإذا بلغنا الساعةَ التي كان يقوم فيها قمنا وتركناه حتىٰ يقوم، وإلا صبر أبدًا حتىٰ نقوم.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٧٨ حتىٰ قوله (فتكون من الظالمين) ولم يذكر ما بعده. ولكن رواه تاما في مسنده ١/ ٣١٨ - ٣٢٠.

ورواه أبو نعيم في الحلية[١] من طريقه وقال: رواه عمر بن محمد العنقزي عن أسباط مثله.

وأما حديث سلمان الفارسي، فقال الحسن بن سفيان في مسنده[٢]: حدثنا أبو وهب الحَرَّاني، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مَسلمة بن عبد الله، عن عمِّه، عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلىٰ رسول الله ﷺ عيينة والأقرع بن حابس وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المسجد ونحَّيت عنا هؤلاء وأرواح جِبابهم - يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين، وكان عليهم جِباب الصوف، ولم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ۝٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ حتىٰ بلغ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ يتهدَّدهم بالنار. فقام نبي الله يلتمسهم حتىٰ أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا والمَمات».

وأما حديث ابن مسعود، فقال إسحاق بن راهويه في مسنده[٣]: أخبرنا جرير، عن أشعث بن سوار، عن كردوس، عن عبد الله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش علىٰ رسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار ونحوهم ناس من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟! أفنحن

(١) حلية الأولياء ١/ ١٤٦، ٣٤٤.

(٢) ومن طريقه رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٩٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٤٥. ومن غير طريقه رواه الطبري في جامع البيان ١٥/ ٢٤٠ - ٢٤١. ومن الطريقين رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/ ٤٠٥.

(٣) ومن طريقه رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٤٦. ومن غير طريقه رواه أحمد في مسنده ٧/ ٩٢، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٦٨، والبزار في مسنده ٥/ ٤٠٩.

نكون تبعًا لهؤلاء؟! أهؤلاء الذين منَّ اللهُ عليهم من بيننا؟! اطردْهم [عنك] فلعلَّك إن طردتهم اتَّبعناك. قال: فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

(ثم أخبر الله تعالىٰ عن تعجُّبهم حين دخلوا جهنم؛ إذ لم يروا) فيها (الذين استرذلوهم) واستضعفوهم (فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ [ص: ٦٢] قيل: عنوا عمارًا وبلالاً وصهيبًا والمقداد ﷺ)[١] أخرج[٢] عبد بن حميد وابن جرير[٣] وابن المنذر وابن أبي حاتم[٤] عن مجاهد قال: ذلك قول أبي جهل في النار، يقول: ما لي لا أرىٰ رجالاً بلالاً وعمارًا وصهيبًا وخبابًا وفلانًا وفلانًا، أتَّخذناهم سِخْريًّا وليسوا كذلك أم زاغت عنهم الأبصار. قال: أمْ هم في النار ولا نراهم؟ وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: هم عبد الله بن مسعود ومَن معه. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر[٥] عن شِمْر بن عطية قال: يقول أبو جهل في النار: أين خباب؟ أين صهيب؟ أين بلال؟ أين عمار؟

(ثم كان منهم مَن منعه الكبرُ عن الفكر والمعرفة فجهلَ كونَه ﷺ محقًّا، ومنهم مَن عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف، قال الله تعالىٰ مخبرًا عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾) [البقرة: ٨٩] وهؤلاء طائفة اليهود، فإنهم عرفوا أنه ﷺ مُحِقٌّ ومنعهم كبرُهم عن الاعتراف (وقال) تعالىٰ: (﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾) أي الآيات الدالَّة علىٰ صدقه (﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾) [النمل: ١٤] أي تكبرًا وعنادًا وترفُّعًا (وهذا الكبر قريب من التكبر علىٰ الله، وإن كان دونه، ولكنه تكبرٌ علىٰ قبول أمر الله والتواضع لرسوله) ﷺ.

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣٠٥.

(٢) الدر المنثور ١٢/ ٦١٥.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ١٣٦ - ١٣٨.

(٤) في الدر: (وابن عساكر) بدل: وابن أبي حاتم. والأثر في تاريخ دمشق ١٠/ ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٥) وكذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٢٦.

(القسم الثالث: التكبر علىٰ العِباد، وذلك بأن يستعظم نفسَه) أي يعدُّها عظيمة المنزلة (ويستحقر غيرَه، فتأبىٰ نفسُه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلىٰ الترفُّع عليهم، ويزدريهم ويستصغرهم) أي يستذلُّهم (ويأنف من مساواتهم. وهذا وإن كان دون الأول والثاني) الذي هو التكبر علىٰ رسله (فهو أيضًا عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء) وكل ذلك ألفاظ متقاربة (لا يليق إلا بالملك القادر) جلَّ جلاله (فأما العبد المملوك الضعيف) في نفسه (العاجز) عن دفع الضر عنها (الذي لا يقدر علىٰ شيء) من خير أو شر (فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع اللهَ تعالىٰ في صفة لا تليق إلا بجلاله) وعظمته (ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك) أي تاجه الذي يضعه علىٰ رأسه وبه يتميَّز عن غيره (فيضعها علىٰ رأسه ويجلس علىٰ سريره) الذي من عادته أن يجلس عليه (فما أعظم استحقاقه للمقت) من الملك! (وما أعظم تهدُّفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه) أي جراءته (علىٰ مولاه! وما أقبح ما تعاطاه! وإلىٰ هذا المعنىٰ الإشارة بقوله تعالىٰ) في الحديث القدسي: (العظمة إزاري، والكبرياء رِدائي، فمَن نازعني فيهما قصمته) رُوي ذلك من حديث أبي هريرة، وقد تقدم الكلام عليه في أول هذا الكتاب قريبًا (أي إنه خاصُّ صفتي، ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي) وإنما[1] مثَّلهما بالإزار والرداء إبرازًا للمعقول في صورة المحسوس، فكما لا يشارَك الرجل في ردائه وإزاره لا يشارَك الباري في هذين [الوصفين] فإنه الكامل المنعم المتفرد بالبقاء، وما سواه ناقص محتاج. وفي الحديث إشارة إلىٰ أن العظمة أرفع من الكبرياء وأقرب إليه منها كما أن الإزار أقرب في اللباس من الرداء (وإذا كان الكبر علىٰ عباده لا يليق إلا به فمَن تكبر علىٰ عباده فقد جنىٰ عليه؛ إذ الذي يسترذل خواصَّ غلمان الملك ويستخدمهم ويترفَّع عليهم ويستأثر بما هو حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم تبلغ

(١) من هنا إلىٰ قوله (محتاج) منقول عن تحفة الأبرار للبيضاوي ١/ ٥٩.

درجته درجة مَن أراد الجلوس علىٰ سريره والاستبداد بمُلكه) أي الاستقلال به (فالخلق كلهم عباد الله، وله العظمة) التامة (والكبرياء) والعلو (عليهم، فمَن تكبر علىٰ عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه) فيكون سببًا لقصم ظهره (نعم، الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل المُلك).

(الوجه الثاني الذي تعظُم به رذيلةُ الكبر: أنه يدعو إلىٰ مخالفة الله تعالىٰ في أوامره) ونواهيه (لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمَّر لجحده) أي إنكاره (ولذلك ترىٰ المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، ثم إنهم يتجاحدون تجاحُد المتكبرين، ومهما اتضح الحق علىٰ لسان واحد منهم أنفَ الآخَرُ من قبوله، وتشمَّر لجحده، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس) والمغالطات في المحاورات (وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين؛ إذ وصفهم الله تعالىٰ) في كتابه العزيز (فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخُلق، وكذلك يُحمَل ذلك علىٰ الأَنَفة من قبول الوعظ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] رُوي عن عمر) بن الخطاب (رضي الله عنه أنه قرأها) أي هذه الآية فاسترجع (فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) إشارة إلىٰ أن ما سيذكره مصيبة عظيمة وهي: (قام رجل فأمر بالمعروف فقُتل، فقام) رجل (آخر وقال: أتقتلون الذين يأمرون بالقِسط من الناس؟! فقُتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره بالمعروف كبرًا) وعزة، فهذا معنىٰ قوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ رواه ابن جرير[1] عن أبي الخليل قال: سمع عمر إنسانًا يقرأ هذه الآية فاسترجع فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر فقُتل. ورواه[2] أيضًا

---

(١) جامع البيان ٣/ ٥٩٣ - ٥٩٤.

(٢) السابق ٣/ ٥٨٨ - ٥٨٩.

عن ابن زيد أن ابن عباس قرأ هذه الآية عند عمر فقال: اقتتل الرجلان. فقال له عمر: ماذا [قلتَ]؟ قال: يا أمير المؤمنين، أرىٰ ههنا مَن إذا أُمِر بتقوىٰ الله أخذته العزةُ بالإثم، وأرىٰ مَن يشري نفسه ابتغاءَ مرضاة الله، [يقوم هذا] فيأمر هذا بتقوىٰ الله، فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال هذا: إنما أشري نفسي. فقاتلَه، فاقتتل الرجلان، فقال عمر: لله دَرَّك يا ابن عباس.

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(كفىٰ بالرجل إثمًا إذا قيل له اتقِ الله قال: عليك نفسك)** رواه ابن المنذر في تفسيره[1] بلفظ: إن من أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه: اتقِ الله، فيقول: عليك بنفسك.

(وقال ﷺ لرجل: كلْ بيمينك. قال: لا أستطيع. فقال ﷺ: لا استطعتَ، فما منعك إلا كبرٌ. قال: فما رفعها بعد ذلك. أي اعتلَّت يده)[2] قال العراقي[3]: رواه مسلم[4] من حديث سلمة بن الأكوع.

(فإذًا تكبرُه علىٰ الخلق عظيم؛ لأنه سيدعوه إلىٰ التكبر علىٰ أمر الله، وإنما ضُرب إبليس مثلاً لهذا، وما حُكي من أحواله إلا ليُعتبَر به، فإنه قال: أنا خير منه) أي من آدم عليه السلام **(وهذا الكبر بالنسب؛ لأنه قال)** بعد ذلك: **(خلقتني من نار وخلقته من طين)** والنار أشرف من التراب **(فحمله ذلك علىٰ أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالىٰ به، فكان مبدؤه التكبر علىٰ آدم)** عليه السلام **(والحسد له)** علىٰ ما أنعم عليه

---

(١) وكذلك النسائي في السنن الكبرىٰ (زيادات التحفة) ٩/ ٣١٤، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٦/ ٢٥٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٥١٠، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ ١١٩، وهناد في الزهد ٢/ ٤٦٣، وقد رواه النسائي في الكبرىٰ (زيادات التحفة) ٩/ ٣١٣ مرفوعًا من حديث ابن مسعود أيضًا.

(٢) كذا هو في الرعاية للمحاسبي ص٣٠٦، وعنه ينقل الغزالي، ولفظ مسلم: «ما منعه إلا الكبر»، وباقيه تفسير من الراوي كما هو ظاهر، وقد أشار إليه القرطبي في المفهم ٥/ ٢٩٧.

(٣) المغني ٢/ ٩٥٨.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٩٧٢.

(فجرَّه ذلك إلىٰ التكبر علىٰ أمر الله، وكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد. فهذه آفة من آفات الكبر علىٰ العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين؛ إذ سأله ثابت بن قيس بن شمَّاس) بن[١] زهير بن مالك ابن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، خطيب الأنصار، يكنىٰ أبا محمد، وقيل: أبا عبد الرحمن، قُتل يوم اليمامة **(فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حُبِّب إليَّ من الجمال ما ترىٰ، أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: لا، ولكن الكبر مَن بطر الحقَّ وغمص الناس)**[٢] قال العراقي[٣]: رواه مسلم والترمذي، ولكن ليس فيهما أن القائل هو ثابت بن قيس، وإنما رواه الطبراني[٤] من حديثه، وقد تقدم. انتهىٰ.

قلت: وكذلك رواه الباوردي وابن قانع[٥] من حديث ثابت بن قيس بلفظ: «إنه ليس من الكبر أن تحسن راحلتك ورحلك، ولكن الكبر مَن سفه الحقَّ وغمص الناس». وعند سمويه في فوائده من حديث ثابت بن قيس قال: يا رسول الله، إني لأحبُّ الجمال، حتىٰ إني لأحبُّه في شِراك نعلي وجلاز سوطي، وإن قومي يزعمون أنه من الكبر. فقال: «ليس الكبر أن يحب أحدكم الجمال، ولكن الكبر أن يسفه الحقَّ ويغمص الناس». ورواه الطبراني كذلك. ورواه ابن عساكر[٦] من حديث خُرَيم بن فاتك. ورواه الطبراني[٧] أيضًا من رواية فاطمة بنت الحسين عن أبيها

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ١٤ - ١٥.

(٢) كذا هو في الرعاية ص٣٠٧، وعنه الإمام ينقل.

(٣) المغني ٢/ ٩٥٨.

(٤) المعجم الكبير ٢/ ٦٩.

(٥) معجم الصحابة ١/ ١٢٦ - ١٢٧ بلفظ: ذُكر الكبر عند النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور». ثم قال رسول الله ﷺ: «الكبر من سفه الحق وغمص الناس».

(٦) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٥١.

(٧) المعجم الكبير ٣/ ١٤٣، ولفظه: «جاء عبد الله بن عمرو إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أمن الكبر أن ألبس الحلة الحسنة؟ قال: لا. قال: أفمن الكبر أن أركب الناقة النجيبة؟ قال: لا.=

مرفوعًا. ورواه الطبراني[1] وسمويه أيضًا والضياء من حديث سواد بن عمرو الأنصاري.

(وفي حديث آخر: مَن سفه الحقَّ) وغمص الناس. رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر (وقوله: غمص الناس) بالصاد المهملة (أي ازدراهم واستحقرهم) و«غمط» بالطاء المهملة كما في رواية مسلم من حديث ابن مسعود بمعناه (وهم عباد الله أمثاله أو خير منه، وهذه الآفة الأولىٰ، وسفهُ الحق هو) جهله و(ردُّه، وهي الآفة الثانية، فكل مَن رأىٰ أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار أو ردَّ الحقَّ وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومَن أنفَ من أن يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتِّباع رسله فقد تكبَّر فيما بينه وبين الله تعالىٰ والرسل).

= قال: أفمن الكبر أن أصنع طعاما فأدعو قوما يأكلون عندي ويمشون خلف عقبي؟ قال: لا. قال: فما الكبر؟ قال: أن تسفه الحق وتغمص الناس».

(١) السابق ٧/ ١١٣.

بيان ما به التكبر

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أنه لا يتكبر إلا مَن استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجُمَّاع ذلك يرجع إلىٰ كمال ديني ودنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب) اثنان منها يتعلقان بالدين، والخمسة بالدنيا:

(الأول: العلم، وما أسرع الكبر إلىٰ العلماء! ولذلك قال ﷺ: آفة العلم الخيلاء) قال العراقي[١]: هكذا ذكره المصنف، والمعروف «آفة العلم النسيان، وآفة الجمال الخيلاء». كذا رواه القضاعي في مسند الشهاب[٢] من حديث علي بسند ضعيف، وروىٰ عنه الديلمي في مسند الفردوس: «آفة الجمال الخيلاء»، وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفي، لا يُدرَىٰ مَن هو، حدَّث عن أبيه بحديث موضوع؛ قاله صاحب الميزان[٣]. انتهىٰ.

قلت: لفظ القضاعي في مسند الشهاب: «آفة الظَّرْف الصَّلَف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المنُّ، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة العبادة الفترة، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة الحلم السَّفَه، وآفة الحسب الفخر، وآفة الجود السَّرَف، وآفة الدين الهوىٰ». وهكذا رواه أيضًا ابن لال في مكارم الأخلاق والديلمي والبيهقي في الشعب[٤] وضعَّفه، رووه من حديث جعفر بن محمد عن

---

(١) المغني ٢/ ٩٥٨ - ٩٥٩.

(٢) مسند الشهاب ١/ ٧٨ - ٧٩.

(٣) ميزان الاعتدال ١/ ٥٠٢، وعبارته: «الحسن بن عبد الحميد الكوفي، عن أبيه، لا يدرىٰ من هو، روىٰ عنه محمد بن بكير حديثا موضوعا في ذكر علي عليه السلام».

(٤) شعب الإيمان ٦/ ٣٥٨.

أبيه عن جده، ورواه القضاعي والديلمي وابن عدي في كامله[١] من طريق شعبة عن أبي إسحاق السبيعي، عن الحارث الأعور، عن علي مرفوعًا في حديث بلفظ: «آفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان». وسنده ضعيف، إلا أنه صحيح المعنىٰ.

(فلا يلبث العالِم أن يتعزَّز بعز العلم، ويستشعر في نفسه كمالَ العلم وجماله، ويستعظم نفسه، ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلىٰ البهائم، ويستجهلهم) ويستبلدهم (ويتوقَّع) منهم (أن يبدؤه بالسلام) إذا لقوه (فإن بدأ واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببِشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأىٰ ذلك صنيعة عنده ويدًا عليه يلزمه شكرُها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقُّوا له) أي يكونوا كالرقيق له (ويخدمونه شكرًا له علىٰ صنيعه) ذلك (بل الغالب أنهم يبرُّونه فلا يبرُّهم، ولا يزدرونه فيزدريهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم مَن خالطه منهم ويستسخره في حوائجه) أي يجعله سخرة في قضائها (فإن قصَّر فيه استنكره كأنَّهم عبيده أو أُجَراؤه، وكان تعليمه) إياهم (العلمَ صنيعة منه لديهم ومعروف إليهم واستحقاق حق عليهم. هذا فيما يتعلق بالدنيا، أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرىٰ نفسه عند الله أعلىٰ وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف علىٰ نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يسمَّىٰ جاهلاً أَولىٰ من أن يسمَّىٰ عالمًا، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه) بالذل والعز، والعجز والقدرة، والنقص والكمال (وخطر الخاتمة وحُجة الله علىٰ العلماء وعِظَم خطر العلم فيه، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم. وهذه العلوم تُزِيد خوفًا وتواضعًا وتخشُّعًا) وانكسارًا في القلب (وتقتضي أن يرىٰ) صاحبها أن (كل الناس خير منه؛ لعِظَم حُجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدرداء) رضي الله عنه: (مَن ازداد علمًا ازداد وجعًا[٢]. وهو كما قال.

---

(١) الكامل في الضعفاء ١/ ٥٢.

(٢) رواه الدارمي في سننه ١/ ٩٤، وأبو داود في الزهد ص ٢٢٢، وابن سعد في الطبقات =

فإن قلتَ: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرًا وأمنًا؟ فاعلمْ أن لذلك سببين:

أحدهما[1]: أن يكون اشتغاله بما يسمَّىٰ علمًا) في الظاهر (وليس بعلم حقيقي، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف العبد به نفسه وربه وخطر أمره في لقاء ربه والحجاب منه، وهذا يورث الخشيةَ والتواضع دون الكبر والأمن، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾) [فاطر: ٢٨] وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم (فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرَّد الإنسان لها) وقام بإزائها (حتىٰ امتلأ منها امتلأ بها كبرًا ونفاقًا، وهذه بأن تسمَّىٰ صناعات أَولىٰ من أن تسمَّىٰ علومًا، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذا يورث التواضعَ غالبًا).

(السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيئ الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه) من تلك الأوصاف الذميمة (بأنواع المجاهدات، ولم يَرُضْ نفسَه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أيّ علمٍ كان صادف العلمُ من قلبه منزلاً خبيثًا فلم يطبْ ثمرُه، ولم يظهر في الخير أثره، ولقد ضرب وهب) بن منبه رحمه الله تعالىٰ (لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث، ينزل من السماء حلوًا صافيًا، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوِّله علىٰ قدر طعومها، فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة، وكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوِّله علىٰ قدر هِمَمها وأهوائها، فيزيد المتكبرَ كبرًا، والمتواضعَ تواضعًا)[2] هذا آخر كلام وهب (وهذا لأن مَن كانت همَّته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد

= الكبرىٰ ٢/ ٣٠٨، والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٧٩. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٦٣ من كلام سفيان الثوري.

(١) انظر: المقدمة السابعة والثامنة من الموافقات للشاطبي، ففيها تجلية لما هنا وزيادة بيان.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣٠٩.

ما يتكبر به فازداد كبرًا، وإذا كان الرجل مع جهله خائفًا فازداد علمًا علم أن الحُجة قد تأكَّدت عليه فيزداد خوفًا وإشفاقًا وذلاً وتواضعًا) وإذا كان الرجل محبًّا للدنيا مائلاً إلىٰ تحصيل أعراضها وازداد علمًا لم يزدد إلا رغبةً فيها؛ إذ وجد ما يعينه علىٰ تحصيلها. وروىٰ الديلمي[1] من حديث علي: «مَن ازداد علمًا ولم يزدد في الدنيا زهدًا لم يزدد من الله إلا بُعدًا».

(فالعلم من أعظم ما يُتكبر به، ولأجل ذلك قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ووصف أولياءه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه العباس) بن عبد المطلب (رضي الله عنه: يكون قوم يقرأون القرآن، لا يجاوز حناجرَهم، يقولون: قد قرأنا القرآن، فمَن أقرأ منا؟ ومَن أعلم منا؟ ثم التفت إلىٰ أصحابه وقال: أولئك منكم أيتها الأمة، أولئك هم وقود النار) قال العراقي[2]: رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق[3].

(ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمُكم بجهلكم)[4] وروىٰ الخطيب في الجامع من حديث أبي هريرة: «ولا تكونوا من

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٦٠٢، وقد ضعف سنده العراقي كما مر.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٩.

(٣) الزهد والرقائق ص ١٥٧، ولفظه: «عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: يظهر هذا الدين حتىٰ يجاوز البحار، وحتىٰ يخاض بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي أقوام يقرءون القرآن، فإذا قرأوه قالوا: قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ ثم التفت إلىٰ أصحابه فقال: هل ترون في أولئك من خير؟ قالوا: لا. قال: فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار». وأورده المحاسبي في الرعاية ص٣١٢، وضعف إسناده البوصيري في إتحاف الخيرة ١/ ٢٥٠، ٢٥١، ثم ذكر له شاهدًا بإسناد حسّنه.

(٤) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٤١، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٨١، وأحمد في الزهد ص ٩٩، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٤٢. كلهم بلفظ: «تعلموا =

جبابرة العلماء». وقد تقدم[١].

(ولذلك استأذن تميم) بن أوس **(الداري عمرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **في القصص، فأبىٰ أن يأذن له وقال: إنه الذبح)**[٢] خاف عليه من الشهرة.

(واستأذنه رجل) آخر **(وكان إمام قومه أنه إذا سلَّم من صلاته ذكَّرهم)** ووعظهم، فلم يأذن له **(قال: إني أخاف أن تنتفخ حتىٰ تبلغ الثريَّا)** وقد تقدم ذلك.

(وصلىٰ حذيفة) بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(بقوم، فلما سلَّم من صلاته قال: لَتلتمسُنَّ إمامًا غيري أو لتصلُّنَّ وحدانًا)** أي منفردين **(فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني**[٣]**)**.

فإذا كان مثل حذيفة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو صاحب سر رسول الله ﷺ **(لا يَسلم فكيف يَسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟! فما أعز علىٰ بسيط الأرض عالمًا يستحق أن يقال إنه عالم ثم إنه لا يحركه عزُّ العلم)** وترفُّعه **(وخيلاؤه، فإن وُجد ذلك فهو صِدِّيق زمانه)** ووحيد عصره **(فلا ينبغي أن يفارَق، بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله، ولو عرفنا ذلك ولو في أقصىٰ الصين)** أي آخر

= العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم».

(١) بأتم مما هنا في بيان فضيلة الحلم من كتاب ذم الغضب والحسد والحقد.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٠٠ - ومن طريقه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٢١ - عن نافع قال: استأذن تميم الداري عمر بن الخطاب في القصص، فقال: إنه علىٰ مثل الذبح. فقال: إني أرجو العافية. فأذن له عمر. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١١/ ٨٠ - ٨١ من عدة طرق. وروىٰ أحمد في مسنده ٢٤/ ٤٨٩ - ٤٩٠ عن السائب بن يزيد أنه لم يكن يُقَص علىٰ عهد رسول الله ﷺ ولا أبي بكر، وكان أول من قص تميم الداري، استأذن عمر بن الخطاب أن يقص علىٰ الناس قائما، فأذن له عمر.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٣/ ١٨١ وابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨ وعبد الرزاق في المصنف ١/ ٤٨٩ حتىٰ قوله (وحدانا) ولم يذكروا ما بعده.

بلاد المشرق (لسعينا) وبذلنا المجهود في الوصول (إليه رجاءَ أن تشملنا بركتُه وتسري إلينا سيرته وسجيَّته، وهيهات! فأنَّىٰ يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأول ومَن يليهم) من أوائل القرن الثاني (بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن علىٰ فوات هذه الخصلة، فذلك أيضًا إما معدوم) بالكلية (وإما عزيز) أي نادر الوجود (ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: سيأتي علىٰ الناس زمان مَن تمسك فيه بعُشر ما أنتم عليه نجا) قال العراقي[1]: رواه الترمذي[2] من حديث أبي هريرة، وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث نعيم بن حماد. ورواه أحمد[3] من رواية رجل عن أبي ذر. انتهىٰ. قلت: ورواه ابن عدي[4] وابن عساكر[5] وابن النجار من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنتم اليوم في زمان مَن ترك عُشر ما أُمِر به هلك، وسيأتي علىٰ الناس زمان مَن عمل منهم عُشر ما أُمِر به نجا» (لكان جديرًا بنا أن نقتحم - والعياذ بالله - ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومَن لنا أيضًا بالتمسك بعُشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسَّكنا بعُشر عُشره) وهذا في زمان المصنف، وأما الآن بعد المائتين [وألف] فلا يحتاج التنبيه عليه، حيث درست رسوم الرسوم، وظهر المعلوم والمحتوم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم (فنسأل الله تعالىٰ) المنان بفضله (أن يعاملنا بما هو أهله، وأن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضلُه) آمين يا رب العالمين.

---

(١) المغني ٢/ ٩٥٩.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ١١٤.

(٣) مسند أحمد ٣٥/ ٢٩٩، ولفظه: «إنكم في زمان علماؤه كثير، خطباؤه قليل، من ترك فيه عشير ما يعلم هوىٰ - أو قال: هلك - وسيأتي علىٰ الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه، من تمسك فيه بعشير ما يعلم نجا».

(٤) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٤٨٣.

(٥) تاريخ دمشق ٥٢/ ٣٦٢.

(الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة الكبر والعز واستمالة قلوب الناس الزهاد والعُبَّاد، ويترشَّح الكبر منهم في الدين والدنيا، أما في الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم) والمجيء إليهم **(أولىٰ منهم بزيارة غيرهم)** فإذا رأوهم يزورون غيرهم يغضبون ويعاتبون **(ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم)** أي تعظيمهم **(والتوسيع لهم في المجالس)** كأنهم عبيد أُجَراء **(و)** يتوقعون أيضًا **(ذِكرهم بالورع والتقوىٰ)** ومحاسن الأخلاق **(وتقديمهم علىٰ سائر الناس في الحظوظ)** الدنيوية **(إلىٰ جميع ما ذكرناه في حق العلماء، وكأنَّهم يرون عبادتهم منَّة علىٰ الخلق)** يمتنُّون بها. هذا في الدنيا **(وأما في الدين فهو أنه يرىٰ الناس هالكين، ويرىٰ نفسه ناجيًا وهو الهالك تحقيقًا مهما رأىٰ ذلك)** واعتقده **(قال ﷺ: إذا سمعتم)** وفي[1] رواية: إذا سمعتَ **(الرجل يقول: هلك الناسُ، فهو أهلكُهم)** رُوي بضم الكاف وهي الرواية المشهورة، أي أشدهم هلاكًا أو أحقهم بالهلاك أو أقربهم إليه؛ لذمِّه الناس وذِكره عيوبهم والحط منهم. ويُروَىٰ «فهو أهلكَهم» بفتح الكاف علىٰ أنه صيغة ماضٍ، أي فهو جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا حقيقةً، أو فهو أهلكَهم لكونه أقنط عباد الله عن رحمته. أو معناه: فإنهم ليسوا هالكين إلا من قبله ومن جهته بنسبته الهلاك إليهم، وظاهره أن ذلك لا يؤثِّر فيهم ولا يقتضي هلاكَهم.

قال العراقي: رواه مسلم[2] من حديث أبي هريرة. انتهىٰ.

قلت: وكذلك رواه أحمد[3] والبخاري في الأدب المفرد[4] وأبو داود[5].

---

(١) فيض القدير للمناوي ١/ ٣٧٨. شرح صحيح مسلم للنووي ١٦/ ٢٦٧. تحفة الأبرار للبيضاوي ٣/ ٢٣٧.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢١٤.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ١١٤، ١٤/ ٢٠٤، ١٦/ ٦٢، ٤٠٩.

(٤) الأدب المفرد ص ٢٢٨.

(٥) سنن أبي داود ٥/ ٣٤٦.

(وإنما قال) ﷺ (ذلك لأن هذا القول منه يدل علىٰ أنه مزدرٍ بخلق الله) مستحقر لهم، مستصغر لشأنهم (مغترٌّ بالله) معجب بنفسه، تائه بعمله وعبادته (آمِن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف) من سطوة الله (ويكفيه شرًّا احتقاره لغيره، قال ﷺ: كفىٰ بالمرء شرًّا أن يحقر أخاه المسلم)[١] قال العراقي[٢]: رواه مسلم[٣] من حديث أبي هريرة بلفظ: «بحسب امرئ من الشر». انتهىٰ.

قلت: وكذلك رواه ابن ماجه[٤].

(وكم من الفرق بينه وبين مَن يحبه لله ويعظِّمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقرَّبون إلىٰ الله بالدنو منه، وهو يتمقَّت إلىٰ الله بالتنزُّه والتباعد منهم كأنَّه مترفِّع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبوه لصلاحه) وورعه (أن ينقلهم الله إلىٰ درجته في العمل، وما أجدره إذا ازدراهم) أي احتقرهم (بعينه أن ينقله الله إلىٰ حدِّ الإهمال) فلا يبالي به في أيِّ أودية هلك (كما رُوي أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل، لكثرة فساده) كأنه خلع عذاره (مر برجل آخر يقال له: عابد بني إسرائيل، لكثرة عبادته) لله تعالىٰ، وكلٌّ منهما اشتهر بوصف هو قائم به (وكان علىٰ رأس العابد غمامة تظلُّه) أكرمه الله بها (فلما مر الخليع به قال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل) وفاجرهم (وهذا عابد بني إسرائيل) وصالحهم (فلو جلستُ إليه لعل الله يرحمني) ببركة جلوسي إليه (فجلس إليه، فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل، فكيف يجلس إليَّ؟! فأنفَ منه) ولم يحب تقرُّبه إليه (وقال له: قمْ عني. فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبي هذا الزمان: مُرْهما) أي العابد والخليع

---

(١) كذا هو في الرعاية للمحاسبي ص٣١٠.

(٢) المغني ٢/ ٩٥٩ - ٩٦٠.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١١٩٣.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٨، وهو عند أحمد ١٣/ ١٥٩، وأبي داود (٤٨٨٢) وغيرهما.

(فليستأنفا العمل، فقد غفرت للخليع) ذنوبه (وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرىٰ: فتحوَّلت الغمامة إلىٰ رأس الخليع)[١] وقال أبو نعيم[٢] في ترجمة بكر بن عبد الله المزني قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا بلغ المبلغَ فمشىٰ في الناس تظلُّه غمامة. قال: فمر رجل قد أظلته غمامة علىٰ رجل، فأعظمه لمَّا رآه لِما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ. قال: فاحتقره صاحب الغمامة - أو قال كلمة نحوها - قال: فأُمِرت أن تُحوَّل من رأسه إلىٰ رأس الذي عظَّم أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

(وهذا يعرِّفك أن الله تعالىٰ إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل والعاصي إذا تواضع) كلٌّ منهما (وذلَّ هيبةً لله وخوفًا منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر) علىٰ إخوانه (والعابد المعجَب) بعبادته.

(وكذلك رُوي أن رجلاً في بني إسرائيل أتىٰ عابدًا) من العُبَّاد (فوطئ علىٰ رقبته وهو ساجد، فقال) العابد: (ارفع) رجلك عن رقبتي (فواللهِ لا يغفر الله لك. فأوحىٰ الله إليه: أيها المتألِّي) أي الحالف (عليَّ، بل أنت لا يغفر الله لك)[٣] قال العراقي[٤]: رواه أبو داود[٥] والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي: واللهِ لا يغفر الله لك أبدًا. وهو بغير هذه السياقة، وإسناده حسن. انتهىٰ.

قلت: سياق المصنف أخرجه الطبراني في الكبير[٦] من حديث ابن مسعود بلفظ: كان رجل يصلي، فلما سجد أتاه رجل فوطئ علىٰ رقبته، فقال الذي تحته:

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣١٠.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٢٢٦.

(٣) الرعاية للمحاسبي ص٣١٠، ٣١١.

(٤) المغني ٢/ ٩٦٠.

(٥) سنن أبي داود ٥/ ٣١٤.

(٦) المعجم الكبير ٩/ ١٧٤. ولفظه: «مر رجل برجل وهو ساجد، فوطئ علىٰ رقبته، فقال: أتطأ علىٰ رقبتي وأنا ساجد؟ والله لا يغفر الله لك أبدا. فقال الله: أتتألىٰ عليَّ؟ أما إني قد غفرت له».

واللهِ لا يغفر الله لك أبدًا. فقال الله عَزَّوَجَلَّ: تألَّىٰ عليَّ عبدي أن لا أغفر لعبدي، فإني قد غفرت له.

وأما الذي أشار إليه العراقي من رواية أبي هريرة فلفظه: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، وكان أحدهما مذنبًا، والآخر مجتهدًا في العبادة، وكان لا يزال المجتهد يرىٰ الآخر مع الذنب فيقول: أقصِرْ. فوجده يومًا علىٰ ذنب، فقال له: أقصِرْ. فقال: خلِّني وربي، أبُعِثتَ عليَّ رقيبًا؟! فقال: واللهِ لا يغفر الله لك - أو: لا يدخلك الله الجنةَ. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا أو كنت علىٰ ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: اذهبوا به إلىٰ النار»[1]. وهكذا رواه أحمد[2].

(**ولذلك قال الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ في سياق كلامه: (**حتىٰ إن صاحب الصوف أشد كبرًا من صاحب المطرف الخز**)[3] المُطْرَف[4]: ثوب مربع [من خز] له أعلام، وأطرفتُه إطرافًا: إذا جعلت في طرفيه عَلَمينِ، فهو مُطرَف، وربما جُعل اسمًا برأسه غير جارٍ علىٰ فعله، وكُسرت الميم تشبيهًا بالآلة، والجمع: مَطارِف (**أي إن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرىٰ الفضل له، وصاحب الصوف يرىٰ الفضل لنفسه**) فهذا معنىٰ قول الحسن (**وهذه الآفة أيضًا قلَّما ينفكُّ عنها كثير من العُبَّاد، وهو أنه لو استخفَّ به مستخِفٌّ أو آذاه مؤذٍ استبعد أن يغفر الله**

---

(١) بعده في آخر الحديث: «قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته».

(٢) مسند أحمد ١٤/ ٤٦ - ٤٧.

(٣) الرعاية للمحاسبي ص٣١٤، ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٧/ ١٣٤ بلفظ: «إن أقواما جعلوا خشوعهم في لباسهم، وكبرهم في صدورهم، وشبَّعوا أنفسهم بلباس هذا الصوف، والله لأحدهم يلبس الصوف أعظم كبرا من صاحب المطرف بمطرفه». وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٢٨، والدولابي في الأسماء والكنىٰ ص ٦٥٣، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٩/ ١٦٩.

(٤) المصباح المنير ص ٣٧١.

له، ولا يشك في أنه صار ممقوتًا عند الله، ولو آذىٰ مسلمًا آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وذلك لعِظَم قدر نفسه عنده، وهو جهل وجمعٌ بين العجب والكبر والاغترار بالله) عَزَّوَجَلَّ (وقد ينتهىٰ الحمق) أي فساد جوهر العقل (والغباوة) أي البلادة (ببعضهم إلىٰ أن يتحدَّىٰ) أي يتصدَّىٰ للمعارضة (ويقول: سترون ما يجري عليه) من النكال (وإذا أصيب بنكبة) أي مصيبة عرضت له (زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله) وهو وحرة صدره (والانتقام [له منه][1]، مع أنه يرىٰ طبقات من الكفار) علىٰ أنواعهم (يسبُّون الله ورسوله) عَدْوًا بغير علم (وعرف جماعة آذوا الأنبياء عليهم السلام) بأشد أنواع الأذىٰ (فمنهم مَن ضربهم) ومنهم مَن وطئ رقابهم بسلا جزور وهو ساجد، ومنهم مَن شجَّهم (ومنهم مَن قتلهم، ثم إن الله أمهل أكثرَهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبْه مكروهٌ في الدنيا ولا في الآخرة) لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله، كما في الخبر (ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم علىٰ الله من أنبيائه) ورسله (وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه به، ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره، وهو غافل عن هلاك نفسه. فهذه عقيدة المغترِّين) وهي من أكبر الآفات (وأما الأكياس) أي العقلاء (من العُبَّاد فيقولون) مثل (ما كان يقوله عطاء السليمي) البصري العابد (حين كانت تهب ريح أو تقع صاعقة) أو نحو ذلك من الآيات المخوفة (ما يصيب الناسَ ما أصابهم إلا بسببي، ولو مات عطاء) يعني نفسه (لتخلَّصوا) واسترحوا. أخرجه أبو نعيم في الحلية، وتقدم (و) مثل (ما قال الآخَر) وهو يونس بن عبيد البصري[2] (بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم) ممَّن حضر (لولا كوني فيهم) وقد تقدم أيضًا (فانظر إلىٰ الفرق بين الرجلين، هذا يتقي الله ظاهرًا وباطنًا وهو) مع ذلك (وَجِلٌ علىٰ نفسه) خائف من ربه (مزدرٍ لعمله وسعيه، وذاك) الآخَر (ربما

(١) زيادة من أ، وط الشعب ١١/ ١٩٥٦، وط المنهاج ٦/ ٥١١.

(٢) لعله بكر بن عبد الله المزني، كما عند الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٥، والله أعلم.

يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتنُّ على الله بعمله) مَن يكون أخس منه؟ (ومَن اعتقد جزمًا أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميعَ عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي) وأغلظها (وأعظم شيء يبعد العبدَ عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ولذلك رُوي أن رجلاً ذُكر بخير للنبي ﷺ، فأقبل) ذلك الرجل (ذات يوم، فقالوا) وفي نسخة: فقيل (يا رسول الله، هذا) الرجل (الذي ذكرناه لك. فقال) ﷺ: (إني أرى في وجهه سفعة) بالفتح والضم، أي أثر سواد أُشرِب بحمرة (من الشيطان. فسلَّم) الرجل (ووقف على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أسألك بالله، حدثتك نفسُك أن ليس في القوم أفضل منك؟ قال: اللهم نعم) قال العراقي[1]: رواه أحمد[2] والبزار[3] والدارقطني[4] من حديث أنس بسند حسن[5].

(فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه، وهذه آفة لا ينفكُّ عنها أحد من العُبَّاد إلا مَن عصمه الله) بفضله (لكن العلماء والعُبَّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقرًّا في قلبه، يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فِعل مَن يرى غيره خيرًا من نفسه، وهذا قد رسخت في قلبه شجرة الكبر، ولكنه قطع أغصانها بالكلية) ولم يَدَعها تتفرَّع.

(الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفُّع في المجالس، والتقدم على الأقران،

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٠.

(٢) لم أقف عليه في مسند أحمد.

(٣) مسند البزار ١٤/ ٦٠، ٦١، وأعله بتفرد شريك.

(٤) سنن الدارقطني ٢/ ٣٩٨، ٣٩٩، وفيه موسى بن عبيدة، وهو متروك لا تحل الرواية عنه، انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ١٥٢، ومجمع الزوائد ٦/ ٢٢٧.

(٥) واستغربه الحافظ في المطالب العالية ١٢/ ٥٣٨، وذكر أن له شواهد.

وإظهار الإنكار علىٰ مَن يقصِّر في حقه) أو يتأخر في قضاء حوائجه **(وأدنىٰ ذلك في العالِم أن يصعِّر خده للناس كأنه مُعرِض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه وتقطب عينيه)**(١) يقال: قَطَبَ بين عينيه، من حد ضرب: إذا جمع بينهما **(كأنه متنزِّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتىٰ تقطب، ولا في الوجه حتىٰ يعبس، ولا في الخد حتىٰ يصعَّر، ولا في الرقبة حتىٰ تُطأطأ، ولا في الذيل حتىٰ يُضَم، إنما الورع في القلوب)** قال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرَىٰ [علىٰ] الرجل من الخشوع أكثر ممَّا في قلبه **(قال رسول الله ﷺ: التقوىٰ ههنا. وأشار إلىٰ صدره)** رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم(٢). وعند أبي يعلىٰ: «التقوىٰ ههنا» قاله ثلاثًا وأشار إلىٰ قلبه **(فقد كان رسول الله ﷺ أكرم الخلق)** علىٰ الله **(وأتقاهم، وكان)** مع ذلك **(أوسعهم خُلقًا، وأكثرهم بِشرًا وتبسُّمًا وانبساطًا)** كل ذلك تقدم في كتاب أخلاق النبوة **(ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ)** هكذا في سائر نسخ الكتاب، وهو خطأ، والصواب: عبد(٣) الله بن الحارث بن جزء، وهو الذي له صحبة، وتمام نسبه بعد جَزْء بفتح الجيم وسكون الزاي: هو ابن عبد الله بن معدي كرب بن عمرو بن عصم بن عمرو بن عويج بن عمرو بن زُبَيد الزُّبَيدي، حليف أبي وَداعة السهمي وابن أخي مَحْمية بن جزء الزبيدي. قال البخاري(٤): له صحبة، سكن مصر. روىٰ عن النبي ﷺ أحاديث حفظها عنه المصريون، ومن آخرهم يزيد بن أبي حبيب. قال ابن يونس(٥): مات سنة ست وثمانين بعد أن عمي. وكانت وفاته بسَفْط القدور؛ قاله الطحاوي. وهو آخر مَن مات من الصحابة بمصر. وسفط القدور:

---

(١) في الجميع: يقطب جبينه.

(٢) في كتاب عجائب القلب.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ٤٤.

(٤) التاريخ الكبير ٥/ ٢٣ - ٢٤.

(٥) تاريخ مصر ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

قرية بمصر من المنوفية، تُعرَف الآن بسفط عبد الله[1]، وقد زرتُ مقامه بها مرارًا، والعامة تزعم أنه عبد الله بن سلام، وهو خطأ (**يعجبني من القرَّاء**) أي العلماء (**كل طليق**) الوجه (**مِضحاك**) أي كثير الضحك (**فأما الذي تلقاه ببِشر ويلقاك بعبوس يمنُّ عليك بعلمه فلا أكثر اللهُ في المسلمين مثله**[2]. **ولو كان الله يرضىٰ ذلك لَما قال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝﴾**) [الشعراء: ٢١٥] وقد أورد ابن يونس في «تاريخ الصحابة الذين دخلوا مصر» في ترجمة عبد الله بن الحارث أنه قال: ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله ﷺ. رواه من طريق ابن لهيعة حدثنا عبيد الله بن المغيرة قال: سمعت عبد الله بن الحارث يقول ... فساقه.

(**وهؤلاء الذين يظهر أثر التكبر علىٰ شمائلهم وأحوالهم أخف حالاً ممَّن هو في:**

الرتبة الثالثة: وهو الذي يظهر التكبر علىٰ لسانه حتىٰ يدعوه إلىٰ الدعوىٰ، والمفاخرة، والمباهاة، وتزكية النفس، وحكاية الأحوال والمقامات، والتشمُّر لغلبة الغير في العلم والعمل. أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العُبَّاد: مَن هو؟ وما عمله؟ ومن أين زهده؟ فيطوِّل اللسانَ فيهم بالتنقيص) والتقصير (**ثم يثني علىٰ نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا**) مدة (**ولا أنام الليل**) إلا القليل (**وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سَحَرًا ولا يُكثِر القراءةَ. وما يجري مَجراه. وقد يزكِّي نفسه ضمنًا فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولدُه وأُخِذ ماله أو مرض، أو ما يجري مَجراه، يدَّعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته فهو أنه لو وقع**

---

(١) وهي الآن تسمىٰ: سفط تراب، وتتبع مركز المحلة الكبرىٰ بمحافظة الغربية، حيث تقع علىٰ بعد ١٠ كم من مدينة المحلة.

(٢) وهو هكذا في الرعاية للمحاسبي ص٣١١، وعنه ينقل الغزالي كما سلف غير مرة، وأخرجه عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدي؛ ابن المقري في معجمه ٣٥٦، وابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان ص١٩٣، والرافعي في التدوين ٣/ ٣٣١، وابن حبان في روضة العقلاء ص٧٦.

مع قوم يصلون بالليل قام وصلىٰ أكثر ممَّا كان يصلي) حين يكون في منزله (وإن كانوا يصبرون علىٰ الجوع فيكلِّف نفسَه الصبرَ ليغلبهم ويُظهِر لهم قوته) علىٰ الجوع (وعجزهم) عنه (وكذلك يشتد في العبادة) كل ذلك (خوفًا من أن يقال: غيره أعبد منه أو أقوىٰ منه في دين الله. وأما العالِم فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنِّن في العلوم) أي صاحب فنون (ومطَّلع علىٰ الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانًا وفلانًا، ومن أنت؟ وما فضلك؟ ومن لقيتَ) من الشيوخ؟ (وما الذي سمعتَ من الحديث؟ كل ذلك ليصغِّره ويعظِّم نفسه. وأما مباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب) مُناظِره (ولا يُغلَب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمَّل بها في المحافل كالمناظرة، والجدل) والمنطق، وآداب البحث، والنحو (وتحسين العبارة، وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها علىٰ الأقران ويتعظَّم عليهم) ويُشار إليه بالأصابع (ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتىٰ يردَّ علىٰ مَن أخطأ فيها فيظهر فضلُه ونقصانُ أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليردَّ عليه، ويسوءه) أي يغمُّه (إذا أصاب) في سياقته (وأحسن خيفةً من أن يرىٰ أنه أعظم منه. فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزُّزُ بالعلم والعمل، وأين مَن يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شِعري مَن الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر) رواه القشيري في الرسالة عن علي بن أحمد الأهوازي، حدثنا أحمد بن عبيد البصري، حدثنا إبراهيم بن عبد الله، حدثنا أبو الحسن علي بن زيد الفرائضي، حدثنا محمد بن كثير - وهو المصِّيصي - عن هارون ابن حيان، عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ... فذكره، وقد تقدم (كيف يستعظم نفسه ويتكبر علىٰ غيره وهو بقول رسول الله ﷺ من أهل النار؟ وإنما العظيم) القدر عند الله (مَن خلا عن هذا، ومَن خلا عنه لم يكن فيه تعظُّم وتكبر، والعالِم هو الذي فهم أن الله تعالىٰ قال له: إنَّ لك عندنا قدرًا) أي مقامًا (ما لم ترَ لنفسك قدرًا، فإن رأيتَ لها قدرًا) ومنزلة (فلا قدْر لك عندنا. ومَن لم يعلم

هذا من الدين فاسم «العالِم» عليه كذبٌ) وزور (ومَن علمَه لزمه أن لا يتكبر ولا يرىٰ لنفسه قدرًا)، (فهذا هو الكبر بالعلم والعمل).

(الثالث: التكبر بالنسب والحسب، فالذي له نسب شريف) بأن يكون منتسبًا إلىٰ بيت شريف مشهور (يستحقر مَن ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلمًا، وقد يتكبر بعضهم فيرىٰ أن الناس له مَوالٍ وعبيد) أي بمنزلتهم (ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم) وهو يترفَّع عنهم (وثمرته علىٰ اللسان التفاخر به) بين الناس (فيقول لغيره: يا نَبَطي ويا هندي ويا أرمني) وأشباه ذلك (من أنت؟ ومَن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان، وأنَّىٰ لمثلك أن يكلمني أو ينظر إليَّ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مَجراه) ممَّا يقع في محاورة الكلام (وذلك عِرق دفين) دسَّاس (في النفس لا ينفكُّ عنه نسيب وإن كان صادقًا) وفي نسخة: صالحًا (وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشَّح ذلك منه عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضبُه أطفأ ذلك نورَ بصيرته وترشَّح منه، كما رُوي عن أبي ذر) جندب بن جنادة الغفاري رضي الله عنه (أنه قال: قاولت) أي خاصمت (رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء. فقال النبي ﷺ: يا أبا ذر، طف الصاع، طف الصاع) الصاع: مكيال معروف، وطفافه: ما قرب من ملئه، وقيل: هو ما علا فوق رأسه، شبَّههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال. كذا في مجمع البحار[١] (ليس لابن البيضاء علىٰ ابن السوداء فضلٌ) أي كلكم في الانتساب إلىٰ أب واحد بمنزلة واحدة في النقص عن غاية التمام (قال أبو ذر: فاضطجعت وقلت للرجل) المذكور: (قمْ فطأْ علىٰ خدي)[٢] قال العراقي[٣]:

---

(١) مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار لمحمد طاهر الفتني ٣/ ٤٤٩ (ط - دائرة المعارف العثمانية بالهند). وهو مأخوذ بنصه عن النهاية لابن الأثير ٣/ ١٢٩ الذي نقله عن الفائق للزمخشري ٢/ ٣٦٤. وانظر: المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي ٢/ ٢٢. لسان العرب لابن منظور ٩/ ٢٢٢.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣١٥.

(٣) المغني ٢/ ٩٦١.

رواه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف. ولأحمد من حديثه أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضُله بتقوىٰ ...» الحديث. وفي الصحيحين أنه سابَّ رجلاً فعيَّره بأمه، وفيه: فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية». وقد تقدم. ا.هـ. أي في أوائل كتاب الغضب والحقد والحسد[١].

(**فانظر كيف نبَّهه رسولُ الله ﷺ أنه رأىٰ لنفسه فضلاً**) علىٰ أخيه (**لكونه ابن بيضاء، وأن ذلك خطأ وجهل، وانظر كيف**) رجع أبو ذر و(**تاب وقلع عن نفسه شجرة الكبر بإخمص قدم مَن تكبر عليه؛ إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل**) وكل بين يديه ﷺ ولم يمنعه من ذلك وصوَّب فعله.

(**ومن ذلك ما رُوي أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ، فقال أحدهما للآخر: أنا فلان ابن فلان، فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي ﷺ: افتخر رجلان عند موسىٰ عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان .. حتىٰ عدَّ تسعة، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام: قل للذي افتخر: بل التسعة من أهل النار، وأنت عاشرهم**)[٢] وفي نسخة: وأنت العاشر. قال العراقي[٣]: رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند[٤] من حديث أبيٍّ بن كعب بإسناد صحيح، ورواه أحمد[٥] موقوفًا علىٰ معاذ بقصة

---

(١) وكذلك رواية أحمد قبله.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣١٥.

(٣) المغني ٢/ ٩٦١.

(٤) مسند أحمد ٣٥/ ١١٠. وفيه أن الرجل الآخر قال: أنا فلان ابن فلان ابن الإسلام. وفي آخره: «وأما أنت يا هذا المنتسب إلىٰ اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة».

(٥) السابق ٣٦/ ٤٠٩، ولفظه: «انتسب رجلان من بني إسرائيل علىٰ عهد موسىٰ عليه السلام، أحدهما مسلم والآخر مشرك، فانتسب المشرك فقال: أنا فلان ابن فلان .. حتىٰ بلغ تسعة آباء. ثم قال لصاحبه: انتسبْ لا أم لك. قال: أنا فلان ابن فلان، وأنا بريء مما وراء ذلك. فنادىٰ موسىٰ الناس فجمعهم ثم قال: قد قُضي بينكما، أما الذي انتسب إلىٰ تسعة آباء فأنت فوقهم العاشر في النار، وأما الذي انتسب إلىٰ أبويه فأنت امرؤ من أهل الإسلام». وقد رواه مرفوعا: الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ١٣٩ - ١٤٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ١٣٠.

موسىٰ عليه السلام فقط.

قلت: وروىٰ أحمد[١] والبخاري في التاريخ[٢] وأبو يعلىٰ[٣] والبغوي[٤] وابن قانع[٥] والطبراني[٦] والبيهقي[٧] وابن عساكر[٨] من حديث أبي ريحانة: «مَن انتسب إلىٰ تسعة آباء كفار يريد بهم عزًّا وكرمًا كان عاشرهم في النار».

(**وقال ﷺ: لَيدعنَّ**) أي ليتركن (**أقوام الفخر بآبائهم وقد صاروا فحمًا في جهنم أو ليكونُنَّ أهون علىٰ الله من الجِعْلان**) بكسر الجيم وسكون العين المهملة، جمع جُعَل بضم ففتح، كصُرَد وصِرْدان: اسم للدويبة (**التي تدوف بآنافها القذرَ**)[٩] قيل: هي [ذَكَر] أم حُبَين، تدحرج القذر برجليها. قال العراقي[١٠]: رواه أبو داود[١١] والترمذي[١٢] وحسَّنه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

قلت: وأخرج البزار[١٣] من حديث حذيفة رفعه: «كلكم بنو آدم، وآدم خُلق من التراب، ولينتهيَنَّ أقوام يفخرون بآبائهم أو ليكونُنَّ أهون علىٰ الله من الجعلان».
والسياق المذكور للمصنف من حديث أبي هريرة ليس هو أول الحديث، بل أوله:

---

(١) مسند أحمد ٢٨/ ٤٤٤ - ٤٤٥.
(٢) التاريخ الكبير ٢/ ٣٥٥.
(٣) مسند أبي يعلىٰ ٣/ ٢٨.
(٤) معجم الصحابة ٣/ ٣٢١.
(٥) معجم الصحابة ١/ ٣٤٥.
(٦) المعجم الأوسط ١/ ١٤١.
(٧) شعب الإيمان ٧/ ١٢٩.
(٨) تاريخ دمشق ٢٣/ ١٩٧.
(٩) الرعاية للمحاسبي ص٣١٥.
(١٠) المغني ٢/ ٩٦١.
(١١) سنن أبي داود ٥/ ٤٠٤.
(١٢) سنن الترمذي ٦/ ٢٢٤.
(١٣) مسند البزار ٧/ ٣٤٠.

«إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ...» الحديث، وسيأتي في آخر الفصول من هذا الكتاب، وفيه: «لَيدعَنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن».

(**الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقيص والثلب**) أي المَسبَّة والتعييب (**والغِيبة وذِكر عيوب الناس، ومن ذلك ما رُوي عن عائشة ﵂ أنها قالت: دخلت امرأة**) قيل: إنها من الأنصار (**على النبي ﷺ، فقلت بيدي هكذا، أي إنها قصيرة، فقال ﷺ: قد اغتبتِها**) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والخرائطي في مساوئ الأخلاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق حسان بن مخارق عن عائشة قالت: دخلت امرأة قصيرة والنبي ﷺ جالس، فقلت بإبهامي هكذا وأشرت إلى النبي ﷺ أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها». ورواه عبد بن حميد عن عكرمة عن عائشة نحوه. ورواه ابن أبي الدنيا من طريق سفيان عن علي بن الأقمر عن حذيفة عن عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت: إنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها». وقد تقدم ذلك في آفات اللسان.

(**وهذا منشؤه خفاء الكبر؛ لأنها لو كانت أيضًا قصيرة لَما ذكرتْها بالقِصَر، فكأنَّها أُعجبت بقامتها فاستقصرت المرأةَ**) أي عدَّتها قصيرة (**في جنب نفسها فقالت ما قالت**) وفي رواية: قال لها: «الفظي» فلفظت بضعة لحم. وقد تقدم في آفات اللسان.

(**الخامس: الكبر بالمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين**) جمع دهقان وهو رئيس القرية (**في أراضيهم، وبين المتجمِّلين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مُكْدٍ**) أي صاحب كدية، أي فقير (**ومسكين، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت مَن هو فوقك، ومن أنت؟ وما معك؟ وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك، وأنا أنفق في اليوم**) الواحد (**ما لا تأكله في سنة**) وما يجري مَجراه

(وكل ذلك لاستعظامه للغِنىٰ واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بآفة الغِنىٰ وفضيلة الفقر، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ:) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآية ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾) أي[1] يراجعه في الكلام (﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾) حشمًا وأموالاً، وقيل: أولادًا ذكورًا (حتىٰ أجابه فقال:) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾) وفي قوله «وولدًا» دليل لمَن فسَّر النفر بالأولاد (﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾) في الدنيا أو في الآخرة (إلىٰ قوله: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾) أي للماء الغائر (وكان ذلك تكبرًا منه بالمال والولد. ثم بيَّن الله عاقبة أمره بقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾) [الكهف: ٣٢ - ٤٢] كأنَّه تذكَّر موعظة أخيه وعلم أنه أُتي من قِبَل شِركه فتمنىٰ لو لم يكن مشركًا فلم يهلك الله بستانه، ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندمًا علىٰ ما سبق منه.

(ومن ذلك تكبرُ قارون) بن يصهر بن قاهث بن لاوي، من ولد يعقوب عليه السلام، وهو صاحب الكنوز، المذكورة قصته في القرآن (إذ قال تعالىٰ إخبارًا عن تكبره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ حتىٰ قال قومه: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾) أي من الأموال والحشم (﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾) [القصص: ٧٩] وكل ذلك تكبرٌ بالأموال والأعوان والحشم.

(السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش) فيفتخر بها ويتباهىٰ (والتكبر به علىٰ أهل الضعف) الذين لا قوة لهم ولا بطش.

(السابع: التكبر بالأتباع والأنصار) والأعوان (والتلامذة والغلمان) بالشراء أو الاستئجار (والعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك) غالبًا (بين الملوك في المكاثرة بالجنود) والعساكر (وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين) منهم

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ٢٨١ - ٢٨٢.

(وبالجملة، فكل ما هو نعمة وأمكن أن يُعتقَد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يُتكبر به، حتىٰ إن المخنِّث) بكسر النون المشددة، وهو من يتشبَّه بالنساء في حركاتهن **(يتكبر علىٰ أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين؛ لأنه يرىٰ ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعلُه إلا نكالاً)** ووبالاً عليه **(وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب)** للخمور **(وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به؛ لظنِّه ذلك كمالًا وإن كان مخطئًا فيه)** ولو لا ظنه كذلك لَما تباهَىٰ به.

(فهذه مَجامِع ما يتكبر به العباد بعضهم علىٰ بعض، فيتكبر مَن يدلي) أي يتقرَّب **(بالشيء علىٰ من لا يدلي بذلك الشيء أو علىٰ من يدلي بما هو دونه في اعتقاده، وربما كان مثله أو فوقه عند الله، كالعالِم الذي يتكبر بعلمه علىٰ مَن هو أعلم منه لظنِّه)** في نفسه **(أنه هو الأعلم، ولحسن اعتقاده في نفسه)** والله أعلم.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيِّجة له

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن الكبر خُلقٌ باطن) كما تقدم قريبًا (وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن يسمَّىٰ تكبرًا ويُخَص اسم «التكبر»[1] بالمعنىٰ الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدْر لها) ومنزلة (فوق قدر الغير) ومنزلته (وهذا الباطن له موجِب واحد وهو العُجب الذي يتعلق بالمتكبر، كما سيأتي معناه، فإنه إذا أُعجب بنفسه أو بعلمه أو بعمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر. وأما التكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبِّر) الذي قام به وصف الكبر (وسبب في المتكبَّر عليه، وسبب يتعلق بغيرهما. أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبَّر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء. فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء. أما العجب فقد ذكرنا أنه يورث الكبرَ الباطن، والكبر الباطن يثمر التكبرَ الظاهر) وينتجه (في الأعمال والأقوال والأحوال) والمراد بالأحوال: ما ينتج من الأعمال (وأما الحقد فإنه قد يحمل علىٰ التكبر من غير عجب، كالذي يتكبر علىٰ مَن يرىٰ أنه مثله) مساوٍ له (أو فوقه) في المنزلة (ولكن قد غضب عليه بسببٍ سبق منه فأورثه الغضبُ حقدًا، ورسخ في قلبه بغضُه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسُه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقًّا للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه علىٰ التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له، ويحمله ذلك علىٰ ردِّ الحق إذا جاء من جهته) وهذا هو السفه المشار إليه في حديث ثابت بن قيس بن شَمَّاس (و) يحمله أيضًا (علىٰ الأَنَفة من قبول نصحه، وعلىٰ أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك، و) يحمله أيضًا (علىٰ أن لا يستحلَّه وإن ظلمه) وتعدَّىٰ

(١) كذا، وفي الجميع: الكبر. وهو الصواب.

عليه (ولا يعتذر إليه وإن جنىٰ عليه، ولا يسأله عمَّا هو جاهل به. وأما الحسد فإنه أيضًا يوجب البغضَ للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضبَ والحسد، ويدعو الحسد أيضًا إلىٰ جحد الحق) أي إنكاره (حتىٰ يمنع من قبول النصح) رأسًا (و) من (تعلُّم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلىٰ العلم) أن يحوزه لنفسه (وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه) أو جيرانه (حسدًا وبغيًا عليه، فهو يُعرِض عنه ويتكبر عليه، مع معرفته بأنه يستحق التواضع) له والإكرام (بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه علىٰ أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرىٰ نفسه فوقه. وأما الرياء فهو أيضًا يدعو إلىٰ أخلاق المتكبرين، حتىٰ إن الرجل لَيناظرُ من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة) سابقة (ولا محاسدة ولا حقدًا، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفةً من أن يقول الناس: إنه أفضل منه) فيسقط مقامُه عندهم (فيكون باعثه علىٰ التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه) لمعرفته بفضله (وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحقد أو الحسد فإنه يتكبر أيضًا عند الخلوة به مهما لم يكن معهم) وفي نسخة: معهما (ثالث، وكذلك قد ينتمي إلىٰ نسب شريف كاذبًا وهو يعلم أنه كاذب) في انتمائه (ثم يتكبر به علىٰ مَن ليس ينتسب إلىٰ ذلك النسب، ويترفَّع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطرق، ولا يرضىٰ بمساواته في الكرامة والتوقير، وهو عالم باطنًا أنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه؛ لمعرفته) في نفسه (بأنه كاذب في دعوىٰ النسب، ولكن يحمله الرياء علىٰ أفعال المتكبرين، وكأنَّ اسم «المتكبر» إنما يطلق في الأكثر علىٰ مَن يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلىٰ الغير بعين الاحتقار، وهو إن سُمِّي متكبرًا فلأجل التشبُّه بأفعال الكبر[1]) والله الموفِّق.

---

(١) أي بأفعال أهل الكبر، وفي ط المنهاج ٦/ ٥٢٣: المتكبرين.

بيان أخلاق المتواضعين، وبيان ما يظهر فيه أثر التواضع والكبر

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن الكبر يظهر في شمائل الرجل) أي أخلاقه (كصعر في وجهه) أي ازورار (ونظرِه شَزَرًا) بأن يكون بمؤخر عينيه كالمُعرِض المتغضِّب (وإطراقه رأسه) إلىٰ الأرض (وجلوسه متربِّعًا أو متكئًا، و) يظهر أيضًا (في أقواله، حتىٰ في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، و) يظهر أيضًا (في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وفي حركاته وسكناته وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلُّباته في أحواله وأقواله وأعماله، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كلَّه) فهو المَقيت الممقَّت (ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض) وهو دون الأول (فمنها) أي من أخلاق المتكبرين (التكبر بأن يحب قيام الناس له) إذا ورد عليهم (أو) يحب أن يقوم الناس (بين يديه) كهيئة الغلمان (وقد قال علي كرَّم الله وجهه: مَن أراد أن ينظر إلىٰ رجل من أهل النار) أي ممَّن يستحق دخولها (فلينظر إلىٰ رجل قاعد وبين يديه قوم قيام) ومعناه في المرفوع من حديث عمرو بن مرَّة الجُهَني: «مَن أحب أن يتمثَّل له الرجال بين يديه قيامًا فليتبوَّأ مقعده من النار». رواه الطبراني في الكبير[1]. ومن حديث معاوية نحوه، رواه أحمد[2] وهناد[3] وأبو داود[4] والترمذي[5] وحسَّنه، وعند ابن جرير[6] بلفظ: «وجبت له النار».

---

(١) ورواه أيضا في المعجم الأوسط ٤/ ٢٨٢.

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ٤٠، ٦٠، ١٢١.

(٣) الزهد ٢/ ٤٢٧.

(٤) سنن أبي داود ٥/ ٤٤١.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٤٦٧.

(٦) تهذيب الآثار – السفر الثاني من مسند عمر ص ٥٦٧.

(وقال أنس) رضي الله عنه: **(لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لِما يعلمون من كراهته لذلك)** تقدم ذلك في كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب أخلاق النبوة.

(ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مُشي خلفه)**[1] أخرجه أبو نعيم في الحلية[2] عن إبراهيم ابن عبد الله، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مُضَر، عن عبيد الله بن زحر، عن الهيثم بن خالد، عن سليمان بن عنز قال: لقينا كريب بن أبرهة راكبًا ووراءه غلام له، فقال: سمعت أبا الدرداء يقول ... فذكره.

(وكان عبد الرحمن بن عوف) رضي الله عنه **(لا يُعرَف من)** بين **(عبيده)**[3] وغلمانه **(إذ كان لا يتميَّز عنهم في صورة ظاهرة)** فكان إذا مشىٰ بينهم أو قعد معهم لم يُعرَف.

(ومشىٰ قوم خلف الحسن البصري) رحمه الله تعالىٰ وهو راكب علىٰ حمار **(فمنعهم)** من المشي خلفه **(وقال: ما يبقىٰ هذا من قلب العبد)** أي لأنه مَذلَّة للتابع وفتنة للمتبوع. وقد تقدم[4].

(وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدُّم) عليه **(ويمشي)** هو خلفهم أو **(في غِمارهم)** أي جماعتهم **(إما لتعليم غيره، أو لينفي عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب)** قال العراقي[5]: رواه الديلمي

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٩٤).

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٢١.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٦٩ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٥/ ٢٩٥ وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد ص ٣٣ عن سعد بن الحسن التميمي [وقع في الزهد: سعيد بن جبير، وهو تحريف].

(٤) في بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت من أول كتاب ذم الجاه والرياء.

(٥) المغني ٢/ ٩٦٢.

في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدًّا: أنه خرج يمشي إلىٰ البقيع، فتبعه أصحابه، فوقف فأمرهم أن يتقدَّموا ومشىٰ خلفهم، فسُئل عن ذلك، فقال: «إني سمعت خفق نعالكم، فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر». وهو منكر، فيه جماعة ضعفاء.

قلت: وبخط الحافظ ابن حجر: رواه أحمد[1] بسياق مطول، وابن ماجه[2] مختصرًا.

(كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين) قال العراقي[3]: المعروف نزعُ الشِّراك الجديد وردُّ الشراك الخلق، أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية، وكلاهما قد تقدم في الصلاة.

(ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خيرٌ لغيره في الدين، وهو ضد التواضع. رُوي أن سفيان) بن سعيد **(الثوري)** رحمه الله **(قَدِم الرملة)**: مدينة بفلسطين **(فبعث إليه إبراهيم بن أدهم)** رحمه الله تعالىٰ يقول له: **(أنْ تعالَ فحدِّثْنا. فجاءه سفيان)** فحدَّثه **(فقيل له: يا أبا إسحاق، تبعث إليه بمثل هذا؟! فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية[4] عن أحمد بن إسحاق قال: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا الحسن بن علي، حدثنا يحيىٰ بن أيوب قال: قال أبو عيسىٰ الحواري: لما قَدِم سفيان الثوري الرملة - أو بيت المقدس - أرسل إليه إبراهيم بن أدهم: تعالَ حدِّثْنا. فقيل له: يا أبا إسحاق، تبعث إليه بمثل هذا؟! قال: إنما أردت أن أنظر كيف تواضعه. قال: فجاء فحدَّثهم.

(ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه،

---

(١) مسند أحمد ٣٦/ ٦٢٥.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٢٢٩.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٢.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٣٦٧.

والتواضع خلافه. قال ابن وهب) وهو[١] عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم، أبو محمد المصري الحافظ الفقيه، ثقة، عابد، مات سنة سبع وتسعين [ومائة] وله اثنتان وسبعون سنة، روىٰ له الجماعة **(جلست إلىٰ عبد العزيز بن أبي رَوَّاد)** بفتح[٢] الراء وتشديد الواو، يكنىٰ أبا عبد الرحمن، صدوق، عابد، مات سنة تسع وخمسين [ومائة] روىٰ له البخاري في التاريخ والأربعة **(فمسَّ فخذي فخذه، فنحَّيت نفسي عنه)** أي بعدتُ عنه في الجلوس **(فأخذ بثيابي فجرَّني إلىٰ نفسه وقال لي: لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة)** أي في الجلوس بين أيديهم **(وإني لا أعرف منكم رجلاً شرًّا مني.**

وقال أنس) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(كانت الوليدة من ولائد المدينة)** أي الجارية الصغيرة من جواريها **(تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتىٰ تذهب به حيث شاءت)** تقدم في كتاب آداب المعيشة وفي كتاب أخلاق النبوة[٣].

(ومنها: أن يتوقَّىٰ من مجالسة المرضىٰ والمعلولين ويتحاشَىٰ عنهم، وهو من الكبر) رُوي أنه **(دخل رجل وعليه جدري قد تقشَّر علىٰ رسول الله ﷺ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس)** الرجل المذكور **(إلىٰ أحد إلا قام من جنبه)** تقذُّرًا له **(فأجلسه النبي ﷺ إلىٰ جنبه)** وأطعمه. وقد تقدم الكلام عليه قريبًا.

(وكان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يحبس عن طعامه مجذومًا ولا أبرص ولا مبتلىٰ) بعلَّة **(إلا أقعدهم علىٰ مائدته)**[٤] وأكل معهم ثقةً بالله وتواضعًا لله عَزَّ وَجَلَّ.

(ومنها: أن لا يتعاطَىٰ بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه. رُوي أن عمر بن

---

(١) تقريب التهذيب ص ٥٥٦.

(٢) السابق ص ٦١٢.

(٣) الصواب أن يقال (تقدم في كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة) إذ هما كتاب واحد.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٢٠٣ وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ٦٠ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣١/ ١٤٥ عن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد بن أبي وقاص.

عبد العزيز) رحمه الله تعالىٰ **(أتاه ليلةً ضيفٌ، وكان يكتب)** شيئًا **(فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلىٰ المصباح فأُصلِحه)**؟ استأذنه في ذلك لأنه لا ينبغي للضيف أن يتصرَّف في دار مَن أضافه إلا بإذنه **(فقال)** له: لا؛ إذ **(ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه)** لأن المأمور به إكرامه، والاستخدام يناقض الإكرامَ **(قال: فأنبِّه الغلام)** يصلحه؟ **(قال)**: لا **(هي)** أي النومة **(أول نومة نامها)** الليلة، فلا تشوِّش عليه نومه **(فقام)** عمر **(وأخذ البطة)** التي فيها الدهن **(وملأ المصباح زيتًا)** وردَّ البطة إلىٰ مكانها، ثم جلس **(فقال الضيف: قمتَ أنت بنفسك يا أمير المؤمنين)**؟! متعجبًا من ذلك لمخالفته عادة الولاة فضلاً عن الخلفاء **(فقال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس مَن كان عند الله متواضعًا)** رواه القشيري في الرسالة نحوه دون قوله: وخير الناس ... الخ.

وقال أبو نعيم في الحلية[1]: حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أحمد بن الوليد، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا أبي كثيرُ بن مروان، عن رجاء بن حيوة قال: سمرت ليلة عند عمر، فاعتلَّ السراجُ، فذهبت أقوم أصلحه، فأمرني عمر أن أجلس، ثم قام فأصلحه، ثم عاد فجلس فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز، ولؤمٌ بالرجل أن يستخدم ضيفه.

ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد[2] من طريق عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فذكر مثله.

(ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلىٰ بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين. كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك) قال العراقي[3]: رواه أبو يعلىٰ من حديث أبي هريرة

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٢.

(٢) الزهد ص ٢٤٢.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٣.

في شرائه للسراويل وحمله، وقد تقدم[١].

قلت: وفي حديث أبي سعيد الخدري: وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلىٰ أهله. هكذا رواه القشيري في الرسالة بلا سند، وسيأتي الكلام عليه قريبًا.

(**وقال علي** رضي الله عنه:

لا ينقص الرجل من كماله ... ما حمل من شيء إلىٰ عياله)

أورده الموسوي في نهج البلاغة[٢].

(**وكان أبو عبيدة**) عامر (**بن الجرَّاح**) رضي الله عنه (**وهو أمير**) علىٰ دمشق من جهة عمر (**يحمل سطلاً له من خشب إلىٰ الحمَّام**)[٣] فيغتسل به، ولا يأنف من ذلك تواضعًا لله تعالىٰ.

(**وقال ثابت بن أبي مالك**) هكذا في سائر نسخ الكتاب، وهو غلط من النسَّاخ، والصواب: ثعلبة[٤] بن أبي مالك، وهو القُرَظي، حليف الأنصار، أبو مالك، ويقال: أبو يحيىٰ، المدني، إمام مسجد بني قريظة، له رواية عن النبي ﷺ؛

---

(١) في الباب الثاني من كتاب العزلة.

(٢) لم أقف عليه في نهج البلاغة. وهذا البيت لمحمد بن كناسة الأسدي الكوفي. قال الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢١٢: «سمعت أبا العباس محمد بن يزيد يقول: رأىٰ رجل محمد بن كناسة يحمل شيئا، فقال: أنا أحمله عنك. فأبىٰ وأنشد:

ما نقص الكامل من كماله ... ما جر من نفع إلىٰ عياله

ورواه أيضا ابن أبي الدنيا في كتاب النفقة علىٰ العيال ص ١٦٧، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٤٠٢.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٥ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٤١٩ عن يونس بن ميسرة بن حلبس. وعندهما: حتىٰ يأتي حمام أبان.

(٤) تهذيب الكمال ٤/ ٣٩٧ - ٣٩٨. الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٤.

قاله ابن معين. وقال العجلي[١]: تابعي ثقة. وقال ابن سعد[٢]: قَدِم أبو مالك - واسمه عبد الله بن سام - من اليمن، وهو من كِنْدة، فتزوج امرأة من قريظة فعُرف بهم. روىٰ له البخاري وأبو داود وابن ماجه (**رأيت أبا هريرة**) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (**أقبل من السوق يحمل حزمة حطب، وهو يومئذٍ خليفة**) أي نائب بالمدينة (**لمروان**) بن الحكم (**فقال: أوسِع الطريقَ للأمير يا ابن أبي مالك**) أخرجه أبو نعيم في الحلية[٣] فقال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن وهب، حدثني عمرو بن الحارث، عن يزيد بن زياد القرظي أن ثعلبة بن أبي مالك القرظي حدثه أن أبا هريرة أقبل في السوق ... فذكره، وزاد: فقلت: أصلحك الله، تُكفَىٰ هذا. فقال: أوسِع الطريق للأمير. والحزمة عليه.

وقال القشيري في الرسالة: سمعت أبا حاتم السِّجستاني يقول: سمعت أبا نصر السَّرَّاج الطوسي يقول: رُئي أبو هريرة وهو أمير المدينة وعلىٰ ظهره حزمة حطب وهو يقول: طرِّقوا للأمير.

(**وعن الأصبغ بن نُباتة**) بضم النون، التميمي[٤] الحنظلي الكوفي، يكنىٰ أبا القاسم، متروك، رُمي بالرفض، روىٰ له ابن ماجه (**قال: كأني أنظر إلىٰ عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **معلِّقًا لحمًا في يده اليسرىٰ، وفي يده اليمنىٰ الدرَّة يدور في الأسواق حتىٰ دخل رحله**)[٥] أي منزله. رواه يونس بن بكير عن الوليد بن عبدة عن أصبغ بن نباتة قال: خرجت أنا وأبي من زرود[٦] حتىٰ ننتهي إلىٰ المدينة في غَلَس [والناس في

---

(١) معرفة الثقات ١/ ٢٦١.

(٢) الطبقات الكبرىٰ ٧/ ٨١ - ٨٢. وعبارته: «قدم أبو مالك من اليمن فقال: نحن من كندة علىٰ دين اليهود. فتزوج إلىٰ ابن سعية من بني قريظة وحالفهم فقيل القرظي».

(٣) حلية الأولياء ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٤) تقريب التهذيب ص ١٥١.

(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (٩٩).

(٦) تقع زرود بين الكثبان الرملية ضمن محافظة البقعاء شرق منطقة حائل شمال شرق السعودية، وتقطنها الآن قبيلة شمر.

الصلاة] فانصرف الناس من الصلاة [فخرج الناس علىٰ أسواقهم] فدُفع إلينا رجل معه درة، فقال: يا أعرابي، أتبيع؟ فلم يزل [يساوم به] حتىٰ راضاه علىٰ ثمن، وإذا هو عمر، فجعل يطوف في السوق يأمرهم بتقوىٰ الله، فجعل يُقبِل ويدبر، ثم مر علىٰ أبي فقال له: حبستني [ليس هذا ما وعدتني] ثم مر الثانية فقال له كذلك، فردَّ عليه عمر: لا أريم حتىٰ أوفيك. ثم مر الثالثة، فوثب أبي مغضبًا فأخذ بثوب عمر فقال له: كذبتني وظلمتني. ولهزه، فوثب المسلمون إليه: يا عدو الله، لهزتَ أمير المؤمنين؟! فأخذ عمر بمَجامِع ثياب أبي فجرَّه - وكان شديدًا - فانتهىٰ به إلىٰ قَصَّاب، فقال: عزمت عليك لتعطينَّ هذا حقه ولك ربحي [وكان عمر باع الغنم منه] فقال: لا يا أمير المؤمنين، ولكن أعطيه حقه وأهبك ربحَك [فأخرج حقه] فأعطاه فقال عمر لأبي: استوفيت؟ قال: نعم. قال: بقي حقُّنا عليك، لهزتُك، قد تركتُها لله [ولك] قال أصبغ: فكأني أنظر إلىٰ عمر أخذ ربحه لحمًا فعلَّقه في يده اليسرىٰ وفي اليمنىٰ الدرة [يدور في الأسواق] حتىٰ دخل رحله[1]. أخرجه الذهبي في مناقب عمر.

(وقال بعضهم: رأيت عليًّا رضي الله عنه اشترىٰ لحمًا بدرهم، فحمله في مِلحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين. قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل[2].

ومنها: اللباس؛ إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي ﷺ: البذاذة من الإيمان) قال العراقي[3]: رواه أبو داود[4] وابن ماجه[5] من حديث أبي أمامة بن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال ص ٧٥.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ص ١٦٨ وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٤٨ وعبد الله ابن أحمد في زيادات الزهد ص ١١٠ والبغوي في معجم الصحابة ٤/ ٣٦٠ عن صالح بياع الأكسية عن جدته. وعندهم: تمرا، بدل: لحما.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٣.

(٤) سنن أبي داود ٤/ ٤٤٥.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٦٢.

ثعلبة، وقد تقدم. قلت: وكذلك رواه أحمد[١] والطبراني[٢] والحاكم في الكنىٰ[٣] والبيهقي[٤] وأبو نعيم[٥] والضياء من رواية صالح بن أبي صالح عن عبد الله بن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي عن أبيه رفعه، قاله ثلاثًا **(قال هارون)** أحد رُواة هذا الحديث، وهو[٦] هارون بن سعيد الأَيْلي السعدي مولاهم، أبو جعفر، نزيل مصر، ثقة، فاضل، مات سنة ثلاث وخمسين [ومائتين] وله ثلاث وثمانون سنة **(سألت مَعْنًا)** يحتمل أن يكون ابن عيسىٰ القَزَّاز، من أصحاب مالك. أو معن بن محمد بن معن الغفاري[٧] **(عن البذاذة)** وفي بعض النسخ: قال هارون: سألت عن معنىٰ البذاذة **(فقال: هو الدون من الثياب)** اعلم[٨] أن البذاذة هي رثاثة الهيئة وتركُ الترفُّه في البدن والملبس، وجعله من أخلاق أهل الإيمان لأن المؤمن يؤثِر الخمول بين الناس، ويقصد التواضع، ويزهد في الدنيا، ويكفُّ نفسه عن الفخر والكبرياء، فالبذاذة أليق به، هذا إذا قصد به ذلك لا أن يُظهِر به الفقر ويصون المال فليس هذا من الإيمان، بل عرَّض النعمةَ للكفران، وأعرض عن شكر المنعم المنَّان.

---

(١) مسند أحمد ٣٩/ ٤٩٣.

(٢) المعجم الكبير ١/ ٢٧٢.

(٣) ورواه أيضا في المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٨.

(٤) شعب الإيمان ٨/ ٤٣٢، ١٠/ ٤٥٢.

(٥) معرفة الصحابة ١/ ٤٨٨.

(٦) تقريب التهذيب ص ١٠١٤.

(٧) الصحيح أن المراد بهارون هنا هو هارون بن عبد الله بن مروان البغدادي الحمال شيخ ابن أبي الدنيا. أما معن فهو ابن عيسىٰ القزاز. وقد ذكر المزي في تهذيب الكمال ٢٨/ ٣٣٩ هارون الحمال فيمن روىٰ عن معن القزاز. قال ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٦٢: «حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا معن، حدثنا عبد الله بن المنيب بن عبد الله بن أبي أمامة الأنصاري، عن أبيه، عن محمود بن لبيد، عن أبي أمامة الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: البذاذة من الإيمان. قال هارون: سألت معنًا عن البذاذة، فقال: اللباس دون اللباس. يعني: دون».

(٨) فيض القدير ٣/ ٢١٧.

(وقال زيد بن وهب) الجهني[١] أبو سليمان الكوفي، مخضرم، ثقة، جليل، مات بعد الثمانين، وقيل: سنة [ست و] تسعين، روىٰ له الجماعة **(رأيت عمر ابن الخطاب ﷺ خرج إلىٰ السوق وبيده الدرَّة، وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة، بعضها من أدم)** رواه علي بن هاشم عن الأعمش عن زيد بن وهب[٢].

وقال أسد بن موسىٰ: حدثنا أبو سفيان قطبة، سمعت مالك بن دينار، حدثني نافع، حدثني ابن عمر أنه رأىٰ عمر يرمي الجمرة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم[٣].

وقال أسباط بن محمد، عن خالد بن أبي كريمة، عن أبي محصن الطائي: صلىٰ بنا عمر وعليه إزار فيه رقاع بعضها من أدم وهو أمير المؤمنين[٤].

وقال عفان: حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا الجريري، عن أبي عثمان النهدي قال: رأيت عمر يطوف عليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة، إحداهن من أدم أحمر[٥].

وقال حماد بن زيد، عن ابن جدعان، عن أبي عثمان قال: رأيت إزار عمر قد رقعَه بقطعة من أدم[٦].

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، حدثنا الحسن أن عمر

---

(١) تقريب التهذيب ص ٣٥٦.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال ص ١٠٩ - ١١٠، وفيه: «ثلاث عشرة رقعة بعضها من أدم، وإن منها ما قد خيط بعضه علىٰ بعض، إذا قعد ثم قام انتخل منه التراب».

(٤) رواه هناد في الزهد ٢/ ٣٦٧، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٣٠٤.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٣٠٥.

(٦) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٣٠٤. وفيه: حماد بن سلمة، بدل: حماد بن زيد.

خطب وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[١].

وقال معمر، عن ثابت، عن أنس قال: نظرت في قميص عمر، فإذا بين كتفيه أربع رقاع لا يشبه بعضها بعضًا[٢].

وقال سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كان بين كتفَي عمر ثلاث رقاع[٣].

وقال حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنا عند عمر، وفي ظهر قميصه أربع رقاع[٤].

(وعوتِبَ علي كرَّم الله وجهه في إزار مرقوع، فقال: يقتدي به المؤمن، ويخشع له القلب)[٥] رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد[٦] عن علي بن حكيم، ورواه أبو القاسم البغوي[٧] عن علي بن الجعد، قالا: حدثنا

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ١٠٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٥٢ - ٥٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٠٤.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٦٩ - ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان ٨/ ٢٠٩ - عن أنس قال: رأيت عمر وهو يعاتب عبد الرحمن بن عوف في قميص من حرير تحت ثيابه، ومعه الزبير وعليه أيضا قميص من حرير، فقال: ألق عنك هذا. فجعل عبد الرحمن يضحك ويقول: لو أطعتنا لبست مثله. فنظرت إلىٰ قميص عمر فرأيت بين كتفيه أربع رقاع ما يشبه بعضها بعضا.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٩٧ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٥٥ وهناد في الزهد ص ٣٦٧ بلفظ: رأيت بين كتفي عمر أربع رقاع في قميصه. ورواه باللفظين ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٣٠٤.

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٣٠٤، وأبو طاهر المخلص في المخلصيات ١/ ٢٥٦، ٣/ ٢٤١.

(٥) رواه بهذا اللفظ: أحمد في فضائل الصحابة ص ٥٤٩ وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٦٥ وهناد في الزهد ٢/ ٣٦٨ عن عمرو بن قيس الملائي.

(٦) الزهد ص ١٠٩، وفيه: عن الحسين بن محمد عن شريك.

(٧) مسند ابن الجعد ص ٨٢٤ - ٨٢٥.

شريك، عن عثمان ابن أبي زُرعة، عن زيد بن وهب قال: قَدِم علىٰ عليٍّ وفدٌ من أهل البصرة فيهم رجل من رؤوس الخوارج يقال له الجعد بن بعجة، فعاتب عليًّا في لبوسه، فقال علي: ما لك وللبوسي؟ إن لبوسي أبعدُ من الكبر، وأجدر أن يقتدي به المسلم.

(**وقال عيسىٰ** عليه السلام**: جودة الثياب خيلاء القلب**)[1] أي يورث العجبَ في القلب.

(**وقال طاووس**) اليماني رحمه الله تعالىٰ: (**إني لأغسلُ ثوبيَّ هذين فأُنكِرُ قلبي ما داما نقيَّينِ**)[2] إشارة إلىٰ ما يداخله من العجب في الباطن.

(**ويُروَىٰ أن عمر بن عبد العزيز**) رحمه الله (**كان قبل أن يُستخلَف تُشترَىٰ له الحُلة**) إزار أو رداء (**بألف دينار فيقول: ما أجودها**) وما أحسنها (**لولا خشونة فيها**) عند المشي (**فلما استُخلف كان يُشترَىٰ له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده**) وما أحسنه (**لولا لينه. فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين**) الذي كنت تختاره لنفسك؟ (**فقال: إن لي نفسًا ذوَّاقة توَّاقة**) كثيرة الذوق والتوقان (**وإنها لم تذُقْ من الدنيا طبقة إلا تاقت إلىٰ الطبقة التي فوقها، حتىٰ إذا ذاقت**) طعم (**الخلافة**) علىٰ الأمَّة (**وهي أرفع الطبقات تاقت إلىٰ ما عند الله** عز وجل) قال أبو نعيم في الحلية[3]: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الله ابن الحسين الملطي، حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني، حدثنا سعيد بن عامر، حدثنا جويرية بن أسماء قال: قال عمر: إن نفسي هذه توَّاقة، لم تُعْطَ من الدنيا شيئًا إلا تاقت إلىٰ ما هو أفضل منه، فلما أُعطيت الخلافة التي لا شيء أفضل منها تاقت إلىٰ ما هو أفضل منها. قال سعيد: الجنة أفضل من الخلافة.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٧٠ عن إبراهيم بن أبي حرة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٧٠.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣٣١.

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا شعيب بن صفوان، عن محمد بن مروان، عن أبان بن عثمان بن عفان، عمَّن سمع مزاحمًا مولىٰ عمر بن عبد العزيز يقول: قال عمر: إنَّ لي نفسًا توَّاقة، لقد رأيتُني بالمدينة وأنا غلام من الغلمان، ثم تاقت نفسي إلىٰ العلم [بالعربية والشعر] فأصبتُ منه حاجتي، ثم تاقت نفسي إلىٰ السلطان فاستُعمِلتُ علىٰ المدينة، ثم تاقت إلىٰ اللباس والعيش والطيب، فما علمتُ أن أحدًا من أهل بيتي ولا غيرهم كانوا في مثل ما كنت فيه، ثم تاقت نفسي إلىٰ الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو أن أنال ما تاقت إليه نفسي من أمر آخرتي(١).

(وقال سعيد بن سويد: صلىٰ بنا عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة، ثم جلس، وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبستَ. فنكَّس رأسه مليًّا) أي زمانًا **(ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد)** أي الاقتصاد **(عند الجدة)** أي عند الغِنىٰ **(وإن أفضل العفو عند القدرة)**(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية(٣) عن محمد بن إبراهيم قال: حدثنا الحسن بن محمد الحَرَّاني، حدثنا أبو الحسين الرهاوي، حدثنا زيد ابن الحُباب، أخبرني معاوية بن صالح قال: حدثنا سعيد بن سويد أن عمر بن عبد العزيز صلىٰ بهم الجمعة ثم جلس ... فذكره.

(وقال ﷺ: مَن ترك زينة لله ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله وابتغاء لمرضاته كان حقًّا علىٰ الله أن يدَّخر له عبقري الجنة)(٤) قال العراقي(٥): رواه أبو سعد

(١) بعده في الحلية: فلست بالذي أهلك آخرتي بدنياهم.
(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (١٥١).
(٣) حلية الأولياء ٥/ ٢٦١.
(٤) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (١٥٦).
(٥) المغني ٢/ ٩٦٣.

الماليني في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية[١] من حديث ابن عباس: «مَن ترك زينة الدنيا لله ...» الحديث، وفي إسناده نظرٌ.

قلت: ورواه أبو يعلىٰ الذهلي الهروي في فوائده وابن النجار بلفظ: «مَن ترك زينة لله ووضع ثيابًا حسنة تواضعا له وابتغاء وجهه كان حقًّا علىٰ الله أن يكسوه من عبقري الجنة». ولفظ أبي نعيم في الحلية: «كان حقًّا علىٰ الله أن يبدله بعبقري الجنة»[٢].

وروىٰ الترمذي[٣] والطبراني[٤] وأبو نعيم[٥] والحاكم[٦] والبيهقي[٧] من حديث سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رفعه: «مَن ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق حتىٰ يخيِّره من أيِّ حُلَل الإيمان شاء يلبسه». وإسناده حسن.

(**فإن قلتَ: فقد قال عيسىٰ عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب**) كما ذُكر قريبًا (**وقد سُئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر**) والسائل هو ثابت ابن قيس بن شمَّاس عند الطبراني، كما تقدم (**فقال: لا، ولكن مَن سفه الحق**) أي جهله أو ردَّه (**وغمص الناس**) أي احتقرهم، وقد تقدم قريبًا (**فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلمْ أن الثوب الجيد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، وهو الذي عرفه ﷺ**

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٤٤.

(٢) الذي في الحلية: «كان حقا علىٰ الله أن يكسوه من عبقري الجنة في تخات الياقوت».

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٦٢.

(٤) المعجم الكبير ٢٠/ ١٨٠ - ١٨١.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ٤٨.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٩.

(٧) السنن الكبرىٰ ٣/ ٣٨٧.

من حال ثابت بن قيس) بن شمَّاس (إذ قال) له: (إني امرؤ حُبِّب إليَّ من الجمال ما ترىٰ) كما تقدم (فعرَّفه) ﷺ (أن ميله إلىٰ النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر علىٰ غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر، كما أن الرضا بالثوب الدون) ليس من ضرورته أن يكون من التواضع، و(قد يكون) ذلك (من التواضع، وعلامة المتكبر أن يطلب التجمُّل إذا رآه الناس، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان، وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته) بنفسه (وحتىٰ في ستور داره، فذلك ليس من الكبر. فإذا انقسمت الأحوال نُزِّل قول عيسىٰ عليه السلام) السابق (علىٰ بعض الأحوال. علىٰ أن قوله): هو («خيلاء القلب» يعني: قد يورث خيلاء في القلب) أي مَظنَّة له (وقول نبينا ﷺ «إنه ليس من الكبر» يعني أن الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورِثًا للكبر. وبالجملة، فالأحوال تختلف في مثل هذا) ويُنزَّل كل قول علىٰ حال (والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرةً) وإشارة إليه بالأصابع (بالجودة ولا بالرداءة) فما أوجب في كلٍّ منهما شهرةً فهو مكروه (وقد قال ﷺ: كلوا واشربوا والبسوا وتصدَّقوا في غير سرف ولا مخيلة، إن الله يحب أن يظهر[1] أثر نعمته علىٰ عبده) قال العراقي[2]: هما حديثان، وقد جعلهما المصنف حديثًا واحدًا، أما الأول فرواه النسائي[3] وابن ماجه[4] من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، والثاني رواه الترمذي[5] وحسَّنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

قلت: لم يجعلهما المصنف حديثًا واحدًا من عند نفسه، بل هكذا رواه في

---

(١) في الجميع: يرىٰ. وفي التواضع والخمول (١٥٧): تُرىٰ.

(٢) المغني ٢/ ٩٦٤.

(٣) سنن النسائي ص ٣٩٩.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٢١٨. وذكره البخاري في صحيحه ٤/ ٥٣ معلقا بصيغة الجزم.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٥١٠.

سياق واحد أحمد[١] والحاكم[٢] والبيهقي[٣] وتمام في فوائده[٤] من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظهم: «كلوا واشربوا وتصدَّقوا والبسوا في غير مَخِيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده». وقد روىٰ القطعة الأولىٰ منه النسائي وابن ماجه كما أشار إليه العراقي، وروىٰ الترمذي القطعة الثانية كما أشار إليه العراقي أيضًا، ورواها سمويه في فوائده[٥] من حديث أبي سعيد بزيادة: «ويبغض البؤس والتباؤس».

(وقال بكر بن عبد الله المزني) تقدمت ترجمته في كتاب العلم **(البسوا ثياب الملوك، وأميتوا قلوبكم بالخشية)**[٦] وأخرج أبو نعيم[٧] في ترجمته من طريق مبارك بن فضالة قال: قال بكر بن عبد الله: أعيش عيش الأغنياء، وأموت موت الفقراء. قال: فمات وإن عليه لشيئًا من دَين.

وأخرج أيضًا من طريق معمر عن حميد قال: كانت قيمة ثياب بكر بن عبد الله أربعة آلاف، وكان يجالس الفقراء والمساكين [يحدِّثهم] ويقول: إنهم يعجبهم ذلك.

ومن طريق عمرو بن أبي وهب قال: قال بكر بن عبد الله: كان أصحاب رسول الله ﷺ الذين يلبسون لا يطعنون علىٰ الذين لا يلبسون، والذين لا يلبسون لا يطعنون علىٰ الذين يلبسون.

---

(١) مسند أحمد ١١/ ٣١٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٢٤١.

(٣) شعب الإيمان ٦/ ٣١٥، ٨/ ٢٦٠.

(٤) فوائد تمام ٣/ ٢٥٩.

(٥) وكذلك البيهقي في شعب الإيمان ٨/ ٢٦٣، والقضاعي في مسند الشهاب ٢/ ١٤٤.

(٦) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٧/ ١٣٣، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٧٦، وأبو نعيم في تاريخ أصفهان ٢/ ٩٤.

(٧) حلية الأولياء ٢/ ٢٢٧.

(وإنما خاطب) بكرُ بن عبد الله (بهذا قومًا يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح، وقد قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري) أي مولعة بالنهش (البسوا ثياب الملوك، وأميتوا قلوبكم بالخشية)(١) من الله عَزَّ وَجَلَّ، أي فالعمدة علىٰ إصلاح الباطن.

(ومنها) أي من أخلاق المتواضعين: (أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبَّ وأوذي وأُخِذ حقه) غصبًا (فذلك هو الأصل، وقد أوردنا ما نُقل عن السلف من احتمال الأذىٰ في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة، فمَجامِع حُسن الأخلاق والتواضع سيرةُ رسول الله ﷺ، فبه ينبغي أن يُقتدَىٰ، ومنه ينبغي أن يُتعلَّم، وقد قال أبو سلمة) بن عبد الرحمن بن عوف، تابعي مدني ثقة (قلت لأبي سعيد الخدري) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ما ترىٰ فيما أحدث الناسُ من الملبس والمركب والمطعم والمشرب؟ فقال: يا ابن أخي، كلْ لله، واشرب لله، والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهوٌ) أي عُجبٌ (أو مباهاة) أي مفاخرة (أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرفٌ، وعالِجْ في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته، كان يعلف الناضح) أي البعير، أي يطعمه العلفَ (ويعقل البعير) أي يشده بالعقال، وعند الطبراني(٢) من حديث ابن عباس: كان يعتقل الشاة (ويقُمُّ البيت) أي يكنسه (ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب) وروىٰ أبو نعيم في الحلية(٣) من حديث عائشة: كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه. وروىٰ ابن سعد(٤) من حديثها: كان يعمل

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٧٣ من طريق معن بن عيسىٰ القزاز قال: سمعت بعض أهل العلم يقول: قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... فذكره. وروىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٦٥ عن كعب الأحبار قال: قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الجبارين والذئاب الضواري؟ فإن أحببتم أن تبلغوا ملكوت السماء فأميتوا قلوبكم لله.

(٢) المعجم الكبير ١٢/ ٦٧.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٣٣١.

(٤) الطبقات الكبرىٰ ١/ ٣١٥.

عمل البيت، وأكثر ما يعمل الخياطة. وروىٰ ابن عساكر[١] من حديث أبي أيوب: كان يخصِف النعل، ويرقع القميص، ويلبس الصوف **(ويأكل مع خادمه)** تواضعًا لله تعالىٰ **(ويطحن عنه)** بالرحىٰ **(إذا أعيا)** أي تعبَ **(ويشتري الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلِّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلىٰ أهله، يصافح الغني والفقير والصغير والكبير، ويسلِّم مبتدئًا علىٰ كل مَن استقبله من صغير أو كبير أو أسود أو أحمر أو حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حُلَّة لمدخله وحلة لمخرجه)** إلا أن البيهقي[٢] روىٰ من حديث جابر: أنه كان له بُرْد يلبسه في العيدين والجمعة **(لا يستحي من أن يجيب إذا دُعي وإن كان)** الداعي **(أشعث أغبر)** وعند ابن ماجه[٣] من حديث أنس: كان يجيب دعوة المملوك **(ولا يحقر ما دُعي إليه)** ولو كان قليلاً أو حقيرًا **(وإن لم يجد إلا حَشَف الدَّقَل)** وهو رديء التمر **(ولا يرفع غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء)** وقد رُوي عن عطاء عن أبي سعيد نحوه، كما سيأتي التنبيه عليه **(هيِّن المؤنة، لين الخُلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه، بسَّام من غير ضحك)** أي كثير التبسُّم من غير مجاوزة فيه، كما رُوي من حديث عبد الله بن الحارث بن جَزْء **(محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مَذلَّة، جواد من غير سرف، رحيم بكل ذي قربىٰ ومسلم، رقيق القلب، دائم الإطراق)** أي النظر إلىٰ الأرض **(لم يتجشَّأ قط من شبع، ولم يمدَّ يده من طمع. قال أبو سلمة)** بن عبد الرحمن: **(فدخلت علىٰ عائشة)** أم المؤمنين ﵂ **(فحدثتُها بما قال أبو سعيد)** الخدري ﵁ **(في زهد رسول الله ﷺ، فقالت: ماأخطأ منه حرفًا واحدًا، ولقد قصَّر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلئ قط شبعًا، ولم يبثَّ إلىٰ أحد شكوىٰ، وإن كانت الفاقة لأحبُّ إليه من اليسار والغنىٰ، وإن كان)** ﷺ **(لَيظلُّ جائعًا يلتوي ليلته حتىٰ يصبح، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن**

---

(١) تاريخ دمشق ٤/ ٧٧.

(٢) السنن الكبرىٰ ٣/ ٣٥٠، ٣٩٧. وفيه أن البرد كان أحمر.

(٣) سنن ابن ماجه ٣/ ٦١٠، ٥/ ٥٩٨.

يسأل ربه فيؤتَىٰ بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل) أي لم يكن ذلك من اضطرار به إليه، ولكنه اختار ما عند الله **(وربما بكيتُ رحمةً له ممَّا أوتي من الجوع، فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغتَ من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع. فيقول: يا عائشة، إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا علىٰ ما هو أشد من هذا، فمضوا علىٰ حالهم، وقَدِموا علىٰ ربهم، فأكرم مآبهم)** أي منصرفهم **(وأجزل)** أي وفَّر **(ثوابهم، فأجدني أستحي إن ترفَّهت)** أي توسَّعت **(في معيشتي أن يُقصَر بي دونهم، فأصبر أيامًا يسيرة أحب إليَّ من أن ينقص حظي غدًا في الآخرة، وما من شيء أحب إليَّ من اللحوق بإخواني وأخلائي. قالت عائشة ﵂: فواللهِ ما استكمل بعد ذلك جمعةً حتىٰ قبضه الله ﷿)**

قال العراقي[1]: حديث أبي سعيد الخدري وعائشة، قال الخدري لأبي سلمة: عالِجْ في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته، كان يعلف الناضح ... الحديث، وفيه: قال أبو سلمة: فدخلت علىٰ عائشة فحدثتُها بذلك عن أبي سعيد، فقالت: ما أخطأ منه حرفًا، ولقد قصَّر، وما أخبرك أنه لم يمتلئ شبعًا قط ... الحديث بطوله، لم أقف لهما علىٰ إسناد.

قلت: روىٰ أبو نعيم في الحلية[2] من طريق الوضين بن عطاء، حدثنا عطاء بن أبي رباح قال: دُعي أبو سعيد الخدري إلىٰ وليمة وأنا معه، فرأىٰ صفرة وخضرة، فقال: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ كان إذا تغدَّىٰ لم يتعشَّ، وإذا تعشَّىٰ لم يتغدَّ.

(فما نُقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمَن طلب التواضع فليقتدِ به) فإنَّ في الاقتداء به مَقنعًا له **(ومن رأىٰ نفسه فوق محلِّه ﷺ ولم يرضَ لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله)** وما أكبر حمقه **(فلقد كان)** ﷺ **(أعظم**

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٤.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٣٢٣.

خلق الله منصبًا في الدنيا والدين، فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به) والاستنان بسنَّته **(ولذلك قال عمر** رضي الله عنه**: إنَّا قوم أعزَّنا الله بالإسلام، ولا نطلب العز في غيره)** قال ذلك **(لما عوتِب في بذاذة هيئته)** أي رثاثتها **(عند دخوله الشام)** قال أبو نعيم في الحلية[1]: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المقرئ، حدثنا يحيىٰ بن الربيع، حدثنا سفيان، عن أيوب الطائي، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: لما قَدِم عمرُ الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خُفَّيه وأمسكهما، وخاض الماءَ ومعه بعيره، فقال أبو عبيدة: لقد صنعتَ اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض. فصكَّ في صدره وقال: أوه! لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس، فأعزَّكم الله برسوله، فمهما تطلبون العزة بغيره يذلُّكم الله. رواه الأعمش عن قيس بن مسلم مثله. حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا محمد بن شبل، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن قيس قال: لما قَدِم عمر الشام استقبله الناس وهو علىٰ بعيره، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو ركبتَ برذونًا، يلقاك عظماء الناس ووجوههم. فقال عمر: لا أراكم ههنا، إنما الأمر من ههنا - وأشار بيده إلىٰ السماء - خلُّوا سبيل جملي.

قلت: وروىٰ الحافظ الذهبي من طريق قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب نحوًا مما رواه أبو نعيم، وفيه: فقيل له: يا أمير المؤمنين، الآن يلقاك الجنود والبطارقة وأنت هكذا؟! فقال: إنَّا قوم أعزَّنا الله بالإسلام، فلن نلتمس العز بغيره[2].

(وقال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(اعلمْ أن لله عبادًا يقال لهم: الأبدال، خلف من**

---

(١) السابق ١/ ٤٧.

(٢) رواه هناد في الزهد ٢/ ٤١٧ والحاكم في المستدرك ١/ ١٢٠ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٥٤ بلفظ: «لما قدم عمر الشام تلقته الجنود، وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود والبطارقة وأنت علىٰ حالك هذا؟! فقال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نلتمس العزة بغيره».

الأنبياء، هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم أقوامًا من أمَّة محمد ﷺ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن خِلقة) وفي نسخة: حلية. ولفظ النوادر: ولا تسبيح (ولكن بصدق الورع) ولفظ النوادر: ولكن بحسن الخُلق وصدق الورع (وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله، بصبر من غير تجبُّن، وتواضُع في غير مَذلَّة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صِدِّيقًا، ثلاثون رجلاً منهم قلوبهم علىٰ مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، لا يموت الرجل منهم حتىٰ يكون الله قد أنشأ من يخلفه) أي يصير خلفًا له (واعلمْ يا أخي أنهم لا يلعنون شيئًا) أي لأن الصدِّيق لا يكون لعَّانًا، كما ورد في الخبر وتقدم في آفات اللسان (ولا يؤذونه، ولا يحقرونه، ولا يتطاولون عليه، ولا يحسدون أحدًا) علىٰ ما آتاه الله من فضله (ولا يحرصون علىٰ الدنيا، هم أطيب الناس خُبْرًا) بضم فسكون، أي مَخبرًا (وألينهم عريكة) أي طبيعة (وأسخاهم نفسًا، علامتهم السخاء، وسجيَّتهم البشاشة، وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغدًا في غفلة، ولكن مداومون علىٰ حالهم الظاهر، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المُجْراة، قلوبهم تصعد ارتياحًا إلىٰ الله واشتياقًا إليه وقُدمًا في استباق الخيرات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢] قال الراوي: قلت: يا أبا الدرداء، ما سمعتُ بصفة هي أشد عليَّ من هذه الصفة، فكيف لي أن أبلغها؟ قال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلتَ علىٰ حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا، وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم اللهُ من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة. واعلمْ يا أخي أن ذلك في كتاب الله المنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] قال يحيىٰ بن كثير) الكاهلي(١) الكوفي، ليِّن الحديث، روىٰ له أبو داود. قال

---

(١) تقريب التهذيب لابن حجر ص ١٠٦٤. ديوان الضعفاء والمتروكين للذهبي ص ٤٣٧.

الذهبي في الديوان: هو معاصر للأعمش، مجهول. وضعَّفه النسائي. وفي رجال ابن ماجه: يحيىٰ بن كثير، عن أيوب، قال الدارقطني[١]: متروك. أما يحيىٰ بن كثير بن درهم العنبري البصري فثقة معروف (**فنظرنا في ذلك فما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل حب الله وطلب مرضاته**) هكذا أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول[٢] بطوله من قول أبي الدرداء.

اعلمْ[٣] أن حديث الأبدال قد رُوي عن جماعة من الصحابة مرفوعًا وموقوفًا، منهم: أنس بن مالك، وعُبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، ومعاذ بن جبل:

أما حديث أنس فله طرق بألفاظ مختلفة [كلها ضعيفة] منها للخلاَّل في كرامات الأولياء[٤] والديلمي في مسند الفردوس[٥] بلفظ: «الأبدال أربعون رجلاً وأربعون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة». ومنها للطبراني في الأوسط[٦] بلفظ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلًا مثل [إبراهيم] خليل الرحمن، فبهم يُسقَون، وبهم يُنصَرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر». وإسناده حسن. ومنها لابن عدي في كامله[٧] بلفظ: «البدلاء أربعون رجلاً، اثنان وعشرون بالشام، وثمانية عشر بالعراق، وكلما

---

(١) العلل ١/ ١٩٢. وقال في الضعفاء والمتروكين ص ٢٥٠: «بصري ضعيف».

(٢) نوادر الأصول ص ٢٠٩ - ٢١٠، وفيه بعد قوله «خليل الرحمن»: «بهم تدفع المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس، وبهم يمطرون، وبهم يرزقون». وبعد قوله "ولا يحرصون علىٰ الدنيا": «ليسوا بمتماوتين ولا متكبرين ولا متخشعين».

(٣) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٨ - ١٠. الخبر الدال للسيوطي. فيض القدير للمناوي ٣/ ١٦٧- ١٧٠، ٢٨٨، ٥/ ٣٠٠.

(٤) كرامات الأولياء ص ٢١.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١١٩ - ١٢٠.

(٦) المعجم الأوسط ٤/ ٢٤٧.

(٧) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٦٢ - ١٨٦٣.

مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر، فإذا جاء الأمر قُبِضوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة». وقد رواه أيضًا الحكيم في نوادر الأصول(١) والخلاَّل في كرامات الأولياء(٢). ومنها: «إن بدلاء أمَّتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين». رواه الدارقطني في كتاب الأجواد وابن لال في مكارم الأخلاق(٣). وقد رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق(٤) من حديث أبي سعيد به نحوه. وقال فضيل بن عياض: لم يدرك عندنا مَن أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة(٥).

وأما حديث عُبادة بن الصامت فلفظه: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً». رواه أحمد(٦) والحكيم(٧) والخلاَّل في كرامات الأولياء(٨)، وإسناده حسن. وقال الهيثمي(٩): رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الواحد بن قيس، وقد وثَّقه

---

(١) نوادر الأصول ص ٢٠٩.

(٢) كرامات الأولياء ص ٢١.

(٣) وكذلك ابن عساكر في معجم الشيوخ ص ٧١٩ (ط - دار البشائر بدمشق). وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٣١. ورواه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٩١ دون قوله (والنصح للمسلمين).

(٤) بل الطبراني في مكارم الأخلاق ص ٣٣٧. ولفظه: «إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدر والرحمة بجميع المسلمين». ورواه أيضا البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٣١٧، ولكنه قال: «عن أبي سعيد الخدري أو غيره» على الشك.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٣١٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٠٣.

(٦) مسند أحمد ٣٧/ ٤١٣.

(٧) نوادر الأصول ص ٢٠٩.

(٨) كرامات الأولياء ص ٢٢.

(٩) مجمع الزوائد ١٠/ ٤٥.

العجلي[١] وأبو زرعة، وضعَّفه غيرهما. ويُروَىٰ: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات واحد أبدل الله مكانه آخر». رواه أحمد والخلال، وهو عند الطبراني في الكبير بلفظ: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم يُمطَرون، وبهم يُنصَرون».

وأما حديث عبد الله بن عمر فأخرجه الطبراني في الكبير وعنه أبو نعيم في الحلية[٢] قال: حدثنا محمد بن الخزر، حدثنا سعيد بن أبي زيدون، حدثنا عبد الله بن هارون الصوري، حدثنا الأوزاعي، عن الزهري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم». قالوا: يا رسول الله، دلَّنا علىٰ أعمالهم. قال: «يعفون عمَّن ظلمهم، ويحسنون إلىٰ مَن أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله». وقد رواه كذلك ابن عساكر[٣]، وفي لفظ للخلال[٤]: «الأبدال أربعون رجلاً، يحفظ الله بهم الأرضَ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، وهم في الأرض كلها».

وأما حديث علي بن أبي طالب فيُروَىٰ بلفظ: «الأبدال ستون رجلاً، ليسوا بالمتنطِّعين، ولا بالمبتدعين، ولا بالمتعمِّقين، ولا بالمعجبين، لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لأئمَّتهم، إنهم يا علي في أمتي أقل من الكبريت الأحمر». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء[٥] والخلال في كراماتهم[٦]. ولأحمد في

---

(١) معرفة الثقات ٢/ ١٠٧.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٨.

(٣) تاريخ دمشق ١/ ٣٠٣.

(٤) كرامات الأولياء ص ٢٢.

(٥) الأولياء ص ١٢.

(٦) كرامات الأولياء ص ٢٧.

مسنده[١] من طريق شُرَيح – يعني ابن عبيد – قال: ذُكر أهل الشام عند علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو بالعراق، فقالوا: العنْهم يا أمير المؤمنين. فقال: لا، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «البدلاء – وفي لفظ: الأبدال – يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يُسقَىٰ بهم الغيث، ويُنتصَر بهم علىٰ الأعداء، ويُصرَف عن أهل الشام بهم العذاب». ورجاله من رُواة الصحيح إلا شريحًا وهو ثقة[٢]. ورواه أيضًا الطبراني والحاكم من طرق تنوف علىٰ العشرة.

وأما حديث عبد الله بن مسعود، فقال أبو نعيم في الحلية[٣]: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن السري القنطري، حدثنا قيس بن إبراهيم بن قيس السامري، حدثنا عبد الرحيم بن يحيىٰ، حدثنا عثمان بن عمارة، حدثنا المعافَىٰ بن عمران، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم علىٰ قلب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق أربعون قلوبهم علىٰ قلب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق سبعة قلوبهم علىٰ قلب ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق خمسة قلوبهم علىٰ قلب عزرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم علىٰ قلب جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق واحد قلبه علىٰ قلب إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤]، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة،

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٢٣١.

(٢) مجمع الزوائد ١٠/ ٤٥.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٨ – ٩.

(٤) في الحلية بعد قوله «علىٰ قلب موسىٰ»: «ولله في الخلق سبعة قلوبهم علىٰ قلب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق خمسة قلوبهم علىٰ قلب جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم علىٰ قلب ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولله في الخلق واحد قلبه علىٰ قلب إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ».

فبهم يحيي ويميت ويمطر ويُنبِت ويدفع البلاء». قيل لابن مسعود: كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثُرون، ويدعون علىٰ الجبابرة فيُقصَمون، ويستسقون فيُسقَون، ويسألون فتنبت لهم الأرض، ويَدْعون فتُدفَع بهم أنواع البلاء.

وأما حديث عوف بن مالك فأخرجه الطبراني(١) وابن عساكر(٢) بلفظ: «الأبدال في أهل الشام، وبهم يُنصَرون، وبهم يُرزَقون».

وأما حديث أبي هريرة فأخرجه ابن حبان في تاريخه(٣) بلفظ: «لن تخلو الأرض من ثلاثين مثل إبراهيم خليل الرحمن، بهم يعافون، وبهم يُرزَقون، وبهم يُمطَرون». وإسناده حسن.

وأما حديث معاذ بن جبل فأخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في سنن الصوفية والديلمي(٤) بلفظ: «ثلاث مَن كنَّ فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها: الرضا بالقضاء، والصبر عن محارم الله، والغضب في ذات الله».

وقد رُوي موقوفًا علىٰ عليٍّ بلفظ: لا تسبُّوا أهل الشام جمًّا غفيرًا فإنَّ بها الأبدال. قالها ثلاثًا. أخرجه عبد الرزاق(٥)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل(٦)، بل أخرجه الحاكم في المستدرك(٧) وصحَّحه من قوله، وكلهم رووه من طريق عبد الله بن صفوان عن علي. وهذه الرواية صحَّحها الضياء في المختارة(٨). ولفظ

---

(١) المعجم الكبير ١٨/ ٦٥.

(٢) تاريخ دمشق ١/ ٢٩٠.

(٣) المجروحون من المحدثين ٢/ ٢٧.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٨٤.

(٥) مصنف عبد الرزاق ١١/ ٢٤٩.

(٦) دلائل النبوة ٦/ ٤٤٩.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٥/ ١٥. وفيه: «لا تسبوا أهل الشام، وسبوا ظلمتهم».

(٨) الأحاديث المختارة ٢/ ١١ - ١١٢. وفيه: «لا تسبوا أهل الشام جما غفيرا، فإن فيهم =

الحاكم: «لا تسبُّوا أهل الشام، فإنَّ فيهم الأبدال». وقد رواه الطبراني في الأوسط[١] وابن عساكر في التاريخ[٢] من حديث علي مرفوعًا.

ومن المراسيل ما رواه أبو داود في مراسيله[٣] والحاكم في الكنىٰ من حديث عطاء بن أبي رباح: «الأبدال من الموالي». زاد الحاكم: «ولا يبغض الموالي إلا منافق». وفي سنده رَحَّال بن سالم، منكر الحديث.

ومنها ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء[٤] عن بكر بن خُنُيس مرفوعًا مرسلاً: «علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئًا أبدًا». وقال السخاوي: هو مرفوع معضل.

وأما الآثار فسيأتي ذِكرها.

وقد أورد ابن الجوزي أحاديث الأبدال في الموضوعات[٥] وطعن فيها واحدًا واحدًا. وتعقَّبه الحافظ السيوطي[٦] بأن خبر الأبدال صحيح، وإن شئت قلت متواتر. وأطال، ثم قال: ومثل هذا بالغ حد التواتر المعنوي بحيث يُقطَع بصحة وجود الأبدال ضرورةً. انتهىٰ.

وقال الحافظ ابن حجر في فتاويه: «الأبدال» وردت في عدَّة أخبار، منها ما يصح ومنها ما لا يصح، وأما «القطب» فورد في بعض الآثار، وأما «الغوث» بالوصف

= رجالا كارهين لما ترون، وإنه بالشام يكون الأبدال».

(١) المعجم الأوسط ٤/ ١٧٦.

(٢) تاريخ دمشق ١/ ٣٣٤.

(٣) الحديث ليس في المراسيل، وإنما في سؤالات أبي عبيد الآجري لأبي داود ص ٢٠٤، وفيه الزيادة المذكورة عند الحاكم.

(٤) الأولياء ص ٢٨.

(٥) الموضوعات ٣/ ١٥٠ - ١٥٢.

(٦) النكت البديعات علىٰ الموضوعات ص ٢٨٠ - ٢٨٢ (ط - دار مكة المكرمة بالمنصورة).

المشتهر بين الصوفية فلم يثبُت. انتهىٰ. وبهذا يظهر بطلان زعمِ ابن تيمية[١] أنه لم يَرِدْ لفظ «الأبدال» في خبر صحيح ولا ضعيف إلا في خبر منقطع. وليته نفىٰ الرواية بل نفىٰ الوجودَ وكذَّب مَن ادَّعىٰ الورود. فهذه الأخبار وإن فُرض ضعفها جميعها لكن لا ينكر تقوِّي الحديث الضعيف بكثرة طرقه وتعدُّد مخرِّجيه[٢].

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: وإنما استتر الأبدال عن أعين الجمهور؛ لأنهم لا يطيقون النظر إلىٰ علماء الوقت؛ لأنهم عندهم جُهَّال بالله، وهم عند أنفسهم [وعند] الجهلاء علماء[٣].

ورأىٰ بعضهم النبيَّ ﷺ في المنام فقال له: أين بدلاء أمتك؟ فأومأ بيده نحو الشام. قال: فقلت: يا رسول الله، أما بالعراق منهم أحد؟ قال: بلىٰ. وسمَّىٰ

---

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٤٣٣، ٤٣٤ ما نصه: «الأسماء الدائرة علىٰ ألسنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث الذي بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة، فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالىٰ، ولا هي أيضا مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف تُحمل عليه ألفاظ الأبدال، فقد رُوي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «إن فيهم - يعني أهل الشام - الأبدال الأربعين رجلا، كلما مات رجل أبدل الله تعالىٰ مكانه رجلا. ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي علىٰ هذا الترتيب، ولا هي مأثورة علىٰ هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولا عاما، وإنما توجد علىٰ هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ، وقد قالها إما آثرا لها عن غيره أو ذاكرا». انتهىٰ. فابن تيمية يقول إن اللفظ بهذا المعنىٰ الدائر علىٰ الألسنة لم يرد... إلخ، فلم ينف أصل الورود بل نفىٰ المعنىٰ المورود، وهو هو القائل في منهاج السنة النبوية ١/ ٩٤: «لفظ الأبدال تكلم به بعض السلف، ويروىٰ فيه عن النبي ﷺ حديث ضعيف». انتهىٰ.

(٢) تمام العبارة في الفيض: «إلا جاهل بالصناعة الحديثية أو معاند متعصب، والظن به [أي ابن تيمية] أنه من القبيل الثاني». كذا قال المناوي رحمه الله، ولو تبصر وأنعم النظر في كلام الشيخ ما تكلم بمثل ما تكلم به، رحم الله الجميع بمنه.

(٣) تقدم هذا النص في آخر الباب السادس من كتاب العلم.

جماعة[١].

ومما يتقوّىٰ به هذا الحديث ويدل لانتشاره بين الأئمة قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ في بعضهم: كنا نعدُّه من الأبدال. وقول البخاري في غيره: كانوا لا يشكُّون أنه من الأبدال[٢]. وكذا وصف غيرهما من النقَّاد والحفاظ والأئمة غير واحد بأنهم من الأبدال.

وقال بعضهم: الأبدال أكلُهم فاقة، وكلامهم ضرورة[٣].

وقال بعضهم: علامة الأبدال أن لا يولَد لهم[٤].

وعن معروف الكرخي قال: من قال اللهم ارحمْ أمة محمد في كل يوم كتبه الله من الأبدال. وهو في الحلية[٥] بلفظ: من قال في كل يوم [عشر مرات] اللهم أصلِحْ أمة محمد اللهم فرِّجْ عن أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد كُتب من الأبدال.

وقال يزيد بن هارون: الأبدال هم أهل العلم[٦].

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ٢٦٣ وابن أبي الدنيا في المنامات ص ٧٧ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١١٤ وابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ٣٠١ عن شيخ من صنعاء من جلساء وهب بن منبه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، أين بدلاء أمتك؟ فأومأ بيده نحو الشام. قلت: يا رسول الله، أما بالعراق منهم أحد؟ قال: بلىٰ، محمد بن واسع وحسان بن أبي سنان ومالك بن دينار الذي يمشي في الناس بمثل زهد أبي ذر في زمانه.

(٢) في التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٢٧: «فروة بن مجالد مولىٰ اللخم، وكان يسكن كفر غما بالشام، وكانوا لا يشكون أنه من الأبدال، مستجاب الدعوة».

(٣) تقدم هذا الأثر في الباب السادس من كتاب العلم بزيادة: ونومهم غلبة.

(٤) رواه ابن عدي في الكامل ٢/ ٦٧٠ عن شهاب بن معمر البلخي قال: كان حماد بن سلمة من الأبدال، وعلامة الأبدال أن لا يولد لهم، كان تزوج سبعين امرأة فلم يولد له.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ٣٦٦.

(٦) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ١٨٢ عن الحارث بن أبي أسامة قال: سئل يزيد بن هارون وأنا أسمع فقيل له: من الأبدال؟ قال: أهل العلم.

وقال أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمَن هم[(١)]؟

وقال أبو نعيم في الحلية[(٢)]: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن مقسم، حدثنا العباس بن يوسف الشكلي، حدثني محمد بن عبد الملك قال: قال عبد الباري: قلت لذي النون المصري: صِفْ لي الأبدال. فقال: إنك لَتسألني عن دياجي الظُّلَم، لأكشفنَّها لك عبد الباري، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيمًا لربهم لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله علىٰ خلقه، ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلىٰ مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهَّر أبدانهم بمراقبته، وطيَّبهم بطِيب أهل معاملته، وكساهم حُلَلاً من نسج مودَّته، ووضع علىٰ رؤوسهم تيجان مسرَّته، ثم أودع القلوبَ من ذخائر الغيوب، فهي معلَّقة بمواصلته، فهمومهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة ... إلىٰ آخر ما قاله.

وروىٰ الحكيم الترمذي في نوادر الأصول[(٣)] أن الأرض اشتكت إلىٰ ربها انقطاع النبوة، فقال تعالىٰ لها: سوف أجعل علىٰ ظهركِ أربعين صِدِّيقًا، كلما مات منهم رجل أبدلتُ مكانه رجلاً. ولذلك سُمُّوا أبدالاً، فهم أوتاد الأرض، وبهم تقوم الأرض، وبهم يُمطَرون.

وقال[(٤)] القطب أبو العباس المرسي قُدِّس سره: جُلْتُ في الملكوت فرأيت أبا مَدْيَن معلَّقًا بساق العرش رجل أشقر، أزرق العين، فقلت له: ما علومك؟ وما

---

(١) الذي رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث ص ٢٧ أن الإمام أحمد قال ذلك في حديث «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق». وروىٰ مثله عن يزيد بن هارون وابن المبارك وأحمد بن سنان والبخاري وعلي بن المديني.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٢.

(٣) نوادر الأصول ص ٢١١، ونصه: «وروي في الخبر أن الأرض شكت إلىٰ الله ذهاب الأنبياء وانقطاع النبوة، فقال لها: سوف أجعل علىٰ ظهرك صديقين أربعين. فسكنت».

(٤) لطائف المنن لابن عطاء الله ص ١٣٠.

مقامك؟ قال: علومي أحد وسبعون علمًا، ومقامي رابع الخلفاء ورأس الأبدال السبعة. قلت: فالشاذلي؟ قال: ذاك بحر لا يُحاط به[١].

وقال[٢] المرسي أيضًا: كنت جالسًا بين يدي أستاذي الشاذلي، فدخل عليه جماعة، فقال: هؤلاء أبدال، فنظرت ببصيرتي فلم أرَهم أبدالاً فتحيَّرت، فقال الشيخ: مَن بُدِّلت سيئاته حسنات فهو بدلٌ. فعلمتُ أنه [أراد] أول مراتب البدلية.

وأخرج ابن عساكر[٣] أن ابن المثنَّىٰ سأل أحمد بن حنبل: ما تقول في بشر بن الحارث؟ قال: رابع سبعة من الأبدال.

وقال بلال الخوَّاص فيما رويناه في مناقب الشافعي وفي رسالة القشيري[٤]: كنت في تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشيني، فتعجبت منه، وأُلهِمت أنه الخضر، فقلت له: بحق الحق، من أنت؟ قال: أنا أخوك الخضر. فقلت له: أريد أن أسألك. قال: سَلْ. قلت: ما تقول في الشافعي؟ قال: هو من الأوتاد. قلت: فما تقول في أحمد؟ قال: رجل صِدِّيق. قلت: فما تقول في بشر بن الحارث؟ قال: رجل لم يُخلَق بعده مثله. قلت: فبأيِّ وسيلة رأيتك؟ قال: ببرِّك بأمِّك.

وفي تاريخ الخطيب[٥] عن أبي بكر الكَتَّاني قال: النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعُمُد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن البدلاء الشام، والأخيار سيَّاحون

(١) في اللطائف: «قلت له: فما تقول في شيخي أبي الحسن الشاذلي؟ قال: زائد عليَّ بأربعين علما، هو البحر الذي لا يحاط به».

(٢) السابق ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) تاريخ دمشق ١٠/ ١٩١.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٥٥.

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ١٢٩.

في الأرض، والعُمُد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة[١].

فصل: قال الشيخ الأكبر قُدِّس سره في كتاب حلية الأبدال: أخبرني صاحب لنا[٢] قال: بينا أنا ليلةً في مصلاَّي قد أكملت وِردي وجعلت رأسي بين ركبتيَّ أذكر الله تعالىٰ إذ أحسست بشخص قد نفض مصلاَّي من تحتي وبسط عوضه حصيرًا وقال: صلِّ عليه. وباب بيتي عليَّ مغلق، فداخلني منه الجزعُ، فقال لي: مَن يأنس بالله لم يجزع. ثم قال: اتقِ الله في كل حال. ثم إني أُلهِمتُ الصوت فقلت: يا سيدي، بماذا يصير الأبدال أبدالاً؟ فقال: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت: الصمت والعزلة والجوع والسهر. ثم انصرف ولا أعرف كيف دخل ولا كيف خرج وبابي مغلق. انتهىٰ. قال الشيخ الأكبر: وهذا الرجل من الأبدال واسمه معاذ بن أشرس، والأربعة المذكورة هي عماد هذا الطريق الأسنىٰ وقوائمه، ومَن لا قدم له فيها ولا رسوخ تائه عن طريق الله تعالىٰ، وفي ذلك قلتُ:

يا من أراد منازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعنَّ بها فلستَ من أهلها ... إن لم تزاحمهم علىٰ الأحوال
واصمت بقلبك واعتزلْ عن كل مَن ... يدنيك من غير الحبيب الوالي
وإذا سهرت وجُعْتَ نلتَ مقامَهم ... وصحبتَهم في الحِل والترحال
بيت الولاية قُسِّمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالي

(١) بعده في تاريخ بغداد: «فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث، فلا تتم مسألته حتىٰ تجاب دعوته».

(٢) في حلية الأبدال: «كان لنا بمرشانة الزيتون ببلاد الأندلس صاحب من الصالحين، يعلم القرآن، فقيها جيدا، حافظا، ذا ورع وفضل وخدمة للفقراء اسمه عبد المجيد بن سلمة، قال: بينا أنا ليلة ...» الخ.

تنبيه: لا تناقُض بين أخبار الأربعين والثلاثين؛ لأن الجملة أربعون رجلاً، منهم ثلاثون قلوبهم علىٰ قلب إبراهيم، وعشرة ليسوا كذلك، فلا خلاف، كما صرَّح به خبر أبي هريرة عند الحكيم الترمذي.

وقال الشيخ الأكبر قُدِّس سره(١): الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالَم أربعة فقط، وهم أخصُّ من الأبدال، والإمامان أخص منهم، والقطب أخصُّ الجماعةِ، و«الأبدال» لفظ مشترك يطلقونه علىٰ مَن تبدَّلت أوصافه المذمومة بالمحمودة، ويطلقونه علىٰ عدد خاص، وهم أربعون، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعة، وإنما سُمُّوا أبدالاً لأنه إذا مات واحد منهم أُبدِل، أو لأنهم أُعطوا من القوة أن يتركوا بدلهم حيث يريدون، ولكل وتد من الأوتاد الأربعة ركن من أركان البيت ويكون علىٰ قلب نبي من الأنبياء، فالذي علىٰ قلب آدم له الركن الشامي، والذي علىٰ قلب إبراهيم له الركن العراقي، والذي علىٰ قلب عيسىٰ له الركن اليماني، والذي علىٰ قلب محمد ﷺ له ركن الحجر الأسود، وهو لنا بحمد الله تعالىٰ.

وقال في الفتوحات(٢): قوله في حديث «علىٰ قلب إبراهيم»، وفي حديث آخر «علىٰ قلب آدم»، وكذا قوله في غير هؤلاء ممَّن هو علىٰ قلب شخص من أكابر البشر أو الملائكة معناه أنهم يتقلَّبون في المعارف الإلهية بقلب ذلك الشخص؛ إذ كانت واردات العلوم الإلهية إنما تَرِدُ علىٰ القلوب، فكل علم يَرِد علىٰ قلب ذلك الكبير من ملَك أو رسول يَرِدُ علىٰ هذه القلوب التي هي علىٰ قلبه، وربما يقول بعضهم: فلان علىٰ قَدَم فلان، ومعناه ما ذُكر. والله أعلم.

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ١٧٨ باختصار.

(٢) السابق ٢/ ١٠.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه) إلا مَن عصمه الله تعالىٰ (وإزالته فرض عين) أي بمنزلته (ولا يزول بمجرد التمني) والتشهِّي (بل بالمعالجة) والرياضة وتهذيب النفس (واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان، أحدهما: استئصال أصله من سِنْخه) بكسر السين المهملة وسكون النون والخاء المعجمة، وسنخ كل شيء: أصله، والجمع: أسناخ (وقلع شجرته من مغرسها في القلب. الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان علىٰ غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاءُ إلا بمجموعهما. أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علمَ أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والمذلة والمهانة) فتلك أخصُّ أوصافه (وإذا عرف ربه) حق المعرفة (علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء) والجلال والمهابة (إلا بالله) عَزَّوَجَلَّ (أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول، وهو منتهَىٰ علم المكاشفة. وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول، ولكنا نذكر من ذلك علم ما ينفع في إثارة التواضع والمَذلة، ويكفيه أن يعرف معنىٰ آية واحدة في كتاب الله تعالىٰ، فإن في القرآن علم الأولين والآخِرين لمَن فُتحت بصيرته) فقد روىٰ الديلمي من حديث أنس: «مَن أراد علم الأولين والآخِرين فليثوِّر القرآن»[1] (وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ دعاء[2] عليه بأشنع الدعوات، وتعجُّبٌ من إفراطه في

---

(١) كنز العمال ١/ ٥٤٨، وتقدم في آداب تلاوة القرآن من كلام ابن مسعود.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٨٧.

الكفران، وهو مع قِصره يدل علىٰ سخط عظيم وذمٌّ بليغ (﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾) بيان لِما أنعم عليه خصوصًا من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير، ولذلك أجاب عنه بقوله: (﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾) أي هيَّأه لِما يصلُح له من الأعضاء والأشكال، أو فقدَّره أطوارًا إلىٰ أن تم خَلْقُه (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾) أي ثم سهَّل مَخرجه من بطن أمه بأن فتح فُوَّهة الرحم وألهمه أن ينتكس، أو ذلَّل له سبيل الخير والشر. وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام، وفيه إيماء بأن الدنيا طريق والمقصود غيرها، ولذلك عقَّبه بقوله: (﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢] وعدَّ الإماتة والإقبار في النعم لأن الإماتة وصلة في الجملة إلىٰ الحياة الأبدية واللذات الخالصة، والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع. وفي «إذا شاء» إشعار بأن وقت النشور غير متعين في نفسه، إنما هو موكول إلىٰ مشيئه (**فقد أشارت الآية إلىٰ أول خلق الإنسان وإلىٰ آخر أمره وإلىٰ أوسطه، فلينظر الإنسان ذلك**) ببصيرته (**ليفهم معنىٰ هذه الآية، أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا**) كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] لعدمه أول وأىٰ شئ أخس وأقل من المحوور والعدم (**وقد كان في كتم العدم**) وفي نسخة: في حيِّز العدم (**دهورًا**) أي أزمنة متطاولة (**بل لم يكن لعدمه أول، وأيُّ شيء أخس وأقل من المحو والعدم، وقد كان كذلك في القِدَم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء**) وفي نسخة: من أذل الأشياء (**ثم من أقذرها؛ إذ خلقه من تراب**) وهو أذل الأشياء؛ لكونه يُداس بالأرجل (**ثم من نطفة، ثم من عَلَقة، ثم من مُضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا**) كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] (**فقد كان هذا بداية وجوده، حيث صار شيئًا مذكورًا**) بعد أن لم يكن (**فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو علىٰ أخس الأوصاف والنعوت؛ إذ لم يُخلَق في ابتدائه كاملاً، بل خُلق جمادًا ميتًا، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يحس، ولا يتحرك، ولا ينطق، ولا يبطش، ولا يدرك، ولا يعلم، فبدأ بموته**) الذي هو العدم (**قبل حياته**) وهي الوجود (**وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه،**

وببُكْمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هُداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته، فهذا) هو **(معنىٰ قوله)** تعالىٰ: (﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ و) كذلك **(معنىٰ قوله)** تعالىٰ: (﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾) وهو[1] استفهام تقرير وتقريب، ولذلك فُسِّر بـ «قد» (﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾) أي طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود (﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾) بل كان شيئًا منسيًّا غير مذكور بالإنسانية كالعنصر والنطفة، والجملة حال من «الإنسان»، أو وصف لـ «حين» بحذف الراجع، والمراد بالإنسان الجنسُ؛ لقوله: (﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾) أو آدم، بيَّن أولاً خلقه ثم ذكر خلق بنيه فقال: (﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ **كذلك خلقه أولاً ثم امتنَّ عليه فقال:** ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾) أي سبيل الخير والشر **(وهذا إشارة إلىٰ ما تيسَّر له في مدة حياته إلىٰ الموت، وكذلك قال)** في الآية الأخرىٰ: (﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾) أي أخلاط، جمع مشيج، من مشجت الشيءَ: إذا خلطته، وصف النطفة بها لأن المراد بها مجموع منيِّ الرجل والمرأة، وكل منهما مختلف الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منهما مادة عضو. وقيل: مفرد كأعشار وأكباش، وقيل: ألوان، فإن ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اختلطا اخضرَّا. أو أطوارًا، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلىٰ تمام الخلقة (﴿نَّبْتَلِيهِ﴾) في موضع الحال، أي مبتلين له، بمعنىٰ مريدين اختباره، أو ناقلين له من حال إلىٰ حال، فاستعار له الابتلاء (﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾) ليتمكَّن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات، فهو كالمسبَّب عن الابتلاء، ولذلك عطف بالفاء علىٰ الفعل المقيَّد به ورتَّب عليه قولَه: (﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾) أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات (﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ١ - ٣] **ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولًا ونطفة ثانيًا، وأسمعه بعدما كان أصم، وبصَّره بعدما كان فاقدًا للبصر، وقوَّاه بعد الضعف، وعلَّمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات)**

---

(١) السابق ٥/ ٢٦٩.

الدالَّة علىٰ عظيم قدرته (بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال) ثم قال تعالىٰ: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ وهما حالان من ضمير «هديناه»، و«إما» للتفصيل أو للتقسيم، أي هديناه في حالتيه جميعًا، أو مقسومًا إليهما، بعضهم شاكر بالاهتداء والأخذ به، وبعضهم كفور بالإعراض عنه (فانظر كيف دبَّره وصوَّره وإلىٰ السبيل) المفضي للخير والشر (كيف يسَّره) أي سهَّله وذلَّله (وإلىٰ طغيان الإنسان) علىٰ ربه وخلقه (ما أكفره، وإلىٰ جهل الإنسان) بمعرفته نفسه (كيف أظهره فقال) تعالىٰ: (﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾) [يس: ٧٧] أي[1] فإذا هو بعدما كان ماء مهينًا مميِّز، منطيق، قادر علىٰ الخصام، مُعرِب عمَّا في نفسه. وقال تعالىٰ: (﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾) الدالَّة علىٰ باهر قدرته (﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾) [الروم: ٢٠] فوق الأرض. وفي الآية الأولىٰ تقبيح بليغ لإنكار الإنسان حيث عجبَ منه، وجعله إفراطًا في الخصومة بيِّنًا ومنافاة الجحود لقدرته علىٰ ما هو أهون ممَّا عمله في بداية خلقه ومقابلة نعمته التي لا مزيد عليها - وهي خلقُه من أخس شيء وأمهنه شريفًا مكرمًا - بالعقوق والتكذيب. وقد أشار إليه المصنف بقوله: (فانظر إلىٰ نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسَّة والقذارة إلىٰ هذه الرفعة والكرامة) والشرف (فصار موجودًا بعد العدم، وحيًّا بعد الموت، وناطقًا بعد البُكْم، وبصيرًا بعد العمىٰ، وقويًّا بعد الضعف، وعالمًا بعد الجهل، ومهديًّا بعد الضلال، وقادرًا بعد العجز، وغنيًّا بعد الفقر، وكان في ذاته لا شيء) يُذكَر ويُشار إليه (وأيُّ شيء أخس من لا شيء) ولذلك سُمِّيت الجيفة القذرة: لا شيء؛ لِما فيها من نهاية وصف الخسَّة (وأيُّ قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئًا) يُذكَر ويُشار به وإليه (وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضًا ليعرِّفه خسَّة ذاته) ودناءتها (فيعرف

(١) السابق ٤/ ٢٧٢.

به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جلَّ وعلا، ولذلك امتنَّ عليه فقال) عز وجل: (﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾) يبصر[1] بهما (﴿وَلِسَانًا﴾) يترجم به عمَّا في ضميره (﴿وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾) يستر بهما فاه، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها (﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾) [البلد: ٨ - ١٠] طريقَي الخير والشر (وعرَّفه خسَّته أولاً فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ أي يُراق، يقال: أمنى منيَّه: إذا أراقه، ومَنَىٰ يَمْنِي، كرمىٰ يرمي، لغة فيه (﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾) أي دمًا (ثم ذكر منَّته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾) أي قدَّره فعدَّله (﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾) الصنفين (﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٤٥﴾ [القيامة: ٣٦ - ٣٩] ليدوم وجوده بالتناسل) والتوالد ولا ينقطع (كما جعل وجوده ابتداءً بالاختراع) البديع من غير سبق مثال (فمَن كان هذا بدؤه وهذه أحواله) وأطواره (فمن أين له البَطَر) والأَشَر (والكبرياء والفخر والخيلاء) والتجبر (وهو على التحقيق أخس الأخسَّاء وأضعف الضعفاء) وأذل الأشياء (ولكن هذه عادة الخسيس إذا رُفع من خسَّته شمخ بأنفه وتعظَّم، وذلك لدلالة خسة أوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم، لو أكمله وفوَّض إليه أمره وأدام له الوجودَ باختياره) وفي قبضة قدرته (لجاز) له (أن يطغىٰ) ويبطر (وينسىٰ المبتدأ والمنتهَىٰ، ولكنه سلَّط عليه في دوام وجوده الأمراضَ الهائلة) أي المخيفة (والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطبائع المتضادة من المُرَّة والبلغم والريح والدم، يهدم البعضُ من أجزائه البعضَ، شاء أو أبىٰ) أي امتنع (رضي أم سخط، فيجوع كرهًا، ويعطش كرهًا، ويمرض كرهًا، ويموت كرهًا) كل ذلك إجبارًا عليه (لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا خيرًا ولا شرًّا) ومن غريب أحواله أنه (يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسىٰ الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلىٰ ما يهمُّه) ويعنيه (فيجول

---

(١) السابق ٥/ ٣١٣.

في أودية الوساوس والأفكار) المختلفة (بالاضطراب، فلا يملك قلبُه قلبَه، ولا نفسُه نفسَه، فيشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذُّ الأطعمة) المختلفة الألوان (فتهلكه وترديه) إما من الإكثار منها أو من ضعف المعدة عن تحمُّلها أو بغير ذلك (ويستبشع الأدوية) المرَّة (وهي تنفعه وتحييه و) هو مع ذلك (لا يأمن) علىٰ نفسه (في لحظة من ليله ونهاره أن يُسلَب سمعه وبصره، وتُفلَج أعضاؤه، ويُختلَس عقله، وتُختطَف روحه) كل ذلك فلتةً (ويُسلَب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل، إن تُرك بقي، وإن اختُطف فني، عبد مملوك لا يقدر علىٰ شيء من) عند (نفسه، ولا علىٰ شيء من غيره، فأيُّ شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنَّىٰ يليق الكبر به لولا جهله) وعناده (فهذا أوسط أحواله، فليتأمله) ببصيرته حتىٰ ينكشف له ذلك (وأما آخره ومورده) الذي يَرِدُ عليه (فهو الموت المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝﴾ ومعناه أنه يُسلَب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة، لا يبقىٰ) معه (إلا شكل أعضائه وصورته) الظاهرة (لا حس فيه ولا حركة) ثم يُدرَج في ثياب (ثم يوضع في التراب) ويُغلَق عليه الباب (فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم) بعد ذلك (تبلىٰ أعضاؤه وتتفتَّت أجزاؤه وتنخر عظامه فيصير رميمًا ورُفاتًا) وقد[1] رمَّ العظمُ يَرِمُّ، من باب ضرب: بليَ، فهو رميم، والجمع: أَرِمَّاء، كذليل وأذِلاَّء، وجاء: رِمام، مثل كريم وكِرام. والرُّفات بالضم: العظم المتكسِّر (ويأكل الدود) المتولِّد منه (أجزاءه، فيبتدئ بحدقتيه) فإنهما أول ما يسيلان علىٰ الخدين (فيقلعهما) من موضعهما (وبخدَّيه فيقطعهما، وبسائر أجزائه، فيصير روثًا في أجواف الديدان) ومن هنا مخاطبة القبر للإنسان: أنا بيت الدود، كما في الخبر (ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الأنتان) إذ لا نتن أشد من نتن جيفة

(١) المصباح المنير ص ٢٤٠.

الإنسان **(وأحسن أحواله أن يعود إلىٰ ما كان فيصير ترابًا تُعمَل منه الكيزان ويعمَّر به البنيان، ويصير مفقودًا بعدما كان موجودًا، وصار كأنْ لم يَغْنَ بالأمس حصيدًا)** محصودًا متكسِّرًا **(كما كان في أول مرة أمدًا مديدًا)** أي ممتدًّا **(وليته بقي كذلك، فما أحسنه لو تُرِكَ ترابًا)** ومن هنا قول بعضهم: ليتني كنت رمادًا مديدًا. وقال آخر:

ولو أنَّا إذا متنا تُركنا لكان الموت راحة كل حي[(١)]

(لا، بل يحييه بعد طول البِلَىٰ) بكسر الباء **(ليقاسي شدائد البَلاء)** بفتح الباء **(فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلىٰ أهوال)** يوم **(القيامة)** التي لم تكن منه علىٰ بال **(فينظر إلىٰ قيامة قائمة وسماء ممزَّقة مشقَّقة)** مطوية، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: ١] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧] **(وأرض مبدَّلة)** قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] **(وجبال مسيَّرة)** قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾ [التكوير: ٣] **(ونجوم منكدرة)** قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير: ٢] **(وشمس منكسفة)** مكوَّرة **(وأحوال مظلمة، وملائكة غِلاظ شِداد)** أي أقوياء، قال تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦] **(وجحيم تزفر)** قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢﴾ [التكوير: ١٢] **(وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسَّر)** علىٰ دخولها **(ويرىٰ صحائف منشورة)** قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠] **(فيقال له:** ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٤] **فيقول: وما هو؟ فيقال)** له: **(كان قد وُكِّل بك في حياتك التي كنت تفرح بها)** في الدنيا **(وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها)** وأعراضها **(ملَكان رقيبان)** عتيدان **(يكتبان عليك ما كنت تنطق به وتعمله من قليل وكثير)** وصغير وكبير **(ونقير وقِطْمير)** وأصل النقير: النقطة التي علىٰ ظهر النَّواة، والقطمير: قشرتها، والمراد بهما القلة **(وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيتَ ذلك، وأحصاه الله)** وضبطه **(عليك، فهلمَّ إلىٰ الحساب واستعِدَّ للجواب أو تُساق**

(١) تقدم هذا البيت مع بيت آخر في الباب الثاني من كتاب العزلة.

إلىٰ دار العذاب. فينقطع قلبه فزعًا من هول هذا الخطاب قبل أن تُنشَر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه) وفضائحه (فإذا شاهدها قال) مبادرًا: (يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ووجد ما عمله حاضرًا، ولا ينسىٰ ربك أحدًا (فهذا آخر أمره، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ فما لمَن هذا حاله وللتكبر؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البَطَر والتبختُر؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه، ولو ظهر) له (آخره – والعياذ بالله تعالىٰ – ربما اختار أن يكون كلبًا أو خنزيرًا ليصير مع البهائم ترابًا ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا أو يلقَىٰ عذابًا) ونظر إلىٰ هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ليتني كنت كبش أهلي سمَّنوني ما بدا لهم، حتىٰ إذا كنت أسمن ما أكون زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديدًا ثم أكلوني فأخرجوني عَذِرة ولم أكُ بشرًا. أخرجه هناد في الزهد[1] عن أبي معاوية عن جويبر عن الضحَّاك عن عمر.

وقال المسور بن مخرمة: لما طُعن عمر قال: واللهِ لو أن لي طِلاع الأرض ذهبًا لافتديتُ به من عذاب الله من قبل أن أراه[2].

(وإن كان عند الله مستحقًّا عذابًا) وفي نسخة: للنار (فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع؛ إذ أوله التراب، وآخره التراب، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب و) أيضًا فإن (الخنزير والكلب لا يهرب منهما الخلق، ولو رأىٰ أهل الدنيا العبدَ المذنب في النار لصعقوا من) الرؤية إلىٰ (وحشة خلقته وقبح صورته) أي سقطت قوتهم (ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يُسقَىٰ منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمَن هذا حاله في العاقبة) والمآل (إلا أن يعفو الله عنه) ويسامح له (وهو علىٰ شك من العفو) هل يُعفَىٰ له أم لا (كيف يفرح ويبطر، وكيف يتكبر ويتجبر) علىٰ إخوانه (وكيف يرىٰ نفسه شيئًا حتىٰ يعتقد

---

(١) الزهد ١/ ٢٥٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٣/ ١٧.

له فضلاً، وأيُّ عبد لم يذنب ذنبًا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الكريم بفضله) وإحسانه (ويجبر الكسر بمَنِّه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به، ولا قوة إلا بالله. أرأيتَ مَن جنىٰ علىٰ بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحُبس في السجن، وهو ينتظر أن يخرج إلىٰ العرض وتقام عليه العقوبة علىٰ ملأ من الخلق، وليس يدري أيُعفَىٰ عنه أم لا كيف يكون ذلُّه في السجن) وينسىٰ ما أُعِدَّ له من العقوبة (أفترىٰ أنه يتكبر علىٰ مَن في السجن، وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه) وقد روىٰ الحاكم في تاريخه من حديث أبي هريرة: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقد تقدم[1] (وقد استحق العقوبة به من الله تعالىٰ، ولا يدري كيف يكون آخر أمره، فيكفيه ذلك حزنًا وخوفًا وإشفاقًا ومهانة وذلاًّ).

(فهذا هو العلاج العلمي القاطع) وفي نسخة: القامع (لأصل الكبر) من سِنْخه.

(وأما العلاج العملي فهو التواضع بالفعل لله) تعالىٰ (ولسائر الخلق بالمواظبة علىٰ أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال) السلف (الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ، حتىٰ إنه كان يأكل علىٰ الأرض) ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك علىٰ خبز الشعير. رواه الطبراني[2] من حديث ابن عباس (ويقول: إنما أنا عبد، آكُل كما يأكل العبد) رواه الدارقطني في الأفراد وابن عساكر[3] من حديث البراء. ورواه هناد في الزهد[4] عن الحسن مرسلاً. ورواه ابن عدي[5] وابن عساكر[6] من حديث أنس بزيادة: «وأشرب كما يشرب العبد». ورواه

(١) في أول كتاب ذم الدنيا.

(٢) المعجم الكبير ١٢/ ٦٧.

(٣) تاريخ دمشق ٤/ ٧٦.

(٤) الزهد ٢/ ٤١١.

(٥) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٩٧١.

(٦) تاريخ دمشق ٤/ ٧٥.

الديلمي من حديث أبي هريرة أنه ﷺ أُتي بهدية، فلم يجد شيئًا يضعها عليه، فقال: «ضعْها علىٰ الحضيض» يعني الأرض، ثم نزل فأكل، ثم قال: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد»[١]. وقد تقدم في كتاب آداب المعيشة.

(وقيل لسلمان) الفارسي رضي الله عنه وقد رُؤي عليه ثوب خلق: **(لِمَ لا تلبس ثوبًا جديدًا؟ فقال: إنما أنا عبد، فإذا أُعتقت يومًا لبست جديدًا)**[٢] وقد **(أشار به إلىٰ العتق في الآخرة)** أي إذا أُعتقت من عذاب الآخرة لبستُ، وإنما استراح مَن غُفر له، كما في حديث عائشة **(ولا يتم التواضعُ بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أُمِر العرب الذين تكبروا علىٰ الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعًا)** فالإيمان المعرفة، والصلاة العمل **(وقيل: الصلاة عماد الدين)** روىٰ[٣] أبو نعيم الفضل ابن دُكَين شيخ البخاري في كتاب الصلاة له عن حبيب بن سليم عن بلال بن يحيىٰ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ يسأله عن الصلاة، فقال: «الصلاة عمود الدين». وهو مرسل، ورجاله ثقات. وروىٰ الديلمي[٤] من حديث علي: «الصلاة عماد الإيمان». وعند الأصبهاني في الترغيب[٥] بلفظ: «الصلاة عماد الإسلام» **(وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادًا، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائمًا وبالركوع والسجود، وقد كان العرب قديمًا يأنفون من الانحناء)** ويعدُّونه من المهانة **(فكان**

(١) ورواه البزار في مسنده ١٧/ ٣٣ بلفظ: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ بطعام، فقال: ضعه بالحضيض. أو قال: بالأرض». ثم قال البزار: «وهذا الكلام قد رواه الحسن مرسلا، وروي عن ابن عمر، وأظن أن فيه: فإنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٧١ ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/ ٤٣٧ عن فضيل بن عياض قال: رُؤي علىٰ سلمان جبة من صوف، فقيل له: لو لبست ألين من هذا. فقال: إنما أنا عبد، ألبس كما يلبس العبد، فإذا عتقت لبست ثيابا لا تبلىٰ حواشيها.

(٣) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤٠٤ بلفظ: «عماد الدين». وكذا هو في المقاصد.

(٥) الترغيب والترهيب ٣/ ٣٣.

يسقط من يد الواحد منهم سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شِراك نعله فلا ينكِّس رأسه لإصلاحه، حتىٰ قال) أبو[١] خالد **(حكيم بن حزام)** بن خويلد بن أسد بن عبد العزَّىٰ بن قصي الأسدي، ابن أخي خديجة بنت خويلد، له حديث في الكتب الستة، وكان من سادات قريش، تأخر إسلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتىٰ أسلم عام الفتح، وكان من المؤلَّفة قلوبهم، وشهد حنينًا، وأُعطي من غنائمها مائة بعير، ثم حسُن إسلامُه، مات سنة خمسين، وقيل: ستين. وهو ممَّن عاش مائة وعشرين سنة، شطرها في الجاهلية وشطرها في الإسلام؛ قاله [إبراهيم] ابن المنذر[٢] **(بايعت رسول الله ﷺ علىٰ أن لا أخرَّ إلا قائمًا. فبايعه النبي ﷺ)** رواه أحمد[٣] والنسائي[٤]، وفيه إرسال خفيٌّ[٥] **(ثم فقهَ وكمُل إيمانُه بعد ذلك)**.

(فلما كان السجود عندهم هو منتهَىٰ المذلة والضعة أُمِروا به لينكسر بذلك خيلاؤهم، ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلوبهم) وتنتفي عيبة الجاهلية عنهم **(وبه أُمِر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائمًا هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك مَن عرف نفسه فلينظر كلَّ ما يتقاضاه الكبرُ من الأفعال فيواظب علىٰ نقيضه)** فإن المعالجة لا تتم إلا بما يناقض الداءَ **(حتىٰ يصير التواضع له خُلقًا)** راسخًا **(فإن القلوب لا تتخلَّق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعًا، وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالَم المُلك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت)** كما تقدم في كتاب عجائب القلب. والله الموفِّق.

(المقام الثاني فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة) آنفًا **(وقد**

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) ونقله عنه البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١١.

(٣) مسند أحمد ٢٤/ ٢٨.

(٤) سنن النسائي ص ١٧٧.

(٥) عبارة العراقي في المغني ٢/ ٩٦٤: «رواه أحمد مقتصرا علىٰ هذا، وفيه إرسال خفي».

ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه ممَّا يفنىٰ بالموت فكمال وهميٌّ) لا حقيقة له (فمن هذا يعسُر علىٰ العالِم أن لا يتكبر) وكذا العابد (ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة:

الأول: النسب، فمن يعتريه الكبرُ من جهة النسب فليداوِ قلبَه بمعرفة أمرين، أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزُّزٌ بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرتُ بآباء ذوي شرف ... لقد صدقتُ ولكن بئس ما ولدوا[1]

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسًا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسَّتَه بكمال غيره؟ بل لو كان الذي يُنسَب إليه حيًّا لكان له أن يقول: الفضل لي، ومن أنت؟ وإنما أنت دودة خُلقت من بولي، أفترىٰ أن الدودة التي خُلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي خُلقت من بول فرس) مثلاً (هيهات! بل هما متساويان، والشرف للإنسان لا للدودة. الثاني): هو (أن يعرِّف نفسه نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد) وهو آدم عليه السلام (تراب ذليل، وقد عرَّفه الله تعالىٰ نسبه فقال) عز وجل: (﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۞﴾ [السجدة: ٧ - ٨] فمَن أصلُه التراب المهين الذي يُداس بالأقدام) ويوطأ بها عليه (ثم خُمِّر طينه حتىٰ صار حمأ مسنونًا كيف يتكبر وأخس الأشياء ما إليه انتسابه؛ إذ يقال: يا أذل من التراب، ويا أنتن من الحمأ، ويا أقذر من المضغة. فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فيقول: أفتخرُ بالقريب دون البعيد، فالمضغة والنطفة أقرب إليه من الأب، فليحقر نفسه بذلك. ثم إن كان ذلك يوجب رفعةً لقربه فالأب الأعلىٰ) خُلق (من التراب، فمن أين رفعته)؟ ومن شأن التراب الذلُّ (وإذا لم تكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده فإن أصله من التراب، وفصله من النطفة، فلا أصل له ولا فصل،

---

(١) هو لابن الرومي كما في ديوانه ٢/ ٨٠٨ بتحقيق الدكتور/ حسين نصار رحمه الله تعالىٰ (ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة).

وهذه غاية خسة النسب، فالأصل يوطأ بالأقدام، والفصل تُغسَل منه الأبدان، فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومَن عرفه لم يتكبر بالنسب، ويكون مَثَله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه) أنه (من) ولد (بني هاشم) بن عبد مناف جد النبي ﷺ (وقد أخبره بذلك والده، فلم تزل فيه نخوة الشرف) أي عظمته (فبينما هو كذلك إذ أخبره) جماعة من المسلمين (عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجَّام يتعاطىٰ القاذورات) أي مص الدماء (وكشفوا له وجه التلبيس عليه) إلىٰ أن وثق به (فلم يبقَ له شكٌّ في صدقهم، أفترىٰ أن ذلك يُبقِي شيئًا من كبره؟ لا، بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم، فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر علىٰ غيره. فهذا حال البصير) الناقد (إذا تفكَّر في أصله وعلم أنه من النطفة والمُضغة والتراب؛ إذ لو كان أبوه ممَّن يتعاطىٰ نقل التراب) بأن كان كنَّاسًا أو زبَّالاً (أو يتعاطىٰ الدم) أي مصه (بالحجامة) أو التشريط (أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه؛ لمماسَّة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزَّه عنها هو) ويتباعد (في نفسه.

السبب الثاني: الكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلىٰ باطنه نظر العقلاء) المتأمِّلين (ولا ينظر إلىٰ الظاهر نظر البهائم، ومهما نظر إلىٰ باطنه) والدم في عروقه (رأىٰ من القبائح ما يكدِّر عليه تعزُّزَه بجماله، فإنه وُكِّلت به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع) أي العَذِرة (في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبُزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطيه، ويغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردَّد إلىٰ الخلاء كل يوم مرة أو مرتين ليُخرِج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه) ولو أصاب منه شيئًا من جسده أو ثوبه لساء مزاجُه وبادر إلىٰ إزالته، فتراه مدة جلوسه واضعًا يده علىٰ أنفه لئلا يشمه (كل ذلك ليعرف قذارته وذله. هذا في حال توسُّطه،

وفي أول أمره خُلق من الأقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض) ولذلك إذا علقت المرأةُ انقطع عنها الدم (وأُخرِج من مجاري الأقذار؛ إذ خرج) أولاً (من الصُّلب) أي من صلب أبيه (ثم من الذكر مجرىٰ البول) ومجرىٰ المني غير مجرىٰ البول عند الشافعي رحمه الله تعالىٰ، كما تقدم الكلام عليه في سر الطهارة (ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرىٰ) وفي نسخة: من مخرج (القذر. قال أنس) بن مالك (رحمه الله تعالىٰ: كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه يخطبنا فيقذِّر إلينا أنفسنا ويقول: خرج أحدكم من مجرىٰ البول مرتين)[1] الأولىٰ من مجرىٰ بول أبيه، والثانية من مجرىٰ بول أمه (وكذلك قال طاووس) اليماني (لعمر بن عبد العزيز) رحمهما الله تعالىٰ: (ما هذه مشية مَن في بطنه خرء. إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته) وقد تقدم (هذا أوله ووسطه، ولو ترك نفسه في حال حياته يومًا لم يتعهَّدها بالتنظيف والغسل) بالماء (لثارت منه الأنتان والأقذار) أي انبعثت (وصار أقذر وأنتن من الدواب المهمَلة التي لا تتعهَّد نفسها قط، فإذا نظر أنه خُلق من أقذار وأُسكِن في أقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدِّمَن) أي الشجرة الخضراء في منبت سوء، فإنَّ ما ينبُت في الدمن وإن كان ناضرًا لا يكون ثامرًا، وهو سريع الفساد[2] (وكلون الأزهار في البوادي بينما هو كذلك إذ صار هشيمًا) يابسًا متكسِّرًا (تذروه) أي تسفيه (الرياح، كيف ولو كان جماله باقيًا وعن هذه القبائح خاليًا لكان يجب أن لا يتكبر به علىٰ القبيح) الصورة (إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتىٰ يُحمَد عليه، كيف ولا بقاء له، بل هو في كل حين) وفي نسخة: حالة (يُتصور أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو بسبب من الأسباب) غير ما ذُكر (فكم من

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص ١٩٩ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٥٢ بلفظ: «كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان حتىٰ إن أحدنا ليقذر نفسه، ويقول: خرج من مجرىٰ البول مرتين».

(٢) الصحاح للجوهري ٢/ ٦٤٧. المصباح المنير للفيومي ص ١٧٢.

وجوه جميلة قد سمجت) أي قبحت بعد أن كانت جميلة (بهذه الأسباب، فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمَن أكثر تأمُّلَها.

السبب الثالث: التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سُلِّط عليه من العلل) العارضة (والأمراض) الفاجئة (وأنه لو توجَّع عِرق واحد في يده) لسُلب القرار و(لصار أعجز من كل عاجز، وأذل من كل ذليل) فكم لله من نعمة علىٰ عِرق ساكن (وأنه لو سلبه الذباب) الذي هو أحقر المخلوقات (شيئًا لم يستنقذه منه، وأن بقَّة لو دخلت في أنفه) لأفسدت دماغه، وبها كان هلاك النمروذ (أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته) عن المشي (وإن حميَ يومًا تحلَّل من قوَّته ما لا ينجبر في مدة) من الزمان (فمَن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقَّة ولا يقدر علىٰ أن يمنع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته) ثم بتأمُّل أن أصله من التراب - وهو أذل ما يكون - فما يكون للمخلوق منه من القوة حتىٰ يفتخر بها (ثم إن قويَ الإنسانُ فلا يكون أقوىٰ من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأيُّ افتخار في صفة تسبقك البهائم فيها؟

السبب الرابع والخامس: الغِنىٰ وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار) والخدم (والتكبر بولاية السلاطين) للمناصب (والتمكُّن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنًىٰ خارج عن ذات الإنسان، لا كالجمال والقوة والعلم، وهذا أقبح أنواع التكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته) لمنصب (لا بصفة في نفسه بنىٰ أمره علىٰ قلب هو أشد غليانًا من القِدر، فإن تغيَّر عليه) عزله عن ولايته، وأسقطه من عينه، و(كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل) فاسد العقل (كيف والمتكبر بالغِنىٰ لو تأمل لرأىٰ في اليهود) والنصارىٰ (من يزيد عليه في الغِنىٰ والثروة والتجمُّل) بالأثاث والأمتعة (فأف لشرف يسبقك به اليهود) والنصارىٰ (وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلسًا.

فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك، بل هي إلىٰ واهبه، إن أبقاه بقي لك، وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر علىٰ شيء، فمَن عرف ذلك) وتأمل فيه حق التأمُّل (لا بد وأن يزول كبره، ومثاله أن يفتخر الغافل بقوَّته وجماله وماله وحريته) وأعوانه (واستقلاله) في أموره (وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف) عادل (بأنه رقيق لفلان، وأن أبويه كانا مملوكين له، فعلمَ ذلك) وثبت لديه (وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يديه، وهو يخشىٰ مع ذلك أن يعاقبه وينكِّل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أن له مالكًا، ثم نظر العبد فرأىٰ نفسه محبوسًا في منزل قد أحدقت به الحيَّات والعقارب والهوامُّ، وهو في كل حال علىٰ وَجَل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله، ولا يعرف طريقًا في الخلاص البتَّة، أفترىٰ أن مَن هذا حاله هل يفتخر بقدرته وثروته وقوته وجماله أم يذل في نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير، فإنه يرىٰ نفسه كذلك، فإنه لا يملك رقبته وماله وبدنه وأعضاءه، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيَّات يخاف منها الهلاكَ، فمَن هذا حاله لا يتكبر بقدرته وقوته؛ إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يُفرَح بهما، ولكن في التكبر بهما أيضًا نوع من الجهل خفيٌّ، كما سنذكره.

السبب السادس: التكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله، عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحبار) رحمه الله: (إن

للعلم طغيانًا كطغيان المال)[١].

(وقال عمر رضي الله عنه: العالِم إذا زلَّ زل بزلته عالَمٌ)[٢] الأولىٰ بكسر اللام، والثانية بفتحها. وأخصر منه: زلة العالِم زلة العالَم. وقد تقدم في كتاب العلم[٣] (فيعجز العالِم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلىٰ الجاهل؛ لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم، ولن يقدر العالِم علىٰ دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين، أحدهما: أن يعلم أن حجة الله علىٰ أهل العلم أوكد، وأنه يُحتمَل من الجاهل ما لا يُحتمَل عُشره من العالم، وأنه مَن عصىٰ الله عن معرفة وعلم فجنايته أفحش) وأغلظ (إذ لم يقضِ حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال النبي ﷺ: يؤتَىٰ بالعالِم يوم القيامة فيُلقَىٰ في النار، فتندلق أقتابه) أي أمعاؤه (فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك)؟ أي ما شأنك؟ (فيقول: كنت آمُر بالخير ولا آتيه، وأنهىٰ عن الشر وآتيه) قال العراقي[٤]: متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ «يؤتَىٰ بالرجل»، وتقدم في العلم.

قلت: لفظ الشيخين: «يُجاء بالرجل»، وفيه: «فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلىٰ، قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». ورواه كذلك أحمد. ولفظ الحميدي والعدني في مسنديهما: «يؤتَىٰ برجل كان واليًا فيُلقَىٰ في النار، فتندلق أقتابه، فيدور في النار كما يدور الحمار بالرحىٰ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ...» والباقي سواء. وعند أبي نعيم في الحلية: «يُجاء بالأمير يوم القيامة فيُلقَىٰ في النار فيُطحَن فيها كما يُطحَن الحمار

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٤، ورواه عن وهب بن منبه ابنُ المبارك في الزهد والرقائق ص٦٢، وأحمد في الزهد ص ٣٠١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٥٥.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٤.

(٣) في الباب السادس منه. وأورد الغزالي مثله في الباب الثاني عن عيسىٰ عليه السلام.

(٤) المغني ٢/ ٩٦٥.

بطاحونته، فيقال له: ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ قال: بلىٰ، ولكن لم أكن أفعله»[١].

وروىٰ ابن النجار من حديث أنس[٢]: «يؤتَىٰ بعلماء السوء يوم القيامة فيُقذَفون في نار جهنم، فيدور أحدهم في جهنم بقصبه كما يدور الحمار بالرحىٰ، فيقال له: يا ويلك! بك اهتدينا، فما بالك؟ قال: إني كنت أخالف ما أنهاكم».

(وقد مثَّل الله تعالىٰ مَن يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] **أراد به علماء اليهود)** فإنهم لم يعملوا بما علموا.

(وقال في بلعم بن باعوراء) بن سنور بن وسيم بن ناب بن لوط بن هاران بن تارح بن ناحور بن سروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وقيل في نسبه غير ذلك. وقيل[٣]: هو من الكنعانيين، وكان قد أوتي علم بعض كتب الله (﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾) أي علىٰ اليهود (﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾) وكان أحد علماء بني إسرائيل. أو المراد به أمية بن أبي الصلت، فإنه حينئذٍ قد كان قرأ الكتاب وعلم أن الله تعالىٰ مرسل رسولاً في ذلك الزمان، فرجا أن يكون هو، فلما بعث الله محمدًا ﷺ حسده فكفر به. وهذا يُروَىٰ عن عبد الله بن عمرو (﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾) أي من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها (حتىٰ بلغ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾) وتمام الآية بعد قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى

---

(١) تقدمت رواية الشيخين وأحمد وأبي نعيم في الباب السادس من كتاب العلم، أما رواية الحميدي فهي في مسنده ١/ ٤٧٠.

(٢) في كنز العمال ١٠/ ٢٠٨: عن أبي هريرة. ورواه قوام السنة في الترغيب والترهيب ٣/ ١٠٢ عن أبي أمامة.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ٤٢.

ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ أي فصفته التي هي مَثَل في الخسة كصفة الكلب في أخس أحواله. وقوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مال إلىٰ الدنيا وإلىٰ السفالة، واتَّبع هواه في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وأعرض عن مقتضَىٰ الآيات. وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها، فأوقع موقعه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ مبالغةً وتنبيهًا علىٰ ما حمله عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة (**قال ابن عباس ﷺ: أوتي بلعم كتابًا، فأخلد إلىٰ شهوات الارض. أي سكن حبه إليها**)[1] أي مال إليها. روىٰ[2] عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء - وفي لفظ: بَلْعام بن باعر - الذي أوتي الاسم، وكان من بني إسرائيل. وروىٰ ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، أوتي اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسىٰ عليه السلام أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسىٰ رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادْعُ الله أن يردَّ عنا موسىٰ ومَن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يردَّ موسىٰ ومَن معه مضت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتىٰ دعا عليهم، فانسلخ مما كان فيه. وروىٰ ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: هو رجل يُدعَىٰ بلعم من أهل اليمن، آتاه الله آياته فتركها. وروىٰ ابن جرير عن مجاهد قال: هو نبي من بني إسرائيل يقال له بلعم، أوتي النبوة، فرشاه قومه علىٰ أن يسكت، ففعل وتركهم علىٰ ما هم عليه[3] (﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾) [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦] واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشديد، أي يلهث دائمًا سواء حُمل عليه بالزجر والطرد أو تُرك ولم يُتعرَّض له، بخلاف سائر الحيوانات؛ لضعف فؤاده. والشرطية في موضع الحال، والمعنىٰ: لاهثًا في الحالتين، والتمثيل واقع موقع لازم التركيب الذي هو نفي الرفع ووضع المنزلة

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٦.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٦٧٢ - ٦٨٠. جامع البيان للطبري ١٠/ ٥٦٦ - ٥٨٨.

(٣) وهذا يصادم القواطع الدالة علىٰ عصمة الأنبياء عليهم السلام.

للمبالغة والبيان. وقيل: لما دعا علىٰ موسىٰ خرج لسانه فوقع علىٰ صدره وجعل يلهث كالكلب (**أي سواء آتيتُه أو لم أوتِه فلا يَدَع شهوته**) وقال ابن عباس: أي إن حُمِّل الحكمة لم يحملها، وإن تُرك لم يهتدِ لخير، كالكلب إن كان رابضًا يلهث، وإن طُرد يلهث. وقال قتادة: هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أُميتَ فؤاد الكلب. وقال عكرمة: هم أناس من اليهود والنصارىٰ والحنفاء ممَّن أعطاه الله آياته وكتابه فانسلخ منها، فجعله مثل الكلب. وقال مجاهد: قوله ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ أي إن تطرده بدابَّتك ورجليك، وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به. وقال الحسن: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ أي تسعىٰ عليه. وقال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، مثل الذي يترك الهدىٰ لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع، كان ضالاً قبل وبعد.

(**ويكفي العالِمَ هذا الخطر، فأيُّ عالِم لم يتَّبع شهوته**) وركن إليها؟ (**وأيُّ عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عِظَمُ قدره بالإضافة إلىٰ الجاهل فليتفكَّر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإنَّ خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا**) يقابَل (بذاك) فانظر أيهما أرجح (**وهو كالملك المُخاطِر بروحه في مُلكه لكثرة أعدائه، فإنه إذا أُخِذ وقُهر**) وأُذِلَّ (**اشتهىٰ أن يكون قد كان فقيرًا**) من آحاد الرعية ولم يكن ملكًا (**فكم من عالم يشتهي في الآخرة**) لِما يعاين الأهوال (**سلامةَ الجهَّال، والعياذ بالله تعالىٰ منه، فهذا الخطر يمنعه من التكبر**) ويشغله عنه (**لأنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه**) إذ لا حساب علىٰ الخنزير (**فكيف يتكبر مَن هذا حاله، فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي**) رُوي ذلك من قول عمر رضي الله عنه بلفظ: ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتني كنت كبشًا لأهلي فسمَّنوني فذبحوني وأكلوني (**ويأخذ الآخَر**) منهم (**تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذة التبنة. ويقول الآخر: ليتني كنت طيرًا**) آوي إلىٰ الأشجار وآكل الثمار ولا أشاهد هول القيامة (**ويقول الآخر: ليتني لم أكن شيئًا**

مذكورًا[1]. **كل ذلك خوفًا من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب)** ومن التبنة وما أشبه ذلك من المحتقَرات **(ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبرُه ورأىٰ نفسه كأنه شر الخلق)** فهذه مشاهدة العارفين الكاملين **(ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور، فشرع فيها)** بالعمل **(فترك بعضها)** تهاونًا **(وأدخل النقصان في بعضها، وشك في بعضها أنه هل أدَّاها علىٰ ما يرتضيه سيده أم لا، فأخبره مخبر أن مولاه أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عريانًا ذليلاً ويلقيه علىٰ بابه في الشمس والحر زمانًا طويلاً، حتىٰ إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود)** أي نهاية طاقته **(أمر برفع حسابه، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أُمِر به إلىٰ سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعةً، وقد علم)** ذلك العبد **(أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك، وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري من أيِّ الفريقين يكون)** أمن المعذَّبين أم من الخالصين **(فإذا تفكَّر في ذلك انكسرت نفسه، وذلَّ، وبطل عزه وكبره، وظهر حزنه وخوفه، ولم يتكبر علىٰ أحد من الخلق، بل تواضع)** وخشع **(رجاءَ أن يكون هو من شفعائه**

---

(١) روىٰ ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٠٥ عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أك شيئا، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسيا منسيا. وهكذا رواه أيضا: ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٦٢، وأبو داود في الزهد ص ٨٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٢٩، وابن أبي الدنيا في كتاب المتمنين ص ٢٦ - ٢٧ (ط - دار ابن حزم). وروىٰ هناد في الزهد ١/ ٢٥٨ والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٢٨ عن الضحاك بن مزاحم قال: مر أبو بكر علىٰ طير قد وقع علىٰ شجرة فقال: طوبىٰ لك يا طير، تطير فتقع علىٰ الشجر، ثم تأكل من الثمر، ثم تطير، ليس عليك حساب ولا عذاب، يا ليتني كنت مثلك، والله لوددت أني كنت شجرة إلىٰ جانب الطريق فمر عليَّ بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أكن بشرا. قال: وقال عمر: يا ليتني كنت كبش أهلي، سمنوني ما بدا لهم، حتىٰ إذا كنت كأسمن ما يكون زارهم بعض من يحبون فذبحوني لهم فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديدا ثم أكلوني ولم أكن بشرا. قال: وقال أبو الدرداء: يا ليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل ثمرتي ولم أكن بشرا. وروىٰ ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٧٠ وأحمد في الزهد ص ١٢٩ عن عبد الله بن مسعود قال: لوددت أني طير في منكبي ريش.

عند نزول العذاب به. فكذلك العالم إذا تفكَّر فيما ضيَّعه من أوامر ربه) وقصَّر فيها (بجنايات علىٰ جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيرها وعلمَ ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبرُه لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالِم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده) لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧] (وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا) لأنه نازع صفةً من صفاته تعالىٰ (وقد أحب اللهُ تعالىٰ منه أن يتواضع) وأثنىٰ علىٰ من اتَّصف به (وقال له): يا عبدي (إن لك عندي قدرًا) أي منزلة ومقامًا (ما لم ترَ لنفسك قدرًا، فإن رأيت لنفسك قدرًا فلا قدر لك عندي. ولا بد أن يكلِّف نفسه ما يحبه مولاه منه، وهذا) الفهم (يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصوَّر ذلك) من غير استيقان (وبهذا زال الكبرُ عن الأنبياء عليهم السلام؛ إذ علموا أن مَن نازع الله في رِداء الكبرياء) بأن أراد أن يرتدي به (قصمه) أي كسره وقطعه (وقد أمرهم الله تعالىٰ أن يصغِّروا أنفسهم) ويذلِّلوها (حتىٰ يعظُم عند الله محلُّهم، فهذا أيضًا ممَّا يبعثه علىٰ التواضع لا محالة) ويحمله علىٰ الاتِّصاف به.

(فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع) الحامل علىٰ بدعته؟ (وكيف يرىٰ نفسه دونهم وهو عالم عابد) ورع تقي؟ (وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله؟ وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلمْ أن ذلك إنما يمكن بالتفكُّر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلىٰ كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه؛ إذ يُتصور) في العقل (أن يُسلِم الكافر فيُختَم له بالإيمان، ويضل هذا العالمُ ويُختَم له بالكفر) عياذًا بالله منه، وقد وقع ذلك لكثير منهم، وحكاية ابن السَّقَّاء والقطب عبد القادر الجيلاني في دخولهما علىٰ أحد الأولياء المكاشَفين مشهورة في المناقب[1].

(١) هذه الحكاية ذكرها المناوي في الكواكب الدرية ١ / ٦٣٥، فقال: «غوث البغدادي، العابد الزاهد، صاحب المكاشفات والمشاهد، كان ببغداد، وكان يختفي تارة ويظهر أخرىٰ متىٰ شاء، =

(والكبير مَن هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلىٰ مرتبةً ممَّن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلىٰ عمر رضي الله عنه **قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره، وقد رزقه الله الإسلام، وفاق)** بعد ذلك **(جميعَ المسلمين إلا أبا بكر)** رضي الله عنه **(وحده)** بنص «ما طلعت شمس ولا غربت علىٰ أفضل من أبي بكر»، كما هو في الخبر **(فالعواقب مطويَّة عن العِباد)** لا علم لهم بها **(ولا ينظر العاقل إلا إلىٰ العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا)** إنما **(تُراد للعاقبة. فإذًا حق العبد أن لا يتكبر علىٰ أحد)** أبدًا **(بل إن نظر إلىٰ جاهل قال: هذا عصىٰ الله بجهل،**

= فقصده ابن أبي عصرون وابن السقاء وعبد القادر الجيلاني وهو شاب يومئذ إلىٰ زيارته، فقال ابن السقاء في الطريق: اليوم أسأله مسألة لا يعلم جوابها. وقال ابن أبي عصرون: اسأله فانظر ماذا يقول. وقال الجيلاني: معاذ الله أن أسأله، بل أتبرك برؤيته. فدخلوا عليه، فلم يروه مكانه، فمكثوا ساعة، فإذا هو جالس، فقال لابن السقاء وهو لا يعرفه: يا ابن السقاء، تسألني مسألة لا أعرف جوابها، هي كذا وجوابها كذا، إني أرىٰ نار الكفر تتلهب فيك. ثم قال لابن أبي عصرون: تسألني تنظر ما أقول، أردت أن تسأل عن كذا وجوابه كذا، لتغمرنك الدنيا إلىٰ شحمتي أذنيك لإساءة أدبك. وقال للجيلي: لقد أرضيت الله ورسوله بأدبك، أراك وقد صعدت الكرسي متكلما علىٰ الناس وقلت: قدمي علىٰ رقبة كل ولي لله». وقد ساق ابن خلكان في وفيات الأعيان ٧/ ٧٨ - ٧٩ هذه الحكاية علىٰ وجه آخر فقال: «قال أبو الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح: حضرت مجلس شيخنا يوسف بن أيوب بن وهرة الهمذاني في النظامية، وكان قد اجتمع العالم، فقام فقيه يعرف بابن السقاء وآذاه وسأله عن مسألة، فقال له الإمام يوسف: اجلس، فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت علىٰ غير دين الإسلام. فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة قدم رسول نصراني من ملك الروم إلىٰ الخليفة، فمضىٰ إليه ابن السقاء وسأله أن يستصحبه، وقال له: يقع لي أن أترك دين الإسلام وأدخل في دينكم. فقبله النصراني، وخرج معه إلىٰ القسطنطينية والتحق بملك الروم وتنصر ومات علىٰ النصرانية. قال ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد في ترجمة يوسف الهمذاني المذكور: سمعت أبا الكرم عبد السلام ابن أحمد المقرئ يقول: كان ابن السقاء قارئا للقرآن الكريم، مجودا في تلاوته، حدثني من رآه بالقسطنطينية ملقىٰ علىٰ دكة مريضا، وبيده خلق مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه، فسألته: هل القرآن باق علىٰ حفظك؟ فقال: ما أذكر منه إلا آية واحدة: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) والباقي أنسيته».

وانظر: حياة الحيوان الكبرىٰ للكمال الدميري ١/ ٤٩٠ - ٤٩١.

وأنا عصيته بعلم، فهذا أعذرُ مني) أي يُقبَل عذره أكثر مني (وإن نظر إلىٰ عالم قال: هذا قد علمَ ما لم أعلم) وحصَّل ما لم أحصِّل (فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلىٰ كبير هو أكبر منه سنًّا قال: هذا قد أطاع الله قبلي) وعبدَ اللهَ قبلي (فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلىٰ صغير قال: إني عصيت الله قبله، فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلىٰ مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يُختَم له بالإسلام) ولعل المبتدع يتوب ويحسُن حالُه (ويُختَم لي بما هو عليه الآن) من الكفر والابتداع (فليس دوام الهداية إليَّ، كما لم يكن ابتداؤها إليَّ) إذ هي بيد الله تعالىٰ (فبملاحظة الخاتمة يقدر علىٰ أن ينفي) وصف (الكبر عن نفسه) ويزيله (وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال) إنما هو (في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له) ولا دوام (ولعَمْري هذا الخطر مشترك بين المتكبِّر والمتكبَّر عليه، ولكن حقٌّ علىٰ كل واحد أن يكون مصروف الهمَّة إلىٰ نفسه، مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإنَّ الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان علىٰ نفسه، فإذا حُبس جماعة في جناية ووُعِدوا بأن تُضرَب رقابهم لم يتفرَّغوا لتكبُّر بعضهم علىٰ بعض وإن عمَّهم الخطرُ) جميعًا (إذ شغلُ كل واحد همُّ نفسه عن الالتفات إلىٰ همِّ غيره حتىٰ كان كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أُمِرتُ ببغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما؟ والجمع بينهما متناقض. فاعلمْ أن هذا أمر مشتبه يلتبس علىٰ أكثر الخلق؛ إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال) أي الإعجاب (بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأىٰ فاسقًا) من الفسَّاق (جلس بجنبه أزعجه) أي أقامه (من عنده وتنزَّه عنه) أي تباعد (بكبر باطن في نفسه وهو ظانٌّ أنه قد غضب لله) وليس كما ظن (كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم) وتقدم ذِكره قريبًا (وذلك لأن الكبر علىٰ المطيع ظاهر كونه شرًّا، والحذر منه ممكن، والكبر علىٰ الفاسق والمبتدع يشبه الغضب

لله، وهو خير، فإن الغضبان أيضًا يتكبر علىٰ مَن غضب عليه، والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخَرَ ويوجبه) فالغضب يوجب التكبرَ، والتكبر يوجب الغضب (وهما ممتزجان ملتبسان لا يميِّز بينهما إلا الموفَّقون) بالله تعالىٰ (والذي يخلِّصك من هذا أن يكون الحاضر علىٰ قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف أو) عند (نهيهما عن المنكر ثلاثة أمور، أحدها: التفاتك إلىٰ ما سبق من ذنوبك وخطاياك) وسائر ما قصَّرت فيه من أوامر الله ونواهيه (ليصغر عند ذلك قدرُك في عينك) فلا ترىٰ لنفسك مقامًا (والثاني: أن تكون ملاحظتك لِما أنت متميِّز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله عليك، فله المنَّة فيه لا لك، فترىٰ ذلك منه حتىٰ لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر) وفي بعض النسخ: لم تنفر (والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته أنه ربما يُختَم لك بالسوء ويُختَم له بالحسنىٰ، حتىٰ يشغلك الخوف عن التكبر عليه) فإذا حضرت هذه الأمور الثلاثة عند مشاهدة هؤلاء أو عند أمرهم ونهيهم يُرجَىٰ أن يكون غضبه لله تعالىٰ.

(فإن قلت: فكيف أغضب مع) وجود (هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك؛ إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك) عليه (لا ترىٰ نفسك ناجيًا وصاحبك هالكًا، بل يكون خوفك علىٰ نفسك لِما علم اللهُ من خفايا ذنوبك) ودقائق معاصيك (أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة. وأعرِّفك ذلك بمثال) يفهمك المقصودَ (لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر علىٰ المغضوب عليه وترىٰ قدرك فوق قدره، فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرَّة عينه) والعزيز عنده (وقد وكَّل الغلامَ بالولد ليراقبه) ويحافظ عليه (وأمره بأن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه، فإن كان الغلام محبًّا مطيعًا لمولاه) وفي نسخة: مطيعًا محبًّا لمولاه (فلا يجد بدًّا من أن يغضب مهما رأىٰ ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه) لا لنفسه (لأنه) أي

مولاه (أمره به، ولأنه يريد التقرُّب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرىٰ من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع له) عارف به (يرىٰ قدره عند مولاه فوق قدر نفسه؛ لأن الولد أعزُّ لا محالة من الغلام) وأقرب (فإذًا ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلىٰ المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما عند الله في الآخرة أعظم؛ لِما سبق لهما من الحسنىٰ في الأزل، ولِما سبق لك من سوء القضاء في الأزل، وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبةً لمولاك؛ إذ جرىٰ ما يكرهه) ونهىٰ عنه (مع التواضع لمَن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة، فهكذا يكون بغض العلماء الأكياس) المتفطِّنين (فينضم إليه الخوف والتواضع، وأما المغرور) بعلمه (فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره، مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور) وهو مهلك (فهذا سبيل التواضع لمَن عصىٰ الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر) الإلهي.

(السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضًا فتنة عظيمة علىٰ العُبَّاد) والورعين (وسبيله أن يُلزِم قلبَه التواضعَ لسائر العِباد، وهو أن يعلم أن مَن تقدَّم عليه في العلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان؛ لِما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالىٰ) في كتابه العزيز: (﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾) [الزمر: ٩] تقدم الكلام عليه في أول كتاب العلم (وقال ﷺ: فضل العالِم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدنىٰ رجل من أصحابي) رواه الترمذي[١] والطبراني[٢] من حديث أبي أمامة بلفظ: «كفضلي علىٰ أدناكم». قال الترمذي: حسن صحيح غريب. وقد تقدم في كتاب العلم. ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[٣] وابن حبان في الضعفاء[٤]

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤١٦.

(٢) المعجم الكبير ٨/ ٢٧٨.

(٣) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ١/ ١٨٤.

(٤) المجروحون من المحدثين ١/ ٤٢٧.

وابن عبد البر في العلم[1] وابن النجار من حديث أبي سعيد بلفظ: «كفضلي علىٰ أمتي».

(إلىٰ غير ذلك مما ورد في فضل العلم) ممَّا تقدَّم جميعها في كتاب العلم (فإن قال العابد ذلك لعالم عامل بعلمه: وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما علمتَ أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حُجة علىٰ العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له إلىٰ النجاة وكفَّارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، فإذا كان هذا الأمر غائبًا عنه لم يجُز له أن يحتقر عالمًا، بل يجب عليه أن يتواضع له) ويراه بعين الكمال.

(فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرىٰ نفسه فوق العابد؛ لقوله ﷺ: فضل العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدنىٰ رجل من أصحابي. فاعلمْ أن ذلك كان ممكنًا لو علمَ العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها) غير معلومة لأحد (فيحتمل أن يموت بحيث أن يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق بذنب واحد كان يحسبه هينًا وهو عند الله عظيم، وقد مقتَه به) وأبغضه بسببه (وإذا كان هذا ممكنًا كان علىٰ نفسه خائفًا، فإذا كان كل واحد من العالم والعابد خائف علىٰ نفسه وقد كُلِّف أمر نفسه لا أمر غيره فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف، وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من الكبر بكل حال، فهذا حال العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فينقسمون في حقه إلىٰ مستورين وإلىٰ مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر علىٰ المستور) الذي لم يجاهر بمعصيته (فلعله أقل منه ذنوبًا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبًّا لله، وأما المكشوف حاله) عند الناس (إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبُك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن) لك (أن تقول: هذا أكثر مني ذنبًا؛ لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر علىٰ إحصائها حتىٰ تعلم الكثرة) فيها (نعم، يمكن أن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٠١.

تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا) وغيرها من الكبائر (ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه؛ إذ ذنوب القلب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالىٰ وتخيُّل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله) مؤاخَذ به العبد (فربما جرىٰ عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرتَ به عند الله ممقوتًا) وأنت لا تشعر (وقد جرىٰ للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم) لأمر الله (ما أنت خالٍ عنه، وقد كفَّر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن، والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبًا عندك إن كنت مشفقًا علىٰ نفسك، فلا تتفكَّر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرةٌ وِزر أخرىٰ) أي لا تحمل حاملة ذنب نفس أخرىٰ (وعذاب غيرك لا يخفِّف شيئًا من عذابك، فإذا تفكَّرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترىٰ نفسك فوق نفس غيرك، وقد قال وهب بن منبه) اليماني رحمه الله تعالىٰ: (ما تم عقلُ عبد حتىٰ يكون فيه عشر خصال. فعدَّ تسعًا حتىٰ بلغ العاشرة فقال: العاشرة وما العاشرة) أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مخلد، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا عبَّاد بن كثير. ح. وحدثنا أحمد بن السِّنْدي، حدثنا الحسن بن عَلَويه القَطَّان، حدثنا إسماعيل بن عيسىٰ، حدثنا إسحاق بن بشر، كلاهما عن إدريس، عن جده وهب بن منبه قال: ما عُبِد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقلُ امرئ حتىٰ يكون فيه عشر خصال: حتىٰ يكون الكبر منه مأمونًا، والرشد فيه مأمولاً، يرضىٰ من الدنيا بالقوت، وما كان من فضل فمبذول، والتواضع فيها أحب إليه من الشرف، والذل فيها أحب إليه من العز، لا يسأم من طلب العلم دهره، ولا يتبرَّم من طالبي الخير، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلُّ كثير

(١) حلية الأولياء ٤/ ٤٠ - ٤١.

المعروف من نفسه، والعاشرة هي ملاك أمره (**بها ساد مجدُه**) ولفظ الحلية: ينال مجده (**وبها علا**) ولفظ الحلية: يعلو (**ذِكرُه**) وزاد بعده: وبها علا في الدرجات في الدارين كليهما. قيل: وما هي؟ قال: (**أن يرىٰ الناس كلهم خيرًا منه، وإنما الناس عنده فرقتان: ففرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنىٰ. فهو يتواضع للفرقتين جميعًا بقلبه، إن رأىٰ مَن هو خير منه**) وأفضل (**سرَّه ذلك، وتمنىٰ أن يلحق به، وإن رأىٰ مَن هو شر منه**) وأرذل (**قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا. فلا تراه إلا خائفًا من العاقبة ويقول: لعل بِر هذا باطنٌ**) ولفظ الحلية: ولعل لهذا باطنًا لم يظهر لي (**فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خُلقًا كريمًا بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال وبِرِّي ظاهر فذلك شر لي**) ولفظ الحلية: ولعل ذلك شر لي (**فلا يأمن فيما أظهره من الطاعات أن يكون دخلتها الآفات فأحبطتْها. ثم قال: فحينئذٍ كمُل عقلُه وساد أهلَ زمانه**)[1] ولفظ الحلية: فهناك يكمُل عقلُه ويسود أهلَ زمانه، وكان من السُّبَّاق إلىٰ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وجنَّته إن شاء الله.

(**فهذا كلامه**) وفي سياق الحلية اختصار ومخالفة في بعض المواضع.

(**وبالجملة، فمَن جوَّز أن يكون عند الله شقيًّا وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلىٰ أن يتكبر بحال من الأحوال. نعم، إذا غلب عليه الخوف رأىٰ كل واحد خيرًا من نفسه، وذلك هو الفضيلة، كما رُوي**) في أخبار بني إسرائيل (**أن عابدًا**) من عُبَّادهم (**آوىٰ إلىٰ جبل**) فنام (**فقيل له في النوم: ائتِ فلانًا الإسكاف**) وسمَّاه له (**فسَلْه أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله، فأخبره أنه يصوم النهار ويكتسب فيتصدَّق ببعضه ويطعم عيالَه ببعضه، فرجع**) العابد (**وهو يقول: إن هذا لَحسنٌ، ولكن ليس هذا كالتفرُّغ لطاعة الله تعالىٰ. فأُتي في النوم ثانيًا وقيل له: ائتِ فلانًا الإسكاف**) المذكور (**فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك**)؟ أي أيُّ شيء صفَّرَ لونَ وجهك؟ (**فأتاه فسأله، فقال له: ما رأيت أحدًا من الناس إلا وقع**)

(١) الرعاية للمحاسبي ص٣٣٥.

لي) في خاطري (أنه سينجو وأهلك أنا. فقال العابد: بهذه)[1] نال ما نال من القرب والكرامة.

(والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي إنهم يؤتون الطاعات وهم على وَجَل عظيم من قبولها).

(وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦﴾ [الطور: ٢٦].

(وقد وصف الله الملائكة عليهم السلام مع تقدُّسهم من الذنوب ومواظبتهم على العبادة على الدؤوب) أي الاستمرار (بالإشفاق فقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨] فمتى زال الإشفاق والحذر ممَّا سبق به القضاءُ في الأزل وينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمنُ من مكر الله، وذلك يوجب الكبرَ، وهو سبب الهلاك، فالكبر دليل الأمن، والأمن مُهلِك، والتواضع دليل الخوف، وهو مُسعِد) أي يورث السعادةَ في الآخرة (فإذًا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار) والمهانة (أكثر مما يُصلِحه بظاهر الأعمال، فهذه معارف بها) إذا تحقَّق بها (يزول داء الكبر من القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضعَ) في باطنها (وتدَّعي البراءةَ من الكبر، وهي كاذبة) في دعواها (فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعن هذا لا ينبغي أن يُكتفَى في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرَّب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس).

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص ٣٣٥، ٣٣٦، ورواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٨٣ – ٨٥ بنحوه عن الجلد بن أيوب.

(وبيانه أن يمتحن النفس بخمسة امتحانات هي أدلة) قوية (علىٰ استخراج ما في الباطن، وإن كانت الامتحانات كثيرة).

(الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة) من المسائل العلمية (مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق علىٰ لسان صاحبه فثقل عليه قبولُه والانقياد له والاعتراف به والشكر له علىٰ تنبيهه وتعريفه وإخراجه فذلك يدل علىٰ أن فيه كبرًا دفينًا، فليتقِ الله فيه ويشتغل بعلاجه) بالعلم والعمل (أما من حيث العلم فبأن يذكِّر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله) عَزَّوَجَلَّ (وأما بالعمل فبأن يكلِّف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق، فيطلق اللسانَ بالحمد) له (والثناء) عليه (ويقرُّ علىٰ نفسه بالعجز، ويشكره علىٰ الاستفادة، وهو أن يقول: ما أحسن ما فطنتَ له، وقد كنتُ غافلاً عنه، فجزاك الله خيرًا كما نبَّهتني له. فالحكمة ضالَّة المؤمن، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر مَن دلَّه عليها) رواه الترمذي[1] من حديث أبي هريرة: «الكلمة الحكمة ضالَّة المؤمن، فحيثما وجدها فهو أحق بها». وعند ابن النجار[2] من حديث بريدة بلفظ: «حيثما وجدها أخذها». وروىٰ القضاعي[3] من مرسل زيد بن أسلم بلفظ: «حيثما وجد المؤمن ضالَّته فليجمعها إليه» (فإذا واظب علىٰ ذلك مرَّات متوالية صار ذلك طبعًا له) وسجيَّة لازمة (وسقط ثقلُ الحق عن قلبه وطاب له قبولُه، ومهما ثقل عليه الثناءُ علىٰ أقرانه بما فيهم) من الأوصاف (ففيه كبرٌ، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فيعالج الرياء بما ذكرناه) آنفًا (من قطع الطمع عن الناس) وعدم الالتفات إلىٰ ما بأيديهم (ويذكِّر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق .. إلىٰ غير ذلك من أدوية الرياء) كما تقدم (فإن ثقل عليه في الخلوة والملأ

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤١٧.

(٢) وكذلك الروياني في مسنده ١/ ٧٥، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٥٢.

(٣) مسند الشهاب ١/ ١١٩.

جميعًا ففيه الكبر والرياء جميعًا، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلَّص من الثاني، فليعالج كِلا الداءين، فإنهما جميعًا مهلكان).

(الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل) العامة (ويقدِّمهم علىٰ نفسه، ويمشي خلفهم، ويجلس في الصدور) من المجالس (تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلُّفًا حتىٰ يسقط عنه ثقلُه) ويصير طبعًا له (فبذلك يزايله الكبر. وههنا للشيطان مكيدة) خفية (وهو أن يجلس في صف النعال) وهي آخر الصفوف وأرذلها (أو أن يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال، فيظن أن ذلك تواضع) منه (وهو عين الكبر، فإنَّ ذلك يخفُّ علىٰ نفوس المتكبرين) ولا يثقل عليهم (إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضُّل، فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضًا) فظاهره يُرَىٰ متواضعًا وفي باطنه داء الكبر (بل ينبغي أن يقدِّم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحطُّ عنهم إلىٰ صف النعال، فذلك هو الذي يُخرِج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير) ولا يتأنَّف منه (ويمر إلىٰ السوق في حاجة الرفقاء والأقارب) والأصدقاء (فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإنَّ هذه الأفعال من مكارم الأخلاق) ومحاسنها (والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث) كامن (في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه، مع تذكُّر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر).

(الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلىٰ البيت، فإن أبت نفسُه ذلك) وامتنعت (فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق) عن الناس (فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا عند مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعِلَله المهلكة له) هلاكًا أبديًا (إن لم تُتدارك) بالمعالجات (وقد أهمل الناس طب القلوب) مع شدة الحاجة إليه (واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن الأجساد قد كُتب عليها الموت لا محالة) فأنَّىٰ

يجدي الاشتغالُ بمداواتها **(والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها)** عن الغش والغل والكبر والرياء والعجب وغيرها من الأخلاق الذميمة **(إذ قال تعالىٰ:** ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٩].

ويُروَىٰ عن عبد الله بن سلام) بن[١] الحارث الإسرائيلي رضي الله عنه، يكنىٰ أبا يوسف، وهو من ذرية يوسف عليه السلام، أسلم أول ما قدم النبيُّ ﷺ المدينة، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين **(أنه حمل حزمة حطب)** علىٰ ظهره **(فقيل له: يا أبا يوسف، قد كان في غلمانك وبنيك)** وهم محمد ويوسف **(ما يكفيك)** يعني حمل الحطب **(قال: أجل، ولكن أردت أن أجرِّب نفسي هل تنكر ذلك)**[٢] أم لا.

(فلم يَقنع منها بما أعطته من العزم علىٰ ترك الأَنفة حتىٰ جرَّبها أهي صادقة أم كاذبة)[٣].

(وفي الخبر: مَن حمل الفاكهة أو الشيء فقد برئَ من الكبر) قال العراقي[٤]: رواه البيهقي في الشعب[٥] من حديث أبي أمامة - وضعَّفه - بلفظ: «مَن حمل بضاعته».

قلت: وبهذا اللفظ رواه ابن لال في مكارم الأخلاق. ورواه القضاعي[٦]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٠٨ - ١١٠.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٥١٠ والطبراني في المعجم الكبير ١٤/ ٣٠٨ عن عبد الله بن حنظلة أن عبد الله بن سلام مر في السوق وعلىٰ رأسه حزمة حطب، فقيل له: ما يحملك علىٰ هذا وقد أغناك الله عنه؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». وعند البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٤٨٩: أليس قد أوسع الله عليك؟!.

(٣) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٩.

(٤) المغني ٢/ ٩٦٥.

(٥) شعب الإيمان ١٠/ ٤٩١.

(٦) مسند الشهاب ١/ ٢٤٧.

والديلمي في مسنديهما وأبو نعيم[١] من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر به مرفوعًا بلفظ «سلعته». وفي لفظ «الشرك» بدل: الكبر. وروىٰ ابن منده وأبو نعيم[٢] من رواية حكيم بن جحدم عن أبيه رفعه في أثناء حديث: «ومَن حمل من سوقه فقد برئَ من الكبر». وسيأتي قريبًا. وروىٰ الديلمي[٣] من حديث أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن اشترىٰ لعياله شيئًا ثم حمله بيده إليهم حُطَّ عنه ذنب سبعين سنة». وقد تقدم.

(الامتحان الخامس: أن يلبس ثيابًا بذلة) أي مبتذَلة **(فإنَّ نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء، وفي الخلوة كبر، وكان عمر بن عبد العزيز)** رحمه الله تعالىٰ **(له مِسْح يلبسه بالليل)** والمِسْح بكسر الميم وسكون السين المهملة: كساء من صوف أسود[٤].

(وقد قال ﷺ: مَن اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئَ من الكبر)[٥] قال العراقي[٦]: رواه البيهقي[٧] من حديث أبي هريرة بزيادة فيه، وفي إسناده القاسم العُمَري، ضعيف جدًّا.

قلت: وروىٰ الطبراني في الكبير[٨] من حديث السائب بن يزيد: «مَن لبس

---

(١) تاريخ أصفهان ١/ ١٦٥.

(٢) معرفة الصحابة ٢/ ٦٥٠.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٦١٢.

(٤) في تاج العروس ٧/ ١٢٢: «المِسح بالكسر: البَلاس، ثوب من الشعر غليظ. قيل: وبه سمي عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مسيحا للبسه البلاس الأسود تقشفا».

(٥) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٩.

(٦) المغني ٢/ ٩٦٥.

(٧) شعب الإيمان ٨/ ٢٣٨، ولفظه: «براءة من الكبر لبوس الصوف ومجالسة فقراء المؤمنين وركوب الحمار واعتقال العنز - أو قال: البعير».

(٨) المعجم الكبير ٧/ ١٨٢، وأوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر. قالوا: يا رسول الله، هلكنا، وكيف لنا أن نعلم ما في قلوبنا من ذلك الكبر وأين هو؟ فقال: من لبس ...» الخ.

الصوف وحلب الشاة وأكل مع ما ملكت يمينه فليس في قلبه إن شاء الله الكبر».

وروىٰ ابن منده وأبو نعيم من رواية حكيم بن جحدم عن أبيه رفعه بسند ضعيف: «مَن حلب شاته ورقع قميصه وخصف نعله وواكل خادمه وحمل من سوقه فقد برئ من الكبر».

وروىٰ تمام في فوائده[١] وابن عساكر[٢] من حديث ابن عمر: «مَن لبس الصوف وانتعل المخصوف وركب حماره وحلب شاته وأكل معه عياله فقد نحّىٰ الله عنه الكبر ...» الحديث. وستأتي بقيته بعد هذا الحديث.

(وقال ﷺ: إنما أنا عبد، آكل بالأرض، وألبس الصوف، وأعتقل البعير، وألعق أصابعي، وأجيب دعوة المملوك، فمَن رغب عن سنَّتي فليس مني)[٣] قال العراقي[٤]: تقدم بعضه، ولم أجد بقيته.

قلت: كأنه يشير إلىٰ حديث البراء وأنس: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد». وقد تقدم ذِكره.

وروىٰ تمام في فوائده وابن عساكر من حديث ابن عمر: «مَن لبس الصوف ...» الحديث، وفيه: «أنا عبد ابن عبد، أجلس جلسة العبد، وآكل أكلة العبد، إني قد أُوحي إليَّ أن تواضعوا، ولا يبغي أحد علىٰ أحد ...» الحديث.

وروىٰ ابن عساكر[٥] من حديث أبي أيوب: كان النبي ﷺ يركب الحمار، ويخصِف النعل، ويرقع القميص، ويلبس الصوف، ويقول: «مَن رغب عن سنَّتي

---

(١) فوائد تمام ٣/ ٣٤٧.

(٢) تاريخ دمشق ٤/ ٨٠.

(٣) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٩.

(٤) المغني ٢/ ٩٦٥.

(٥) تاريخ دمشق ٤/ ٧٧.

فليس مني».

وروى الحاكم[1] من حديث أنس: كان يردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

وحديث لعق الأصابع تقدم في كتاب أخلاق النبوة.

(ورُوي أن أبا موسىٰ الأشعري) رضي الله عنه **(قيل له: إن أقوامًا يتخلَّفون عن)** صلاة **(الجمعة)** أي بالبصرة **(بسبب ثيابهم)** أي بسبب ابتذالها، وكأنَّهم يستحيون أن يحضروا في تلك الثياب **(فلبس عباءة)** وهي كساء صوف على هيئة القميص **(فصلىٰ فيها بالناس)**[2] أخرجه أبو نعيم في الحلية[3]: حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو هلال، حدثنا قتادة أن أبا موسىٰ بلغه أن ناسًا يمنعهم من الجمعة أن لا ثياب لهم، فلبس عباءة ثم خرج فصلىٰ بالناس.

(وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر، فما يختصُّ بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرفْ) وليميِّز بينهما ثم يداوي كلاًّ منهما بما تقدم من ذِكر الأجزاء المركَّبة من العلم والعمل **(فإن من لا يعرف الشر لا يتَّقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه)** فمعرفة الشر من حيث إنه شر لازم كمعرفة المرض، فإنه إذا وقع فيه يعرف كيف يتخلَّص منه. والله الموفِّق.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٢٢.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٣٢٩.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٥٩.

بيان غاية الرياضة في خُلق التواضع

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن هذا الخُلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلىٰ الزيادة يسمَّىٰ تكبرًا) وهو الإفراط (وطرفه الذي يميل إلىٰ النقصان يسمَّىٰ تخاسسًا ومَذلة) وهو تفاعُل من الخسة، وهذا هو التفريط (والوسط يسمَّىٰ تواضعًا، والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسُس، فإنَّ كِلا طرفَي) قصدِ (الأمور ذميم، وأحب الأمور إلىٰ الله أوساطها) وروىٰ صاحب الحلية[1] عن وهب بن منبه قال: إن لكل شيء طرفين ووسطًا، فإذا أمسكتَ بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسكت بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء.

(فمَن يتقدم علىٰ أمثاله) وفي نسخة: أقرانه (فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع) بأن يجلس بجنبهم (أي وضع شيئًا من قدره الذي يستحقه، والعالِم إذا دخل عليه إسكاف) أو مَن في معناه من السوقية (فتنحَّىٰ له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدَّم وسوَّىٰ له نعله وغدا إلىٰ باب الدار خلفه) يودِّعه (فقد تخاسس وتذلَّل، وهو أيضًا غير محمود، بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله) وأقرانه (ولمَن يقرُب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام، والبِشر في الكلام) والبشاشة في الوجه (والرفق في السؤال، وإجابة دعوته) إذا دعاه إلىٰ منزله (والسعي في حاجته) حتىٰ يتمها (وأمثال ذلك، وأن لا يرىٰ نفسه خيرًا منه، بل يكون علىٰ نفسه أخوف منه علىٰ غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره) وخاتمته بماذا يُختَم لكلٍّ منهما (فإذًا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمَن دونهم حتىٰ يخفَّ عليه التواضع

(١) السابق ٤/ ٤٥.

المحمود في محاسن العادات؛ ليزول به الكبر عنه، فإن خفَّ عليه ذلك فقد حصل له خُلقُ التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو) مع هذا (يفعل ذلك فهو متكلِّف لا متواضع، بل الخُلق) كما تقدم في رياضة النفس (ما يصدر عنه الفعل بسهولة) ويسر (من غير ثقل ومن غير رويَّة) أي تروٍّ في أمر بأن يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرىٰ (فإن خفَّ ذلك وصار بحيث تثقل عليه رعاية قدره حتىٰ أحب التملُّق والتخاسُس فقد خرج إلىٰ طرف النقصان، فليرفع نفسه؛ إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه) كما ورد في الخبر وتقدم في كتاب العلم (إلىٰ أن يعود إلىٰ) حد (الوسط الذي هو الصراط المستقيم) السالم عن الميل (وذلك غامض في هذا الخُلق) بل (وفي سائر الأخلاق، والميل عن الوسط إلىٰ طرف النقصان وهو التملُّق) والتذلُّل (أهون من الميل إلىٰ طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلىٰ طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلىٰ طرف البخل) لِما فيه من البذل للغير وإن كان في غير موضعه، بخلاف طرف البخل (فنهاية التبذير ونهايه البخل مذمومان) وقد جاء في كلٍّ منهما من الآيات والأخبار ما يشهد علىٰ الذم (وأحدهما أفحش من الآخر، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقُّص والتذلُّل مذمومان، وأحدهما أقبح من الآخر، والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلىٰ ما يجب، كما يُعرَف ذلك بالشرع والعادة) فما اقتضته القواعدُ الشرعية واستحسنته العادة العُرفية فليُقَدِم عليه، وما لا فلا.

(ولنقتصر علىٰ هذا القدر من بيان خُلق الكبر والتواضع) وبه يتم الشطر الأول من هذا الكتاب. والله الموفِّق.

بيان ذم العجب وآفته

(الشطر الثاني من الكتاب: في العُجب

وفيه بيان ذم العجب وآفته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدُّهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه).

(اعلمْ) أرشدك الله تعالى (**أن العُجب مذموم في كتاب الله عز وجل وسنَّة رسوله ﷺ. قال الله تعالى:** ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥] **ذكر ذلك في معرض الإنكار)** أي أنكر عليهم إعجابهم بقولهم: إنَّا لن نُغلَب من قلة، قاله رجل من الأنصار، وكان المسلمون اثنى عشر ألفًا، عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من مسلمة الفتح، وقد تقدم ذلك[1].

(**وقال تعالى:** ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢] **فردَّ على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم.**

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤] **وهذا أيضًا يرجع إلى العجب بالعمل، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه.**

وقال ﷺ: ثلاث مهلكات: شُح مطاع، وهوًى متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه) رواه الطبراني في الأوسط والبزار وأبو الشيخ في التوبيخ والبيهقي والخطيب في المتفق والمفترق وأبو نعيم في الحلية من حديث أنس بزيادة «من الخيلاء». ورواه

(١) في كتاب الزكاة.

الطبراني في الأوسط أيضًا من حديث ابن عمر. ورواه البزار من حديث أنس بلفظ «وإعجاب المرء برأيه». وقد تقدم ذلك مرارًا في كتاب ذم البخل، وأول ما ذكره المصنف في كتاب العلم.

(وقال) ﷺ (لأبي ثعلبة) الخُشَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (حيث ذكر آخر هذه الأمة) وما تؤول إليه من الحوادث والوقائع: (إذا رأيتَ شحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك) رواه أبو داود والترمذي - وحسَّنه - وابن ماجه، وقد تقدم[1].

(وقال ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الهلاك في اثنتين) أي في خصلتين هما (القنوط) من رحمة الله (والعجب)[2] بنفسه.

(وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير) وبذل الهمَّة (والقانط) من شأنه أنه (لا يسعىٰ ولا يطلب، والمعجب) بنفسه أو برأيه (يعتقد أنه قد سعدَ وظفر بمراده فلا يسعىٰ) أيضًا (فالموجود) المتيسر (لا يُطلَب، والمُحال لا يُطلَب) لكون فرضه محالاً وإن لم يكن في نفسه محالاً (والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب، حاصلة له) كأنها في حوزة يده (ومستحيلة في اعتقاد القانط) ولو لم تكن في الحقيقة كذالك (فمن ههنا جمع بينهما، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾) [النجم: ٣٢] أي لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، والتزكية: النسبة إلىٰ الصلاح (قال ابن جُرَيج) عبد الملك بن عبد العزيز القرشي مولاهم: (معناه: إذا عملتَ خيرًا فلا تقل: عملتُ) ورُوي نحوه عن مجاهد[3] عند ابن المنذر (وقال

(١) في الباب الأول من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٢٦٧، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٩٨ بلفظ: «اثنتان منجيتان، واثنتان مهلكتان، فالمنجيتان: النية والنهىٰ، فالنية أن تنوي أن تطيع الله فيما يستقبل، والنهي أن تنهىٰ نفسك عما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، والمهلكتان: العجب، والقنوط».

(٣) ولفظه كما في الدر المنثور ١٤/ ٤٢: «لا تعملوا بالمعاصي وتقولوا: نعمل بالطاعة».

زيد بن أسلم) العدوي مولاهم: معناه: **(لا تبرُّوها)**[١] رواه عبد بن حميد وابن جرير[٢] وابن المنذر **(أي لا تعتقدوا أنها بارَّة، وهو معنىٰ العجب.**

ووقىٰ طلحة) بن عبيد الله التميمي القرشي أحد العشرة ﷺ **(رسول الله ﷺ يوم أُحد بنفسه فأكبَّ عليه حتىٰ أصيبت كفُّه)** قال العراقي[٣]: رواه البخاري[٤] من رواية قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شَلاَّء وقىٰ بها رسولَ الله ﷺ. ا.هـ.

وروىٰ أبو داود الطيالسي[٥] من حديث عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد [بكىٰ ثم] قال: ذلك يوم كله لطلحة، رأيناه في بعض تلك الجِفار فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قُطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه.

(فكأنه أعجبه فعلُه العظيم إذ فداه بروحه حتىٰ جُرح، فتفرَّس ذلك فيه عمرُ) ﷺ **(فقال: ما زال يُعرَف في طلحة بأوٌ منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله ﷺ**[٦]. **والبَأْو هو العُجب في اللغة)** ومنهم من قال: هو العجب بحسن الهيئة، ومنهم مَن فسَّره بالافتخار[٧] **(إلا أنه لم يُنقَل فيه أنه أظهره)** في وقت من الأوقات **(واحتقر مسلمًا)** وقد عصمه الله من ذلك.

---

(١) في الدر المنثور: «لا تبرئوا أنفسكم». من البراءة، وذكره الغزالي علىٰ أنه من البر. والمعنىٰ قريب.

(٢) جامع البيان ٢٢/ ٧١، وفيه: «فلا تبرئوها».

(٣) المغني ٢/ ٩٦٦.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ٢٦، ١٠٦.

(٥) مسند الطيالسي ١/ ٨.

(٦) رواه الطيالسي في مسنده ١/ ٧٠ عن ابن عباس قال: ذكرت طلحة لعمر فقال: ذلك رجل فيه بأو منذ أصيبت يده مع رسول الله ﷺ. قال ابن كثير في مسند الفاروق ٣/ ١٠٢: هذا حديث غريب، وأبو بكر الهذلي قد ضعف. قلتُ: قال ابن معين: كان يكذب. وقال النسائي متروك الحديث. وقال الدارقطني: منكر الحديث متروك. وانظر: الجرح والتعديل ٤/ ٣١٣، والضعفاء لابن الجوزي ٢/ ١٢ (ط دار الكتب العلمية).

(٧) انظر: تاج العروس ٣٧/ ١٣٩.

(ولما كان وقت الشورىٰ قال له ابن عباس) ﷺ: **(أين أنت من طلحة؟ قال: ذاك رجل فيه نخوة)** أخرجه إسحاق بن بشر في كتاب المبتدأ له[١] بإسناد له عن ابن عباس قال: دخلت علىٰ عمر وقد خلا يومًا، فتنفَّس تنفُّسًا ظننت أن نفسه خرجت، ثم رفع رأسه فتنفس الصعداء، فقلت: واللهِ لأسألنَّه، فقلت: ما أخرج هذا منك إلا همٌّ. قال: همٌّ واللهِ شديد، هذا الأمر لو أجد له موضعًا. يعني الخلافة. ثم قال: لعلَّك تقول إن صاحبك لها؟ يعني عليًّا. قلت: يا أمير المؤمنين، أليس هو أهلها في هجرته، وأهلها في صحبته، وأهلها في قرابته؟ قال: هو كما ذكرتَ، ولكن رجل فيه دعابة. فقلت: فالزبير؟ قال: يقاتل علىٰ الصاع بالبقيع. قلت: طلحة؟ قال: إن فيه لبأوًا، وما أرىٰ الله يعطيه خيرًا، وما برح ذلك فيه منذ أصيبت يده. قلت: سعد؟ قال: يحضر الناس ويقاتل، وليس بصاحب هذا الأمر. قلت: فابن عوف؟ قال: نِعم المرء، ولكنه ضعيف. قال: وأخَّرتُ عثمان لكثرة صلاته، وكان أحب الناس إلىٰ قريش، فقلت: عثمان؟ قال: أوه أوه! كَلِفٌ بأقاربه، كلف بأقاربه، لو استعملتُه استعمل بني أمية أجمعين أكتعين، ويحمل بني أبي معيط علىٰ رقاب الناس، واللهِ لو فعلتُ لفعل، ولسارت إليه العرب حتىٰ تقتله، إن هذا الأمر لا يحمله إلا الليِّن في غير ضعف، القوي في غير عنف، الجواد في غير سَرَف، الممسك في غير بخل.

وإسحاق بن بشر، قال الذهبي: كذاب[٢].

(فإذا كان لا يتخلَّص من العجب أمثالَهم فكيف يتخلَّص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ قال مطرِّف) بن عبد الله بن الشخِّير رحمه الله تعالىٰ، تابعي عابد ثقة **(لأنْ أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا)**

---

(١) ومن طريقه رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٤٣٨ - ٤٣٩. ورواه ابن شبة في تاريخ المدينة ٣/ ٨٧٩ - ٨٨٢ بسياق أطول.

(٢) في المغني للذهبي ١/ ١١٧: «إسحاق بن بشر، أبو حذيفة البخاري، صاحب المبتدأ، مجمع علىٰ تركه، وقد اتهم بالكذب، وقال ابن المديني: كذاب».

أخرجه أبو نعيم في الحلية[١] عن أبي حامد ابن جبلة، حدثنا أبو العباس السَّرَّاج، حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو الأشهب، عن رجل قال: قال مطرف ... فذكره.

(وقال ﷺ: **لو لم تذنبوا**) وفي[٢] رواية: لو لم تكونوا تذنبون (**لخشيت**) وفي رواية: لخِفتُ (**عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب العجب**) هكذا هو مرتين. قال العراقي[٣]: رواه البزار[٤] وابن حبان في الضعفاء[٥] والبيهقي في الشعب[٦] من حديث أنس، وفيه سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري[٧]: منكر الحديث، وقال أحمد: حسن الحديث. ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جدًّا. ا.هـ. قلت: ورواه كذلك الخرائطي في مساوئ الأخلاق[٨] والحاكم في تاريخه وأبو نعيم في الحلية، كلهم من حديث أنس، وطرق الكل ضعيفة، ولذا قال الذهبي في الميزان[٩] عقب إيراده: ما أحسنه من حديث لو صح! وقال السيوطي في المنار: هو حسن. وكأنه راعَىٰ تعدُّد طرقه فإنه يفيد نوع قوة. بل قال المنذري[١٠]: رواه البزار بإسناد جيد (**فجعل العجب أكبر الذنوب**) لكونه يورث الغرورَ بالعمل فلا يوفَّق للتوبة، بخلاف غيره من المعاصي، ولأن العجب يصرف وجه العبد عن الله، والذنب يصرفه إليه. ولأن العجب يُقبِل به علىٰ نفسه،

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٠٠.

(٢) فيض القدير ٥/ ٣٣١.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٦.

(٤) مسند البزار ١٣/ ٢٢٦.

(٥) المجروحون من المحدثين ١/ ٤٣١.

(٦) شعب الإيمان ٩/ ٤٠٠.

(٧) التاريخ الكبير ٤/ ١٣٥.

(٨) مساوئ الأخلاق ص ٢٦٣.

(٩) ميزان الاعتدال ٢/ ١٨٠.

(١٠) الترغيب والترهيب ص ١٠٧٥.

والذنب يقبل به علىٰ ربه. ولأن العجب ينتج الاستكبار، والذنب ينتج الاضطرار والافتقار، وخير أوصاف العبد اضطراره وافتقاره إلىٰ ربه. وفي الحديث دلالة علىٰ أن العبد لا تبعده الخطيئة عن الله، وإنما يبعده الإصرار والاستكبار والإعراض [عن مولاه] بل قد يكون الذنب سبب الوصلة بينه وبين ربه.

(**وكان بِشر بن منصور**) السَّليمي[١]، أبو محمد البصري، والد إسماعيل. وسَليمة كسفينة: حي من الأزد. قال أحمد: ثقة وزيادة. وقال أبو زُرعة: ثقة مأمون[٢]. مات سنة ثمانين ومائة. روىٰ له مسلم وأبو داود والنسائي (**من الذين إذا رُؤا ذُكِر الله تعالىٰ والدار الآخرة؛ لمواظبته علىٰ العبادة**) قال ابن المديني: ما رأيت أحدًا أخوف لله منه، وكان يصلي كل يوم خمسمائة ركعة، وحفر قبره وختم فيه القرآن، وكان وِرده ثلث القرآن (**فأطال الصلاة يومًا ورجل خلفه ينظر، ففطنَ له بشرٌ، فلما انصرف من الصلاة قال له: لا يعجبنَّك ما رأيتَه مني، فإن إبليس قد عبدَ اللهَ مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلىٰ ما صار إليه**)[٣] أي فلا ينبغي للإنسان أن يغترَّ بالعمل أو يسلك به مسلك الإعجاب.

(**وقيل لعائشة** ﵂: **متىٰ يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن.**

وقال تعالىٰ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] (**والمَنُّ**) علىٰ المتصدَّق عليه (**ينتجه استعظام صدقته، واستعظام العمل هو العجب**) لأنه لولا يعجب به لما عدَّه عظيمًا (**فظهر بهذا أن العجب مذموم جدًّا**) والله أعلم.

---

(١) تهذيب الكمال ٤/ ١٥١ - ١٥٤.

(٢) قول أحمد وقول أبي زرعة ذكرهما ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٣٦٦.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٤١ عن سهل بن منصور، ولكن في آخره: «فإن إبليس قد عبد الله مع الملائكة كذا وكذا».

بيان آفات العجب

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلىٰ الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، كما ذكرناه) قريبًا (فيتولَّد من العجب الكبرُ، ومن الكبر الآفاتُ الكثيرة التي لا تخفَىٰ) فآفات الكبر في آفات العجب (هذا مع العِباد، وأما مع الله) عَزَّوَجَلَّ (فالعجب يدعو إلىٰ نسيان الذنوب وإهمالها) من أصلها (فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقَّدها؛ لظنِّه أنه مستغنٍ عن تفقُّدها فينساها) لأجل ذلك (وما يتذكَّره منها فيستصغره ولا يستعظمه، ولا يجتهد في تدارُكه وتلافيه، بل يظن أنه يُغفَر له، وأما العبادات والأعمال) الصادرة منه (فإنه يستعظمها ويتبجَّح بها) أي يتفاخر (ويمنُّ علىٰ الله تعالىٰ بفعلها، وينسىٰ نعمة الله تعالىٰ عليه بالتوفيق والتمكين منها) ولو شاء لصرفه عنها (ثم إذا أُعجب بها عميَ عن آفاتها) التي في ضمنها وما يطرأ عليها منها (ومَن لم يتفقَّد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعًا، فإنَّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقيَّة عن الشوائب) الخفيَّة (قلَّما تنفع) صاحبها (وإنما يتفقَّد من يغلب عليه الإشفاقُ والخوف دون) من يغلب عليه (العجب، والمعجب يغترُّ بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان) ومنزلة (وأنَّ له عند الله منَّة وحقًّا بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه، ويخرجه العجبُ إلىٰ أن يثني علىٰ نفسه ويحمدها ويزكِّيها) وينسب لها الفضيلة (وإن أُعجب برأيه وعقله وعلمه) بأن نسب الرأي إلىٰ السداد، والعقل إلىٰ الكمال، والعلم إلىٰ الكثرة (منع ذلك من الاستفادة والاستشارة والسؤال، فيستبد) أي يستقل (بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال مَن هو أعلم منه) أو يجلس بين يديه فيستفيد منه حكمة (وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخاطر غيره فيصر عليه) ويعمل بمقتضاه (ولا يسمع نصح

ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلىٰ غيره بعين الاستجهال) والاستحماق (ويصرُّ علىٰ خطاياه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيتحقق فيه، وإن كان في أمر ديني لا سيَّما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به، ولو اتَّهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب علىٰ مدارسة العلم) مع أهله (وتابَعَ سؤالَ أهل البصيرة) والعرفان (لكان ذلك يوصله إلىٰ الحق) لا محالة (فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات) ويشير إليه لفظ البزار في الحديث المتقدم عن أنس: «وإعجاب المرء برأيه» (ومن أعظم آفاته أنه يفتر) أي يكسل (في السعي؛ لظنِّه أنه قد فاز) وسعدَ (وأنه قد استغنىٰ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه) والله الموفِّق.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدُّهما

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالِم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان، إحداهما: أن يكون خائفًا علىٰ زواله، مشفقًا علىٰ تكدُّره أو سلبِه من أصله، فهذا ليس بعجب. والأخرىٰ: أن لا يكون خائفًا من زواله لكن يكون فرِحًا به من حيث إنه نعمة من الله تعالىٰ) أنعم به (عليه لا من حيث إضافته إلىٰ نفسه، وهذا أيضًا ليس بعجب) لأن العجب - كما سيأتي - كناية عن الركون إلىٰ النعمة مع نسيان إضافتها إلىٰ المنعم، وفي الحالتين ليس كذلك (وله حالة ثالثة هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرِحًا به ومطمئنًّا إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة ورفعة وخير لا من حيث إنه عطية من الله ونعمة منه، فيكون فرحه به من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلىٰ الله بأنه منه، فمهما غلب علىٰ قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه، فإذًا العجب هو استعظام النعمة والركون إليها) أي الاطمئنان بها (مع نسيان إضافتها إلىٰ المنعم، فإن انضاف إلىٰ ذلك أنْ غلب علىٰ نفسه أنَّ له عند الله حقًّا وأنه منه بمكان) رفيع (حتىٰ يتوقَّع) أي يترجَّىٰ (بعمله كرامة له في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادًا يزيد علىٰ استبعاده ما يجري علىٰ الفسَّاق) والفجَّار (سُمِّي هذا إدلالاً بالعمل، فكأنه يرىٰ لنفسه علىٰ الله دالَّة) وهو بتشديد اللام اسم من الإدلال (ولذلك قد يعطي غيره شيئًا فيستعظمه ويمنُّ عليه، فيكون معجبًا) باستعظامه ومَنِّه (فإن استخدمه) أي شغَّله في خدمة (أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلُّفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه. قال) أبو الخطَّاب (قتادة) بن دِعامة السدوسي البصري رحمه الله (في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾ [المدثر: ٦] **أي لا تدلَّ بعملك)**[١] وروىٰ عبد بن حميد عن ابن عباس[٢] قال: معناه: لا تستكثر عملك. وعن مجاهد قال: لا تعظِّم عملك في عينك أن تستكثر من الخير. رواه كذلك ابن المنذر.

(**وفي الخبر: إن صلاة المُدِلِّ لا تُرفَع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدلٌّ بعملك**) قال العراقي[٣]: لم أجد له أصلاً.

قلت: هو كذلك ليس له أصل في المرفوع، ولكنه من كلام راهب من رهبان بني إسرائيل. قال أبو نعيم في الحلية[٤]: حدثنا أبو بكر الآجُرِّي، حدثنا عبد الله بن محمد العطشي، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا عبد الله بن أبي بكر المقدمي، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الصنعاني قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لقي رجل راهبًا، فقال: يا راهب، كيف صلواتك؟ فقال الراهب: لا أحسب أحدًا سمع بذكر الجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يصلي فيها. قال: فكيف ذِكرك للموت؟ قال: ما أرفع قدمًا ولا أضع أخرىٰ إلا رأيت أني ميت. قال الراهب: كيف صلاتك أيها الرجل؟ قال: إني لأصلي وأبكي حتىٰ ينبُت العشبُ من دموع عيني. فقال الراهب للرجل: إما [إنك] إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكي وأنت مدلٌّ بعملك، فإن المدلَّ لا يُرفَع له عمل. فقال الرجل للراهب: فأوصِني، فإني أراك حكيمًا. فقال: ازهدْ في الدنيا، ولا تنازع أهلها [فيها] وكنْ فيها كالنحلة إن أكلتْ أكلت طيبًا، وإن وضعت وضعتْ

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٢٧٥، وروىٰ الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٤١٤ عنه قال: لا تعط شيئا، إنما بك مجازاة الدنيا ومعارضها.

(٢) في الدر المنثور ١٥/ ٦٨ نسبة هذا القول إلىٰ الحسن البصري. وهكذا رواه الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٤١٥ عن الحسن من عدة طرق.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٦ - ٩٦٧، قد نقله الغزالي من الرعاية للمحاسبي ص٢٧٥ عن أيوب وداود عليهما السلام.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ٢٨.

طيبًا، وإن وقعت علىٰ عود لم تكسره، وانصحْ لله عَزَّوَجَلَّ نصح الكلب لأهله، يجيعونه ويطردونه ويضربونه ويضربونه ويأبىٰ إلا أن ينصح لهم. قال: فكان وهب بن منبه إذا ذكر هذا الحديث قال: واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك لله عَزَّوَجَلَّ.

وحدثنا أبو بكر الآجري، حدثنا عمرو بن أيوب السقطي، حدثنا أبو همَّام، حدثني قبيصة، حدثنا سفيان، عن رجل من أهل صنعاء، عن وهب قال: مر رجل علىٰ راهب فقال: يا راهب، كيف دأب نشاطك؟ ... فذكر نحوه.

(والإدلال وراء العجب، ولا مدل إلا وهو معجب، ورُب معجب لا يدل؛ إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقُّع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقُّع جزاء، فإن توقَّع إجابة دعوته واستنكر ردَّها بباطنه وتعجَّب منه كان مدلاً بعمله؛ لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من ردِّ دعاء نفسه لذلك. فهذا هو العجب والإدلال) وقد اتَّضح لك حدُّهما وحقيقتهما **(وهو من مقدِّمات الكبر وأسبابه)** فإنه إذا وُجد ذلك ترشَّح منه وصفُ الكبر. والله الموفِّق.

بيان علاج العجب على الجملة

(اعلمْ) أرشدكَ الله تعالىٰ (أن علاج كل علَّة هو مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادَّة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم، فإن العجب بهذا أبلغ من العجب بالجمال والقوة والنسب و) كل (ما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه، فنقول: الورع والتقوىٰ والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه، فهو محله ومَجراه، أو) يعجب به (من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وبقوته، فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل) من المعجب (لأن المحل) إنما هو (مسخَّر ومَجرىً) يجري فيه (لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل) ولا يدله في شيء منهما (فكيف يعجب بما ليس إليه) ولا مدخل له فيه؟! (وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته وقوته تمَّ فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها تم عملُه أنها من أين كانت له) وكيف تيسَّرت له (فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حقٍّ سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله تعالىٰ وكرمه وفضله؛ إذ أفاض عليه ما لا يستحقه) وخصَّصه (وآثره به علىٰ غيره من غير سابقة ووسيلة) يمنُّ بها (فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم علىٰ واحد منهم) خلعة (لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة فينبغي أن يتعجب المنعَم عليه من فضل الملك وحكمته وإيثاره) له من دونهم (من غير استحقاقٍ) ظاهر له (فإعجابه بنفسه من أين، وما سببه، ولِمَ ينبغي أن يعجب هو بنفسه. نعم، يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكمٌ عدلٌ، لا يظلم) أحدًا (ولا يقدِّم ولا يؤخر إلا

لسبب) خفيٍّ علىٰ مُدرِكه (فلولا أنه تفطَّن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لَما اقتضىٰ الإيثار بالخلعة ولَما آثرني بها) واختصَّني من دونهم (فيقال) له: (وتلك الصفة هي أيضًا من خلعة الملك وعطيته التي خصَّصك بها عن غيرك من غير وسيلة أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضًا لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرسًا) تركبه (فلم تعجب به فأعطاك غلامًا فصرتَ تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلامًا لأني صاحب فرس) إذ صاحب الفرس لا يستغني عن غلام (وأما غيري فلا فرس له. فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس، فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معًا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر، فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جودُه وفضله لا نفسك، وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعُد أن تعجب بتلك الصفة، وهذا يُتصور في حق الملوك) في الدنيا (ولا يُتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك) جلَّ جلاله (المنفرد باختراع الجميع) من غير سابق مثال (المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أُعجبت بعبادتك وقلت: وفَّقني للعبادة لحبي له، فيقال: ومَن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كِلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك؛ إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده؛ إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك، فإذًا لا معنىٰ لعجب العابد بعبادته، وعجب العالِم بعلمه، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بماله؛ لأن كل ذلك من فضل الله) ومن إحسانه وجوده وكرمه (وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده، والمحل أيضًا من جوده وفضله.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل[١] أعمالي وأني أنا عملتُها) أي لا يمكنني إنكارها (فإني أنتظر عليها ثوابًا) أي جزاء ومكافأة (ولولا أنها عملي) وصدر مني (لَما انتظرتُ عليها الثواب، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله علىٰ سبيل الاختراع

(١) في المطبوعة: أجحد. والمثبت من الجميع.

فمن أين لي الثواب، وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها) وهي في محل الإعجاب (فاعلمْ أن جوابك) عن هذا الإشكال (من وجهين، أحدهما هو صريح الحق، والآخَر فيه مسامحة، أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك جميع ذلك من خلق الله تعالىٰ واختراعه، فما عملتَ إذ عملت) إلا بإعانته (وما صليت إذ صليت) إلا بتأييده، وإلىٰ هذا الإشارة بقوله تعالىٰ يخاطب به حبيبَه ﷺ (﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾) [الأنفال: ١٧] وقد تقدم الكلام علىٰ هذا في مواضع من هذا الكتاب، فأغنانا عن إعادته (فهذا هو الحق) الصريح (الذي انكشف لأرباب القلوب) لما[١] ترقَّوا من حضيض المجاز إلىٰ يفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم (بمشاهدة) عيانية (أوضح من إبصار العين) فليس في الوجود إلا الله، وكل شيء سواه إذا اعتُبر ذاته من حيث ذاته فهو عدمٌ محض، وإذا اعتُبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل[٢] رُؤي موجودًا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجِده، فيكون الموجود وجه الله فقط، ولكل شيء وجهان: وجه إلىٰ نفسه، ووجه إلىٰ ربه. فهو باعتبار وجه نفسه عدمٌ، وباعتبار وجه الله موجود. فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه (بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة) والكمال (وخلق لك العقل والعلم، وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئًا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك) مختلفة الأحوال (مستبدًّا باختراعها) أي مستقلاً بذاته (من غير مشاركة من جهتك معه في) أصل (الاختراع) والابتداع (إلا أنه خلقه علىٰ ترتيب) بديع (فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة) لاحتمالها (وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علمًا بالمراد، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم) ومستقره ومصدر أحكامه، فهذه الثلاثة مرتَّبة بعضها أعلىٰ من بعض، ولكل واحد

---

(١) مشكاة الأنوار للغزالي ص ٥٨.

(٢) في المشكاة: من الأول الحق.

مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعدَّاها، وكذلك[١] الأنوار الملكوتية إنما وُجدت علىٰ ترتيب كذلك، وهي لا تتسلسل إلىٰ غير نهاية، بل ترتقي إلىٰ منبع أول هو النور لذاته وبذاته، ليس يأتيه نورٌ من غيره، ومنه تشرق الأنوار كلُّها علىٰ ترتيبها **(فتدريجه في الخلق شيئًا بعد شيء هو الذي خيَّل إليك أنك أوجدت عملك، وقد غلطتَ)** في هذا التخيُّل **(وإيضاح ذلك وكيفية الثواب علىٰ عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر، فإنه أليقُ به، فارجعْ إليه)** وطالعْه **(ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك، فمن أين قدرتك)**؟ ومَن أوجدها فيك؟ **(ولا يُتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك، وكل ذلك من الله تعالىٰ لا منك)** وتفصيل ذلك: الصلاة، وهي عمل من أعمالك، وهي تستدعي الطهارةَ، والطهارة تكون بالماء، فمَن أنزل من السماء ماء طهورًا؟ وإذا كان الماء موجودًا متيسِّرًا فمَن أوجد فيك القدرةَ لاستعماله؟ ثم إذا تطهَّرت فمَن أوجد فيك قوة إلىٰ القيام ورفع اليدين إلىٰ الأذنين والنطق بالقراءة بتحريك اللسان والركوع والسجود والجلوس؟ وقِسْ علىٰ ذلك سائر الأعمال **(فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه)** الذي يُفتَح به باب ذلك العمل **(وهذا المفتاح بيد الله)** عَزَّ وَجَلَّ **(ومهما لم يعطِك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات)** كلها بمثابة **(خزائن)** مملوءة **(بها يُتوصل إلىٰ السعادات)** الدنيوية والأخروية **(ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم، وهي بيد الله تعالىٰ لا محالة)** وهذا نحو ما ورد في بعض الأخبار: «العلم خزائن، ومفاتيحها السؤال»، فكذلك نقول: العبادات خزائن، ومفاتيحها القدرة والعلم والإرادة **(أرأيتَ لو رأيت خزائن الدنيا)** بأسرها لو كانت **(مجموعة في قلعة حصينة، ومفتاحها بيد خازن، وجلستَ علىٰ بابها، و)** دُرْت **(حول حيطانها ألف سنة)** مثلاً **(لم يمكنك أن تنظر إلىٰ دينار)** واحد **(ممَّا فيها، ولو أعطاك)** الخازن

---

(١) السابق ص ٥٦.

(المفتاح لأخذتَه من قريب) من غير مشقة (بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلَّطك عليها ومكَّنك منها فمددت يدك وأخذتها أكان[1] إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح) أكثر (أو بما إليك من مدِّ اليد وأخذها؟!) وتناوله (فلا شك في أنك ترىٰ ذلك نعمة من الخازن) حيث مكَّنك منه (لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح) فينبغي أن يكون الإعجاب به أكثر (فكذلك مهما خُلقت القدرة وسُلِّطت الإرادة الجازمة وحُرِّكت الدواعي والبواعث وصُرفت عنك الموانع والصوارف) أي الشواغل (حتىٰ لم يبقَ صارف إلا دُفع) عنك (ولا باعث إلا وُكِّل بك، فالعمل هيِّن عليك) متيسِّر لك بسهولة (وتحريك البواعث وصرف العوائق) ومنع الشواغل (وتهيئة الأسباب كلها من الله تعالىٰ) وحده (ليس شيء منها إليك) ابتداء وانتهاء (فمن العجائب أن تعجب بنفسك) وبعملك (ولا تعجب بمَن إليه الأمر كله) بدءًا وعودًا (ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه) ومنَّته عليك (في إيثاره إياك علىٰ الفسَّاق من عباده؛ إذ سلَّط دواعي الفساد) وبواعث الشر (علىٰ الفسَّاق وصرفها عنك، وسلَّط أخدان[2] السوء ودُعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكَّنهم من أسباب الشهوات واللذَّات) فتهافتوا عليها (وزواها عنك) فمن العصمة أن لا تقدر (وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلَّطها عليك حتىٰ يتيسَّر لك الخير) ويسهُل سبيلُه (ويتيسَّر لهم الشر، فعل ذلك كلَّه بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرَك وقدَّمك واصطفاك بفضله، وأبعد العاصي) عن حظيرة قربه (وأشقاه بعدله، فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفتَ ذلك) وتأمَّلته (فإذًا لا تنصرف قدرتك إلىٰ المقدور) من أيِّ عمل كان (إلا بتسليط الله عليك داعيةً لا تجد سبيلاً إلىٰ مخالفتها، فكأنَّه الذي اضطرَّك إلىٰ الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقًا، فله

---

(١) في المطبوعة: كان. والمثبت من أ، وط المنهاج ٦/ ٥٨٦.

(٢) في المطبوعة: إخوان. والمثبت من الجميع.

الشكر والمنَّة) وحده (**لا لك، وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات**) وارتباط بعضها ببعض (**ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله، ولا خالق سواه، والعجب ممَّن يتعجَّب إذا رزقه الله عقلاً**) وحكمة (**وأفقره**) أي جعله فقيرًا معدمًا (**ممَّن أفاض عليه المال من غير علم**) ولا عقل (**فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل، وأفاض علىٰ هذا نعيمَ الدنيا وهو الجاهل الغافل حتىٰ يكاد يرىٰ هذا ظلمًا**) ومن ذلك قول ابن الراوندي الملحد:

كم عاقل عاقل ضاقت معيشته ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصيَّر العالِم النِّحرير زنديقا(١)

وقال غيره:

كم من قويٍّ قويٌّ في تقلُّبه ... مهذَّب الرأي عنه الرزق منحرف
وكم ضعيفٍ ضعيفُ العقل مختلط ... كأنه من خليج البحر يغترف(٢)

(**ولا يدري المغرور أنه لو جُمع له بين العقل والمال جميعًا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال**) وإن لم يكن ظلمًا حقيقةً (**إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب، لِمَ جمعتَ له بين العقل والغِني وحرمتني منهما؟ فهلاَّ جمعتهما لي**) فجعلتني عاقلاً غنيًّا؟ (**أو هلاَّ رزقتني أحدهما؟ وإلىٰ هذا أشار علي** رضي الله عنه**، حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه**) أي فبقدر ما يُعطىٰ

---

(١) البيتان في معاهد التنصيص للعباسي ١/ ٥٣. ونسبهما السبكي في طبقات الشافعية الكبرىٰ ٤/ ٢٣٢ لأبي العلاء المعري. ونسبهما الدميري في شرح لامية العجم ص ١٠٠ (تحقيق الدكتور جميل عويضة) لفخر الدين الرازي.

(٢) البيتان لسفيان بن عيينة، كما في حلية الأولياء ٧/ ٢٧٦، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩١، وروضة العقلاء لابن حبان ص ١٥٢، والتذكرة الحمدونية ٨/ ٩٥، وأخبار مكة للفاكهي ٢/ ١٤٧. وفي بعض المصادر زيادة بيت ثالث وهو:

هذا دليل علىٰ أن الإلـه لـه ... بالخلق سر خفي ليس ينكشف

من العقل والحكمة يُنقَص من رزقه. وفي لفظ: إن ذكاء الرجل. والمعنىٰ واحد (والعجب أن العاقل الفقير ربما يرىٰ الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضًا من عقلك وفقرك؟ لامتنع عنه، فإذًا ذلك يدل علىٰ أن نعمة الله عليه أكبر، فلم يتعجب من ذلك. وكذلك المرأة الحسناء) الجميلة الصورة (الفقيرة ترىٰ الحلي والجواهر علىٰ الدميمة القبيحة فتتعجب وتقول: كيف يُحرَم مثل هذا الجمال من الزينة) الظاهرة من الحلي والجواهر (ويخصَّص مثل ذلك القبيح) الصورة؟ (ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها، وأنها لو خُيِّرت بين الجمال وبين القبح مع الغِنىٰ لآثرت الجمال) ولم تلتفت إلىٰ الغنىٰ مع قبح الصورة (فإذًا نعمة الله عليها أكبر، وقول الحكيم العاقل الفقير بقلبه: يا رب لِمَ حرمتني من الدنيا وأعطيتها الجهَّال؟ كقول مَن أعطاه الملك فرسًا فيقول: أيها الملك، لِمَ لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس؟ فيقول) الملك: (كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطِك الفرس، فهَبْ أني ما أعطيتك فرسًا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرىٰ؟ فهذه أوهام لا يخلو الجهَّال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل) وتقلُّ وتكثر باختلاف أنواع الجهل، فمَن كان جهله بسيطًا كان الوهم عنده أكثر (ويُزال ذلك بالعلم المحقَّق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة، ومَن عرف هذا لم يُتصور أن يعجب بعلمه وعمله؛ إذ يعلم أن ذلك من الله تعالىٰ، ولذلك لما قال داود عليه السلام: يا رب، ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم، ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم. وفي رواية: ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك، إما يصلي، وإما يصوم، وإما يذكرك. فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، ومن أين لهم ذلك؟ إن ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني إياك ما قَويتَ، وسأكِلك إلىٰ نفسك. قال ابن عباس) رضي الله عنه: (إنما أصاب داودُ ما أصاب من الذنب لعجبه

بعمله؛ إذ أضافه إلىٰ آل داود مدلاً به حتىٰ وُكل إلىٰ نفسه فأذنب ذنبًا أورثه الحزنَ والندم)[١] أخرجه الحاكم[٢] وصحَّحه والبيهقي في الشعب[٣] عن ابن عباس قال: ما أصاب داودُ ما أصاب بعد القَدَر إلا من عجب بنفسه، وذلك أنه قال: يا رب، ما من ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك فيصلي لك أو يسبِّح أو يكبِّر. وذكر أشياء، فكره الله ذلك فقال: يا داود، ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني ما قَويتَ عليه، وجلالي لأكِلنَّك إلىٰ نفسك يومًا. فقال: يا رب، فأخبِرْني به. فأصابته الفتنة في ذلك اليوم.

(وقال داود) عليه السلام: **(يا رب، إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: إني ابتليتُهم فصبروا. فقال: يا رب، وأنا إن ابتليتني صبرتُ. فأدلَّ بالعمل قبل وقته، فقال تعالىٰ: «أما إني لم أخبرهم بأيِّ شيء ابتليتهم ولا في أيِّ شهر ولا في أيِّ يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه في شهرك هذا أبتليك غدًا بامرأة، فاحذرْ نفسك»، فوقع فيما وقع فيه)** أخرجه ابن جرير[٤] عن ابن عباس قال: إن داود قال: يا رب، قد أعطيتَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذِّكر ما لو أردتَ أعطيتني مثله، قال الله عز وجل: إني ابتليتُهم بما لم أبتلِك به، فإن شئتَ ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به وأعطيك كما أعطيتهم. قال: نعم. قال له: فاعملْ حتىٰ أرىٰ بلاءك. فكان ما شاء الله أن يكون، وطال ذلك [عليه] فكاد أن ينساه، فبينما هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة ... ثم ذكر باقي القصة بطولها في ابتلائه بأورياء ورجوعه وتوبته.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنَّف[٥] وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن داود حدَّث نفسه إن ابتُلي أن يعتصم، فقيل له: إنك ستُبتلَىٰ، وستعلم اليوم الذي تُبتلَىٰ

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٢٧٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٠٩.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ٣٩٧.

(٤) جامع البيان ٢٠/ ٦٤ - ٦٥.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٩ - ٤٤١.

فيه، فخذ حذرك. فقيل له: هذ اليوم تُبتلَىٰ فيه. فأخذ الزبور، ودخل المحراب، وأغلق الباب، وأقعد مِنصفًا علىٰ الباب وقال: لا تأذن لأحد عليَّ اليوم. فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهَّب ... فذكر الحديث.

وأخرج ابن جرير(١) والحاكم(٢) عن السُّدِّي قال: كان داود قد قسَّم الدهر ثلاثة أيام: يومًا يقضي فيه بين الناس، ويومًا يخلو فيه لعبادة ربه، ويومًا يخلو فيه بنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه [كان يجد فيه فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فلما وجد ذلك] قال: يا رب [أرىٰ] أن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأعطني مثل ما أعطيتهم، وافعلْ بي [مثل] ما فعلتَ بهم. فأوحىٰ الله إليه: إن آباءك قد ابتليتهم ببلايا لم تُبتلَ بها ابتُلي إبراهيم بذبح ابنه، وابتُلي إسحاق بذهاب بصره، وابتُلي يعقوب بحزنه علىٰ يوسف، وأنت لم تُبتلَ بشيء من ذلك. قال: يا رب، ابتلِني كما ابتليتهم، وأعطني مثل ما أعطيتهم. فأوحىٰ الله إليه: إنك مبتلًىٰ، فاحترسْ. فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثَّل في صورة حمامة من ذهب ... ثم ذكر باقي الحديث.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة(٣) عن سعيد بن جبير قال: إنما كانت فتنة داود النظر(٤).

(**وكذلك لما اتَّكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين علىٰ قوتهم**) وشوكتهم (**وكثرتهم**) إذ كانوا اثنىٰ عشر ألفًا، عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفان من مسلمة الفتح (**ونسوا فضل الله عليهم وقالوا: لا نُغلَب اليوم من قلة**) وكان القائل لذلك

(١) جامع البيان ٢٠/ ٦٦ - ٦٨.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٦٩٠.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٨، ١٢/ ١٢.

(٤) رد كل هذه القصص الملفقة علىٰ نبي الله داود ﷺ جمع من العلماء، منهم ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٤ - ١٦٣٧.

رجلاً من الأنصار، وكون قائل ذلك أبا بكر الصدِّيق من افتراء الرافضة (**وُكلوا إلىٰ أنفسهم، فقال تعالىٰ**: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾) أي اتَّسعت (﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝﴾) [التوبة: ٢٥] أي منهزمين. قال العراقي[1]: رواه البيهقي في الدلائل[2] من رواية الربيع بن أنس مرسلاً: أن رجلاً قال يوم حنين: لن نُغلَب اليوم من قلة. فشقَّ ذلك علىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷿: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾. ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس: لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا: اليوم نقاتل. ففروا فرَّ الفرخ. و[فيه الفرج] ابن فضالة، ضعَّفه الجمهور.

قلت: وتمام[3] سياق البيهقي في الدلائل: قال الربيع: وكانوا اثنىٰ عشر ألفًا، منهم ألفان من أهل مكة.

وجاء تفصيل ذلك في رواية [محمد بن عبد الله بن] عبيد بن عمير الليثي عند أبي الشيخ قال: كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار، وألف من جُهَينة، وألف من مُزَينة، وألف من أسلم، وألف من غِفار، وألف من أشجع، وألف من المهاجرين وغيرهم.

وأما حديث أنس الذي عند ابن مردويه فقد رواه أيضًا أبو الشيخ والحاكم[4] وصحَّحه، ولفظه: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتُهم، فقال القوم: اليوم واللهِ نقاتل. فلما التقوا واشتد القتال ولَّوا مدبرين ... الحديث.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن البصري قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٧.

(٢) دلائل النبوة ٥/ ١٢٣.

(٣) الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٢٩٤ - ٢٩٥، ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٥٣.

المدينة قالوا: الآن واللهِ نقاتل حين اجتمعنا. فكره رسول الله ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهُزموا ... الحديث.

(وروىٰ ابن عيينة) سفيان رحمه الله **(أن أيوب عليه السلام قال: إلهي، إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليَّ أمرٌ إلا آثرت هواك علىٰ هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب، أنَّىٰ لك ذلك؟ أي من أين لك ذلك؟ فأخذ رمادًا فوضعه علىٰ رأسه وقال: منك يا رب، منك يا رب. فرجع من نسيانه إلىٰ إضافة ذلك إلىٰ الله تعالىٰ)** (١) أخرجه أبو نعيم في الحلية(٢) قال: حدثنا [أبي، حدثنا] إبراهيم ابن محمد بن الحسن، حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود المصري، حدثنا يونس ابن عبد الرحمن قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: قال أيوب عليه السلام: اللهم إنك تعلم أنه لم يعرض لي أمران قط أحدهما لك فيه رضا والآخر لي فيه هوًىٰ إلا آثرتُ الذي لك فيه رضا علىٰ الذي لي فيه هوىٰ. قال: فنودي من غمامة من عشرة آلاف صوت: يا أيوب، مَن فعل ذلك بك؟ قال: فوضع التراب علىٰ رأسه ثم قال: أنت يا رب.

(ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ [النور: ٢١].

وقال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس) بنص الخبر: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم» **(ما منكم من أحد ينجيه عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته)** قال العراقي(٣): متفق عليه(٤) من حديث أبي هريرة.

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٢٧٣.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٦.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٧.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٣٠، ١٨٤. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٥ - ١٢٩٦.

قلت: ورواه ابن حبان[(١)] أيضًا بزيادة «ولكن سدِّدوا [وقاربوا]». ويُروَىٰ من حديث شريك بن طارق وأبي موسىٰ، أما حديث شريك فلفظه «يدخله» بدل «ينجيه»، و«ربي» بدل «الله»، رواه ابن حبان[(٢)] والبغوي[(٣)] وابن قانع[(٤)] والطبراني[(٥)]، قال البغوي: ولا أعلم له غيره. وأما حديث أبي موسىٰ فلفظه «يدخله» و«يتغمَّدني الله برحمته». رواه الطبراني[(٦)].

(ولقد كان أصحابه من بعده يتمنَّون أن يكونوا ترابًا) ورمادًا (وتبنًا وطيرًا) كما تقدم عن عمر وابن مسعود وغيرهما (مع صفاء أعمالهم و) طهارة (قلوبهم) واستقامة أحوالهم (فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدلَّ به ولا يخاف علىٰ نفسه؟! فإذًا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك علىٰ القلب شغله خوفُ سلبِ هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلىٰ الكفار والفسَّاق وقد سُلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إن من لا يبالي أن يُحرَم) أي يُمنَع (من غير جناية) سابقة (ويُعطَىٰ من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتدَّ ومطيع قد فسق وخُتم له بالسوء) والعياذ بالله (وهذا لا يبقىٰ معه عجبٌ بحال) والله الموفِّق.

---

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ٦٠، ٤٣٥.

(٢) الثقات ٣/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) معجم الصحابة ٣/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٤) معجم الصحابة ١/ ٣٣٨.

(٥) المعجم الكبير ٧/ ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٦) المعجم الأوسط ٦/ ٣٣٢.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر، كما ذكرناه، وقد يعجب بما لا يُتكبَّر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزيَّن له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسُب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلىٰ جمال نفسه وينسىٰ أنه نعمة من الله تعالىٰ، وهو) مع ذلك (بعُرضة الزوال) أي مَظنَّة لأنْ يَعرِض له زوال ما يتكبر به (في كل حال) من أحواله (وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكُّر في أقذار باطنه) أي ما في باطنه من المستقذَرات (و) التفكُّر (في أول أمره) كيف بُدئ ومن أيِّ شيء خُلق (وفي آخره) كيف يعود (وفي الوجوه الجميلة) الوضيئة (والأبدان الناعمة) المربربة (أنها كيف تمزَّقت في التراب وأنتنت في القبور حتىٰ استقذرتها الطباعُ) ونفرت من مقاربتها والنظر إليها.

(الثاني: القوة والبطش، كما حُكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾) [فصلت: ١٥] اغترارًا بقدرتهم وشوكتهم، فردَّ الله عليهم فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ وعاد: قبيلة من العرب الأُوَل، وهم قوم هود ﷺ. قال[١] الليث: هم بنو عاد بن عادياء بن سام بن نوح ﷺ، قال زهير:

* وأهلك لقمان بن عاد وعاديا[٢] *

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٣/ ١٣١.

(٢) عجز بيت، صدره:

وأما عاد الآخرة فهم بنو أُمَيم، ينزلون رمال عالج، عصوا الله فمُسِخوا نَسْناسًا.

وقال(١) أئمة النسب: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، كان يعبد القمر، ويقال: إنه رأىٰ من صلبه وأولاده وأولاد أولاده أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية، ومن أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة.

(وكما اتَّكل عُوج) بالضم (علىٰ قوته فأُعجب بها) وهو(٢) رجل ذُكر أنه وُلد في منزل آدم عليه السلام، وعاش إلىٰ زمن موسىٰ عليه السلام. قال القزّاز في جامع اللغة: هو رجل من الفراعنة، كان يوصَف من الطول بأمر شنيع. قال الخليل(٣): ذُكر أنه كان إذا قام كان السحاب له مِئزرًا. قال: (فاقتلع جبلاً) أي صخرة كبيرة منه (ليطبقه علىٰ عسكر موسىٰ عليه السلام) فدعا موسىٰ إلىٰ ربه بهلاكه (فثقب الله تعالىٰ تلك القطعة من الجبل) بأن سلَّط عليه طيرًا فثقبه بمنقاره (حتىٰ صارت في عنقه) ولم يزل بها حتىٰ هلك بها ولم تنفعه قوته شيئًا. واختُلف في اسم أبيه، فقيل: عُنُق بضم العين والنون، وهذا هو المشهور علىٰ الألسنة، وخطَّأه صاحبُ القاموس وقال: الصواب: عُوق بالضم وسكون الواو. قال شيخنا أبو عبد الله محمد بن الطيِّب الفاسي في حاشيته علىٰ القاموس: زعم بعض الحفَّاظ المؤرخين أن عنق اسم أم عوج، وعوق أبوه، فعلىٰ هذا لا خطأ ولا غلط. وفي شعر عرقلة الدمشقي المتوفىٰ سنة ٥٦٧:

أعور الدجّال يمشي خلف عوج بن عناق(٤)

ألم تر أن الله أهلك تبعا

وهو في ديوانه ص ١٤١.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠/ ٢٧٥.

(٢) تهذيب اللغة ٣/ ٤٩. تاج العروس ٦/ ١٢٧، ٢٦/ ٢٢٩.

(٣) العين ٢/ ١٨٥.

(٤) البيت في خريدة القصر لعماد الدين الأصبهاني - الجزء الأول من قسم شعراء الشام ص ٢١٧، وقبله بيتان آخران هما:

وهو ثقة عارف.

وتمام الكلام عليه في شرحي علىٰ القاموس، فراجعْه.

(وقد يتَّكل المؤمن أيضًا علىٰ قوته، كما رُوي عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفنَّ الليلة علىٰ مائة امرأة. ولم يقل: إن شاء الله، فحُرم ما أراد من الولد) رواه أحمد[١] والشيخان[٢] والنسائي[٣] من حديث أبي هريرة بلفظ: «قال سليمان ابن داود عليه السلام: لأطوفن الليلة علىٰ مائة امرأة كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل: إن شاء لله. فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان، والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركًا لحاجته يجاهدون في سبيل الله فرسانًا أجمعون».

شرح الحديث: في[٤] رواية: لأطيفن. قال عياض: وهما لغتان فصيحتان، واللام موطئة للقَسَم، أي واللهِ لأدورن الليلة، أي في الليلة، علىٰ مائة امرأة، فكنىٰ بالطواف عن الجماع. وفي رواية: علىٰ سبعين، وفي أخرىٰ: تسعين. وجُمع بأن البعض سراري والبعض حرائر، علىٰ أن القليل لا ينفي الكثير، بل مفهوم العدد ليس بحجة عند الأكثرين. كلهن يأتي بفارس، أي تلد ولدًا ويصير فارسًا. فقال له صاحبه، أي قرينه وبطانته، أو وزيره من الأنس، أو خاطره. وفي رواية: الملَك. قل: إن شاء الله ذلك. فلم يقل، أي بلسانه لنسيان عرض له، فعلَّة الترك النسيان لا

لي حبيب قدُّه ... قُدَّ من السُّمر الرقاق
من رآه ورآني ... قال ذا غير اتفاقي

(١) مسند أحمد ١٢/ ٣٩، ١٣/ ١٤٢، ١٦/ ٣٤١.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٣١١، ٤٨٣، ٣/ ٣٩٧، ٤/ ٢١٧، ٢٣٣، ٣٩٨. صحيح مسلم ٢/ ٧٨١ - ٧٨٢.

(٣) سنن النسائي ص ٥٩١، ٥٩٤.

(٤) فيض القدير للمناوي ٤/ ٥٠٣. إكمال المعلم لعياض ٥/ ٤١٦ - ٤٢٢.

الإباء عن التفويض إلىٰ الرحمن، فصرفه عن الاستثناء القَدَرُ السابق أن لا يكون ما تمنىٰ. وفيه تقديم وتأخير، أي: لم يقل إن شاء الله فقال له صاحبه قلْ؛ ذكره عياض. فطاف عليهن، أي جامعهن جميعًا في ليلة واحدة. وفيه دلالة علىٰ ما رُزقه الأنبياء عليهم السلام من القوة علىٰ الجماع، وأنها في الرجال فضيلة، وهي تدل علىٰ صحة الذكورية وكمال الإنسانية. فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشِق إنسان. قيل: هو الجسد الذي أُلقي علىٰ كرسيه. والذي، وفي رواية: أما والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث، أي لو سلك طريق الأدب والتفويض لأدراك مراده. وهذه مَنقبة عظيمة لسليمان عليه السلام، حيث كان همُّه الأعظم إعلاء كلمة الله، حيث عزم أن يرسل أولاده الذين هم أكباده إلىٰ الجهاد المؤدي إلىٰ الموت.

(**وكذلك قول**) والده (**داود** عليه السلام: **إن ابتليتني صبرتُ**) كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، وتقدم قريبًا (**وكان إعجابًا منه بالقوة**) ورؤيتها (**فلما ابتُلي بالمرأة لم يصبر**.

ويورث العجبُ بالقوة الهجومَ في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلىٰ الضرب والقتل لكل مَن قصده بالسوء. وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمَّىٰ يوم) إذا أطبقت عليه (**تضعف قوتَه**) أي قوة سنة، كما صرَّح به الأطباء (**وأنه إذا أُعجب بها ربما سلبها الله تعالىٰ بأدنىٰ آفة يسلِّطها عليه**.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطُّن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد) أي الاستقلال (**بالرأي وتركُ المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه**) واستبلادهم (**ويخرجه ذلك إلىٰ قلة الإصغاء إلىٰ أهل العلم إعراضًا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارًا لهم وإهانة. وعلاجه أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ما رزقه من العقل**) والمعرفة (**ويتفكَّر أنه بأدنىٰ مرض يصيب دماغه كيف يوسوَس ويُجَنُّ**) فيتغير عقله (**بحيث يُضحك منه، فلا يأمن أن يُسلَب عقله إن أُعجب به ولم يقُم بشكره**) فما من نعمة لم يؤدِّ شكرها فقد عرَّضها للزوال

(وليستصغر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمُه) لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] (و) ليعلم (أن ما جهله ممَّا عرفه الناس أكثر مما علمه) هو (فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالىٰ، وأن يتَّهم عقله، وينظر إلىٰ الحمقىٰ) الناقصين (كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإنَّ القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله) ولو علمه لسعىٰ في إزالة قصوره (فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، و) أن يعرف مقداره (من أعدائه) وحسَّاد نعمته (لا من أصدقائه) ومعتقديه (فإن من يداهنه يثني عليه) ويمدحه (فيزيده عجبًا) وتيهًا (وهو لا يظن بنفسه إلا الخير، ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبًا.

الرابع: العجب بالنسب الشريف) أي المتصل إلىٰ حضرته ﷺ (كعجب الهاشمية) هم بنو هاشم، فيشمل العلويين والطالبين والجعفريين (حتىٰ يظن بعضهم أنه ينجو بسبب شرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيَّل بعضهم أن جميع الخلق له مَوالٍ وعبيد) أي بمنزلتهم في المذلَّة (وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحَق بهم فقد جهلَ) الحقيقة، فإن اللحوق يقتضي الموافقةَ (وإن اقتدىٰ بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب) بالنسب وغيره (بل الخوف والإزراء علىٰ النفس واستعظام الخلق ومَذلَّة النفس) واستصغارها (ولقد شرُفوا بالطاعة والعلم والخصال المحمودة لا بالنسب، فليتشرَّف بما شرُفوا به) فيلحق بهم (وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل مَن لم يؤمن بالله واليوم الآخر) ولم يرفع له رأسًا وسلك سبيل العناد كأبي جهل وأبي لهب وأضرابهما (فكانوا عند الله شرًّا من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾) أي آدم وحواء (أي لا تفاوُت في أنسابكم؛ لاجتماعكم في أصل واحد) من فوق (ثم ذكر فائدة النسب) بجعلهم متميِّزين (فقال: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾) فالشعب هو النسب

الأول، والقبيلة ما انقسمت فيه أنساب الشعب، ثم عمارة وبطن وفخذ وفصيلة، فخزيمة شعب، وكِنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة **(ثم بيَّن أن الشرف)** الذي هو كرم الأصل **(بالتقوىٰ لا بالنسب فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾)** [الحجرات: ١٣] أي أخشاكم له في السر والعلانية.

(ولمَّا قيل لرسول الله ﷺ: مَن أكرم الناس؟ مَن أكيس الناس؟ لم يقل) في الجواب: **(مَن ينتمي إلىٰ نسبي)** بالولادة **(ولكن قال: أكرمهم أكثرهم للموت ذِكرًا وأشدهم له استعدادًا)** قال العراقي[(١)]: رواه ابن ماجه[(٢)] من حديث ابن عمر دون قوله «أكرم الناس»، وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت، وسيأتي في كتاب ذكر الموت في آخر الكتاب.

قلت: ولفظ ابن ماجه: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة[(٣)]، فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس ... الحديث. وسيأتي هذا السياق للمصنِّف في آخر الكتاب.

وقال أبو نعيم في الحلية[(٤)]: حدثنا عبد الرحمن بن العباس، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، حدثنا الحكم بن موسىٰ، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن العلاء بن عُتبة، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: قام فتىٰ فقال: يا رسول الله، أيُّ المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكرًا وأحسنهم له استعدادًا قبل أن ينزل به، أولئك الأكياس». رواه أبو سهيل بن مالك وحفص بن غيلان ويزيد بن أبي مالك وقُرَّة بن قيس ومعاوية بن عبد الرحمن عن عطاء مثله،

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٧ - ٩٦٨.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤٦.

(٣) هذه العبارة ليست عند ابن ماجه، وإنما عنده: «كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار ...» الخ.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٣١٣.

ورواه مجاهد عن ابن عمر نحوه.

(**وإنما أُنزلت هذه الآية حين أذَّن بلال**) رضي الله عنه (**يوم الفتح على الكعبة، فقال الحارث بن هشام**) بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، من مسلمة الفتح، وكان من سادات قومه (**وسهيل بن عمرو**) بن عبد شمس بن عبد ود العامري القرشي، أبو يزيد، خطيب قريش، أسلم يوم الفتح (**وخالد بن أسيد**) بن أبي العيص بن أمية الأموي، أخو عَتَّاب، أسلم يوم الفتح، وكان فيه تيه شديد[(١)] (**هذا العبد الأسود يؤذِّن؟! فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾**)[(٢)] روىٰ[(٣)] ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل[(٤)] عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقىٰ بلالٌ فأذَّن علىٰ الكعبة، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذِّن علىٰ ظهر الكعبة؟! وقال بعضهم: إنْ يسخط اللهُ هذا يغيِّره. فنزلت الآية.

وروىٰ ابن المنذر عن ابن جريج قال: أذَّن بلال يوم الفتح علىٰ الكعبة، فقال الحارث بن هشام: يهذي العبدُ حين يؤذِّن علىٰ الكعبة. فقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أسيدًا أن [لا] يرىٰ هذا. وقال سهيل بن عمرو: إن يكره الله هذا يُنزِل فيه. وسكت أبو سفيان، فنزلت الآية[(٥)].

(**وقال النبي ﷺ: إن الله قد أذهب عنكم عُبِيَّة الجاهلية**) بضم العين المهملة وكسر الموحدة وتشديد التحتية المفتوحة (أي) نخوتها و(**كبرها، كلكم بنو آدم،**

---

(١) انظر تراجم الصحابة الثلاثة في الإصابة لابن حجر ٢/ ١٨١ - ١٨٢، ٣/ ٥٠، ٤/ ٢٨٧ - ٢٨٩.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٢٨٩.

(٣) الدر المنثور ١٣/ ٥٩١ - ٥٩٢.

(٤) دلائل النبوة ٥/ ٧٩، ولفظه: «أمر رسول الله ﷺ بلالا يوم الفتح فأذن فوق الكعبة، فقال رجل من قريش للحارث بن هشام: ألا ترىٰ إلىٰ هذا العبد أين صعد؟ فقال: دعه، فإن يكن الله يكرهه فسيغيره».

(٥) رواه الفاكهي في أخبار مكة ٥/ ٢٢١ - ٢٢٢ بسياق أطول عن ابن عباس.

وآدم) خُلق (من تراب) قال العراقي[١]: رواه أبو داود[٢] والترمذي[٣] وحسَّنه من حديث أبي هريرة. ورواه الترمذي[٤] أيضًا من حديث ابن عمر، وقال: غريب.

قلت: لفظ أبي داود: «إن الله عَزَّوَجَلَّ قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لَيدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونُنَّ أهون علىٰ الله من الجِعلان التي تدفع بأنفها النتنَ». هذا لفظه، وقد تقدم بعضه للمصنف قريبًا. وهكذا رواه أحمد[٥] والبيهقي[٦].

وأما لفظ الترمذي من حديث ابن عمر: إن النبي ﷺ طاف يوم الفتح علىٰ راحلته يستلم الأركان بمِحجنه، فلما خرج لم يجد مَناخًا، فنزل علىٰ أيدي الرجال، فخطبهم فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها بآبائها، الناس رجلان: بَر تقي كريم علىٰ الله، وفاجر شقي هين علىٰ الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا﴾ إلىٰ قوله: ﴿خَبِيرٞ ۝١٣﴾ ثم قال: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». وهكذا رواه عبد بن حميد[٧] وابن أبي شيبة[٨] وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب[٩].

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٨.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٤٠٤.

(٣) سنن الترمذي ٦/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤) السابق ٥/ ٣٠٩.

(٥) مسند أحمد ١٤/ ٣٤٩، ١٦/ ٤٥٦.

(٦) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٩٢.

(٧) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٣٥ - ٣٦.

(٨) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠.

(٩) شعب الإيمان ٧/ ١٢٧.

وروى البيهقي[١] من حديث أبي أمامة رفعه: «إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم لآدم وحواء كطف الصاع بالصاع، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم».

(وقال ﷺ: يا معشر قريش، لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتوني بالدنيا تحملونها علىٰ رقابكم تقولون: يا محمد، يا محمد، فأقول هكذا. أي فأُعرِض عنكم)[٢] قال العراقي[٣]: رواه الطبراني[٤] من حديث عمران بن حصين، إلا أنه قال: «يا معشر بني هاشم»، وسنده ضعيف.

قلت: صدر الحديث رواه البخاري في التاريخ[٥] وابن عساكر[٦] من رواية شريح بن الحارث عن أبي أمامة والحارث بن الحارث الغامدي وكثير بن مُرة وعمير بن الأسود معًا، ولفظه: «يا معشر قريش، لا ألفينَّ أناسًا يأتون يجرُّون الجنة وتأتون تجرون الدنيا، اللهم لا أحِلُّ لقريش أن يفسدوا ما أصلحت أمتي ...» الحديث.

وروى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول[٧] من حديث أبي هريرة: «يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، واعلموا أن أولىٰ الناس بي يوم القيامة المتقون، وأن تكونوا أنتم مع قرابتكم

---

(١) السابق ٧/ ١٣١.

(٢) الرعاية للمحاسبي ص٢٨٩.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٨.

(٤) المعجم الكبير ١٨/ ١٦١.

(٥) المتن المذكور ليس في التاريخ الكبير للبخاري، وإنما اقتصر ٢/ ٢٦٢ علىٰ قوله: «خيار أئمة قريش خيار أئمة الناس».

(٦) تاريخ دمشق ١١/ ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٧) نوادر الأصول ص٨٤٦.

فذاك، لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها علىٰ أعناقكم فتقولون: يا محمد، فأقول هكذا، ثم تقولون: يا محمد، فأقول هكذا أُعرِضُ بوجهي عنكم، فتقولون: يا محمد، أنا فلان ابن فلان، فأقول: أما النسب فأعرف، وأما العمل فلا أعرف، نبذتم الكتاب فارجعوا فلا قرابة بيني وبينكم».

وأما لفظ الطبراني من حديث عمران بن حصين: «يا بني هاشم [لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني هاشم] إن أوليائي منكم المتَّقون. يا بني هاشم، اتقوا النار ولو بشِق تمرة. يا بني هاشم، لا ألفينَّكم تأتون بالدنيا تحملونها علىٰ ظهوركم ويأتون بالآخرة يحملونها».

(**فبيَّن أنهم إن مالوا إلىٰ الدنيا لم ينفعهم نسب قريش.**

ولما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] **ناداهم بطنًا بعد بطن**) فقال: يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب (**حتىٰ قال: يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله، اعملا لأنفسكما، فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا**) قال العراقي[١]: متفق عليه[٢] من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عائشة.

قلت: ورواه الحكيم من حديث أبي هريرة، وتقدم سياقه قبل هذا. وعند البيهقي[٣]: «يا فاطمة بنت محمد اشتري نفسك من النار [فإني لا أملك لك شيئًا. يا صفية بنت عبد المطلب يا صفية عمَّة رسول الله اشتري نفسك من النار فإني لا أملك لك شيئًا. يا عائشة اشتري نفسك من النار] ولو بشِق تمرة. يا عائشة، لا يرجع من عندك سائل ولو بظلف محرق». ورواه الترمذي[٤] من حديث عائشة

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٢٩١، ٥١١، ٣/ ٢٧٣. صحيح مسلم ١/ ١١٤ - ١١٥.

(٣) شعب الإيمان ٥/ ٨٣.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ١٤٣، ٥/ ٢٤٧.

وقال حسن غريب: «يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبد المطلب، إني لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم». وأما لفظ مسلم من حديث أبي هريرة: «يا بني كعب بن لُؤَي أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مَناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا». ورواه كذلك النسائي[١]. ولفظ أحمد[٢] والترمذي[٣] من حديث أبي هريرة: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكِ من الله ضرًّا ولا نفعًا».

(فمَن عرف هذه الأمور عرف أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع، فإن اقتدىٰ بهم) وسلك طريقهم **(في التقوىٰ والتواضع)** فهو المطلوب **(وإلا كان طاعنًا في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمىٰ إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوىٰ والخوف والإشفاق)** والحذر من المقت.

(فإن قلت: فقد قال رسول الله ﷺ بعد قوله لفاطمة وصفية) ﵄: **(إني لا أغني عنكما من الله شيئًا، إلا أن لكما رحمًا سأبلُّها ببلالها)** قال العراقي[٤]: رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «غير أن لكما رحمًا سأبُلُّها ببِلالها».

(١) سنن النسائي ص ٥٦٧ - ٥٦٨.

(٢) مسند أحمد ١٤/ ٣٤١، ١٦/ ٤٢٣.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) المغني ٢/ ٩٦٨ - ٩٦٩.

قلت: ورواه النسائي كذلك، وليس في حديثهما ذِكر صفية، وأول الحديث قد تقدم قريبًا. ورواه أحمد والترمذي بلفظ: «إن لكِ رحمًا وسأبلها ببِلالها». وذكراه بعد قوله: «يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا». وأول الحديث تقدم أيضًا قريبًا.

(وقال ﷺ: **أترجو سُلَيم**) مصغَّر: قبيلة من العرب (**شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب**)؟ قال العراقي[(١)]: رواه الطبراني في الأوسط[(٢)] من حديث عبد الله بن جعفر، وفيه أصرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل، وكلاهما ضعيف جدًّا.

(**فذلك يدل علىٰ أنه سيخص قرابته بالشفاعة**[(٣)]. **فاعلمْ أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ، والنسيب**) أي ذو النسب (**أيضًا جدير بأن يرجوها**) وينالها (**ولكن بشرط أن يتقي الله أن**) يمقته و(**يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، فإنَّ الذنوب منقسمة إلىٰ ما يوجب المقت**) من الله تعالىٰ، وهو أشد الغضب (**فلا يؤذن في الشفاعة له**) أصلاً (**وإلىٰ ما يُعفَىٰ عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا، فإن كل ذي مكانة عند الملك**) أي منزلة وقدر (**لا يقدر علىٰ الشفاعة فيما اشتد عليه غضبُ الملك، فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة، وعنه العبارة بقوله عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] **وبقوله**: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **وبقوله**: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩] **وبقوله**: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ

---

(١) السابق ٢/ ٩٦٩.

(٢) المعجم الأوسط ٥/ ٥٢، ولفظه: «أتىٰ عباس فقال: يا رسول الله، إني أتيت قوما يتحدثون، فلما رأوني سكتوا، وما ذلك إلا أنهم استثقلوني. فقال رسول الله ﷺ: أقد فعلوها؟ والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدهم حتىٰ يحبكم لحبي، يرجون أن يدخلوا الجنة بشفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب».

(٣) انظر: الرعاية للمحاسبي ص٢٨٩.

ٱلشَّٰفِعِينَ﴾) [المدثر: ٤٨] فهذه الآيات كلها دالَّة أنه ليس كل أحد يستقل بالشفاعة، ولا كل الذنوب يُشفَع فيها **(وإذا انقسمت الذنوب إلىٰ ما يُشفَع فيه وإلىٰ ما لا يُشفَع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة، ولو كان كل ذي ذنب تُقبَل فيه الشفاعة لَما أمر قريشًا)** وهم خيار البطون من القبائل **(بالطاعة)** والامتثال لأوامر الله تعالىٰ **(ولَما نهىٰ فاطمة ﷺ)** وهي بضعة من جسده ﷺ **(عن المعصية)** ولَما أمرها أن تشتري نفسها من الله تعالىٰ **(ولكان يأذن لها في اتِّباع الشهوات لتكمُل لذَّتها في الدنيا)** بها **(ثم يشفع لها في الآخرة لتكمُل لذتُها في الآخرة)** فتكون قد جمعت بين اللذَّتين **(فالانهماك في الدنيا وتركُ التقوىٰ اعتمادًا علىٰ رجاء الشفاعة يضاهي انهماكَ المريض في شهواته)** وانبساطه فيها **(اعتمادًا علىٰ طبيب حاذق)** بصير بالمعالجة **(قريب مشفق من أب أو أخ أو غيرهما)** ممَّن يُعتمَد علىٰ صحبته **(وذلك جهل؛ لأن سعي الطبيب وهمَّته وحِذقه)** إنما **(ينفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يجوز ترك الحمية)** التي هي رأس الداء **(مطلقًا اعتمادًا علىٰ مجرد الطب، بل للطبيب أثر علىٰ الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة)** السهلة التي يُرجَىٰ بمعالجتها البُرء من قرب **(وعند غلبة اعتدال المزاج)** وأما عند فساده فلا ينجع تدبير الطبيب فيه إلا قليلاً **(فهكذا ينبغي أن تُفهَم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء والأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعًا، وذلك لا يزيل الخوف والحذر)** والإشفاق **(وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه)** بمقتضَىٰ الخبر: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم» **(وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم)** كما تقدم من قول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ليتني كنت كبشًا لأهلي فذبحوني وأكلوني. كل ذلك **(من خوف الآخرة)** وهول المطلع. هذا **(مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم و)** مع **(ما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة خاصةً)** يشير إلىٰ ما رواه ابن أبي شيبة(١)

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٥١، ٤٥٣.

وأحمد[١] وابن منيع وابن أبي عاصم[٢] وأبو نعيم في الحلية[٣] والضياء[٤] من حديث سعيد بن زيد رفعه: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجرَّاح في الجنة». ورواه أيضًا أحمد[٥] والترمذي[٦] وأبو نعيم في المعرفة[٧] وابن عساكر[٨] من رواية عبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده رفعه بهذا **(وسائر المسلمين بالشفاعة عامةً)** يشير إلىٰ ما رواه الحارث بن أبي أسامة[٩] من حديث أبي هريرة: «شفاعتي لمَن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا يصدِّق لسانه قلبه وقلبه لسانه» **(ولم يتَّكلوا عليه، ولم يفارق الخشوع والخوف قلوبَهم، فكيف يعجب بنفسه ويتَّكل علىٰ الشفاعة مَن ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم)** وتقواهم وإخلاصهم.

(الخامس: العجب بنسب السلاطين الظَّلَمة وأعوانهم) والافتخار به **(دون نسب الدين والعلم، وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكَّر في مخازيهم)** وفضائحهم **(وما جرىٰ لهم من الظلم)** والتعدِّي **(علىٰ عباد الله والفساد في دين الله، وأنهم ممقوتون عند الله، ولو نظر إلىٰ صورهم في النار)** وقد امتحشوا وصاروا

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١٧٤، ١٧٧، ١٨١.
(٢) السنة ٢/ ٦١٩ - ٦٢٠.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٩٥.
(٤) الأحاديث المختارة ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٥.
(٥) مسند أحمد ٣/ ٢٠٩.
(٦) سنن الترمذي ٦/ ١٠٠.
(٧) معرفة الصحابة ١/ ٢٠.
(٨) تاريخ دمشق ٢١/ ٧٨.
(٩) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ١٠١٢ - ١٠١٣.

حممًا (و) نظر إلىٰ (أقذارهم وأنتانهم) ممَّا يسيل من أجسادهم (لاستنكف منهم، ولتبرَّأ من الانتساب إليهم، ولأنكر علىٰ مَن نسبه إليهم استقذارًا لهم واستحقارًا، ولو انكشف له ذلُّهم في القيامة) ومهانتهم (وقد تعلَّق الخصماء بهم) يطالبونهم بحقوقهم (والملائكة آخذون بنواصيهم) وأقدامهم (يجرُّونهم علىٰ وجوههم إلىٰ جهنم في مظالم العباد لتبرَّأ إلىٰ الله منهم، ولكان انتسابه إلىٰ الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله تعالىٰ من ظلمهم أن يشكروا الله تعالىٰ علىٰ سلامة دينهم، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، وأما العجب بنسبهم فجهل.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد) والأحفاد والأسباط (والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار) والأعوان (والأتباع، كما قال الكفار: نحن أكثر أموالاً وأولادًا) فأُعجبوا بكثرتهم (وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نُغلَب اليوم عن قلة) إذ أُعجبوا بكثرة المؤمنين، وكانوا اثنىٰ عشر ألفًا سوىٰ مَن خرج معهم من مشركي مكة نحو الثمانين مساعدةً لهم (وعلاجه ما ذكرناه في الكبر، وهو أن يتفكَّر في ضعفه وضعفهم، وأن كلهم عبيد وعجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، و﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾) [البقرة: ٢٤٩] كما جرت به عادة الله ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠] (ثم كيف يعجب بهم وإنهم سيفترقون عنه إذا مات، فيُدفَن في قبره ذليلاً مهينًا وحده لا يرافقه ولد ولا أهل ولا قريب ولا حميم ولا عشيرة) ممَّن كان يعتمد عليه ويتبجَّح به (فيُسلِمونه إلىٰ البِلَىٰ والحيات والعقارب والديدان) ينتهبون جسمه العزيز الغالي وينتهشونه نهشًا حتىٰ يصير روثًا في أجوافها (ولا يغنون عنه شيئًا وهو في أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة) كما قال تعالىٰ: (﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] فأيُّ خير فيمَن يفارقك في أشد أحوالك

ويهرب منك؟ فكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلىٰ الصراط إلا عملك) الصالح الذي قدَّمتَه بين يديك (**وفضل الله تعالىٰ، فكيف تتّكل علىٰ مَن لا ينفعك وتنسىٰ نِعم مَن يملك ضرك ونفعك وموتك وحياتك؟**

السابع: العجب بالمال، كما قال تعالىٰ) حكايةً عن الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ: ٣٥] وقال تعالىٰ (**إخبارًا عن صاحب**) إحدىٰ (**الجنَّتين إذ قال**) أحدهما لصاحبه: (﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾) [الكهف: ٣٤] أي أولادًا وأعوانًا.

(**ورأىٰ رسول الله ﷺ رجلاً غنيًّا جلس بجنبه فقير، فانقبض منه وجمع ثيابه، فقال ﷺ: أخشيتَ أن يعدو إليك فقرُه**) قال العراقي[١]: رواه أحمد في الزهد[٢].

(**وذلك للعجب بالغِنىٰ، وعلاجه أن يتفكَّر في آفات المال**) التي تَعرِض بسببه (**وكثرة حقوقه وعِظَم غوائله**) أي دواهيه (**وينظر إلىٰ فضيلة الفقراء وسبقهم إلىٰ الجنة في القيامة**) قبل الأغنياء بخمسمائة عام، كما تقدم ذلك في الأخبار (**وإلىٰ أن المال غادٍ ورائح**) أي يغدو تارةً ويروح أخرىٰ، لا اعتماد عليه (**ولا أصل له، وإلىٰ أن في اليهود**) والنصارىٰ (**مَن يزيد عليه في المال**) كما هو مشاهَد (**وإلىٰ قوله ﷺ: بينما رجل يتبختر في حُلَّة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة**) رواه الشيخان من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في أول هذا الكتاب (**أشار به إلىٰ عقوبة إعجابه بماله ونفسه.**

---

(١) المغني ٢/ ٩٦٩.

(٢) الزهد ص ٣٤ عن سعيد بن أيمن مولىٰ كعب بن سوار قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ جاء رجل من الفقراء فجلس إلىٰ جنب رجل من الأغنياء، فكأنه قبض من ثيابه عنه، فتغير رسول الله ﷺ وقال: أخشيت يا فلان أن يعدو غناك عليه وأن يعدو فقره عليك؟ قال: يا رسول الله، وشر الغنىٰ؟ قال: نعم، إن غناك يدعوك إلىٰ النار، وإن فقره يدعوه إلىٰ الجنة. قال: فما ينجيني منه؟ قال: تواسيه. قال: إذًا أفعل. فقال الآخر: لا إرب لي فيه. قال: فاستغفر وادع لأخيك».

وقال أبو ذر) رضي الله عنه: **(كنت مع رسول الله ﷺ، فدخل المسجد فقال: يا أبا ذر، ارفع رأسك)** قال: **(فرفعت رأسي، فإذا رجل عليه ثياب جياد، ثم قال: ارفع رأسك. فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خُلقان)** بالضم جمع خَلَقٍ، محرَّكة، يقال: ثوب خَلَقٌ وثياب خُلقان، وقد خَلُقَ، ككرُم: إذا بلي وتقطَّع **(فقال لي: يا أبا ذر، هذا عند الله خير من قِراب الأرض مثل هذا)**[١] والقِراب[٢] بالكسر مصدر قارَبَ الأمرَ: إذا داناه، يقال: لو جاء بقِراب الأرض، أي بما يقاربها، و: لو أن لي قراب الأرض ذهبًا، أي ما يقارب مِلأها. قال العراقي[٣]: رواه ابن حبان في صحيحه[٤].

قلت: لكن لفظه: «يا أبا ذر، انظر إلىٰ أرفع رجل في المسجد في عينك». قال: فنظرت فإذا رجل عليه حُلَّة، قلت: هذا. قال: «انظر إلىٰ أوضع رجل في المسجد». قال: فنظرت فإذا رجل عليه أخلاق، قلت: هذا. قال: «والذي نفسي بيده لَهذا عند الله يوم القيامة خير من ملء الأرض مثل هذا». وهكذا رواه أيضًا أحمد[٥] وهناد[٦] كلاهما في الزهد وأبو يعلىٰ في المسند والروياني والحاكم والضياء في المختارة.

(وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبيِّن حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالىٰ، فكيف يُتصور من المؤمن أن يعجب بثروته) أي كثرة ماله **(بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال وأخذِه من حِلِّه ووضعِه في حقه)** وأنَّىٰ يقوم بتلك الحقوق **(ومَن لا يفعل**

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) المصباح المنير ص ٤٩٦.

(٣) المغني ٢/ ٩٦٩.

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٤٥٦.

(٥) الزهد ص ٢٦، ورواه أيضًا في المسند ٣٥/ ٣١٤، ٣٨٩.

(٦) الزهد ٢/ ٤١٦.

ذلك) أي لا يأخذ المال من حيث الحِل، ثم إذا أخذه كذلك لا يضعه في حقه **(فمصيره إلىٰ الخزي والبوار)** أي الهلاك **(فكيف)** يُتصور أن **(يعجب بماله؟**

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾**)** [فاطر: ٨] أي زيَّنه له الشيطان في عينه فأعجبه **(وقال تعالىٰ)** في حق الأخسرين أعمالاً: **(**﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤] **وقد أخبر ﷺ أن ذلك)** أي الإعجاب بالرأي الخطأ **(يغلب علىٰ آخر هذه الأمة، و)** أنه **(بذلك هلكت الأمم السالفة؛ إذ افترقت فرقًا، فكلٌّ معجب برأيه، وكل حزب بما لديهم فرحون)** يشير بذلك إلىٰ حديث أبي ثعلبة الخُشَني: «فإذا رأيتَ شحًّا مطاعًا وهوًىٰ متبَعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك». وهو عند أبي داود والترمذي، وقد تقدم في أول هذا الكتاب **(وجميع أهل البدع والضلال إنما أصرُّوا عليها)** أي علىٰ بدعهم **(لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوىٰ والشهوةُ مع ظن كونه حقًّا)** وصوابًا **(وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه، ولو عرفه لتركه)** وباشر أسبابَ ما يضادُّه **(ولا يعالَج الداء الذي لا يُعرَف، والجهل داء لا يُعرَف، فتعسُر مداواته جدًّا، إلا أن العارف يقدر علىٰ أن يبيِّن للجاهل جهله ويزيله عنه)** بحسن العبارة والإلقاء **(إلا إذا كان معجبًا بجهله ورأيه فإنه لا يصغي إلىٰ العارف)** ولا يرفع له رأسًا **(ويتَّهمه، فقد سلَّط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة، فكيف يمكن علاجه؟ وكيف يطلب الهرب ممَّا هو سبب سعادته في اعتقاده)**؟ فهذا سبب عسر المداواة **(وإنما علاجه علىٰ الجملة أن يكون متهِمًا لرأيه أبدًا، لا يغترُّ به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنَّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة)** يمكن التوصُّل بصحيح النظر فيه إلىٰ حصول المطلوب **(ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة)** راجحة **(وعقل ثاقب)** وذهن صحيح **(وجدٍّ وتشمُّر في الطلب)** قد عُرف به وأكبَّ عليه **(وممارسة للكتاب والسنَّة)** بكثرة المراجعة

لهما في كل مهمَّة (**ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم**) مع أهلها إلقاءً وتقريرًا ومباحثةً (**ومع ذلك فلا يؤمَن عليه الغلط في بعض الأمور**) كما هو من عوائد البشر (**والصواب لمَن لم يتفرَّغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب**) وما فيها من الآراء والاختلافات (**ولا يصغي إليها ولا يسمعها**) فإنه يورث تشتيتًا للفكر وحيرة في المقام وأحوالاً مختلفة تتولَّد منها أوصاف التعصُّب ما إن أخلد إليها كانت سببًا لهلاك باطنه (**ولكن يعتقد أن الله تعالىٰ واحد لا شريك له، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأن رسوله**) ﷺ (**صادق فيما أخبر به**) وبلَّغه (**ويتَّبع سنَّة السلف**) ويسلك علىٰ منهاجهم بما تلقَّفه من شيوخه ومن مطالعة كتب القوم (**ويؤمن بجميع ما جاء به الكتاب والسنَّة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل**) ما أُجمِل فيه أو أُشيرَ إليه (**بل يقول: آمنَّا وصدَّقنا**) فهذا هو الإيمان الإجمالي (**ويشتغل**) بعد ذلك (**بالتقوىٰ واجتناب المعاصي**) ومجانبة الرذائل المسقطة للمروءة (**وأداء الطاعات**) كما أُمِر بها (**والشفقة علىٰ المسلمين**) فلا يألو في نصحهم، ولا يحقرهم ولا يذلُّهم (**وسائر الأعمال**) الصالحة (**فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد**) فقد شغل نفسه بغير الأهم، بل ربما (**هلك من حيث لا يشعر. هذا حق كل مَن عزم علىٰ أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم**) فإنه يكفيه القدر المذكور (**فأما الذي عزم علىٰ التجرُّد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه**) وهو مبيَّن في كتب الأصول (**وذلك مما يطول الأمر فيه**) لأنه متوقِّف علىٰ تحصيل فنون بها يتدرَّج علىٰ معرفة شروط الدليل، فالأعمار تفنىٰ وهو لم يحصِّل بعدُ حتىٰ يأتيه الموت وهو يتحسَّر علىٰ فوات مقصوده (**والوصول إلىٰ اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد**) عسرٌ

كيف الوصول إلىٰ سعاد ودونها قلل الجبال ودونهنَّ حُتوف[1]

(**لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيَّدون بنور الله تعالىٰ**) إذ مَن أُيِّد بنوره

---

(١) البيت للإمام الشافعي، وهو في ديوانه ص ٨٧ (ط - دار الأرقم).

انكشفت له غوامض الحقائق من وراء حجاب، واتَّضحت له وجوه الصواب بلا ارتياب (**وهو عزيز الوجود جدًّا**) لما استحوذ الشيطان والنفس الأمَّارة علىٰ غالب الطالبين، وآثروا دنياهم علىٰ آخرتهم بجعلهم ما يحملونه شبكة يصطادون بها الغافلين (**فنسأل الله تعالىٰ العصمة من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهَّال**) إنه سميع قريب مجيب. والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله الأئمة الأطهرين وأصحابه الكرام الفاضلين.

وبه تم شرح كتاب ذم الكبر والعجب بحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات. كان الفراغ من تسويده في مجالس آخرها في الساعة الخامسة من نهار الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من شهور سنة ١٢٠٠، أحسن الله ختامها. قال المؤلف: وذلك علىٰ يد مؤلفه العبد الفقير إلىٰ مولاه أبي الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني، لطف الله به وأحسن إليه بمَنِّه وكرمه، حامدًا الله ومصلِّيًا ومسلِّمًا ومحسبلاً ومحوقِلاً.

فهرس موضوعات كتاب ذم الكبر والعجب

٢٩ - كتاب ذم الكبر والعجب